دور الكتب العربية العامة وشبه العامة لبلاد العراق والشام ومصر في العصر الوسيط

الدكتور
يوسف العش

ترجمة عن الفرنسية

نزار أباظة   محمد صباغ









بسم الله الرحمن الرحيم

دور الكتب العربية العامة وشبه العامة
لبلاد العراق والشام ومصر
في العصر الوسيط

دور الكتب العربية العامة وشبه العامة
لبلاد العراق والشام ومصر
في العصر الوسيط

الدكتور
يوسف العش

ترجمة عن الفرنسية

نزار أباظة   محمد صباغ

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية



الكتاب ٩٢٨
الطبعة الأولى ١٤١١ هـ = ١٩٩١ م

لبنان - بيروت - ساقية الجنزير ، خلف الكارلتون ، ص . ب ٥١٤٩٧
ص . ب (١٣٦٠٦٤) هاتف (٨٦٠٧٣٩) تلكس : FIKR 44316 LE

مقدمة الترجمة

كان ينبغي أن يترجم هذا الكتاب إلى العربية منذ أمد بعيد ، لأنّ المكتبة العربية ـ وهو يؤرخ لها ـ أولى به من سواها ، ولكن لأمر يريده الله بقي الكتاب حقبة في أوراقه التي دفعها مؤلفها إلى السوربون .

وقبل أن تخرج طبعته الفرنسية سنة ١٩٦٧ م ، تشاء الأقدار أن يلحق مؤلفه الأستاذ الباحث الدكتور يوسف العش بربه حميداً ولما يكتمل تصحيح تجاربه الطباعية .

ثم بقي الكتاب على أصوله الفرنسية لا ينتفع به من لا يعرفها ويتقنها ، مع افتقار الدارسين العرب في مجال المكتبات إليه وحاجتهم إلى أضرابه . ويجب التنويه هنا إلى أن بعض الباحثين نهلوا منه واعتمدوا عليه دون أن يشيروا إليه فاستفادوا من فضل المتقدم الذي بقي حقه مغموطاً .

وهذا كتاب ـ كما سيرى القارئ ـ أتى فيه المؤلف على الغاية المرجوة ، وقد جمع فأوعى ، فما ترك شاردة في بطون الكتب المطبوعة قبله ، ولا واردة على متون المخطوطات والكراريس ، ولا إشارة ضمن المقالات العربية والأجنبية التي وصلت إليها يده مما يتعلق بموضوعه إلاّ وسجلها عنده واستقى منها فمخض زبدتها وارتشف منها ما يريد ، ثم جمع مدوناته عنها فغربلها تارة ونخلها تارة أخرى . أسقط بعضها على بعض ، ثم قاطع بينها بأسلوبه المنهجي المتمكن ونسقها بإحكام حتى استطاع بعد لأي متأن وجهد متبيّن أن يبرز معلومات قيمة كانت مطويّة ، ويقدم أفكاراً دسمة ظلت مكتومة ، ثم بنى على مرتكزاتها بعدئذ فاهتدى إلى

استنتاجات مهمة ، وقفنا منها على أحوال دقيقة للمكتبات في العراق وبلاد الشام ومصر خلال العصر العباسي المديد بشكل لامزيد عليه في بابه .

قسم الدكتور العش رحمه الله كتابه هذا إلى قسمين اثنين ، قدّم لهما بمقدمة مستفيضة ، ذكر فيها أعمال من سبقه إلى التأليف في موضوع المكتبات العباسيّة من المستشرقين ، وعرضها بطريقة نقدية ، وبيّن محاسن كل عمل وما يؤخذ عليه ، ثم خلص بعد ذلك إلى أن حدد موضوعه في الزمان والمكان من خلال مارآه ضرورياً ، ذاكراً معاناته والصعوبات التي اعترضته قبل العمل وفي أثناء التحضير له ، وسرد المراجع الأساسية التي عاد إليها عند البحث ، والمصادر الرئيسية التي حددها للدراسة .

في القسم الأول تناول المكتبات تناولاً تاريخياً فدرسها في ثلاثة فصول ، تحدث الفصلُ الأول عن بيوت الحكمة منذ أصولها الأولى وكيف نشأت أيام الأمويين ، ثم كيف تطورت زمن المنصور والرشيد ونمت بفضل المأمون . ثم كيف انتهت بعده . وذكر ماقدمته هذه البيوت من خدمة للثقافة والفكر والعقيدة ، مشيراً إلى الصراعات الفكرية التي نشأت حولها . ثم انتهى من ذلك إلى نتيجة محددة ورأي دعمه بالحجج . ثم عرض للمكتبات شبه العامة التي نافست بيوت الحكمة .

ووقف الفصل الثاني على دور العلم ففصّل الحديث في الظروف التي أنشأتها والعقيدة التي غلفتها والصراع الخفي أو الظاهر الذي قام فيها ، والغاية التي هدفت إليها ، والنهاية التي أوفت عليها .

ودرس الفصلُ الثالث المكتبات الملحقة بالمدارس ودور الحديث والبيمارستانات والمشاهد والخانقاهات والرباطات وسواها من المنشآت التي ظهرت

في عصر السلاجقة والأيوبيين لتخلُف دور العلم . وبيّن كيف استفادت هذه الأخيرة من سابقاتها تجربتها .

وجاء القسم الثاني من الكتاب (القسم الوصفي) لطيفاً فيه طرافة وضع اليد على حياة المكتبات العامة وشبه العامة ، فوصفها وصفاً دقيقاً حياً كأننا نراها ، وعقد فصولاً مهمة كثيرة فيه ، تناولت موضوعات ضرورية فيما هو آخذ بسببه ، فذكر بالتفصيل صفة المكتبات وتحدث عن أماكنها وأشكالها وصناديقها وخزائنها وتصنيفها وفهارسها وموظفيها ومستخدميها ، بدءاً من ناظر الوقف ومروراً بالخازن والمشرف حتى المناولين والفراشين . وبحث في نفقاتها وموازناتها وإيراداتها ، ثم ختم الحديث بالإعارة الخارجية ذاكراً رأي التشريع الإسلامي بهذا المجال ، وأقوال الفقهاء ومواقف الواقفين مبيناً الآداب الواجب اتباعها في استعارة الكتب ومطالعتها واستعمالها .

أمر مهم كان الدكتور يطوف حوله ويكشف عنه اللثام شيئاً فشيئاً . وهو فيما يبدو أحد أغراض الكتاب الرئيسية . ألا وهو التأكيد على الجوانب المذهبية في قيام المكتبات العربية ونشأتها . وتكتمل هذه الجوانب في أذهاننا مع نهايات الدراسة ، فنوقن آخر المطاف أن كل شكل من أشكال المكتبات في العصر العباسي المديد كان يخدم مذهباً بعينه ويؤسس له ويدعو إليه ؛ وهكذا قامت بيوت الحكمة تناصر الاعتزال معتمدة على الفلسفة القديمة وعلوم الأوائل مضيفة إليه علم الفلك والتنجيم .

وأتى زمن هيمنت فيه أفكار المعتزلة بدعم من سلطان الدولة . وفرض المأمون مذهبها بالقوة ، وفتن الناس في عقائدهم ، وامتحن العلماء من أهل السنة وعذّبهم وقال بخلق القرآن . فلما بلغ السيل الزبى ومات المأمون انحسر ظل الاعتزال وانتهت بيوت الحكمة . وحينما غلب الفاطميون ورجحت كفة التشيع وترسموا

خطى المأمون في تشجيع العلم وإنشاء المكتبات كانت الدعوة إلى الإسماعيلية تنطلق من دور العلم التي جعلوها مركز داعي دعاتهم .

فلما أفل نجم دور العلم قامت المكتبات الملحقة تحذو حذوها وتنمو نموها في الشكل دون المضمون . وقد ربطها مؤسسوها بالمدارس وقيدوها بها وجعلوها لخدمة أهل السنة والجماعة من خلال الفقه بمذاهبه الأربعة والحديث الشريف .

☆ ☆ ☆

لقد بذل الدكتور العش جهداً عظيماً في هذا الكتاب وأولاه عناية كبيرة معتمداً على ما أوتي من موهبة وذكاء جمع إليهما حسن الاستنباط ودقة التحليل وصحة الاستنتاج ، متحلياً بالأمانة العلمية الشديدة ، فكان لا يأتي بفكرة إلا ويرجع بالقارئ إلى مصدرها ، وكثيراً ما أشار إلى مرجع أو مراجع من أجل كلمة واحدة شأن العالم الواثق .

فلا بدع بعدئذ أن يوصف كتابه بالمنهجية والعلمية ، ولا غرابة كذلك أن يكون كتاباً سباقاً .

وهو إلى ذلك كله اعتمد على أسلوب مجمعي فخم يخاطب فيه صاحبه الطبقة العلمية المثقفة التي أخذت بحظ من الفكر والعلم والأدب فيحس المرء فيه أنه تلقاء رجل يمتح من معين ثر ونفس فياضة بالعلم والمعرفة .

☆ ☆ ☆

وحينما تناولنا نحن هذا السفر القيّم بقلم الترجمة والنقل لم نكن نظن البتة أن عقبات كانت تترصد لنا في الطريق ، وكنا نحسب العمل هيناً وهو عظيم .. هيّن لأنه يتناول ثقافتنا العربية التي أحببنا ويأتي على مراجع وقضايا ألفناها وترددت على ألسنتنا طويلاً ، ويبحث في موضوعات لا تخرج عن دراساتنا

واهتماماتنا . وهو عظيم لأنّ مشكلة مهمة قامت منذ الفصل الأول عند الشواهد الوفيرة التي صبها الدكتور العش صبّاً غزيراً استقاها من الكتب الأمهات في التاريخ والتراجم والأدب والفقه وسواها . ولم يكن من المعقول بحال من الأحوال أن نترجم النصوص والشواهد دون الرجوع إلى أصولها العربية التي ترجم هو عنها فنترجم الترجمة وهذا غير محبب ولا مقبول . فآلينا على أنفسنا ألا يشير إلى مصدر في الحاشية رجع إليه إلا رجعنا نحن إليه كذلك قدر الإمكان .

ولقد كان المظنون أن العودة إلى هاتيك المراجع أمر بسيط لا يتطلب سوى جهد يسير بالاعتماد على الحواشي المطروحة أسفل كل صحيفة فإذا عملنا عند التطبيق ينقلب إلى تحقيق مع الترجمة . وإذا نحن أمام مشكلة المراجع نعاني منها . ذلك أنه قلما كانت تقع بين أيدينا الطبعات التي اعتمدها المؤلف . وضلت عنّا المراجع النافدة من الأسواق أو النادرة العزيزة فضلاً عن المخطوطات التي تناثرت بين القاهرة وباريس ودمشق وفيينا وحلب واستانبول وغيرها من البلدان ، فقصّرت أيدينا عن المخطوطات البعيدة النائية في حين حظينا بمخطوطات مجمع اللغة العربية بدمشق ومخطوطات دار الكتب الظاهرية المحفوظة بمكتبة الأسد وببعض مصورات لغيرها من مخطوطات . كما سررنا بالوقوع على سجلات المحكمة الشرعية بحلب والمحفوظة في مركز الوثائق التاريخية بدمشق .

وهكذا نقلنا الشواهد المطلوبة ، ورأينا كيف ترجم عنها المؤلف رحمه الله بدقة بالغة ومهارة ، وكيف كان يقع على الشاهد المطلوب الذي يريده وقد يكون سطراً واحداً من كتاب كبير .

وأما النصوص التي عزّ الوصول إليها فقد ترجمناها على ضوء الأسلوب الجاري في عصرها وقياساً عليه في نظائره ولا يكلف الله نفساً إلا ماآتاها .

والحق الذي يقال من غير مرية هو أنّ اهتمام الدكتور العش بالمصادر

والمراجع كان اهتماماً ظاهراً بيناً ، وعنايته بها كانت عناية ذات بال ، واستخدامه لها جاء استخداماً على الوجه الأمثل . فبالإضافة إلى غزارة المراجع والمصادر ـ ولم يورد أسماءها كلها في ثبت المراجع ـ فقد كان يستغل الشاهد المطلوب استغلالاً ذكياً فيستقي منه وجوهاً كثيرة ويستخلص نتائج عظيمة ، وإذا بالشاهد الصغير ذي السطر الواحد أو السطور القليلة ينمو بين يديه مع نظائره حتى يمده بكلام يملأ صفحة أو صفحات كالشعلة الصغيرة تنير بين يدي القابس الخبير درباً طويلاً فلا يضلّ فيه .

☆ ☆ ☆

لقد كان عملنا في الترجمة ممتعاً حقاً عشنا مع المؤلف في صفحاته التي كان لنا فيها أستاذاً ليس في مادة الكتاب ولا في الأسلوب العلمي المنهجي ولا في ارتقاء اللغة ونصاعتها ولا في حسن التأتي ولطف العرض ، ولا في ذكاء الاستنتاج ودقة التحليل .. بل في ذلك كله معاً .. فأحسسنا في أثناء العمل وكأننا في مدرسة نتعلم أشياء كثيرة ودروساً متنوعة .

☆ ☆ ☆

ولقد آلم الدكتور صفوان العش نجل المؤلف أن يبقى كتاب والده مخبوءاً في صدفاته وجوهر معدنه ، فكان أن سعى يحذوه الوفاء للأب العظيم إلى نشر أثره الذي تعب فيه شطراً من خير شطري عمره ، واعتقد الابن البار أنّ تراث أبيه أمانة بين يديه وحق يجب أن يؤديه إلى قراء العربية لينتفعوا به ، فسعى إلى ترجمته . وعند الختام نشكر لكل من ساعدنا في عملنا هذا ومكننا من استعمال المطبوعات والمخطوطات التي احتجنا إليها سواء في مجمع اللغة العربية أم في مكتبة الأسد أم في دار الكتب الظاهرية أم في مركز الوثائق التاريخية . ونخصّ بالشكر

الأخ الأستاذ محمد مطيع الحافظ وقد بذل من مكتبته الخاصة . مابذل وجهد في تقديم كتب كان يعرف أماكنها بخبرته ورفدنا بمعلوماته القيمة .

وإن أرضى عملنا هذا الباحثين والمهتمين فذلك بتوفيق الله وعونه وإن قصرنا فمن عند أنفسنا . نسأل المولى السداد والرشاد إنه نعم المسؤول .

المترجمان

مؤلف الكتاب

بقلم الدكتور صفوان العش

إلى روح أبي :

كنت أبحث بين أوراق والدي رحمه الله عن معلومات تفيدني في كتابة ترجمة عنه دقيقة ، فإذا بي أقع على مقال كتبه لمجلة الثقافة (العدد ٣٢٢ ـ ١٩٤٥ م) بعنوان (ابني صفوان) وإذا المقال يفيض بعواطف من السعادة والسرور غمرته بمناسبة مولوده الجديد ، وكان من أجمل مافيه قوله وهو ينهيه بهذه العبارات : « ألا يارب مُدّ في عمري حتى أرى صفوان شاباً كما أرغب ، وأدمه حتى يصبح شيخاً كما يبتغي ، وقوني على تربيته حتى أكون جديراً بالفخر يوماً بعد يوم ، وحرياً بالسعادة آناً بعد آن .. ألا يارب أدم حياة كل طفل حتى يشيخ ، ومدّ في عمر كل أب حتى يرى طفله يافعاً ، إنك أنت الخالق ، وأنت على كل شيء قدير ».

وبين تأثري بما قرأت ، وحزني لتلك الأمنية التي لم تتحقق له بتمامها ـ فقد توفي رحمه الله وأنا بعيد عنه في بلاد الغربة فقطفته يد المنون وهو في السادسة والخمسين ـ وعجزي أن أبادله جميل كلامه بمثله وفصيح عباراته بما يجاريها ، فقد وجدت لزاماً علي أن أكتب هذه السيرة ، عليّ أرد جزءاً من دين ، مدركاً أني لا أقدر على ردّ الدين كله ولا معظمه .

ولعل المقولة التي ترى أن الآباء في نظر أبنائهم مثال الكمال لا تنطبق على حالة كمثل انطباقها عليّ نحو والدي ، فقد كان رجل ثقافة واسعة وأدب يجمع

إليها دأباً في الدراسة وإحساساً مرهفاً وتفكيراً متزناً ومنطقاً نيّراً . ويزين ذلك كله صراحة مع نفسه ومع الآخرين ، فما كان يرائي ولا يواري ، مع حرصه على كرامة نفسه .

ورغم حبه للشهرة فقد كان يطمح إليها لا عن طريق منصب يتبوؤه أو مال يجمعه وإنما بأثر علمي يتركه ، يريد له أن يكون متقناً . ولعلّ ما كتبه في (قصة عبقري) عن الخليل بن أحمد الفراهيدي ينطبق عليه تمام الانطباق ، وعلى ما كان يبتغي أن يكونه ، وهو يصفه قائلاً : « بهذا العقل وذلك الخلق كان يتهيأ للخليل من الوقت والفراغ وصفاء الذهن ما يسعفه بالإبداع والخلق . كان يطلق فكره للأشياء المحيطة به يحاول استخراج كنهها والوصول إلى حقيقتها ، لا يرى ظواهرها فقط ، بل يحاول أن يستخرج منها أصولاً تجمع في قانون موحد تلك الظواهر المتضاربة المتشعبة وذلك شأن المبدعين ».

وأضيف إلى ذلك ما قاله عنه الأستاذ الكبير أحمد أمين وهو ما زال في شبابه حينما كتب له مقدمة كتابه عن (الخطيب البغدادي) : « عرفت الأستاذ يوسف العش شاباً ممتلئاً نشاطاً ، مخلصاً للعلم ، جاداً في البحث وراء الحق ، لم تمنعه ثقافته الغربية أن يصرف أطول زمنه نابشاً في الكتب الشرقية ، مسلطاً ضوء المنهج الذي اكتسبه في الغرب على التراث العظيم الذي خلفه لنا الشرق ».

ولد رحمه الله في منطقة الميناء من طرابلس الشام عام ١٣٢٩ هـ / ١٩١١ م وكان الابن الأكبر لأب متوسط الحال يعمل بالتجارة . ثم غادر أهله طرابلس وهو ما زال صغيراً ، ناجين بأنفسهم من مدافع السفن التي أخذت تضرب السواحل اللبنانية خلال الحرب العالمية الأولى فتوجهوا منها إلى مدينة حمص ثم إلى حلب حيث أسس فيها والده تجارته بالمواد الغذائية وجنى من ورائها أرباحاً . وفي حلب تلقى والدي تعليمه الثانوي وحصل على (البكالوريا) الأولى سنة

١٣٤٨ هـ / ١٩٢٩ م ، ثم سافر إلى دمشق فدرس في المدرسة السلطانية (مكتب عنبر) وحصل منها على (البكالوريا) الثانية بتفوق سنة ١٣٥٠ هـ / ١٩٣١ م .

فأوفدته فرنسا للدراسة في جامعة السوربون ، وأمضى في باريس ثلاث سنوات ونيفاً اكتسب خلالها ثقافة غربيّة واطلع على حضارة الغرب وعلومه ، ونال بعدها درجة الليسانس في الآداب عام ١٣٥٣ هـ / ١٩٣٤ م وحصل أيضاً على شهادة في تنظيم دور الكتب في مدرسة الشروط بباريس .

ولما عاد إلى دمشق عيّن مديراً لدار الكتب الوطنية الظاهرية عام ١٣٥٤ هـ / ١٩٣٥ م فقام بتنظيمها أحسن تنظيم وقد حدثني بعض من يعمل فيها الآن (أي بعد أكثر من خمسين عاماً) أنّ نظام التصنيف والحفظ الذي وضعه لها مازال متبعاً فيها بخطوطه الرئيسة كلها .

وكان في المدة التي تولى فيها الظاهرية يشارك العلماء والأدباء مجالسهم ومنها جلسة الثلاثاء الأسبوعية التي كانت تعقد في منزل الأستاذ محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي آنذاك ، كما تعرّف إلى العديد من الأدباء والسياسيين الذين كانوا في تلك الفترة .

وفي عام ١٣٦٠ هـ / ١٩٤١ م اقترن بالآنسة سلام كبارة إحدى قريبات والدته من طرابلس ورزق منها بولدين وبنتين وكانت له خير رفيق حملت عنه همّ تربية أولاده ورعايتهم فتفرغ إلى العلم والبحث وهو مطمئن البال على بيته .

وتشاء الأقدار أن يتعرف في دمشق على القانوني الكبير الأستاذ عبد الرزاق السنهوري فيمضي معه ومع صديق طفولته الأستاذ صلاح الدين نجيب باقي أوقاتاً طويلة يتباحثون في أوضاع العالم العربي . وقد سعى له الأستاذ السنهوري من أجل العمل في جامعة الدول العربية ، فانتدب إلى اللجنة الثقافية فيها ، وعمل أميناً للجنة ومديراً لمعهد المخطوطات ، وهو الذي كان اقترح إنشاءه ووضع خطته

١٣٦٦ ـ ١٣٧٠ هـ / ١٩٤٦ ـ ١٩٥٠ م . كما كان أميناً للمؤتمر الثقافي العربي الأول في الإسكندرية والثاني في بيت مري . وشارك في أعمال لجنة الترجمة باليونسكو وانتدب ممثلاً لجامعة الدول العربية فيها .

هيأت له إقامته في عاصمة الكنانة مدة تقارب خمس سنوات فرصة طيبة للاجتماع بالكثير من أدباء مصر ومفكريها ، وكان من أصدقائه في تلك الفترة أحمد أمين وطه حسين وساطع الحصري وغيرهم ، كما استمرت صداقته مع الأستاذ السنهوري بعد عودته إلى مصر . وكان لهذه الصداقة أثر خاص في نفسه إذ أعجب به باحثاً مفكراً عميق النظرة بعيد الأفق . وكان لحياته في مصر أثر في تعميق إيمانه بالوحدة العربية وترسيخ حبه لها ، وأعد خلال إقامته هناك وبعد سفرات عديدة إلى أوروبا الرسالة الأولى للدكتوراه وموضوعها (تاريخ دور الكتب العربية في العراق والشام ومصر عبر العصر الوسيط وأثرها في نشأة المدارس) وهو موضوع اضطر من أجله أن يراجع كل أبحاث التاريخ العربي الإسلامي لجمع مادته ، وزار لهذا الغرض دور الكتب في سورية ولبنان وتركيا وفيينا وباريس ومصر ، واطلع على نحو من ثلاثة آلاف مخطوط وقرأ أكثر من ثمان مئة مجلد مطبوع .

واعترضه في تحضير الرسالة الأساسية للدكتوراه موضوع نشأة الكتب والكتابة فاضطر إلى نشر كتاب عن هذا الموضوع بعنوان (تقييد العلم) للخطيب البغدادي ، وهو في تاريخ نشأة العلم وكتابته ، وقدّم للكتاب بمقدمة واسعة بيّن فيها تاريخ تلك النشأة ، والكتاب موضوع الرسالة الثانية للدكتوراه (دكتوراه الدولة في الآداب) التي نال درجتها عام ١٣٦٩ هـ / ١٩٤٩ م من جامعة السوربون بدرجة مشرف جداً مع كتاب تهنئة من لجنة المناقشة ، وهذا تقدير لا يناله إلا قليلون وفي حالات نادرة . رجع إلى دمشق عام ١٣٧٠ هـ / ١٩٥٠ م فعيّن أميناً للجامعة السورية ثم انتدب لإدارة الإذاعة السورية لكنه لم يبق

طويلاً في هذا المنصب الذي ضايقه وشغل فكره . وأذكر أنه حدثني مرة عن سبب تركه الإذاعة بهذه السرعة بأنّ أحد رؤسائه أمره شفوياً بطرد موظف من العمل فرفض مالم يصله أمر خطي لأنّه لا يستحق الطرد ، فخيّر بين إقالته أو إقالة الموظف فقدم استقالته على الفور ، والغريب أن الموظف لم يعلم بما حدث .

انتقل من الإذاعة إلى الجامعة السورية ، فشغل فيها منصب أمين الجامعة بين عامي ١٣٧٠ ـ ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٠ ـ ١٩٥٥ م وعيّن أستاذاً في كلية الشريعة فعميداً لها عام ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م . وفي تلك الأثناء أعير إلى الجامعة الليبية في بنغازي بمهمة تنسيق مكتبتها في العام الدراسي ١٩٦٠ ، ١٩٦١ .

وكان منذ عودته إلى دمشق عام ١٣٧٠ هـ / ١٩٥٠ م يدور في ذهنه مسألة أخذت من وقته الكثير ، وأصبحت شغله الشاغل ، وهوايته التي ملكت عليه نفسه ، والتي جعل يسهر من أجلها الليالي يمضيها في الدراسة والحساب والكتابة ؛ كانت تلك محاولته تفسير نشوء الحضارات وتقدم الأمم والدورات التاريخية للشعوب ، وحاول أن يفسر ذلك على أساس أنّ نشاط الشعوب مرتبط بالنشاط الشعاعي للشمس التي لولاها لما وجدت حياة على الأرض ، فعاد إلى علوم الفيزياء والرياضيات والجيولوجيا والفلك وعلم الإنسان ليربط بين طباع الإنسان وزمره الدموية والشعوب والدورات الفلكية للشمس وكتب عدداً من البحوث حول الموضوع ، كما قام بجولة في أوروبا بين عام ١٣٧٧ ـ ١٣٧٨ هـ / ١٩٥٧ ـ ١٩٥٨ م حاضر فيها في عدد من الجامعات ومراكز البحوث باسطاً فكرته تلك فانقسم العلماء بين مؤيد ومعارض . وكان شرح النظرية صعباً لأنها لا تتناول علماً واحداً بل عدداً من العلوم ، فيصعب لذلك على صاحب الاختصاص الواحد أن يستوعبها بجملها .

وما زالت هذه الفكرة تشغل ذهنه وتستهلك وقته ، وكم كنت أستيقظ في

الصباح الباكر لأجده على مكتبه ماانفك يطالع أو يحسب أو يكتب . ولقد حدّت النظرية من نشاطه الأدبي وعمله في التاريخ ، مع أنها كانت تمدّه أحياناً بسعادة عظيمة ، إذ اعتقد أنه شرح واحدة من أهم المعضلات التاريخية شرحاً علمياً منطقياً ، فجمع بين التاريخ والعلم على صعيد واحد ، وقد يكون في ذلك وسيلة علمية لتجديد نشاط الشعوب . وقد أثقلت عليه نظريته ، لأنه احتاج من أجلها إلى الخوض في علوم جديدة والوقوف أحياناً أمام عقبات يصعب تجاوزها .

ونحن بدورنا لا يمكننا بهذا الصدد مناقشة صحة النظرية فذلك متروك للأيام ، ولكن الذي يمكن قوله إنّ طموحاته رحمه الله وتفكيره ورغبته في تقديم الأشياء المفيدة الجديدة العظيمة للإنسانية كانت مما أضرّ به فلم يتمكن جسده من القيام بها .

وإذا كانت النفوس كباراً ... تعبت في مرادها الأجسام

ومأأسرع ماأصيب بذبحة صدرية لم تمهله وتوفي على أثرها في ١٣٨٧ هـ / ١١ نيسان (أبريل) ١٩٦٧ م .

☆ ☆ ☆

وتبقى الشخصية الهادئة الطموح المثالية المبدعة ، ويظل الوجه الذي يضيء بنور التفكير والمعرفة مثالاً يحتذى ونبراساً مع الأيام ، وعسى أن يأتي يوم يفسّر فيه التاريخ بالعلوم ، فيكون حلمه تحقق أو بعضه . ظلّ والدي في نفسي ذكرى عظيمة ماثلة لاأنساها ، ويبقى في نفوس أهل العلم والثقافة أحد جنودهما العظام بما ترك من آثار حسان تحمل له الذكر العطر . فمن كتبه التي ألفها نذكر :

- تصنيف العلوم والمعارف (ط دمشق ١٩٣٧ م)

وهو أول كتاب عربي صنفت فيه العلوم بطريقة منطقية تستقي من تصنيف أوغست كونت للعلوم .

ـ **الخطيب البغدادي مؤرخ بغداد ومحدثها** (ط دمشق ١٩٤٥ م)

درس فيه شخصية الخطيب البغدادي ، وعرض صفاتـه النفسيـة والخلقيـة ، ووصل بين قيمته وأثره وصفـة العصر الـذي كان فيـه ، وبيّن أنـه كان من صفـات ذلك العصر وأنه يمثل ما كان يتمخض فيه من اتجاه ، وأنه عمل بتآليفـه وتـدريسـه على تقوية مذهبه في الدفاع عن أصحابه .

ـ **قصة عبقري** (ط القاهرة ١٩٤٣ م في سلسلة اقرأ رقم ٤٢)

تحدث فيه عن الخليل بن أحمد الفراهيدي .

ـ **الدولة الأموية والأحداث التي سبقتها ومهدت لها** (ط دمشق ١٩٦٥ م)

ابتـدأ فيـه من فتنـة عثمان وحـاول أن يكشف عن العوامل التي وجهت تيـار الحوادث .

ـ **الحضارة الإسلامية**

بحث قدمه بالفرنسية لليونسكو تحت عنوان

la civilisation musulmane expliquée à la lumière du monothéisme

ومن الكتب التي حققها وجمعها وترجمها :

ـ **تقييد العلم للخطيب البغدادي** (ط دمشق ١٩٤٩ م)

وهو أهم كتاب في العربية تناول تاريخ تدوين الحديث . وضع له رحمـه الله مقدمة تناولت أثر الأجيال المتتابعة في التدوين وبيّن وجود الاختلاف في الاتجـاه بين جيل وجيل .

ـ **الدولة العربية وسقوطها** ليوليوس فلهاوزن (ط دمشق ١٩٥٦ م)

ـ **فهرس مخطوطـات التـاريخ وملحقـاتـه** في دار الكتب الظـاهريـة (ط دمشق ١٩٤٧ م)

هذا إلى جانب عديد من المقالات التي كتبها في المجلات والمحاضرات التي ألقاها في المناسبات الثقافية .

فإذا كانت أمنيتك ياوالدي لم تكتمل بأن تراني شاباً كما ترغب فاعلم أنك بقيت معنا روحاً وعاطفة وذكرى حلوة ، وماالجسد إلا واحد من مقومات الحياة ، ولا يبقى الإنسان بجسده بل بفكره وعمله وأثره ...

صفوان

مقدمة

الحضارة العربيـة الإسلاميـة المتنوعـة والمليئـة بمختلف التيـارات الفكريـة ، والخصبـة بظـواهرهـا التي امتـدت في عـالم واسـع جـداً كانت إحـدى الحضـارات الإنسانية التي سادت خلال قرون عديدة من الزمن .

وبرغم ماقيل في أصالتها ، وبرغم اتهامها بافتقاد الحيويـة ، أو مـانسب إليهـا من التقدم البـاهر ، فـإنهـا بـدون شـك أم من أمهـات الحضـارات ، ومرحلـة من مراحل التطور الإنسـاني .

هذه الحضارة التي تعددت أصول نشأتها وتكاثرت تفرعاتها ، اعتبرت الكتاب هادياً لها وكنزاً . فـاعتمـدت عليـه ، واهتمت بنشره ، بشكل فـاق بهـذا المجـال كل الحضارات السابقة . فلا تقـاربهـا حضـارة أخرى في عـدد الكتب التي انتشرت في العالم زمن حكمها ؛ شـاهـد أحـد الأنـدلسيين من أهل القرن الثـامن / الرابع عشر عند شيخ من شيوخه المجلـد السـادس والخمسين لفهرس للكتب[1] ولم يكن ذاك هو الجزء الأخير من السلسلة . وبما أن المعلومات في المجلـد كانت تشير وبشكل مختصر إلى (عنوان الكتاب ، واسم المؤلف وتاريخ وفاته ، والمدينـة التي ينتسب إليهـا) يمكن الافتراض أن الحـد الأدنى للكتب المـذكـورة في كل صفحـة منـه لا تتجـاوز العشرين ، وبما أن الجزء الواحد من ٤٠٠ ورقة على ما يقـال ، يكون المجموع نحواً من ألف ألف كتـاب مـدون في ستـة وخمسين جزءاً . أو لكي نكون دقيقين ، فـإن عدد تلـك الكتب في الفهرس ٨٩٦٠٠٠ كتـاب على الأقل . ولو قسمنـا هـذا العـدد

---

(١) التراتيب ٤٥٥/٢

على ٦٠٠ سنة مضت منذ بدايات تـأليف الكتب في القرن الثـاني / الثـامن وحتى التاريخ التقريبي لصنع هذا الفهرس لكان لدينا في كل سنة ١٤٩١ كتـابـاً . وهـذا هو عـدد الكتب التي عرفهـا المؤلف كل سنـة ، وحكم أنهـا تستحـق الـذكر . ولـذا فينبغي أن تكون المؤلفات غير المعروفة والمتروكة كثيرة كذلك .

ويجب أن يكون استخـدام هـذا العـدد الهـائل من الكتب مسَّهـلاً ومنظماً . فكيف كان ذلـك ؟ كيف كان الكتـاب يصـل إلى أيـدي القرآء ؟ ومـا كانت المستـودعـات العـامـة التي نستطيـع أن نجـده فيهـا ؟ وكيف نشـأت المكتبـات وتطـورت ؟ تلـك هي المشكـلات التي تهمّ هـذا الجـانب في الحضـارة العربيـة الإسلامية .

ولقد استهواني هذا الموضوع برغم الصعوبات التي كانت تكتنفه ، فعزمت على معالجته . وبدأت أولاً بالتعرف على أعمال من سبقوني فيه .

ثبطت الخطوات الأولى من عزيمتي ؛ إذ اكتشفت من خلالها مـادة ضحلـة ، ومعلومات غائمة غير محـددة ، تسير بلا منهج . وفيما يلي عرض موجز للـدراسـات المتوسعة التي شرعت في هذا الطريق .

أول من تعرض للموضوع بالتفصيل,كاترمير **Quatèrmere** في دراسة بعنوان : « رسالة في حب الشرقيين للكتب » ، نشرتها المجلـة الآسيويـة ، مج ٣٥/٦ ـ ٧٨ ، سنة ١٨٣٠ م ، عدد تموز (يوليو) ـ كانون أول (ديسمبر) .

واحتوت دراسته هـذه على معلومـات غنيـة عن العصر ، لكنـه لم يتبع فيهـا منهجاً واضحاً . وخصص أهم قسم فيه لجامعي الكتب الملوك ورجال الدولة وكبـار العلماء .

ثم حاول هامر بورغشتـال **Hammer purgastall** أن يكمل هـذه الـدراسـة في مقال بعنوان « إضـافـات على دراسـة كاترمير عن حب الشرقيين للكتب » نشرتـه

المجلة الآسيوية مج ١١ / ١٧٨ ـ ١٩٨ ، سنة ١٨٤٨ م . وكانت تلك الإضافات غنية إلى حد ما ، وخاصة فيما يتعلق بالخزائن العامة .

ثم مر بعدئذ نحو من قرن قبل السؤال عن دراسة أخرى متطورة للمكتبات العربية إلى أن جاء متز A. mez الذي شارك في الموضوع بمعلومات جديدة ، مقتصراً على القرنين الثالث (التاسع) والرابع (العاشر) في كتابه (نهضة الإسلام) الذي طبع في هيدلبرغ سنة ١٩٢٢ م . ص ١٦٤ ـ ١٧٠ وعلى كل حال ، فإن هذا المؤرخ الكبير للحضارة العربية الإسلامية لم يضع مخططاً واضحاً لهذا الفصل من كتابه ، وخلط بين الخزائن العامة والخاصة ، ولم يتبع نظاماً تاريخياً محدداً .

وبعد سنوات عدة ، وفي سنة ١٩٢٦ م ، كتب كرنكو وهيفننغ مقالاً للموسوعة الإسلامية ج٢ / ١١٠٥ عن الكتانجانة ـ استعرض الأول فيه بعض الخزائن الكبيرة متبعاً نظام الترتيب التاريخي المتتابع تقريباً . ثم أتى على ذكر الخزائن الأخرى دون ترتيب مسبق . أما الثاني فتناول طريقة تنظيم الخزائن . أخذه من الأوصاف التي ذكرها المؤرخون والجغرافيون المسلمون .

وبالاختصار ، فهؤلاء هم الذين درسوا الموضوع حتى عام ١٩٢٦ م[١] ، فكانوا يعددون بعض الخزائن ، ويشيرون بالمناسبة إلى بعض المعلومات التي يحصلون عليها دون أن يتبعوا في ذلك ترتيباً ما ، يقدر أن يحدد التطور أو يشير إلى الفروق . ودراساتهم ترتكز على تجميع المواد ، أكثر مما تعتمد على التحليل والشرح .

---

(١) نضيف إليهم غروهمان ، المكتبات وروادها في الشرق الإسلامي : فهرس المكتبات الوطنية في ڤيينا ، ١٩٢٤ م ، ٤٣١ ـ ٤٤٢ : ليكلر ، تاريخ الطب العربي ، باريس ، ١٨٧٦ م ، ٥٨٣/١ ـ ٥٨٧ ؛ الفرد هيسل ، تاريخ المكتبات في غوتنغن ، ١٩٢٥ م ، ص ٣٧ ـ ٣٨ : مرجوليوث ، رسائل أبي العلاء ، أكسفورد ، ١٨٩٨ م ، ص ١٨ ـ ٢٥

وقد وجدت أولغا بنتو Olga pinto الموضوع في حالته هذه عندما شرعت بمعالجته خلال زمن محدد ، وكتبت مقالاً كبيراً بعنوان (المكتبة العربية في العصر العباسي) نشرته مجلة الفهارس ، مج ٣٠ ، سنة ١٩٢٨ م . ثم ترجمه ف كرنكو إلى الإنكليزية تحت عنوان (المكتبات الإسلامية) ، ونشرته مجلة الثقافة الإسلامية ، مج ٢/٣ ، ص ٢١٥

جمعت بنتو تقريباً كل المعلومات التي أسهم بها سابقوها عن المكتبات في العصر العباسي ، وأضافت إليها مكملاتها . وبعد مقدمة قصيرة عن محبة الكتاب عند العرب وأسعار الكتب عالجت موضوع الخزائن الخاصة ، لكنها ذكرت من بينها بعض المكتبات العامة ، كدور العلم ، ومكتبات شبه عامة ، كخزائن الحكمة .

وانتقلت بعد مقدمة عن التعليم وانتشار الثقافة زمن حكم ملوك الطوائف إلى دراسة المكتبات العامة ، فأشارت إلى خزائن الخلفاء (وهي بالأحرى خزائن خاصة دون أدنى شك) ثم عددت وبشكل طبوغرافي ، الخزائن التي وقعت على ذكرها مصادفة في أثناء مطالعاتها للمطبوعات والمخطوطات النادرة ، فبلغ عددها إحدى وعشرين خزانة من أهم الخزائن . وعالجت في فصل آخر نظام الخزائن . وكانت موادها هي مواد الفصل السابق . وقد وزعتها لسوء الحظ بين دراستين ؛ بحيث أشارت في إحداهما إلى الوقائع التي كان يجب أن تشير إليها أيضاً في الدراسة الأخرى بشكل أكثر دقة ووضوحاً . وأنهت دراستها بفصل ، تحدثت فيه عن اندثار الخزائن ونشأة الدراسات العربية الحديثة والمكتبات المعاصرة .

وعملها يشعر بتقسيم سيء للمعلومات وتشوش في الفصول ، رغم أنها رسمت مخططاً منهجياً لموضوعها : الخزائن الخاصة ، ثم الخزائن العامة ، ثم تنظيمها ؛ وقد خلطت في بعض الفصول أعمالاً غريبة ، وحرمتها من أعمال أكثر لصوقاً بها ، دون أن تستطيع معالجة كل فصل حتى النهاية .

وكانت آخر بحوث عن المكتبات العربية ، هي بحوث روث مـاكنسون ruth Mackenson . نشرت في مواضع مختلفة في مجلتين أمريكتين ؛ فنشرت أولاً مقـالاً بعنـوان : (أربـع مكتبـات كبرى ببغـداد في العصر الـوسيـط) في مجلـة المكتبـة الفصلية ، شيكاغو ، مج٢ ، سنة ١٩٣٢ م ، ص ٢٧٩

عالجت في هذا البحث ما يتعلق بدار[1] الحكمة للمأمون ، ودار العلم لسـابور ، ودار الكتب النظـاميـة ، ودار الكتب المستنصريـة . ولم تحـاول أن ترسم مخططـاً يبيّن تطور هـذه المكتبـات ، بل جـاءت ببعض المعلـومـات التي لم تتطرق إليهـا المستشرقة بنتو ، وأضافت معلومات أخرى لاعلاقة ماسة لها بالموضوع .

ثم كتبت سلسلـة مقـالات أخرى بعنوان : (الكتب العربيـة والمكتبـات في العصر الأموي) نشرتها في المجلة الأمريكيـة للغـات والآداب السـاميـة ، مج ٥٢ / ٢٤٥ ـ ٢٥٣ ، مج ٥٣ / ٢٣٩ ـ ٢٤٩ ، مج ٥٤ / ٤١ ـ ٦٠

قدمت في هذه المقـالات تفـاصيل كثيرة تتعلق بـالكتب ، وتفـاصيل قليلـة جداً فيما يخصّ المكتبات . ونشرت سلسلة مقـالات غيرهـا بعنوان : (على هـامش تاريخ الخزائن الإسلامية) نشرتهـا المجلـة الأمريكيـة للغـات والآداب السـاميـة ، شيكاغو مج ٥١ / ٨٣ ، ١١٤ ، مج ٥٢ / ٢٢ ، ١٠٤

عرضت دراستها عرضـاً غريبـاً ، وبشكل متفكـك ، يصعب علينـا فيـه أن نستخلص الفكرة الأساسية منها . وحينمـا حـاولتُ أن أتتبع مخطـط عملهـا لم أثق بفهمي له تماماً . يبدو لي أنها أرادت إبراز المهمة التي اضطلعت بها المـذاهب والملل في تـأسيس المكتبـات وتطـويرهـا ، واكتشـاف النمـوذج الـذي انتهجتـه هـذه المؤسسات . إنها اعتقدت كما أظن أنّ هـذين الموضوعين كانـا كافيين لتكوين إطـار

(١) ليست دار وإنما بيت ، كما سنرى في الفصل الأول .

عرض كامل يضم تقريباً كل المكتبات العربية الكبرى المعروفة ، كما يضم متحف الإسكندرية ومكتبات الأديرة في أوائل العصر الوسيط . بدأت الكاتبة فتناولت بتفصيل خارج عن الموضوع الدعاية التبشيرية في تاريخ المذاهب ، وعددت بعد ذلك أسماء المكتبات ، متبعة ترتيباً متفككاً دون أن تبرز دور التبشير فيها . وربما شعرت أن مؤسسي هذه المكتبات كانوا مذهبيين ، يهتمون كل الاهتمام بنشر أفكارهم . وذكرت مع ذلك المكتبات التي لم تكن الأفكار المذهبية تعبر فيها عن ذاتها بأي صورة كانت ، كالمكتبات الأندلسية ، وخزانة مرصد مراغة . أما بالنسبة

للموضوع الثاني من دراستها عن نموذج المكتبات العربية فألمت به إلمامة واسعة ، دون أن يسوقها خطٌ معيّن . فخلطت فيه ذكر المكتبات المتأخرة بعضها ببعض ، كمكتبات الشافي ومكتبات المساجد . واسترسلت في أسطورة حريق مكتبة الإسكندرية ، وانطلقت منها لتتحدث عن مكتبات أخرى خارج موضوعها . ثم حاولت بعد ذلك أن تستخلص نقاط التشابه بين متحف الإسكندرية من جهة ومؤسستين متشابهتين في نظرها ـ وهما بيت الحكمة ودار العلم ـ من جهة أخرى .

ثم أسهمت في الحديث عن المراكز المشرقية للثقافة اليونانية والمكتبات الفارسية ومكتبات الأديرة . ويتشوش القارئ في أثناء القراءة ، حيث يجد مشقة في المتابعة ، ومشقة أكبر في الاستفادة منها : وذلك بسبب عدم الدقة ، والخلط المفكك للأعمال ، والفقر في المواد المطروحة بصفة أدلّة .

ومع كل هذا فقد استطاعت أن تدرك أهمية المذاهب في حياة المكتبات ، والتأمل في النموذج الذي احتذاه العرب عند إنشاء المكتبات . وإذ لم تستطع أن تعطي تحديدات في موضوعها ، فقد استطاعت أن تطرح المشكلة على كل حال ؛ الأمر الذي لا يمكننا إلا أن نهنئها عليه .

وأما ما يتعلق بالدراسات المتطورة باللغة العربية[1] فإنها كشفت لنا بعض الأحيان عن وجود مكتبات لا يعرفها المستعربون . ومع ذلك فلم تفسر المكتشفات ولم تحددها . كانت تسعى بشكل خاص إلى إبراز الأعمال المتميزة في حياة المكتبات ، لتستخلص منها موضوعات الأمجاد القومية .

فالأعمال السابقة على العموم لم تعالج هذا الموضوع في جملته ، ولم تنسق المعلومات في حلقة متصلة واضحة . فهي تجميع لأعمال منفصلة ، لم يستطع الباحثون أن يوفقوا بينها ، ولا أن يجعلوها جليّة بالمقدار الكافي . والسبب الرئيسي في هذا العيب ناشئ على وجه الخصوص ، عن نقص المواد المكتشفة التي تخدمهم .

وعندما استكملت دراسة الأدب أدركت شيئاً فشيئاً صعوبة الموضوع . وقد كان من الممكن أن أواجه الإخفاق لو تشبثت بالشروع في دراسته بالكيفية المذكورة . ولم تكن الكتابات التي نشرت للتوّ عن الموضوع لتذلل تلك العقبات . كنت قد استأنفت الخطوات الأولى وكأنّ أحداً لم يصنع شيئاً ، فكان يتوجب عليّ أن أطالع من وقت لآخر جميع الكتب العربية التي يحتمل أن تحتوي على معلومات عن موضوعي . ووجدت أنه ما من كتاب مطبوع أو مخطوط إلا وتعرّض له السابقون بشكل كلّي وقطعي ، وما من باحث حتى الآن إلا ولاقى مشقة من شروعه بشكل منهجي في دراسة كتاب أو عدد من الكتب ، لاستخراج ما يمكن استخراجه ، فجمعوا معلوماتهم مصادفة من المطالعات .

---

(١) وعلى سبيل المثال : محمد كرد علي ، غلاوة الكتب ، المقتبس ٢ / ٥٦٩ ـ ٥٨٠ ، جورجي زيدان ، تاريخ التمدن الإسلامي ٣ / ٢٠٨ ـ ٢١٢ ، أحمد زكي باشا ، المقتبس مج ٦ ص ٢٨٥ ، عيسى اسكندر معلوف مجلة المجمع العلمي العربي ٣ / ١٤٣ ، محمد كرد علي خطط الشام ٦ / ١٩٠ ـ ١٩٣ ، برنامج المكتبة العبدلية ، الجزء الأول ، تونس ١٣٢٦ : نظرة في تاريخ دور الكتب العربية وخاصة في المغرب وتونس .

وفضلاً عن ذلك ، أضيفت إليّ صعوبة جديدة لم تكن للآخرين ، إذ وجدتني مجبراً على الرجوع إلى عدد من الوثائق غير المتداولة ، وجدتها في أماكن لم أكن أتوقعها ، وفيها نوع من المعلومات التي أبحث فيها ، تتعلق بهذه المؤلفات المتنوعة ، دون أن تشير لعصرٍ ولا المكان ، يمكن أن يفيدني كدليل في دراستي ، فكان علي استنزاف هذه الينابيع . ثم إنّ مثل موضوع المكتبات لا يؤلف فصلاً محدداً من تاريخ الحضارة العربية ، ولكنه يرتبط مع عدد كبير من الظواهر الثقافية . لذا فُرض علي استعراض كل المؤلفات التي تتضمن مواد تتعلق بهذه الحضارة . وقد نذرت نفسي لمعالجة هذا الموضوع ، واكتشفت أنه يلزمني للوصول إلى نتائج محددة قراءة كاملة لكل المؤلفات العربية ، التاريخية منها والجغرافية . ومع ذلك ، وهذا العمل المضني لم يكن كافياً ، فمؤلفات الأدب والشعر والوعظ والكلام لا ينقصها أن تقدم في بعض الأحيان معلومات مفيدة . ولم تكن هناك مؤلفات ضخمة عديدة في الفقه يلزم الرجوع إلى الفصل الكبير منها والمتعلق بموضوع الأوقاف ، ذلك الفصل الذي يهتم وبشكل عميق بالقانون التشريعي للمكتبات . ولنضف إلى هذه المصادر الواسعة والمعتبرة المخطوطات التي انبثقت عن المكتبات المدروسة والمحفوظة حتى أيامنا هذه ، ينبغي أن نستعرضها لنأخذ منها كل ما كان يقوم على الأوقاف من قبل ، وكان يجب عليّ كذلك لأتم هذه الدراسة الطويلة أن أعود عودة شاقة إلى محفوظات المحاكم الشرعية المعاصرة ؛ ففيها وثائق تتضمن أحياناً صكوكاً للمكتبات يعتمد عليها . وتوافرت لدي قبل أن أشرع في دراسة كهذه بعض أسباب التفكير الصحيح . وكنت لحسن الحظ مندفعاً إلى هذا العمل برغبة لا تقهر وبغريزة مهنية ، بحيث إنّ الصعوبات جعلت تذلل بالتفكير الذي لا يوضح تاريخ المكتبات العربية فحسب ، بل يوضح كذلك الموضوعات العديدة الأخرى المرتبطة بهذا التاريخ : أصول المجامع العلمية والجامعات العربية والترجمات وتطور المناظرات .. إلخ .

شرعت في عملي سنة ١٩٣٤ م ، فقرأت الكتب المطبوعة أولاً ، ثم طالعت المخطوطات التي أمكنني الوصول إليها من المكتبات في سورية واستانبول وأوربا والقاهرة . ومرت سنوات عديدة قبل أن أنتهي من قراءتي . ثم ألقيت نظرة مستقص على المواد التي تجمعت لدي عند فراغي من القراءة ، فراعني كثرتها ، في حين كنت خشيت من قبل ألا أجد المقدار الكافي من المعلومات لتكوين مادة أطروحة الدكتوراه . ولقد اكتشفت وأنا أصنفها السبب الذي من أجله لم يستطع من سبقوني أن يكونوا واضحين ودقيقين في دراساتهم : إنهم لم يستطيعوا مع القليل من المعلومات المتوافرة عندهم أن يكشفوا عن وجود العصور المتميزة بشكل حقيقي في تاريخ المكتبات ، ولا عن وجود أشكال لخزائن خاصة في ثلاثة بلدان عربية : العراق والشام ومصر ، إذ كانت تلزم من أجلها وثائق أكثر .

استطعت بالنصوص التي معي أن أكشف أنّ هذه البلدان الثلاثة خضعت لظروف سياسية واجتماعية وثقافية ودينية متشابهة ، إن لم تكن بذاتها ، تتجه وفق سياق خاص لتطور المكتبات . وليس من الضروري أن يعني هذا أنّ البلدان الأخرى كانت تسير باتجاه مختلف . وكان الحجاز من بين هذه البلدان يتبع منعطفاً متشابهاً تقريباً . وعلى كل فما استطعت ـ فيما يخصّ موضوعي ـ أن أنشئ حقيقة التطور في بلد آخر سوى البلدان الثلاثة المذكورة . وربما يمكنني بمعلومات أكثر أن أتحدث عن بلاد عربية أخرى . وأجدني في هذه الحال مرغماً أن أقصر موضوعي على هذه البلدان الثلاثة حيث التحديدات قطعية .

كان الإطار الطبوغرافي للموضوع ثابتاً ، وكان من الضروري اختصار البحث إلى درجة مناسبة . وظهر لي بعد التفكير أن الخزائن الخاصة والمهمة بعددها وغناها كانت تمثل حالات معينة ، ولم تكن ذات أثر ملحوظ في تطور الحضارة العربية ولا في نشر الثقافة العامة . فيجب أن نتجاوزها ، لئلا نحمّل هذه الدراسة من الثقل والطول والتفصيل التاريخي . على أنه يجب طبعاً ألا نهمل عدداً من

الخزائن الخاصة التي كانت في الأصل مفتوحة لفئة معينة وهي الخزائن شبه العامة ، ولتمييزها عن الخزائن الخاصة التي تكتسب الأصدقاء وزوار المناسبات (خزائن الخلفاء والأمراء والأعيان) يلزمنا إنشاء القاعدة التالية : تتميّز الخزائن شبه العامة عن الخزائن الخاصة في أن الأولى مفتوحة بشكل منظم لطائفة من الأشخاص ، بينما تستقبل الأخرى بصفة خاصة وفي مناسبات معينة عدداً مختلفاً من الأشخاص .

وعليّ في نهاية المطاف أن أثبتّ حدود عملي ، ولم أفكر بذلك كثيراً . وبدا لي أنّ نهاية الغزو الثاني للتتر ، والذي يصادف نهاية العصر الوسيط ، بدا لي مرحلة متميزة تماماً أختتم بها دراستي . لأنّ الثقافة العربية منذ ذلك الحين بدأت تدخل في سبات عميق . وقد لاقت المكتبات العامة في ذاك العصر ضربات هائلة ، ولو استطاعت الحضارة العربية أن تفلت من ضربات هولاكو لما استطاعت أن تتحمل ضربات تيورلنك . ومنذ ذلك الغزو الأخير دخلت في سباتها العميق .

تعرّض كثير من المكتبات وخاصة في الشام لنهب الجيوش ، كما تخلى العالم العربي منذ ذلك الوقت ولقرون عدة عن الحركة العلمية .

وسيكون موضوعي إذن على النحو التالي : (الخزائن العربية العامة وشبْهُ العامة لبلاد العراق والشام ومصر في العصر الوسيط) . وقد ظهر لي سريعاً أننا نستطيع تصنيف المكتبات التي فيها في ثلاثة عصور مختلفة .

فعزمت لهذا على أن يسير تاريخ المكتبات وفق هذه العصور . وستكوّن هذه الدراسة القسم الأول من عملي . وسيشكل عرض نظام المكتبات العامة وتنظيمها وإدارتها موضوع القسم الثاني للكتاب والذي سيكون مسبوقاً بمقدمة تمهيدية تحمل نظرات عامة عن جمّاعي الكتب ومجموعاتهم .

وحاولت على الدوام أن أكون في دراستي دقيقاً وإيجابياً ، وأن أفر من الشكوك والاضطرابات . وكنت مجبراً وبشكل بدهي ألا أعطي قيمة مطلقة لتأكيداتي . ولئن صدمتني الصعوبات الكبيرة في هذه الفصول ، لقلة المصادر فلقد حاولت الاحتيال عليها ، فأوضحت أمرها بأخبار أخرى لاتتصل بها مباشرة ولكن يعتمد عليها في التفسير .

تمهيد

تصنيف دور الكتب العربية العامة

من الصعب الشروع في دراسة واضحة لدور الكتب العربية قبل استعراض مختلف الأشكال التي اتّخذتها المكتبات على مدى التاريخ . ونحن هنا في هذا العرض التمهيدي لن نحجم وبالتأكيد عن تناول الوثائق بالنقد الواسع ، لأننا نهدف إلى تبيين العوامل التي تسمح بتقسيم دور الكتب العربية وفق مختلف النماذج ، كما نهدف إلى إعطاء تصنيف لها كذلك . وسيؤيد موضوع الفصول التالية هذا الذي نقول .

ولإنشاء هذا التصنيف ننطلق من الكلمة ذاتها ، فالأسماء التي سميت بها دور الكتب العربية هي التالية :

١ ـ بيت الحكمة

٢ ـ خزانة الحكمة

٣ ـ دار الحكمة

٤ ـ دار العلم

٥ ـ دار الكتب

٦ ـ خزانة الكتب

٧ ـ بيت الكتب

ففي هذه التعبيرات السبعة ست كلمات مختلفة وهي : « بيت ، خزانة ، دار ، حكمة ، علم ، كتب » . تشير الثلاث الأولى منها إلى أنواع أمكنة ، بينما تدل الكلمات الثلاث الأخرى على موضوع هذه الأمكنة ، وتصلح لوصفها .

ولكل واحدة من هذه الكلمات قيمتها الخاصة ، إنها تحدد مجتمعة اثنتين اثنتين طابع المكتبات المختلفة .

والكلمات التالية تشير إلى موضع المكتبة : (بيت ، خزانة ، دار) فماذا تعني بالضبط ؟ والمعجمات العربية ليست ضرورية هنا لتحديد معناها ، إذ لا تقف هذه المعجمات في الواقع عند تعريف الصيغ الجارية في الاستعمال ، ولا يمكن كذلك الاعتماد على شروحها . والمعروف أنّ لكلمة (بيت) استعمالات مختلفة ، فهي تعني منزلاً أو مدينة أو أسرة أو غرفة .. إلخ ، وأن لكلمة (دار) كذلك مدلولات عديدة .

والتمييز بين كلمتي بيت ودار أمر جوهري ، لأنّ هذا التمييز يكفي برأينا لتحديد نموذجين متميزين للمكتبة . والاستعمال الذي استخدمه المتشرعون لهاتين الكلمتين يسمح لنا أن نصل إلى بعض التحديدات الدقيقة . فكلمة (دار) عند الفقهاء تعني العَرَصة التي تشتمل على بيوت وصحن[١] . والبيت على هذا يؤلف إذن جزءاً من الدار . وربما نستنتج هذا المعنى من المادة ٣٢٦ من مجلة الأحكام الشرعية[٢] . وتحدد المذكرة التفسيرية لهذا الاصطلاح المعنى نفسه فتقول : « كانت العادة في إنشاء الدور من قبل أن تأخذ البيوت مساحة واحدة وتتبع مخططاً موحداً »[٣] .

وتؤكد كتب الأدب على العلاقة القائمة بين الكلمتين ، ففي البيان والتبيين للجاحظ نجد الجملة التالية : « وفي دار الهرمزان ألف بيت »[٤] . فالتمييز بين الكلمتين واضح إذن . ومع ذلك فيمكن أن نتساءل بالإضافة إلى ذلك : أيبقى هذا

(١) التهانوي ، كشّاف اصطلاحات الفنون ٤٦٦/١

(٢) مجلة الأحكام الشرعية ٤٧

(٣) المرجع السابق ٥

(٤) البيان والتبيين ٢٠٧/٢

التمييز صحيحاً في مجال المكتبات ؟ نستطيع في الواقع أن نتأكد من وجوده فيما يخصّ مؤسسة مشابهة وهي بيت المال ، فقد روي أن « سعد خازن بيت مال عمر بن الخطاب بنى داراً وجعل فيها بيوت المال »[1] . فكلمة بيت يجب أن تعني إذن غرفة أو حجرة أو حجيرة أو قاعة ، تؤلف جزءاً من الدار ، والدار معناها حينئذٍ مجموع البناء أو العمارة .

وإذا تكلمنا بحسب الاشتقاق ، فيجب أن نذكر الفرق الواضح البيّن بين المكتبات التي تحمل اسم بيت ، والمكتبات التي تسمى باسم دار . فالأولى وفقاً لوجهة النظر هذه يجب أن تؤلف خزائن كتب تشغل قاعة واحدة أو عدة قاعات (إن كان المقصود بيوتاً جمع بيت) . إنها تتكون من أجزاء من بناء ، نفهم منه بالضرورة وجود غرف لاستعمالات أخرى .

وتبين الدراسة التاريخية قيمة هذا التمييز الاشتقاقي في الأزمنة الأولى . ففي القرن الخامس / الحادي عشر وخلال ما يقرب من قرنين من الزمن استعملت كلمة دار لتعني المكتبات المهمة ، وانتهى الأمر إلى أن تستعمل لكل مكتبة كبيرة ، ولو كانت بدون بناء مخصص لها . وللكلمة في التعبير وظيفة تعيين صفة المكتبة لا شكل المكان .

ويأخذ تعبير (خزانة)[2] في كل زمان تحديداً أقل . تقول المعجمات : « إنه المكان الذي يحفظ فيه » ، وهي لا تلام على هذا الغموض . ونجد هذا التعبير فيما يخصّ موضوعنا يتوافق دوماً مع كلمة بيت وكلمة دار . ولا تكفي كلمة خزانة وحدها للبيت في أمر يتعلق بمكتبة في مكان مستقل ، بل ولا تدل على علامات كاشفة أخرى . وأفضل ما يقابلها في الفرنسية كلمة (مستودع) .

---

(١) الطبري ١ ، ٢٤٨٩/٥

(٢) انظر كلمة (خزانة) في المعجمات .

ويشار إلى مضمون المكتبة العربية من جهة ثانية بالتعابير التالية : (حكمة ، وعلم ، وكتب) . وتدل هذه التعابير التي يجب أن نقف عندها هنا على ثلاثة عصور مختلفة من حياة المكتبات العربية .

أصبحت كلمة الحكمة كما قال هيوار [CL.Huart] مرادفة لكلمة فلسفة ، وأطلقت في الأصل للدلالة على الفلسفة اليونانية التي نقلت إلى اللغة العربية[1] . وقد قسّم المقريزي الحكمة أو علم الحكماء وهو يذكر مصادر موثوقة إلى أربعة مستويات : علوم الفيزيقياء والطبيعة ، والعلوم المدنية ، وعلوم الرياضيات ، وما وراء الطبيعة[2] . وهذا هو المفهوم اليوناني لكلمة الفلسفة .

وكلمة العلم بالمقابل كلمة عربية تماماً ، ومع أنها بدأت بالإشارة إلى أنواع مختلفة من المعارف[3] ، فقد انتهت إلى مفهوم واسع جداً للكلمة . فصارت تعني مادأب الناس على تسميته (علماً) بالشكل العام ، أو إذا شئنا : كل معرفة دقيقة ومحددة . وهذا المفهوم تبناه محبّو الكتب ومفهرسوها من العرب .

وكلمة كتب جمع كتاب غامضة كذلك ، عندما يكون المقصود منها مضمون المكتبة أو موضوعها ، والتي تدل فيها كلمة خزانة على المكان . وهي تتوافق أيضاً وعلى السواء مع تعبيرين ، هما الحكمة والعلم . ومع ذلك فعندما استعملت لتدل حصراً على مضمون المكتبة أشارت إلى مؤسسة تؤلّف كتبها الموضوع الأول والأخير .

وعندما جعلت هذه التعابير في تركيب لتسمية المكتبة أحدثت كلمتا

---

(١) الموسوعة الإسلامية ٣٢٤/٢ ، خليفة ٣٩٩/١ ، ابن خلدون طبعة بولاق ٨٩/٣

(٢) الخطط ، ٣٤٤/٢

(٣) أخذت كلمة العلم معاني عديدة حسب القرون والطوائف والميول الثقافية . انظر غولد صيهر ، مادة فقه الموسوعة الإسلامية ١٠٦/٢ ، مكدونالد مادة (علم) ، المرجع السابق ٤٩٨/٢ ، ابن عبد البر ، جامع بيان العلم ٢٢/٢ ـ ٢٣

(خزانة) و (كتب) بعض الغموض في تلك التسمية . وعلى العكس فإن التعابير الأخرى سمحت منذ البدء بالتنبؤ بنوع المكتبة أو بأهميتها .

ومادمنا قد تطرقنا لهذا الموضوع فيجب علينا قبل الشروع بالدراسة التي تحدد في هذا المعنى أن نقدم بعض الإيضاحات حول مخطط القسم التاريخي في عملنا ، وأن نشرح الأسباب التي دفعتنا إلى تبنّيه . وقد تبين لنا بعد تأملات عديدة وبحوث كثيرة أن تاريخ المكتبات العربية عامة في بلاد الشرق الأدنى مرّ بثلاثة عصور ، كان لكل عصر منها صفاته الخاصة . ورأينا لهذا ، أن نقسم القسم التاريخي التالي إلى هذه العصور الثلاثة . ويجب علينا من جهة أخرى أن ندعو كل عصر منها باسم خاص به يصفه ويميّزه عن العصور الأخرى ، واستجزنا أن نسمي كل عصر باسم المكتبة الرئيسة فيه ، وهو حقه المسلّم به .. ولذا فسنضع للعصر الأول عنوان (عصر بيت الحكمة) ، وللثاني (عصر بيت العلم) ، وللثالث (عصر المكتبات الملحقة) . ولا ندّعي أنّ العصر الأول مثلاً يخلو من مكتبة عامة أو شبه عامة غير بيوت الحكمة . ومع هذا فنعتقد يقيناً أنّ بيت الحكمة هو المكتبة التي تميز العصر وتهيمن عليه . وهناك إلى جانب هذه المكتبة الرئيسة مكتبات أخرى ، لكنها وإن كانت تستعير بعضاً من أشكالها ومخطط عملها إلا أنها لا تمثل سوى حالات خاصة ودون كبير أهمية . ويمكن أن نقول هذا الكلام عينه عن عصر دور العلم وعصر المكتبات الملحقة . هذا وإنّ بين هذه العصور ولا شك مكتبات عابرة سوف نتحدث عنها . فمخطط الكتاب يقوده الوضوح والدقة والفكر المنهجي الذي يتطلبه التاريخ .

ويمكننا الآن ونحن نمضي في هذه المقدمة الاشتقاقية وبمساعدة المعرفة التاريخية التي سنأخذ بها أن نصنف العصور التي تمثل تطور المكتبات العربية ونحددها .

العصر الأول : مرحلة بيت الحكمة (غرفة الحكمة) أو خزانة الحكمة ، وهي قاعة أو قاعات تكون الحكمة فيها موضوع الاهتمامات التي تهدف إلى تقدمها واتساعها ، والتي ينبغي عليها بادئ ذي بدء أن تُطبّق بشكل بدهي على كتب الفلسفة .

وتفتح دار العلم عصراً جديداً ؛ فهي بناء مستقل تكون جميع أنواع العلوم التي فيه موضوع اهتمامات خاصة ، وتسمى أيضاً دار الكتب ودار الحكمة .

وسوف ننتقل من دار العلم إلى المكتبات الملحقة[1] التي تؤلف قسماً مستقلاً من بناء الأوقاف .

ويحمل هذا التطور الذي يتوافق ـ كما رأينا ـ مع عصور محددة للتاريخ العربي ، يحمل طابع أصالة ذا دلالة في تاريخ المؤسسات العلمية العام .

---

(١) تبنينا كلمة المكتبات الملحقة . ويقال في الواقع المدرسة الملحقة انظر : Littré au mot nnex.

القسم الأول
التاريخ

الفصل الأول

عصر بيت الحكمة

أولاً ـ البدايات

تنبثق في كل خطوة من خطوات تاريخ بيوت الحكمة صعوبات جمّة ، سببها أن المؤرّخين لا يروون بالتفصيل تلك الأحداث التي تبدو لهم لحظة يكتبون مجردة عن مميزات العمل التاريخي . وعندما يلحظون فيما بعد نتائج طابع تاريخي نجم عن تلك الحوادث لا يدعون منها مفاجأة ، بل يجهدون أنفسهم عندئذٍ للرجوع إلى أصولها . فتفلت من بحثهم نقاط كثيرة . من بين هؤلاء المؤرخين مَنْ كانوا مدفوعين برغبة إلى الرواية المفصلة لأكبر عدد ممكن من الوقائع ، وكانوا يجمعون بالمصادفة كل ما يمكن أن يقع تحت أيديهم من نصوص باطلة أو مزيفة وأساطير لاأساس لها في التاريخ . تلك هي الظروف التي أشرفت على نسج المؤلفين العرب لتاريخ عصر بيوت الحكمة .

يجب أن نعذر كثيراً أولئك الذين درسوا في أيامنا هذا التاريخ[1] إذا لم

(١) على سبيل المثال : هامر ، بورجشتال ، إضافات على بحث كاترمير . بروكلمان ، مادة عربي في الموسوعة الإسلامية ٤٢١/١ ، بروكلمان ، تاريخ ، ٢٠٢/١ ، كرنكو ، مادة كتابخانة في الموسوعة الإسلامية ، بنتو ص ١٤٨ ، ١٥٠ ، مايرهوف كتاب العشر مقالات في العين المنسوب إلى حنين بن إسحاق القاهرة ١٩٢٨ ، ص ١٦ ، ماكنسون ، كبريات مكتبات بغداد ٢٨١ ـ ٢٨٧ ، ماكنسون ، الخلفية التاريخية ، ٥١ ، ٢٤/٥٢ ، ٢٧ ، حتّي ، تاريخ العرب ٤١٠ ، ٣١٠ ، أسعد طلس ، النظامية ، ١٥ ، علي ظريف الأعظمي ، مختصر تاريخ بغداد ١٤ ، ٢٠ ـ ٢١ ، أحمد أمين ، ضحى الإسلام ٦٢/٢ ، لامنس ، دور العلم وبيوت الحكمة في المشرق ، سنة ٣٨ ، العدد ، ٢ ـ ٣ ص ١٢٩

يستطيعوا تحديده الدقيق ، أما نحن فقد دأبنا على العودة إلى المصادر التاريخية السهلة المنال واستنفدناها لمراجعة الأفكار التي من شأنها أن توحي لنا بنظرة واضحة ومحددة لهذا التاريخ . وكنا أوشكنا مرات كثيرة أن نفقد الأمل في الوصول إلى نتيجة مرضية ، أو بالأحرى أن نقدر على الرواية التفصيلية لهذا التاريخ على شكل دقيق ، وأن نشرحه بوضوح . ونعتقد الآن أننا نستطيع تكوين رأي يبدو لنا برغم كونه بعيداً عن الكمال واضحاً ، ولو لم يكن تام الوضوح .

وننبه القارئ لكي يستطيع مستفيداً متابعة تطور هذه الدراسة إلى أننا سنلجأ خلالها لتفصيل بعض النشاطات التي ربما لاتبدو لأول وهلة ذات صلة لصيقة بالمكتبات في ذاك العصر ، لكنها في الواقع مرتبطة تماماً بهذه المؤسسات . هذه النشاطات ـ باستثناء المعلومات التي تفيد دراستنا عن بيت الحكمة ـ لاتترك أمراً غامضاً إلا وتوضحه :

١ ـ نشاط الترجمة والتأليف تحت إشراف أمناء المكتبات . وهذا النشاط أدى إلى إغناء المكتبات والكشف عن اتجاهاتها .

٢ ـ الاهتمام الذي يكنّه أمناء المكتبات هؤلاء لعلم التنجيم وللمنجمين . وهو اهتمام يحتل قسماً من العناية المقدّمة لبيت الحكمة .

٣ ـ الاهتمام الذي كان يناله أمناء المكتبات هؤلاء من تشجيعهم العلماء ، وكذلك الاجتماع حولهم . فقد كان يجب على العلماء المشاركة في الأعمال التي تقوم بها بيوت الحكمة .

وستتناول دراستنا في نهاية هذا التمهيد مختلف أوجه الموضوع .

عندما شرع المسلمون في فتوحاتهم ، لم يكن معهم من الكتب المخطوطة سوى

القرآن الكريم ، ثم وجدوا أنفسهم على مدار هذه الفتوحات تجاه شعوب مثقفة في أيديها كتب تسترشد بها في حياتها العلمية والعملية والأخلاقية على السواء ، ما أعار الفاتحون هذه الكتب اهتمامهم بادئ الأمر ، لكنهم شعروا فيما بعد بالحاجة إلى العناية بها على الطريقة التي سلكوها في الحديث الشريف والشعر والحكم والأمثال ، والتي بدأ النابهون منهم بإملائها على طلابهم[1] . وقد أنشؤوا يوقنون أن المؤسسات الملكية القائمة آنذاك تلائم ما خصصت له ، وهو إيداع الكتب في مكان يحمل اسماً عرّبوه بكلمة (بيت الحكمة) ، أو (خزانة الحكمة) ، ولكنّ هذه الكلمة كانت غير مناسبة ولا مقبولة في مكان لخزن الكتب . فلم يحجموا قط أن يبتكروا على غرار هذا المألوف مؤسسة أطلقوا عليها هذا الاسم ، كانت تتلقى الكتب التي ترد من مغانم الفتوح ، كما كانت تتسلم المؤلفات التي يضعها أو يمليها العلماء المسلمون .

أول بيت من بيوت الحكمة عرفناه كان لمعاوية الأول ، كما بيّن عثمان بن سعيد الدارمي (٢٠٠ هـ/٨١٥ م ـ ٢٨٠ هـ/٨٩٣ م) في المناظرة التي جرت بينه وبين بشر المريسي (ت ٢١٨ هـ/٨٣٣ م) . والمؤسف أننا لا نملك من تلك المناظرة إلا الحجج التي قدمها الدارمي وحده ، قال الدارمي :

« وادّعى المعارض أيضاً أنه سمع أبا الصلت يذكر أنه كان لمعاوية بن أبي سفيان بيت يسمى بيت الحكمة . فكلما وجد حديثاً ألقاه فيه ، ثم رُويتْ بعدُ »[2] .

أراد بشر بمشاركته في هذا العمل أن يبيّن أنّ من بين الأحاديث الشريفة عدداً وافراً رُوي دون الوثوق بصحته ، ويضيف الدارمي : « فهذه الحكاية

---

(١) انظر لهذا الموضوع : الخطيب البغدادي ، تقييد العلم ، ولنا فيه مقدمة بالعربية ص ١٩ ـ ٢٠ . وانظر أيضاً ماكنسون ، الكتب والمكتبات العربية في العصر الأموي في المجلة الأمريكية للغات والآداب السامية مج ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤

(٢) ردّ الدارمي ١٣٥

لانعرفها ولا نجدها في الروايات . فلا ندري عمن رواها أبو الصلت فإنه لا يأتي به عن ثقة . فقد كان معاوية معروفاً بقلة الرواية عن رسول الله ﷺ ، ولو شاء لأكثر إلا أنه كان يتقي ذلك . ويدلك قلة رواية معاوية عن النبي ﷺ - وكان كاتبه - عن تكذيب ما رويتَ عن أبي الصلت . فإن كنتَ صادقاً فاكشف عن إسناده ، فإنك لاتسنده إلى ثقة » . لانعرف طبعاً الجواب الذي استطاع به بشر الرّد عليه ، ولم يكن ممكناً الحصول على أخبار عن أبي الصلت ، استناداً إلى البحوث التي قمنا بها في هذا الموضوع . ونحن نعتقد على كل حال أن حكاية بشر يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار . أولاً لأن الدارمي لم يتهم أبا الصلت بالكذب . ولو كان لديه أدنى شك في ذلك ماكان ليتأخر عن التصريح به ، فهو لا يتهمه إلا بنقله عن غير ثقة . وثانياً لأنّ ردّ الدارمي بقلة رواية معاوية لا يضعف هذه الحكاية . فهي لاتدعي أنّ الأحاديث التي رويت عن معاوية ماهي إلا أحاديث مكتوبة رويت متأخرة ، وربما حدث ذلك بعد عصر معاوية بزمان ومهما يكن أمر هذه الأحاديث ، فإننا لانستطيع توجيه اتهامات كاذبة لحكايات أبي الصلت ، تلك الحكايات التي تخبرنا بوجود بيت للحكمة لمعاوية ، وعلى كل حال وحسب ردّ الدارمي فلا يُشكك بوجود هذا البيت . بل على العكس ، فإن خبر هذا البيت يؤيده خبر في مكان آخر . يقول المسعودي بعد أن يصف ما يقوم به معاوية من أعمال في يومه : « ينام ثلث الليل ، ثم يقوم فيقعد ، ويحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها والحروب والمكايد ، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون ، وقد وكلوا بحفظها وقراءتها »[1] .

ويظهر أن معاوية كان يستأجر مستخدمين ليحفظوا الكتب التي جمعها ويقرؤوها عليه ، ونستنتج بالضرورة وجود هذه الخزانة عنده .

---

(١) مروج الذهب ، ٧٢/٢ ، القاهرة ، ١٣٤٩ هـ .

كانت هذه الخزانة تتلقى مؤلفات مثل كتاب عُبيد بن شريّة[1] الذي وضعه بطلب من معاوية . وقد كان بيت الحكمة زمن هذا الخليفة مؤسسة واضحة الصورة .

وانتقلت الكتب المودعة في بيت الحكمة بقصر الخليفة الأموي الأول من أيدي وارثيه ، فآلت مع القصر إلى خالد بن يزيد بن معاوية[2] الذي باع القصر إلى عبد الملك بن مروان حوالي سنة ٦٥ هـ / ٦٨٤ م[3] . ويجب علينا ونحن نقدر حبّه للكتب أن نؤكد أنه حفظ بيت الحكمة . وذكر أنه كان مولعاً بالكتب[4] يكنّ لها عناية خاصة[5] ويروى أنه كان يحب أن يقول : « ما أنا من العلماء ولا من الجهال ، لم أصنع سوى أن جمعت الكتب »[6] أكان يرضى مع هذه الدرجة العالية من محبته للكتب أن يرى بيت الحكمة ينتقل إلى شخص آخر ؟

ومحبته للكتب هي التي دفعت بعض معاصرينا إلى التأكيد على أنّ خالد بن يزيد كان أول من أنشأ خزانة عامة للكتب في الإسلام[7] . ولم يذكروا مع ذلك المراجع التي اعتمدوا عليها ، وإنما تناقلوه دون الانتباه إلى نصّه الأصلي من الكتب القديمة . والحق يقال : لم يكن في ذاك العصر خزانة عامة أبداً ، وأما بيوت الحكمة فهي كما سنرى مؤسسات شبه عامة .

---

(١) الفهرست ، القاهرة ، ١٣٤٨ هـ ، ١٣٢ ، ولهذا الكتاب نسخ مختلفة متعارضة ، طبع إحداها كرنكو .

(٢) عن مكتبة خالد بن يزيد انظر كرنكو ، مادة كتابخانة في الموسوعة الإسلامية ؛ ماكنسون ، الكتب العربية ، المجلة الأمريكية للغات والآداب السامية ، مج ٥٢/٥٣ ـ ٥٦

(٣) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ٢٤٢/١

(٤) ابن حجر ، تهذيب التهذيب ١٢٩/٣

(٥) ابن عساكر ١١٧/٥ ، إرشاد ١٦٥/٤ ، وفي تاريخ حلب لابن العديم ترجمة طويلة ومهمة لخالد بن يزيد ، ساراي ، ٢٩٢٥ ، ١١٠/٥

(٦) ابن عبد البر ، جامي ، ١٣٢/١

(٧) كتابخانة في الموسوعة الإسلامية ١١٠٥/٢

ومهما يكن من أمر هذه الخزانة فإنّ حب خالد للعلم والكتب يستحق أن نقف عنده . وخالد بدون أدنى شك هو الذي عكف في العصر الأموي على جمع الكثير من الكتب وعلى نشر علوم الأقدمين . وتصادفنا مع ذلك هنا عقبة يجب التغلب عليها ، وهي أن الأخبار عن محبة خالد للكتب مملوءة باستطرادات تتعلق بعنايته بالصناعة[1] وتأليفه فيها وترجمته لكتبها . وبالتالي فأخبار علم الصناعة ونشأته ميدان واسع فسيح بعيد الغور صعب الاجتياز لا تؤتمن أخباره والمؤرخون يتضاربون فيها فلنحاول جلاء تضاربهم بما نقدر عليه .

قيل إن خالداً تعلّم الكيمياء فأتقنها وألف فيها الكتب . ويرى صاعد أنه : « كان بصيراً بالطب والكيمياء ، وله في الكيمياء رسائل وأشعار بارعة دالة على معرفته وبراعته فيها »[2] . ويؤيد هذا العديد من الكتّاب غيره[3] . وهو ادعاء غريب لا يصدّق ؛ إذ كيف يستطيع خالد تأليف الرسائل والمنظومات والكتب العظيمة ذات الموضوع الباهر في هذه المادة الغنية في رموزها ومصطلحاتها قبل أن تتمكن اللغة العربية من التآلف مع اللغة العلمية ، وقبل أن تتبنى تعابيرها وقبل أن تكتسب الشكل العلمي . ونحن نعتقد مع البروفسور روسكا[4] أن مثل هذا الزعم هو افتراء محض ، وتمويه على من يودّ درس ذلك العلم فيدفع إليه باعتقاده ورود مادته من علماء فحول اشتهرت أسماؤهم وعرف صدقهم . وشك بها بعض

---

(١) أي الكيمياء .

(٢) طبقات الأمم ٩٩

(٣) انظر لهذا الموضوع ، جابر بن حيان ، جـ ١ ، نصوص مختارة ، نشرها بول كراوس ، باريس ، ١٩٣٥ م ، ص ٥٢٩ ؛ الوافي ، أحمد الثالث ، ٢٩٢٠ ، مج ١٠١/١٢/أ ؛ عيون التواريخ ، أحمد الثالث ٢٩٢٢ ، مج ١٤٠/٣ ؛ الجلدكي ، نهاية الطلب ، الظاهرية ، الكيمياء ١٤٢/١ ؛ خليفة ، ط استانبول ٤٩٤/٢ ؛ معجم المصنفين ٣٥٢/١ ؛ روضة الجنات ١٥٦ ؛ الفهرست ٣٥٤ . وانظر أيضاً ماكنسون ، الكتب العربية ، المجلة الأمريكية للغات والآداب ٥٢/٥٤ ـ ٥٨

(٤) الكيميائي العربي خالد بن يزيد .

الكتّاب القدامى[1] . فتوصل ابن خلدون وهو يتفحص هذه الأقوال بطريقته التاريخية إلى أن يقول[2] : « وربما نسبوا بعض المذاهب والأقوال فيها لخالد بن يزيد بن معاوية ربيب مروان بن الحكم . ومن المعلوم البيّن أن خالداً من الجيل العربي ، والبداوة إليه أقرب ، فهو بعيد عن العلوم والصنائع بالجملة ، فكيف له بصناعة غريبة المنحى ، مبنيّة على معرفة طبائع المركبات وأمزجتها !؟ وكتب الناظرين في ذلك من الطبيعيات والطب لم تظهر بعد ، ولم تترجم » . وابن خلدون يبالغ نوعاً ما . وإن صحّ أنّ خالداً لم يتمكن من التأليف في الكيمياء ، فمن المعقول أنه رغب في تعلمها بالممارسة العملية . وههنا شاهد إيحائي : يروي المدائني هذه الطرفة فيقول[3] : « قدم محمد بن عمرو بن سعيد بن العاص الشام غازياً ، فدخل على عمته آمنة امرأة خالد ، فقال خالد : ما يقدم أحد من الحجاز إلا اختار المقام عندنا على المدينة ، فقال محمد : وما يمنعهم وقد قدموا المدينة على النواضح [الإبل] (يعني مروان الأول) فنكحوا أمك ، وسلبوك ملكك ، وفرغوك لطلب الحديث وقراءة الكتب وطلب ما لا يُقدر عليه . يعني الكيمياء » . فهذا الخبر المذكور في منتصف القرن الثاني / الثامن الميلادي له مدلول آخر ، وهو أنّه ربما يُشكُّ في نسبة المعرفة الواسعة بالكيمياء إلى خالد ، ولكنه يقيم الدليل على هذا الاهتمام الذي يحمله خالد للكيمياء ، ولمطالعة الكتب ، وللعلوم على وجه العموم[4] . وعنايته بممارسة الكيمياء يجب ألا تكون فيما أرى موضع شك ، إنها تحتمل تفسيراً آخر ، وهو تأليف الكتب العظيمة في الكيمياء في ذاك العصر .

---

(1) الذهبي (أياصوفيا ٣٠١٦) حوادث عام ٩٠ ، ومخطوطة الأحمدية بحلب ، ١٢١٩ هـ ، ١٩

(2) المقدمة ، القاهرة ١٩٣٠ م ، ٤٤٧ ، بيروت ١٩٦١ م ط ٢ ، ١٧٧/١ ـ ٩٧٨

(3) الأغاني ٨٦/١٦ ، البلاذري ، أنساب الأشراف ٤ ، ب / ٦٥

(4) انظر العسكري ، الأوائل ، حكيم الله ٦٨٩ ، ١٩٠ ، الفهرست ٣٥٤

ولنذهب إلى أبعد من ذلك : فنؤكد مع المؤلفين العرب القدماء أنّ خالداً أنشأ حركة الترجمة ، ورعى عدداً كبيراً من العلماء ، إن لم يكن هو الأول بينهم . ولئلا نوسم بالسطحية في مشكلة جد شائكة نوقشت بدقة ، فقد رجعنا لمؤلف عاش في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ، حين كانت الأسطورة المنسوجة حول خالد غير مكتملة بعد . قال الجاحظ : « كان خالد أول من ترجم كتب النجوم والطب والكيمياء »[1] وكان قول ابن النديم في القرن الرابع / العاشر صدى لهذا الكلام حينما قال : « وهو أول من تُرجم له كتب الطب والنجوم وكتب الكيمياء »[2] . ويذكر هذا المؤلف في عداد المترجمين اصطفان القديم معبراً عن موضوعه بالعبارة التالية : « ونقل لخالد بن يزيد بن معاوية كتب الصَّنعة وغيرها »[3] وعلى حدّ تعبير هذا المؤرخ : « وعندما خطر ببال خالد الصنعة أمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مدينة مصر وقد تفصّح بالعربية ، وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي إلى العربي . وهذا أول نقل كان في الإسلام من لغة إلى لغة »[4] . وابن النديم يحكي هذا عن العصر الذي بدأت فيه الأسطورة تتضح . ويمكن أن نرفض ما تقدم بشأن ذلك ، لو لم يعبّر الجاحظ بصورة موحية عن الجدل الذي تخيله قائماً بين أنصار الأمويين وخصومهم . جعل هؤلاء الخصوم يتكلمون على النحو التالي ، حيث يُشعر برغبتهم في المفاخرة : « وكان خالد أول من أعطى التراجمة والفلاسفة ، وقرّب أهل الحكمة ورؤساء أهل كل صناعة ، وترجم كتب النجوم والطب والكيمياء والحروب والآلات والصناعات »[5] . ومع أنه لم يلمّح إلى (بيت الحكمة)

(١) البيان والتبيين .

(٢) الفهرست ٣٥٤

(٣) الفهرست ٢٤٤

(٤) الفهرست ٢٤٢ ، وخليفة ٩٥/٣ ، انظر الصفدي ، شرح لامية العرب ٤٦/١ ، القلقشندي ، صبح الأعشى ٤٢٠/١

(٥) ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة ٤٧٦/٣ ، ورسائل الجاحظ ، نشر السندوبي ٩٣

فإن رواية الجاحظ هذه لم تعرفنا كثيراً بهذا الموضوع . وقد ذكرنا من قبل ، وسنذكر كثيراً ، أنّ اجتماع العلماء والمترجمين قد نما حول (بيت الحكمة) ، وكان على علاقة مباشرة مع تلك المؤسسة . فإذا أضفنا إلى هذا أنّ خالداً كان مولعاً بالكتب ، أمكننا أن نستنتج ببساطة أنه وهو يساند حركة الترجمة ، ويجمع حوله العلماء والفلاسفة والأساتذة في مختلف أنواع العلوم ، إنما يؤكد صفته ، وهي أنه يهوى الكتب ، وأنه يرعى (بيت الحكمة) . وكان ينبغي عليه أن يعطي هذه المؤسسة شكلها المحدد الذي لم ينقطع عن التطور .

ويمكننا التأكيد على أن مكتبة خالد اشتملت بشكل عام على مجموعات مختارة من الحديث الشريف ـ فقد كان محدّثاً ـ وعلى كتب في الكيمياء والطب والفلسفة ، بالإضافة إلى الكتب التي ورثها عن جده .

ويختفي اسم (بيت الحكمة) منذ عهد معاوية . وإذا اعتبرنا خالداً وريثاً لهذه المؤسسة لم يعد لدينا بدءاً من هنا وحتى عصر هارون الرشيد أيٌّ إشارة موضحة تتعلق ببيت الحكمة . يجب علينا إذن ونحن ندرسها أن نتجاوز العصر الذي يفصل خالداً عن هارون الرشيد . أو أن نرى بالأحرى في ذاك العصر مرحلة تطورت فيها هذه المؤسسة . يبدو لنا ـ وإن لم يحدثنا أحد عن (بيت الحكمة) في ذاك العصر ـ أنه لا يجب الاعتقاد بعدم وجوده ، ويمكن مثلاً أن يكون باسم (خزانة الكتب) . ويجب ألا نهمل على كل حال دراسة العناصر التي يتألف منها ، لمعرفة : المكتبة والترجمة وتأليف الكتب وحركة التنجيم ، إلى الحد الذي يقوده ليكون في رعاية الخلفاء .

اكتملت المكتبة بشكل نهائي في خلافة الوليد بن عبد الملك (ت ٩٦ هـ / ٧١٤ م) فكان لها خازن وناسخ ماهر ، وكان لكليهما لقب معيّن . فنجد اسم أول

خازن للكتب عند العرب في كتاب الأنساب للسمعاني[1] حيث لقب بـ (سعد المصاحفي) . وذكر في معرض الحديث عن مولاه : « زياد مولى سعد صاحب المصاحف » تلميذ ابن عباس (ت ٦٨ هـ / ٦٨٧ م) .

ونرى ابن النديم يذكر اسم هذا الخازن دون أن يذكر لقبه ، في المقطع التالي[2] : « أول من كتب المصاحف في الصدر الأول ويوصف بحسن الخط خالد بن أبي الهيّاج ، رأيت مصحفاً بخطه ، وكان سعد نصبه لكتْب المصاحف والشعر والأخبار للوليد بن عبد الملك » . فهذا النص عظيم الدلالة لأنّ سعداً يظهر فيه مكلفاً بالإشراف على مكتبة الوليد . ويحقق اللقب الذي منح إياه : (صاحب المصاحف) ، ويجب أن نلاحظ أنّ كلمة المصاحف التي سوف تعني فيما بعد النصّ الكامل للقرآن الكريم حصراً ، كانت تعني بشكل عام في ذاك العصر الكتب المجلدة ، فضلاً عن معناها الخاص بالقرآن الكريم المجلد . وعندنا لحسن الحظ شاهد قطعي يروى في تنويه مثير عن مكتبة الوليد نفسها ، وهو التالي : « من جملة ما وجد في الأندلس اثنان وعشرون مصحفاً محلاة ، كلها من التوراة ، ومصحف آخر محلى بفضة فيه منافع الأحجار والأشجار والدواب وطلسمات عجيبة ، فحمل ذلك إلى الوليد ، وكان في المصاحف مصحف فيه عمل الصنعة وأصباغ اليواقيت »[3] . لا يثبت هذا المقطع أن المصاحف تعني الكتب المجلدة فحسب ، بل يشير أيضاً إلى واحدة من الوسائل التي كانت مكتبة الوليد تغتني بواسطتها . ويشرح الاهتمامات الضرورية التي تستلزمها ، ويفسّر تطور حركة الترجمة في العصر الأموي .

---

(١) ٥٢١/ب عند ابن أبي حاتم .

(٢) الفهرست ٦ ، خليفة ، طبعة استانبول ٤٦٦/١ ، المقريزي ، الخبر عن البشر (أياصوفيا ٣٣٦٥) ٢١/٤

(٣) ابن عبد البر ، القصد والأمم ، القاهرة ١٣٥٠ هـ ، ٢٤

واستمرّت بعد الوليد حركة جمع الكتب والترجمة ، فهذا (ماسرجويه) السرياني لغةً اليهودي ديانةً « تولى لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ترجمة كتاب (أهرُن القس) في الطب ، وهو كنّاش فاضل من أفضل الكنانيش القديمة »[1] . ويدعي ابن جلجل الأندلسي « أنه تولى في أيام مروان الأول تفسير كتاب (أهرن القس بن أعين) إلى العربية ، ووجده عمر بن عبد العزيز في خزائن الكتب ، وأمر بإخراجه ، ووضعه في مصلاه واستخار الله في إخراجه إلى المسلمين ليُنتفع به ، فلما تمّ له في ذلك أربعون يوماً أخرجه إلى الناس ، وبَثَّه في أيديهم »[2] . وهذه الترجمة مرفوضة بشكل قاطع ، مع أنها أفادت المكتبات ؛ فإن الأعمال التي نقلها ابن جلجل حصراً لا يمكن الاعتماد عليها أحياناً ، وخاصة إذا كانت مخالفة للأعمال التي ينقلها الآخرون .

كما ترجمت في نهاية الخلافة الأموية كتب أخرى[3] ، اغتنت منها مكتبات الأمويين كثيراً . وبعد موت الوليد الثاني (ت ١٢٥ هـ / ٧٤٢ م) حُملت الدفاتر التي كانت تحتويها مكتبته على دواب عديدة ، وهي الدفاتر التي تضم في معظمها أحاديث شريفة وروايات ابن شهاب الزهري[4] .

وهكذا كانت المكتبات الأموية مزوّدة بكتب الحديث الشريف والشعر والتاريخ والكيمياء والنجوم والطب ، وبعدد قليل من مؤلفات الفلسفة . وكان أمناء المكتبات والنساخ يعيّنون فيها ليغذّوها من إنتاجهم ؛ وربما كان المترجمون أنفسهم يعملون فيها ، أو على الأقل كانوا يغنونها بأعمالهم .

☆ ☆ ☆

---

(١) صاعد ١٥٧

(٢) القفطي ٣٢٤ ، ابن العبري ١٩٢ ، الوافي ، أحمد الثالث ٢٩٢٠ ، ٦/٤/ب

(٣) انظر الفهرست ١١٧ ، ٢٤٥ ، ٣٠٥ ، نللينو ، علم الفلك ١٤٣

(٤) ابن سعد ، الطبقات ٢/٢ ، ١٣٦

انتقلت الدولة إلى أيدي العباسيين سنة ١٣٢ هـ / ٧٤٩ م . ويجب أن نتوقع مع الخلفاء الجدد حماساً أكثر في استحداث المكتبات وتطويرها . وهؤلاء ـ طوعاً أو كرهاً ـ أنصار متحمسون للعقل الفارسي فيما يخص المؤسسات المدنية ، في حين أنّ سابقيهم أبدوا عقلاً مستقلاً تجاه التظاهرات الحضارية . ونلاحظ عندهم اندفاعاً جديداً نحو المكتبات . والخليفة العباسي الثاني أبو جعفر المنصور الذي لم يلبث أن جاء إلى الحكم بعد خمس سنوات من تحول الخلافة إلى يد أخيه « كان مع براعته في الفقه كلفاً بعلم الفلسفة وخاصة في علم النجوم »[١] . فلم يكن عجيباً أن يستفيد من زيارة (جرجس بن جبرائيل) الذي جاء إلى بغداد سنة ١٤٨ هـ / ٧٦٥ م ليعنى به[٢] ، فكلّفه أن يترجم كثيراً من الكتب الطبية[٣] . وترجم له ابن البطريق أيضاً بعض المؤلفات القديمة[٤] . ويقول ابن خلدون : إنّ المنصور كتب إلى ملك الروم أن يبعث إليه بكتب التعاليم مترجمة ، فبعث إليه بكتاب (إقليدس) ، وبعض كتب الطبيعيات[٥] . وهو أول خليفة ـ كما يروي محمد بن علي العبدي الخراساني في كلمة له سنة ٣٢٢ هـ / ٩٣٣ م أمام الخليفة القاهر ـ تُرجمتْ له الكتب من اللغات الأعجمية إلى العربية ، منها كتاب (كليلة ودمنة) ، وكتاب (السندهند) ، وترجمت له كتب (أرسطاطاليس) من المنطقيات وغيرها ، وترجم له كتاب (المجسطي) لبطليموس ، وكتاب (الأرثماطيقي) ، وكتاب (إقليدس) ، وسائر الكتب القديمة من اليونانية

---

(١) صاعد ٩٩ ، خليفة ٢٦/١

(٢) ابن أبي أصيبعة ١٢٣/١ ، ابن العبري ٢١٤ ، العمري ، مسالك الأبصار ، أياصوفيا ، ٣٤٢٢ ، ٩٠ ، وليس صحيحاً ماأكده صاعد ص ٨٠ : أن جبرائيل خدم السفّاح .

(٣) الفهرست ٢٤٤ ، ابن أبي أصيبعة ١٢٣/١

(٤) الفهرست ٢٤٤ ، ابن أبي أصيبعة ٢٠٣/١

(٥) المقدمة ٤٠١

والرومية والفهلويّة والفارسيـة والسريـانيـة[1] . ويجب أن نضيف إلى هـذا العمل الذي قام به المنصور من أجل تشجيع ترجمة العلوم الموروثة عن الأقـدمين العطـاءَ الذي بذله لتطوير حركـة تـأليف الكتب العربيـة . فطلب إلى محمـد بن إسحـاق (ت ١٥١ هـ / ٧٦٨ م) على سبيل المثال أن يؤلف كتاباً لابنـه المهـدي منـذ آدم حتى العصر الذي هو فيه . ولما ألَّف الكتاب وجده الخليفة طويلاً جداً ، فاختصره ابن إسحـاق . وأمّـا الكتـاب الأصلي فقـد أُودع في مكتبـة المنصور[2] . وألَّف لـه عبد الجبار بن عدي أيضاً كتاباً في آداب الحروب[3] .

ويشـابـه هـذا الشكل من عمل المنصور في مجـال الترجمـة والتـأليف مـا فعلـه الأمويـون ، وزاد عليهم العبـاسيـون بعنـايتهم بـالمنجمين . والمنصـور كان يشهـد جلساتهم ويهتم بها كثيراً[4] . وقـد اختـار من بينهم (نوبخت) ـ وجـدُّ الأسرة كان يحمل هـذا الاسم ـ ليكون في خـدمتـه منجماً[5] . وحتى أبو منصـور ـ أبـو يحيى ، منجم المـأمون ـ اشتغل عنـد الخليفـة المنصور منجماً[6] . وسنرى فيما بعـد الروابـط الوثيقة بين عمل المنجمين وبيت الحكمة ، أو بشكل أوضح خضوع هذا العمل لتلك المؤسسة ، حيث كانوا يقيمون .

واهتمّ المهـدي بهـذا العمـل كثيراً . وبرأي (ميشيـل لـوغران) : « وثـق بعلم المنجمين ، ودرسه ، ومارسه . بعث إليه ليون الرابع عندما كان يتعلم ذلـك كتب

---

(١) مروج الذهب ٢٩١/٨ ، الذهبي ، الأحمدية بحلب ١٢٢٠ ، ٣٧/أ السيوطي ، تاريخ الخلفاء ١٥٦ ، وانظر أيضاً ما يتعلق بالترجمة زمن المنصور ، صاعد ١٠٢ ، القفطي ٢٧٠ ـ ٢٧٢

(٢) الخطيب البغـدادي ، تـاريخ بغـداد ٢٢١/١ . كان العمـل في الأصـل منسـوبـاً إلى المهـدي لا المنصور ، والخطيب هو الذي صححه على النحو المذكور .

(٣) الفهرست ٣١٤

(٤) صاعد ٩٩ ، خليفة ٢٦/١

(٥) الخطيب البغدادي ٥٥/١٠ ، ابن العبري ٢١٦

(٦) مروج الذهب ٢٩٠/٨

(جانس وجانارس) خصمي بني إسرائيل ، وقد اغتبط المهدي بها ، وأقبل عليها »[1] . وعيّن منجمين عنده ، يرأسهم (توفيل بن توما) الرهاوي[2] . وكان هذا الرجل في الوقت نفسه صاحب بيت الحكمة على غرار عديد آخرين من المنجمين الذين سنذكرهم عند الحديث عن بيت الحكمة زمن المأمون .

وكان المهدي كأبيه يشجع تأليف الكتب في العربية . وله جمعت مفضّليات الضبي[3] ، وخلاصة عن تربية الطيور[4] .

والكتاب الأخير كان في بيت الحكمة زمن هارون الرشيد[5] . ويجب أن يكون انتقل بالإرث إلى هذا الخليفة ، مثلما انتقلت إليه مكتبة المهدي . كانت كتب بيت الحكمة للرشيد تزداد يوماً بعد يوم . جُلب إليها « مما وُجد بأنقرة وعمورية وسائر بلاد الروم حين سباها المسلمون »[6] . وهذا حدث على الأرجح[7] سنة ١٩٠ هـ / ٨٠٥ م . وقلّد الرشيد يحي بن ماسويه مهمة ترجمة هذه الكتب القديمة ، ووضعه أميناً على الترجمة[8]، ورتّب له كتّاباً حذاقاً يكتبون بين يديه[9] . وتظهر أمامنا مشكلة هامّة لم نتعرض لها إلا من ظاهرها وتبدو في

---

(١) ميشيل لوغران ٢٦٢ «chronique»

(٢) ابن العبري ٢١٩

(٣) الأنباري ، طبقات الأدباء ٦٧

(٤) اهلوردت ، فهرس المخطوطات العربية ، ٢/٦١٩٩

(٥) المرجع السابق .

(٦) ابن أبي أصيبعة ١٧٥/١ ، القفطي ٣٨٠ ، صاعد ٥٠

(٧) الطبري ٧٠/٣ ويروي في هذه السنة فتح هرقلة وأقاليم أخرى بيزنطية . لم يذكر خلالها أية إشارة إلى فتح عمورية وأنقرة .

(٨) انظر الحاشية رقم (١) أعلاه .

(٩) القفطي ٣٨٠ ، والأب بول سباث ، في كتاب (الأزمنة) لابن ماسويه ٢٣٥ . أنكر صحة هذا الخبر الذي بدا له أسطورة أكثر منه حقيقة ، وذلك ربما بسبب الحياة الطويلة التي قيل إنّ يحي أمضاها في خدمة الخلفاء خلال أكثر من ستين سنة . وربما يستبعد هذا الاعتراض عندما نعرف =

السؤال التالي : ماالعلاقات ـ والمقصود هنا عصر الرشيد ـ القائمة بين ترجمة هذه الكتب وبين الحكمة ؟ تحتوي هذه المشكلة على مظهرين مختلفين : الإشراف على حركة الترجمة ، إلى جانب المساهمة بالترجمة بحدّ ذاتها . النقطة الأولى هي ـ ولا شك ـ في العلاقة المباشرة والمستمرة مع بيت الحكمة ، لأنّ هذه المؤسسة التي تحدثنا عن تطورها بالتفصيل كان لها في عصر الرشيد مكانتها الخاصة قبل سنة ١٨٧ هـ / ٨٠٢ م ، وهي تاريخ سقوط البرامكة . وبالتالي ، فقبل حملة بيزنطة كان يكتب فيها للرشيد والبرامكة ناسخٌ يدعى (علاّن الشعوبي) [(١)] .

فعملُ أمين الترجمة إذن ، كما يمكن أن نفترضه يشتمل على :

١ ـ دراسة المؤلفات المكتسبة من الفتوحات ، ليختار من بينها تلك التي يجب أن تُسلّم للترجمة .

٢ ـ توزيع المؤلفات على المترجمين لنقلها .

٣ ـ مراقبة عمل المترجمين ، وإيجاد الانسجام الضروري فيه .

٤ ـ تقديمه إلى بيت الحكمة لأخذ الموافقة النهائية ، وهناك يكتبه الناسخون ويتم إيداعه .

أنحتاج إلى القول : إن تنظيماً كهذا لا يعطي ثماره إلا إذا ارتبط مباشرة ببيت الحكمة ، مركز كل ماأشرنا إليه ؟ ويمكننا أن نستنتج أنّ على أمين الترجمة أن ينجز عمله كمدير في بيت الحكمة . ويقوم في هذه المؤسسة مكتب الترجمة ، حيث يعمل الكتّاب المهرة .

= أن ليون الإفريقي يعيّن سنة ٧٧٧ م تاريخاً لولادة يحي (ليكلر ١٠٥/١) بحيث إنه يجب أن نضيف ٣١ سنة على موت الرشيد . هذا العمر كما نراه لا يثبت قصة عمله زمن هذا الخليفة .

(١) الفهرست ١٠٥

وفيما يخصّ النقطة الثانية ، فليس من الضروري أن تتم الترجمة داخل تلك المؤسسة . والمترجم هنا يشبه الكاتب الذي يستطيع أن يؤلف كتابه في بيته ، أو خلال رحلة له[١] ، أو في ظروف أخرى كذلك ، ثم يقدمه بعدئذ إلى المكتبة المهتمة به . ومن المفيد أن يكون المترجم قريباً من بيت الحكمة ، حيث يمكنه الرجوع إلى الكتب باستمرار ، والاستفادة من غنى المكتبة . ومع ذلك فنستطيع التأكيد تماماً أنّ (بيت الحكمة) كان مركز الترجمة .

واسم (خزانة الحكمة) مرادف لبيت الحكمة[٢] ، وهو يظهر للمرة الأولى في النص التالي[٣] : « أبو سهل الفضل بن نوبخت . فارسي الأصل ... كان في خزانة الحكمة لهارون الرشيد ، ولهذا الرجل نقل من الفارسي إلى العربي ، ومعوّله في علمه على كتب الفرس » . وهنا يلوح هذا السؤال : أي عمل كان ينجزه لبيت الحكمة ابن المنجم المنصور ؟

ويجيب ابن القفطي[٤] بالجواب التالي : « كان في زمن هارون الرشيد وولاه القيام بخزانة كتب الحكمة » . ولا يمكننا أن نأخذ هذا القول لنبني عليه ، لأنه ليس إلا إشارة من ابن القفطي مبنية على كلام ابن النديم الذي أخطأ الفهم ، فقال : « أبو سهل الفضل بن نوبخت ، فارسي الأصل ، وقد ذكرت نسب آل نوبخت في كتاب (فصل) المتكلمين ، واستقصيته ، وكان في خزانة الحكمة ... إلخ » . وها هو ذا كلام ابن القفطي المطابق : « الفضل بن نوبخت أبو سهل ، فارسي الأصل ، مذكور مشهور ، من أئمة المتكلمين ، وذكر في كتب المتكلمين ، واستوفى نسبه من ذكره ، كمحمد بن إسحاق النديم وأبي عبد الله

---

(١) كان حنين بن إسحاق يترجم وهو مرتحل : برجشتراسر ، حنين ص ١٨

(٢) كلا التعبيرين كان مستعملاً بدون تمييز ، انظر الفهرست ١٠ ، ١١٠ ، ١٢٠ ، ١٢٥

(٣) الفهرست ٢٧٤

(٤) القفطي ٢٥٥

المرزباني » . فنرى الاختلاف بين المقطعين . فالفضل ليس إمام المتكلمين البتة . ما هو إلا منجم . وأبو سهل بن نوبخت بن إسماعيل بن علي هو الذي كان ذاك الإمام . فخلط ابن القفطي بين الشخصين ، وشرح نص ابن النديم شرحاً لا يمكننا أن نقبله بادئ الأمر . ويبدو لنا أن الفضل كان يعمل منجماً في (بيت الحكمة) ، على غرار أولئك الذين كانوا عند المأمون[1] . ومؤلفاته السبعة التي ذكرها ابن النديم تناولت كلها علم التنجيم . ويمكن أيضاً أن يكون قد كلف بالنقل عن الفارسية كما كلّف يوحنا بن ماسويه بالنقل عن اليونانية . وأما ذاك الذي كان صاحب بيت الحكمة ، فيبدو لنا أنه سلمان الملقب بصاحب بيت الحكمة . يشير لنا بذلك ابن عبد ربه[2] عندما يقول : « دخل جعفر بن يحي [البرمكي] في زي العامة وكتان النباهة على سلمان صاحب بيت الحكمة ، ومعه ثمامة بن أشرس ، فقال ثمامة : هذا أبو الفضل . فنهض إليه سلمان فقبّل يده ، وقال : بأبي أنت ! مادعاك إلى أن تحمِّل عبدك هذه المنة التي لاأقوم بشكرها ، ولا أقدر أن أكافئ عليها ! » . فسلمان إذن يجب أن يكون صاحب بيت الحكمة زمن هارون الرشيد . من هذه الخلاصة نشك أن يكون سلمان صاحب بيت حكمة المأمون[3] . ومن هنا جاءت شهرته . ولا يحتمل أنه حصل على هذا اللقب كما يبدو لنا ، بل الصحيح في حياته كلها أنه بعد عشرين عاماً من زيارة جعفر أصبح ذا شأن عنده . فضلاً عن ذلك ، فقد كان صاحب بيت الحكمة زمن الرشيد ثم زمن المأمون . ولم يكن الوحيد الذي خدم الخليفتين في هذه المؤسسة . ويروي ابن النديم أن نسّاخاً يدعى « علاّن الشعوبي ، كان ينسخ في بيت الحكمة للرشيد والمأمون والبرامكة »[4] ويمكن من هذا النص أن نستنتج بشكل نهائي أنّ بيت

---

(١) انظر الصفحة ٤٠ وما بعد .

(٢) العقد الفريد ١٢٧/٢

(٣) انظر ص ٣٩

(٤) الفهرست ١٠٥

الحكمة زمن الرشيد هو نفسه زمن المأمون ، وكان على المأمون أن يحتفظ بأولئك الذين كانوا يعملون أيام أبيه ، أو يستدعيهم إلى عملهم .

ولنلخص الآن ماقلناه : كان لدى معاوية بيت للحكمة انتقل بالإرث إلى حفيده خالد بن يزيد . وهذا أغناه ليس بكتب الكيمياء التي نسبت إليه خطأ ، بل بالترجمات التي أنجزت له . ودعا إليه الحكماء (الفلاسفة) والمهرة . ثم اختفى اسم بيت الحكمة من بعده . لكنّ مكتبة الخلفاء الأمويين تطورت فكان لها أمناؤها ونسّاخها . وقد جعل المنصور والمهدي يجلبان مؤلفات الروم ويسلّمانها للترجمة . واهتما بالمنجمين ، وربطاهم بعملهم . ووقف الرشيد عنايته على الكتب التي ورثها عن أبيه ، وزاد فيها من الكتب التي حصل عليها خلال فتوحاته في بلاد الروم . وأُسس بيت الحكمة بشكله النهائي في زمنه ، فقد عُيّن فيه منجم ، وعيّن كذلك مترجمون يرأسهم أمين الترجمة . وظهر بيت الحكمة فجأة لأعين المؤرخين في زمن خلافته . وقد جاؤوا متأخرين قليلاً ليكشفوا عن أصوله .

ثانياً ـ ازدهار بيت الحكمة :

وفاق المأمون أباه « وكان إماماً في كل فن من العلوم العربية والفلسفة والنحو والشعر والحديث والطب وعلوم الأوائل والنجوم والأرصاد »[١] . وألّف فوق ذلك بعض الكتب والرسائل[٢] و « تمم مابدأ به جدّه المنصور ، فأقبل على طلب العلم في مواضعه ، واستخرجه من معادنه »[٣] . واجتهد في قراءة الكتب القديمة ، وأمعن في درسها ، وواظب على قراءتها ، فافتنّ في فهمها ، وبلغ درايتها[٤] .

(١) المرآة ١٥٠٥ ، ١/٩٣ ، ٩٤/ب

(٢) الفهرست .

(٣) صاعد ١٠٠ ، ابن العبري ٢٣٦ ، خليفة ٢٦

(٤) مروج الذهب ٣٠٠/٨

وقد اهتم المأمون بالعلم القديم غاية الاهتمام[1] ، مما أدى إلى ولادة أسطورة حوله . ونعتقد أنه لشرح اهتمامه المفرط في اقتناء كنوز هذا العلم يجب أن نبتهل إلى حُلم رأى في أثنائه أرسطو ، يشجعه على دراسة الفلسفة ، سبب السعادة[2] .

وبرغم ماقد يقال عن صحة هذا الحلم ، وما يبنى عليه من نتائج ، فإن المأمون أظهر نشاطاً ملحوظاً في البحث عن الكتب اليونانية القديمة . واتخذ هذا النشاط ثلاثة أشكال مختلفة : هبة إمبراطور الروم ، وعمل البعثة المكلفة بالبحث عن الكتب المهمة في أرض الروم ، وأخيراً اقتناء الكتب المحفوظة عندهم بعناية فائقة .

وفي البداية « داخلَ المأمون ملوك الروم ، وأتحفهم بالهدايا الخطيرة ، وسألهم صلتَهَ بما لديهم من كتب الفلاسفة ، فبعثوا إليه بما حضرهم من كتب أفلاطون وأرسطاطاليس وأبقراط وجالينوس وإقليدس وبطليموس وغيرهم من الفلاسفة »[3] .

ورأى المأمون فائدته في اقتناء الكتب القديمة منذ الأيام الأولى لخلافته ، فكان ينبغي لهذا الاقتناء أن يأخذ مكانه قبل دخوله بغداد سنة ٢٠٤ هـ / ٨١٩ م ، ولكنه على كل حال لم يرو ظمأه فقام باقتناء آخر . و « كتب يوماً إلى ملك الروم ، يسأله الإذن في إنفاذٍ ما من مختار من العلوم القديمة المخزونة المدخرة ببلد الروم ، فأجاب إلى ذلك بعد امتناع ، فأخرج المأمون لذلك جماعة ، منهم الحجاج بن مطر وابن البطريق وسلمان صاحب بيت الحكمة

---

(١) عن الأسباب البعيدة لنشاطات المأمون العلمية انظر أحمد أمين ، ضحى الإسلام ٢٦٥/١ ، ٢٦٧

(٢) ونجد الروايات المختلفة لهذا الحلم في الفهرست ٢٤٣ ، القفطي ٢٩ ، ابن أبي أصيبعة ١٨٦/١ ، ١٨٧ ؛ ابن نباتة ، سرح العيون ، القاهرة ١٢٧٨ هـ ، ١١٢ ـ ١١٣ ؛ العمري ، مسالك الأبصار ، أياصوفيا ٣٤٢٢ ، ١١٠/ب .

(٣) صاعد ١٠٠ ، ابن العبري ٢٣٦ ، خليفة ٢٦/١

وغيرهم ، فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا ، فلما حملوه إليه أمرهم بنقله فنقل ... »[1] .

أرّخ المقريزي دون أن يشير إلى مصدره ودون أن يدخل في التفاصيل إرسال البعثة ببضع سنوات بعد عام ٢١٠ هـ / ٨٢٥ م[2] ، وهذا في نحو سنة ٢٠٤ هـ / ٨١٩ م ، تاريخ دخول المأمون بغداد ، وهو التاريخ الذي وقعت فيه هذه الحوادث .

والاقتناء الثالث جُلب من طريقين : كان الأول منحة من حاكم قبرص ، والآخر هدية من إمبراطور بيزنطة .

ويؤكد سبط ابن الجوزي أنّ المأمون جلب من قبرص مؤلفات الفلاسفة اليونان . ويقدم لنا ابن نباتة التفاصيل التالية عن هذا الاقتناء : « ولما هادن المأمون صاحب جزيرة قبرس ، أرسل إليه يطلب خزانة كتب اليونان ، وكانت مجموعة عندهم في بيت لا يظهر عليها أحد أبداً ، فجمع صاحب هذه الجزيرة بطانته وذوي الرأي ، واستشارهم في حمل الخزانة إلى المأمون ، فكلهم أشاروا بعدم الموافقة إلا مطراناً واحداً ، فإنه قال : الرأي أن تعجل بإنفاذها إليه ، فما دخلت هذه العلوم العقلية على دولة شرعية إلا أفسدتها ، وأوقعت بين علمائها . فأرسَلَها إليه ، واغتبط المأمون بها »[3] .

وأخبر طاشكبري وابن القفطي عن الطريق الثاني بأخبار مختلفة صغيرة[4] .

---

(١) الفهرست ٢٤٣ ، ابن أبي أصيبعة ١٨٦/١ ، الوافي ، أحمد الثالث رقم ٢٩٢٠ ، ٨١/ب .

(٢) الخطط ، ٢٥٧/٢ ، عبّر عن فكرته بهذه العبارات : « وقد كان المأمون لما شغف بالعلوم القديمة بعث إلى بلاد الروم من عرب له كتب الفلاسفة وأتاه بها في أعوام بضع عشرة سنة ومئتين من سني الهجرة » .

(٣) ابن نباتة ١٣٠ ، الصفدي ، شرح لامية العرب ٤٦/١

(٤) مفتاح السعادة ٢٤٢/١

وقد نسب الأول وبعده حاجي خليفة[1] الأعمال السابقة إلى واحد من أباطرة الروم ، كان يملك مؤلفات أرسطو في مستودع محفوظ في أثينا : « أرسل المأمون إلى الملك المذكور وطلب الكتب فلم يرسلها ، فغضب المأمون ، وجمع العساكر ، وبلغ الخبر إلى الملك ، فجمع البطاريق والرهابين ، وشاورهم في الأمر ، فقالوا : إن أردت الكسر في دين المسلمين وتَـزَلْـزُلَ عقائـدِهم فـلا تمنعهم عن الكتب ، فاستحسن الملك ذلك ، وأرسلها إلى المأمون » .

ويستند ابن القفطي[2] على وثيقة لم يعرّفنا بمصدرها ، مشيراً إلى إمبراطور الروم الذي « اغتمّ لذلك وقال : يطلب مني ملك المسلمين علم سلفي من يونان فلا أجده . وأخذ في السؤال والبحث ، فحضر إليه أحد الرهبان المنقطعين في بعض الأديرة النازحة عن القسطنطينية ، وقال له : عندي ماتريد . فقال له : أدركني . فقال : إنّ البيت الفلاني في موضع كذا ، الذي يقفل عليه كل ملك قفلاً إذا مُلِّك مافيه ؟ وإنما في ذلك الموضع هيكل كانت يونان تتعبد به قبل استقرار ملة المسيح ، فلمّا تقررت ملته بهذه الجهات في أيام قسطنطين بن أُلانة جُمعت كتب الحكمة من أيدي الناس ، وجُعلت في ذلك البيت ، وأُغلق بابه ، وقفل الملوك عليه أقفالاً كما سمعت . فاستشار الراهبَ في تسييرها إذا وجدت في بلد الإسلام ، وهل عليه في ذلك خطر في الدنيا ، أو إثم في الآخرة ؟ فقال له الراهب : سيّرها ، فإنك تثاب عليه ، فإنها مادخلت في ملة إلا وزلزلت قواعدها ، فسار إلى البيت ، وفتحه ، ووجد الأمر فيه كما ذكر الراهب ، ووجدوا فيه كتباً كثيرة ، فأخذوا من جانبها بغير علم ولا فحص خمسة أحمال ... فجاء بعضها تاماً وبعضها ناقصاً ، فالناقص منها ناقص إلى اليوم » .

---

(١) كشف الظنون في كلمة (حكمة) .

(٢) ص ٢٩

لا يمكننا أن نؤكد وجود ثلاثة مصادر مختلفة للكتب اليونانية ، كما تشير إليه مراجعنا . ومن المحتمل أن المؤرخين أعطوا لهذه المصادر شرحين متباينين أو ثلاثة ، بل من الممكن أن يكون المأمون اتصل بالروم مرتين أو ثلاثاً ليطالبهم بمؤلفات القدماء . وحين نأخذ بهذا الاحتمال نقترح ـ ونحن نتناول مسألة الكتب اليونانية ـ أن نصنّفها حسب تاريخ ورودها ـ كما يبدو لنا ـ في ثلاثة مصادر[1] .

وبرغم ماتكون هوية هذه المصادر ، فما من شك أنّ المأمون اقتنى مجموعة كبيرة من الكتب نتيجة علاقاته الودّية أو السيئة مع الروم ، كانت إحدى مجموعات بيت الحكمة القيمة . وأمر الخليفة أن تترجم هذه المؤلفات[2] .

كانت المهمة ضخمة ولا شك ، تتطلب مخططاً رحيباً واضحاً . ويبدو لنا أن تنظيماً دقيقاً قد أشرف على هذا العمل ، بالإضافة إلى الاهتمام بالاختصاص عند توزيعه بين المترجمين . وسنحاول إجمال ذاك البرنامج بالقدر الذي تسمح به المصادر المتوافرة . ولنكرر القول هنا : كان مركز الترجمة بيت الحكمة . يقول ابن القفطي : إنّ حنين بن إسحاق « قعد في جملة المترجمين لكتب الحكمة ، واستخراجها إلى السرياني وإلى العربي »[3] . فهنا شهادة قاطعة تبرهن أنّ المأمون كلّف عدداً من التراجمة لتعريب كتب بيت الحكمة اليونانية . والتراجمة ماعدا حنين كانوا أعضاء في بعثة أرسلت إلى بلاد الروم[4] . ويذكر لنا ابن النديم بعضاً منهم : الحجاج بن مطر ، وأبو زكريا يحيى بن البطريق ، وسلمان صاحب بيت

---

(١) أشار كاتبان معاصران إلى سنة ٢١٥ هـ/٨٣٠ م كتاريخ تقريبي لافتتاح بيت الحكمة . سباث ، الملحق الطبي ، ٣ ـ ٤ ، ابن ماسويه ، كتاب الأزمنة ٢٣٥ ، حتّي ، تاريخ العرب ٤١٠

(٢) كل المصادر التي أخبرت عن تاريخ إرسال البعثة أو عن تلقي المأمون للكتب ، تبين أن المؤلفات كانت تترجم .

(٣) ابن القفطي ١٧١

(٤) انظر ص ٥٩

الحكمة ، ويوحنا بن ماسويه بحسب بعض الأقوال[1] . وكان هناك تراجمة كبار آخرون عملوا للمأمون ، دون أن يرتبطوا ضرورةً ببيت الحكمة ، مثل العباس بن سعيد الجوهري[2] . ويجب أن نرفض ادعاءات بعض المؤلفين المتأخرين ، والتي ترى أنّ ثلاثة أشخاص عملوا مترجمين دائمين ، وهم ثابت بن قرّه[3] ، ولد سنة ٢١٩ هـ/٨٣٤ م[4] ، أي بعد سنة من وفاة المأمون ، وأبو معشر المنجّم[5] ، توفي سنة ٢٧٥ هـ/٨٨٨ م[6] ، والكندي[7] ، وتوفي بعد سنة ٢٥٦ هـ/٨٧٠ م[8] .

وكان الكتّاب يؤازرون التراجمة . قال ابن أبي أصيبعة : « كان كاتب حنين رجلاً يعرف بالأزرق ، وقد رأيت أشياء كثيرة من كتب جالينوس وغيره بخطّه ، وبعضها عليه تنكيت بخط حنين بن إسحاق باليوناني ، وعلى تلك الكتب علامة المأمون »[9] .

وتوجّب على هؤلاء أن يحضّروا الترجمات في أيام المتوكّل ، أسوة بمنافسيهم الذين عملوا مع حنين . وهؤلاء - كما يقال - كانوا جهابذة في الترجمة ، يترجمون وحنين يراجع ترجماتهم[10] . وكان لدى المأمون دراية عظيمة في اختيار الكتّاب المحنكين في الترجمة ، وكان لديه كذلك مخطط عمل واسع وطويل .

---

(١) الفهرست ٢٤٣ ، ابن أبي أصيبعة ١٨٦/١ ، الوافي أحمد الثالث رقم ٢٩٢٠ ، ٨١/ب .

(٢) وهذا الرجل مولى المأمون ترجم له من الفارسية كتاب الشاناق الهندي السنسكريتي الأصل عن السموم . والعباس كان المتولي قراءته على المأمون (الشاناق في السموم والترياق ، الظاهرية طب ٣٩ ص ٤ ، وابن أبي أصيبعة ٣٢/٢) . وقد أمر الخليفة إلغاء فصل من الكتاب لخلاعته .

(٣) طاشكبري ٢٤٢/١

(٤) بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ٢١٧/١ ، ٢٤١/١

(٥) المرآة ١٥٠٥ ، ٩٤/أ

(٦) بروكلمان ٢٢١/١ ، والملحق ، ٣٩٥/١

(٧) وستنفيلد ، تاريخ الأطباء العرب ٢٢

(٨) بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ٢٠٩/١ ، والملحق ٣٧٢/١

(٩) ابن أبي أصيبعة ١٨٧/١

(١٠) المرجع السابق ١٩٦/١

وكان لجماعة المترجمين هؤلاء في تنظيم كهذا رئيس يحمل لقب أمين الترجمة . مثل : أبي زكريا يوحنا بن البطريق الفيلسوف مولى المأمون ، كان أميناً على ترجمة كتب الفلسفة ، حسن التأدية للمعاني ، ألكن اللسان في العربية . وكانت الفلسفة أغلب عليه من الطب[١] . وقد عرفنا من قبل[٢] عمل أمين الترجمة ، فلا ضرورة للعودة إليه .

ويمكن أن نكشف في الترجمة نوعاً من التقسيم الذي يعتمد على الكفايات ، فـ « يوحنا بن البطريق تولى ترجمة كتب أرسطاطاليس خاصة »[٣] ، إلى جانب عمله في الترجمة . فهو مع هذا « ترجم من كتب بقراط ، مثل حنين وغيره »[٤] من المترجمين . وفيما يخص هذا الأخير ، قال ابن أبي أصيبعة : « وأحضر المأمون أيضاً حنين بن إسحاق ، وكان فتى لا يزال ، وأمره بنقل ما يقدر عليه من كتب الحكماء اليونانيين إلى العربي »[٥] ، أي كتب الطب ، كما استنتج ذلك الصفدي[٦] . وظهر الحجاج بن مطر مختصاً في ترجمة مؤلفات الرياضيات ، وهو الذي نقل المجسطي[٧] ، وكان ترجم للرشيد أصول الهندسة لإقليدس ، ثم أعاد ترجمتها للمأمون . وهذه الترجمة الأخيرة عرفت باسم النقل المأموني[٨] .

ويبين العمل التالي تنظيم الترجمة التي تحدثنا عنها ؛ فقد كلّف المأمون حنين

---

(١) القفطي ، ٣٧٩ ، ابن العبري ٢٣٩

(٢) ص ٣٢

(٣) القفطي ٣٧٩ ، ابن العبري ٢٣٩

(٤) المرجع السابق .

(٥) ابن أبي أصيبعة ١/١٨٧

(٦) الوافي ، أحمد الثالث رقم ٢٩٢٠ ، ١٣/٨١/ب .

(٧) الفهرست ٢٤٤

(٨) المرجع السابق ٢٦٥

بتصحيح الترجمات التي أنجزها غيره[1] . ويجب أن نفهم التصحيح هنا من وجهة نظر اللغة العربية ، فحنين كان فصيحاً لسناً يكتب بالعربية على وجه الإتقان[2] ، ويمكن أن نذكر من بين الكتب التي صححها كتاب (السماء والعالم) لأرسطو ، وهو الذي ترجمه يحي بن البطريق أمين الترجمة[3] ، وكتاباً آخر لأفلاطون من ترجمة ابن البطريق نفسه[4] . وكان يحي لا يعرف العربية حق معرفتها[5]

ويبدو لنا أن المكافآت الممنوحة للمترجمين تقدر بحسب ترجماتهم . ويروى في هذا الصدد أن المأمون كان يعطي حنين من الذهب زنة ما ينقله من الكتب إلى العربي مِثْلاً بمثل[6] . ولهذا فربما كانت هذه الترجمات تكتب بالخط الكوفي المولّد : بحروف كبار ، بخطّ غليظ ، في أسطر متفرقة ، وورقها كل ورقة منها بغلظ ما يكون من هذه الأوراق المصنوعة يومئذٍ ثلاث ورقات أو أربع . وذلك في تقطيع مثل ثلث البغدادي[7] .

وبالخلاصة ، فالترجمة التي كان مركزها بيت الحكمة ، نظمت حسب مخطط منسق ، يشرف عليه أمين الترجمة . وقد وزع العمل بين كبار المترجمين ، يساعدهم الكتّاب الذين يحتمل أنهم كانوا يهيئون لهم مسوّدة الترجمة الأولى . كما يُعين مدقق ليصحح الأخطاء اللغوية . أوليس هذا تنظيماً يؤدي إلى عمل دقيق وسريع في التنفيذ ؟

---

(١) ابن أبي أصيبعة ١٨٧/١

(٢) القفطي ١٧١ ، صاعد ٨٠

(٣) الفهرست ٢٥٠

(٤) المرجع السابق ٢٤٦

(٥) ابن أبي أصيبعة ٢٠٥/١

(٦) المرجع السابق ١٨٧/١

(٧) المرجع السابق .

ولننتقل إلى الكلام عن مشاركة المأمون في حركة تأليف الكتب .

فيمكن أن نقول عن هذا الموضوع ماقلناه عن الترجمة التي أنجزت له . وبالواقع ، فما من مصدر يبين العمل المتواصل والمنظم والرسمي لأي كاتب ساهم في تأليف الكتب لبيت الحكمة بشكل خاص . بالإضافة إلى ذلك ، فإن المؤلفات التي كان يجب أن تؤول إلى هذه المؤسسة هي بعض مؤلفات من كانوا يعملون في بيت الحكمة ، عرفوا بأنهم يؤلفون الكتب للمأمون : مثل سهل بن هارون ، ومحمد بن موسى الخوارزمي . وباختصار فللحديث عن هذا النشاط عدنا إلى المؤلفات التي صنفت للمأمون خاصّة .

وبذل المأمون مابوسعه لتأليف كتب التنجيم ، أكثر مما بذل للترجمة ، وقبل أن يدخل الخليفة إلى بغداد ألّف له عمر بن الفرُّخان كتباً كثيرة في النجوم ... منها تفسير الأربع مقالات لبطليموس ، وكتاب بعنوان (اتفاق الفلاسفة واختلافهم في خطوط الكواكب)[1] . واختصر أحد العاملين في بيت الحكمة وهو أبو جعفر محمد بن موسى الخوارزمي كتاب (السند هند الكبير) ، وهو نوع من اللوائح الفلكية التي ظلت مستعملة حتى العصر الذي وضع فيه هذا المؤلف لوائحه (زيج) المشهورة في العالم الإسلامي[2] .

وفي موضوع الحكمة أو بالأحرى الطب ، ألّف يوحنا بن ماسويه « رسائل ومختصرات موجهة إلى المأمون »[3] . وهذا المؤلف الطبيب خدم هذا الخليفة ، ولكن ليس كرئيس للمكتبة الأكاديمية[4] أو لبيت الحكمة . كما بيّن ذلك بعض المؤلفين المعاصرين دون أن يذكروا الشاهد الذي اعتمدوا عليه .

(١) الفهرست ٢٧٣ ، صاعد ٢ ، القفطي ٢٤٢

(٢) صاعد ١٠٢ ، القفطي ٢٧٠

(٣) ليكلر ١/١٠٨

(٤) SBATH, Introduction à Ibn Māsāwayh, le livre des temp, 235 et Axiomes médicaux 3-4.

وألّف الطبيب جبرائيل بن بختيشوع ، للمأمون رسالة في الأطعمة والأشربة ومقالة في تركيب العطور .

وكانت الدراسات الأدبية والتاريخية تهمّ ذوق المأمون الانتقائي : فـ (حكاية ملوك الفرس) استخرجت من مجموع كتب التاريخ التي احتوتها مكتبة المأمون[1] . وصنّف له أبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي (تاريخ ملوك بني هود وغيرهم) . وأخذ مكافأة على هذا الكتاب إقطاعة من ملك المأمون الخاص[2] . وكتب أحد مديري بيت الحكمة ، وهو سهل بن هارون للمأمون كتاباً اسمه (ثَعْلة وعَفْرة) ، يعارض به كتاب (كليلة ودمنة)[3] . وألّف الفرّاء على نفقة المأمون كتاباً في النحو[4] .

ويجب أن نذكر أخيراً كتاب (الفنون الحربية) المسمى بالْحِيَل ، الذي ألّفه الهرثمي الشعراني[5] .

وهكذا نستنتج أن (بيت الحكمة) كان مركز الترجمة ، كما كان أحياناً مركز التأليف . وأنّ مكتبة هذه المؤسسة تكونت من مجموعة من كتب قديمة ، يونانية ، وفارسية ، وبعض الكتب السريانية . وأتاحت تلك المجموعة فرصة لوجود مجموعة أخرى عن طريق الترجمة . وكان هناك مجموعة ثالثة من الكتب المؤلفة للخليفة . وجاءت مجموعة رابعة من مكتبات الخلفاء القديمة . والمجموعة الخامسة كتبها النساخ ، مثلما فعل علاّن بن الحسن الشعوبي .

---

(١) الأصبهاني ، سني ملوك الأرض ص ٩

(٢) الصحيفة ٢٧٢/أ من هذا الكتاب ، مخطوطة المكتبة الوطنية ، القسم العربي ، ٦٧٢٦

(٣) مروج الذهب ١٢٩/١

(٤) الأنباري ١٢٧ ـ ١٢٨ ، إرشاد ٢٧٧/٨ ، الخطيب ١٥٠/١٤ ، خلكان ، القاهرة ١٢٩٩ ، ١٩٥/٢

(٥) الفهرست ٣١٤ وهذا الكتاب في مكتبة كوبرلي برقم ١٢٩٤ واسم مؤلفه الهيثمي الشعراني .

وحافظ على المكتبة التي جُمعت بهذا الشكل المجلّد ابن أبي الحَرِيش[1] .

على أي حال فإضافةً إلى الخدمة التي كانت تقدمها هذه المكتبة للمترجمين والمؤلّفين لإنجاز مهمتهم ، نفترض - برغم الوثائق الضئيلة لدينا - أنها كانت تُعدّ مكتبة عامة أو شبه عامة . ونعلم في الواقع أن « المأمون حضّ الناس على قراءة الكتب المترجمة ، وشجعهم على دراستها »[2] . « فتنافس أولو النباهة في دراستها ، لما كانوا يرون من إحصائه لمنتحليها ، واختصاصه لمتقلديها ، فينالون عنده المنازل »[3] . وهل يمكن لهذه القراءة وتلك الدراسة أن تمّا إلا في بيت الحكمة بالدرجة الأولى ؟ والذي يجعل هذا الافتراض مقبولاً أنه في نهاية القرن الثالث / التاسع ، وخلال القرن الرابع / العاشر كان المؤلّفون يترددون على هذه المكتبة ، أمثال عمر بن شبّة (١٧٢ هـ/٧٨٨ م - ٢٦٢ هـ/٨٧٥ م)[4] ، وصالح بن الوجيه[5] ، وابن النديم (ت ٣٨٥ هـ/٩٩٣ م)[6] ، فكانوا يقرؤون هناك وينسخون الكتب أو مقتطفات منها على الأقل . وكانت تحمل عندئذ كما سنرى[7] اسم (خزانة المأمون) .

و (بيت الحكمة) أيام المأمون - بحسب مانعرف - كان موضوعاً تحت مراقبة عدد من الأشخاص الذين يحملون لقب صاحب . وكان هذا اللقب يطلق في ذاك العصر على المديرين بشكل عام ، فكان يقال : (صاحب البيمارستان) حين

---

(١) الفهرست ١٠

(٢) صاعد ١٠٠ ، ابن العبري ٢٣٦ ، خليفة ٢٧

(٣) صاعد ، المرجع السابق .

(٤) الفهرست ٥

(٥) الخطيب ٢٩١/١٠

(٦) الفهرست ١٩ ، ٥

(٧) انظر ص (٥٧) .

الكلام عن المستشفى[1] ، و (صاحب بيت الضرب) فيما يخصّ دار السكة[2] ، و (صاحب بيت النار) للإشارة إلى الذي يسهر على معبد النار[3] ، و (صاحب الأرصاد) في تسمية مدير الأرصاد الفلكية[4] ، وأخيراً (صاحب الديوان) عندما يُقصد رئيس مكتب الوزير[5] . وكذلك كان هذا اللقب يطلق على أمين بيت المال ، ويحلّ محلّه أحياناً لقب خازن[6] . وبشكل عام ، فذلك اللقب يطلق على أمين المكتبة الذي هو في الواقع خازن المكتبة .

كان سهل بن هارون أول من عيّن صاحباً لبيت الحكمة . ولا يهمنا هنا الحديث عن حياة هذا الرجل الأدبية[7] ، وإنما نتتبعه في حياته الإدارية وحسب . إنه برأي ابن النديم منسوب إلى دَسْتُمَيْسان[8] ، جاء ليستقر في البصرة ، حيث تعرّف إلى وزير الرشيد يحي بن خالد البرمكي ، فلزمه أميناً لسرّه ، ثم خلفه فيما بعد ، وصار صاحب دواوين الدولة[9] . كان ذلك زمن الرشيد ، العصر الذي بدا خلاله ألاّ صلة له فيه ببيت الحكمة . واكتسب في أيام المأمون عطف الفضل بن سهل وزير الخليفة ، فدخل في خدمته مستمداً قوته من تأييده[10] . ولم يعين مباشرة صاحباً لبيت الحكمة كما يعتقد كتّاب التراجم ، لأنّ

---

(1) الخطيب ١٨٥/٣

(2) ابن سعد ٢٧٦/٥

(3) الطبري ٢٦٢٧/١/ب .

(4) المرجع السابق ١ ، ٢٤٧٤/٦ ، ابن سعد ١٠٠/٦

(5) الأغاني ٦٨/٢٠

(6) ابن سعد ١٠٠/٦ ، الطبري ١ ، ٢٤٧٤/٦

(7) لترجمته انظر بروكلمان ٥١٦/١ والملحق ٢١٣/١ . كرد علي ، سهل بن هارون في مجلة المجمع العلمي العربي ٥/٧

(8) الفهرست ١٢٠ ، عيون ، الظاهرية ، تاريخ ٤٧ ، ١٥٦/أ .

(9) ابن بدرون ، شرح قصيدة ابن عبدون ٢٤٣

(10) ابن نباتة ١٣٠

مقرّ الخلافة الذي أقامه المأمون في خوارزم لم يكن انتقل إلى بغداد إلا بعد اغتيال وزيره الفضل ، وبالتالي ، فإن بيت الحكمة الذي استقر في بغداد بدون شك لم يلق بعد عناية المأمون إلا بعد عودته إلى هذه المدينة ، وتكليف سهل الإشرافَ على إدارة[1] تلك المؤسسة .

ويؤكّد ابن نباتة أنّ سهل بن هارون كان أمين خزانة كتب اليونان المنقولة من قبرص[2] . ويدعم قوله بأنه يعرف مؤلفات من هذه الخزانة . ولا يمكن الاعتماد على هذا القول الصادر عن مؤلف متأخر ؛ إنه يتناقض مع هذه الشخصية وميولها الفارسية ، لقد كان أعظم من أن يكون أمين مكتبة للكتب المنقولة من قبرص . بل يمكن القول بأنه كان المشرف العام على تلك المؤسسة .

وكان يشارك سهلاً في عمله سعيدُ بن هارون[3] ، أو على وجه أدق ابن هريم[4] ، وكان بليغاً فصيحاً مترسلاً ، ويروي عنه الجاحظ[5] .

والشخص الثالث الذي وصف بـ (صاحب) هو سَلْم ، أو على الأصح سلمان الملقب بصاحب بيت الحكمة . أصله من حرّان ، وكان يعمل في هذه المؤسسة مع سهل[6] . ومن المحتمل جداً أنّه كان صاحب بيت الحكمة زمن الرشيد[7] ، وكان في

---

(١) سهل الذي يدعى صاحب بيت الحكمة في المقاطع التالية : الفهرست ١٠ ، ١٢٠ ، ١٢٥ ، ابن نباتة ١٣٠ ، إرشاد ٢٥٨/٤ ، الوافي (المكتبة الوطنية ، ٢٠٦٤) ١٤٨/ب و (المكتبة الوطنية ، ٢٠٦٥) ١١٤/أ ، الخطيب ٢٦٩/٣ ، التوحيدي ، كتاب البصائر ، كراوس ، من منبر الشرق ، مجلة الثقافة ، السنة السادسة ، العدد ٢٤٨ ، ص ٥٥٠
يذكره على أنه كاتب المأمون على خزائن الحكمة ، أي إنه أمين سرّ المأمون المكلّف بخزائن الحكمة .

(٢) سرح العيون ١٣٠

(٣) الفهرست ١٢٠ ، ١٢٥

(٤) الوافي (المكتبة الوطنية ، ٢٠٦٤) ١٤٨/ب و (٢٠٦٦) ١٢/أ .

(٥) الفهرست ١٢٠ ، الوافي المرجع السابق .

(٦) الفهرست ١٢٠

(٧) انظر ص ٢٣ ، ٢٤

عداد الجماعة التي كلفت باختيار المؤلفات القديمة في بلاد الروم[1] ، الأمر الذي يفترض أنه كان يعرف اليونانية . وقد باشر مع ذلك بترجمة الكتب الفارسية[2] ، فشرح ليحيى بن خالد البرمكي وزير الرشيد كتاب المجسطي[3] ، واعتمد على ترجمته عديد من الباحثين[4] .

والرابع الملقب بصاحب بيت الحكمة هو أحمد بن محمد ، والخبر الوحيد الذي عندنا في موضوعه هو التالي : « حدث عن مالك (ت ١٧٩ هـ/٧٩٥ م) ولكنه متروك »[5] ، وخبره موضوع . « وعلي بن محمد المخزومي[6] هو الذي كان يحدّث عنه »[7] . ولا شيء يحدّد هنا أنه كان صاحب بيت الحكمة زمن المأمون ، ولكننا نفترضه ، ولا شيء ينفي احتمال أن يكون صاحب بيت الحكمة أيام الرشيد .

وآخر من كان صاحب بيت الحكمة نعرفه هو الحسن بن مرار الضبي المسمى بالصنوبري . والشاهد الوحيد الذي يتعلق بموضوعه يرويه ابن عساكر[8] ، ونقله بنصه ابن شاكر الكتبي[9] ، وهو هذا : « قال عبد الله الحلبي الصُّفْري : سألت الصنوبري (والكلام هنا لحفيد شخصيتنا) عن السبب الذي من أجله نسب جده

---

(١) انظر ص (٥٩) .

(٢) الفهرست ١٢٠

(٣) الفهرست ، القفطي ٩٧ ـ ٩٨

(٤) واسم سلم مذكور أيضاً مع لقبه في مجموع رسائل الجاحظ ١٩٠ ، التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية ، ١١٣ ـ ١١٤ ، خليفة ٢٨٠/٢ فيه مايتعلق بالمجسطي .

(٥) الدارقطني ، جزء فيه الضعفاء ، الظاهرية مجموع ١٢٤ ، ١٢/ب ، ابن الجوزي ، أسماء الضعفاء ، الظاهرية ، حديث ٢٦٣ ص ٢٨ ، الذهبي ، ميزان ٧١/١ ، ابن حجر ، لسان ٢٩٦/١ ، السيوطي ، تزيين الممالك ١٨ ، برأي الخطيب البغدادي .

(٦) لم نجد ترجمته .

(٧) المصادر المذكورة برقم (٥) .

(٨) تاريخ دمشق ٤٥٦/١

(٩) عيون ، الظاهرية ، تاريخ ٤٨ ، ٧٠/ب .

إلى الصنوبر ، حتى صار معروفاً به ، فقال لي : كان جدي صاحب بيت حكمة من بيوت حكم المأمون ، فجرت له بين يديه مناظرة ، فاستحسن كلامه وحدة مزاجه ، وقال له : إنك لصنوبري الشكل ، يريد بذلك الذكاء ، وحدّة المزاج » .

ولهذا الخبر برغم تفرده[1] أهمية كبيرة لموضوعنا كما نرى ؛ لأنه يعلمنا بوجود عدد من بيوت الحكمة زمن المأمون ، ويمكننا أن نفهم بالتالي كيف أنّ هناك مديرين متعددين معينين معاً على إدارة بيت الحكمة . فقد كانت هذه المؤسسة إذن مقسمة إلى فروع عديدة ، على كل منها مدير مستقل .

ويُذكر أشخاص آخرون معيّنون في بيت الحكمة ، دون الإشارة إلى ألقابهم . فقد كان محمد بن موسى الخوارزمي أبو جعفر أحد فلكيي المأمون[2] منقطعاً إلى خزانة الحكمة[3] ، وفلكي آخر للمأمون وهو يحيى بن أبي منصور[4] أشرف على خدمة هذه المؤسسة ، كما يعلمنا الخبر التالي : أثبت المأمون أبناء موسى بن شاكر الثلاثة الصغار مع يحيى بن أبي منصور في بيت الحكمة[5] ، أو بتعبير أدق عينهم في الخدمة نفسها ، ليساعدوا هذا الفلكي في عمله ، ويتدربوا على مهنته : وسيفيدهم وقد أفادهم هذا التدريب كثيراً ، لأنهم أصبحوا فيما بعد منجمين كباراً[6] . وللحكم على صفة هذين الشخصين وخدمتهما في بيت الحكمة يجب أن نعرف طبيعة العمل

---

(١) بحثنا كثيراً للحصول عن معلومات حول هذا الشخص دون أن نوفق . ويمكن أن يكون الاسم الذي اعتمدناه حسب نسب حفيده ليس صحيحاً تماماً . وإذا كان ذلك كذلك فيمكن أن نفترض أنه محمد بن حسن الضبي مؤدب ولد المأمون ، البغية ٣٠ ، وانظر أيضاً الخطيب ٢٣/١٤

(٢) ابن العبري ٢٣٧

(٣) الفهرست ٢٧٤ ، القفطي ٢٨٦

(٤) الخطيب ٣١٨/٤

(٥) القفطي ٤٤١ ، ابن العبري ٢٦٤

(٦) انظر الصفحات ٦٠ ـ ٦٢

الفلكي . وفي هذه الحال نتساءل ما كان العمل الفلكي في العصر العباسي ؟ كان عمل المنجمين في العصر العباسي مشابهاً لعملهم في العصور القديمة ، فهم مرتبطون بخدمة الأمراء ، فكانوا وحسب حركات النجوم ينتهزون فرصة قيام الأمير بأعمال ما ، فيحددون الأوقات التي يبدو لهم فيها أنها ستؤدي إلى نتائج مرضية أو إلى نتائج سيئة[١] . ويقومون أحياناً ببعض المحاولات الفلكية التي توافق ميول الأمير العلمية ورغباته . ونحن نعلم أن المأمون كان يستعمل النظر في أحكام النجوم وقضاياها ، وينقاد إلى موجباتها ، ويذهب مذاهب من سلف من ملوك ساسان كأردشير بن بابك[٢] . وروى له عمر بن الفرُّخان عن بعضهم[٣] . ولكي نعطي فكرة محددة عن عمل هؤلاء المنجمين أيام المأمون نعتقد أنه من الضروري إيراد القصة التالية : « حدثني يحيى بن أبي منصور قال : دخلت إلى المأمون وعنده جماعة من المنجمين ، وعنده رجل يدعي النبوة ، وقد دعا له المأمون بالعصيّ ولم تحضر بعد ، ونحن لا نعلم ، فقال لي ولمن حضر من المنجمين : اذهبوا وخذوا الطالع لدعوى الرجل في شيء يدعيه وعرفوني ما يدل عليه علم الفلك من صدقه وكذبه ، ولم يعلمنا المأمون أنه متنبئ ، فذهبنا لنستدل ... إلخ »[٤] . فأين كان يمكن إحراز مثل هذه التنبؤات إن لم تكن في المكان الذي يشتغل فيه هؤلاء المنجّمون ؟! وفي بيت الحكمة فرع مخصص للبحوث الفلكية فهل يمكن أن نستنتج ، فندعي أن المرصد الفلكي كان في بيت الحكمة ، كما يؤكد عدد من الكتاب المعاصرين ، دون أن يذكروا المرجع الذي اعتمدوا عليه في فرضيتهم[٥] . لا نستطيع أن نثبت ذلك بالمعلومات التي بين أيدينا . ومع هذا فلم يتأخر بيت

---

(١) انظر لهذا الموضوع الموسوعة الفرنسية (فن الفلك) .

(٢) مروج الذهب ٣٠٠/٨

(٣) صاعد ١١١ ، القفطي ٢٤١ ـ ٢٤٢

(٤) القفطي ٣٥٨ ، ابن العبري ٢٢٧

(٥) حتّي ، تاريخ العرب ٢٧٣ ، ٤١٠ ، بروكلمان ، ٢٠٢/١ ، أسعد طلس ، النظامية ، ١٥

الحكمة عن المساهمة بإنشاء مرصد في الشمّاسيّة ببغداد سنة ٢١٤ هـ/٨٢٩ م ، حيث شارك المنجمون الذين كانوا يشتغلون هناك بالعمل في هذا المرصد[١] .

ولنبحث ـ قبل أن نحدد الصفة الحقيقية لبيت الحكمة ـ في الأسلوب الذي قامت عليه هذه المؤسسة . ويساعدنا هذا البحث أن نفهم تلك الصفة بشكل أعمق .

ومن الطريف أن نستنتج أنّ التطور الذي وصفناه آنفاً لبيت الحكمة يشابه الفكرة التي تصورها المؤرخون العرب عن المؤسسات العلمية القديمة . ولن نجد هذه الفكرة في دراستنا الشاملة عن العصر ، بل في الوثائق الإيحائية المتناثرة التي تقدمها لنا المصادر العربية .

إن الشعوب القديمة مثل قدماء المصريين والصينيين والهندوس والفرس واليونانيين ، بحسب هذه المصادر ، شهدت اهتماماً نشطاً بالعلوم الفلسفية ، يعبر عن نفسه تحت شكل تجميع الكتب وترجمتها وتأليفها وحفظها ، ويمتزج بالميل إلى التنجيم الذي يضع عليه بصمته المحددة .

وأول اهتمام أخذه العرب عن القدماء هو تجميع الكتب : « بعث أردشير بن بابك إلى بلاد الهند والصين في الكتب التي كانت قِبَلهم وإلى الروم ، ونسخ ما كان سقط إليهم ، وتتبع بقايا يسيرة بقيت بالعراق ، فجمع منها ما كان متفرقاً ، وألّف منها ما كان متبايناً ، وفعل ذلك من بعده ابنه سابور »[٢] . « وأرسل إسكندر الكبير إلى مصر المؤلّفات العلمية والخزائن والعلماء الذين وجدهم خلال غزواته »[٣] . « ولما ملك بطلوماس فيلادلفوس من ملوك الإسكندرية فحص عن

(١) انظر لموضوع هذا المرصد في الفهرست ، ٢٤٨ ، صاعد ، ١٠٣ ، القفطي ، ٢٧١ ، ٢١٩ ، ٢٤٢ ، ٢٥٧

(٢) الفهرست ٢٣٩

(٣) المرجع السابق .

كتب العلم ، وولى أمرها رجلاً يعرف بـزميْرة ، فجمع من ذلك على ما حُكي أربعة وخمسين ألفاً ومئة وعشرين كتاباً »[1] . ويروي المؤرخون العرب أن الكتب المجموعة كانت تترجم دون تأخير . كما تُرجم كتاب (كليلة ودمنة) حال وصوله إلى فارس[2] ، وفعل الإسكندر مثل ذلك بالمؤلفات التي تلقاها[3] .

ويقول المؤرّخون إنّه بعد أن تترجم المؤلّفات الرئيسة يُباشر بالعمل في تأليف كتب جديدة في المؤسسات التي جمعت فيها . وكان الإسكندريون يقومون بشرح مؤلفات إقليدس ويقدمون دراسات عنها[4] . ومن قبل شرح اليونانيون الكتب التي أخذوها في الأصل من بابل ، ودرسوها[5] .

وتصنف المصادر العربية أنّ النساخ كانوا يكتبون نسخاً عديدة من الكتاب الواحد . وقد أمر الإسكندر بنسخ كل الكتب التي وجدها في مدينة (اصطخر)[6] . وكل ماجمعه سابور سُلّم أيضاً إلى النسخ[7] .

وطريقة هذا العمل مشابهة لطريقة عمل الرشيد والمأمون . ويجب ألا تُفهم بمعنى التقليد المقصود عندهما ، لأنّ طبيعة العمل هي التي تفرض الطريقة ، بل تصبح طريقة إيحائية عندما نعلم أنّ خزائن الكتب المجموعة عرفها المؤرّخون العرب في ظل بيت الحكمة . ويقال إن عمود السواري الموجود خارج الإسكندرية الآن [زمن المقريزي] هو من جملة أعمدة كانت تحمل رواقاً يقال له : (بيت

---

(١) الفهرست ٢٤٠ ، القفطي ٣٥٤ ، ابن العبري ٩٩

(٢) انظر مقدمة الكتاب .

(٣) الفهرست ٢٣٩

(٤) القفطي ٧١ ، ٣٥٦

(٥) الفهرست ٢٣٩

(٦) المرجع السابق .

(٧) المرجع السابق .

الحكمة)[١] . ويقارن (دوساسي) هذا الرواق[٢] بالسيرابيوم القديم ، فيرى أنه يشبه (بيت الحكمة) من عدة وجوه . ويقال إن البرابي حيث تحفظ الكنوز العلمية من الطوفان وتخريبات الطبيعة هي بيوت حكمة فلاسفة الأقباط[٣] . ويؤكد المؤرخون العرب أنّ لليونانيين معابدهم في مصر كمعبد أخميم في مصر العليا والذي كان يسمى دار الحكمة لقدماء اليونانيين[٤] ، ويجب ألا نفهم من تعبير دار الحكمة الجديد علينا هنا أنه مرادف لبيت الحكمة من حيث مضمونه . بل استعمل ابن خلكان هذين التعبيرين دون تمييز بينهما عندما تحدث عن مؤسسة من هذا النوع بناها الإسبان قبل الفتوحات الإسلامية[٥] .

ولم تُستخدم أسماء المؤسسات القديمة والعربية فحسب ، بل استعملت أيضاً أسماء المستخدمين فيها ؛ فطينقروس واحد من العلماء السبعة الموكلين بسدانة سبعة[٦] من بيوت الحكمة . وكان يحمل كما يقول ابن النديم لقب صاحب بيت المريخ ، أحد بيوت الحكمة للضحاك بن قيس[٧] . وكان أحد العلماء المتصلين بخدمة الإسكندر يحمل لقب صاحب كتب الحكمة[٨] .

إن مفهوم الباحثين العرب عن المؤسسات العلمية القديمة يتطابق مع واقع بيوت الحكمة العربية من حيث طبيعة هذه المؤسسات ومستخدميها . ومن المسموح لنا إذن أن نقدّر هذا التشابه من أجل أن نحاول توضيح بعض الالتباسات التي لم

---

(١) الخطط ، تحقيق وايت ١٣٣

(٢) دوساسي « Relation de L'Egypte » ٢٣١ ـ ٢٤٠

(٣) شيخ الربوة ٣٣

(٤) البيروني ، الجماهر ١٦٦

(٥) وفيات ٢٣/٣ ـ ٢٦ ، المقرّي ٢١٥/١ ـ ٢١٧

(٦) الفهرست ٣٥٢ ، ٢٣٨

(٧) المرجع السابق ٢٧٠

(٨) عيون ، الظاهرية ، تاريخ ٤٨ ، ١٧٩/ب .

تسمح مصادرنا عن المؤسسات العربية بتوضيحها ، ولا بمعرفة طبيعة تلك المؤسسات وفروعها ، ولا عمل بعض مستخدميها .

ولكي نفهم توزيع بيوت الحكمة نستطيع الاستعانة بكتاب الضحاك بن قيس المذكور ، الذي بنى سبعة بيوت وفق الكواكب السبعة ، وسمّاها باسم هذه الكواكب[1] . ولن نؤكد طبعاً أنّ الخليفتين العباسيين كان لديها مثل هذه النيّة ، لأنّ النوعية الأدبية الخالصة لبعض رؤساء المؤسسات العباسية تخالف مثل هذا الزعم . والواقع يؤكد أنّ هناك بيوت حكمة عديدة للمأمون ، الأمر الذي يجرنا إلى افتراض وجود محاكاة ما . ومعرفة تنظيم هذه المؤسسات القديمة ـ كما وصفت ـ والتي كان يملكها هذان الخليفتان تستند إلى فرضيّة التقليد . وعن وجود كتاب الضحاك[2] يخبرنا أبو سهل الفضل بن نوبخت الذي كان يعمل في بيت الحكمة زمن الرشيد .

وقد ذكر المؤرخون العرب أن المنجمين كانوا يقيمون في بيوت الحكمة القديمة في أثناء عملهم ، فإذا احتاج أحد ملوك مصر إلى مشاورة النجوم استدعاهم من دار الحكمة[3] . وهذا ما يوضح طبيعة عمل اثنين من المنجمين المرتبطين ببيت حكمة المأمون .

ويدفعنا ذلك إلى أن نضيف إلى عدد المنجمين الذين يعملون في بيت الحكمة أشخاصاً آخرين معينين بصفة منجمين لدى المأمون ، رغم أنّ عملهم في تلك المؤسسة غير محدد بالدقة . من هؤلاء سند بن علي اليهودي منجم المأمون[4] ، والعباس بن سعيد الجوهري المنجم ، الذي أذن له المأمون أن يعيّن في خدمته

---

(١) الفهرست ٢٣٨
(٢) الفهرست ٢٣٨
(٣) الخطط ٣٦/١
(٤) الفهرست ٢٧٥

المنجمين الأكفياء . وهو نفسه الذي ـ كما في كتاب المكافأة ـ أدخل سنداً في خدمة المأمون[1] . ونعلم بالمناسبة كيف كان المنجمون يلبسون ، وعندنا بعض تحديدات عن الأجور التي كانت تخصص لهم : « قال سند : عندما قرر العباس أن يصلني بالمأمون أمر أن يُقطع لي أقبية ويرتاد لي منطَقَةٌ مذهّبة ، ففُرغ من جميع ذلك من تلك الليلة . وأُدخل بي إلى المأمون ، وأمرني بملازمته ، وأجرى لي أنزالاً ورزقاً »[2] . فأين يمكن أن تكون مثل هذه الملازمة التي تضمن الطعام والأجور ؟ فبيت الحكمة تلك المؤسسة المنظمة على غرار نماذجها القديمة هو الذي يجيب بالضرورة على هذا السؤال .

ولنذهب بعيداً لنقول : كان في هذه المؤسسة إقامة المنجمين وطعامهم وكذلك الموظفون الآخرون . وههنا شاهدان يدفعان إلى الاعتقاد بذلك عادةً لهذا العصر . أمر المأمون الفرّاء يحي بن زياد (ت ٢٠٧ هـ/٨٢٢ م) « أن يؤلّف ما يجمع به أصول النحو وما سمع من العرب ، وأمر أن يفرد في حجرة من حجر الدار ، ووكل به جواري وخدماً يقمن بما يحتاج إليه ، حتى لا يتعلق قلبه ولا تتشرف نفسه إلى شيء ، حتى إنهم كانوا يؤذنونه بأوقات الصلاة ، وصيّر له الوراقين وألزمه الأمناء والمنفقين »[3] . كان هذا قبل سنة ٢٠٧ هـ/٨٢٢ م ، ومن المحتمل جداً أنه وقع قبل افتتاح بيت الحكمة . وفي زمن المتوكل الذي أقام في سامراء عيّن حنين بن إسحاق أميناً للترجمة ، وهذا الخليفة نفسه « أمر بإصلاح ثلاث دور من دوره التي لم يسكن حنين منذ نشأ في مثلها ، ولا رأى لأحد من أهل صناعته مثلها . وحمل إليها سائر ما كان إليه محتاجاً »[4] .

---

(١) أحمد بن يوسف ، كتاب المكافأة ١٤١

(٢) أحمد بن يوسف ، المرجع السابق .

(٣) الخطيب ١٥٠/١٤ ، الأنباري ، نزهة الألباء ١٢٧ ـ ١٢٨ ، إرشاد ٢٧٧/٧ ، الوفيات ، القاهرة ١٢٩٩ ، ١٩٥/٣

(٤) ابن أبي أصيبعة ١٩٦/١

وكان يجب على المستخدمين والمترجمين والمنجمين والحفظة في بيت الحكمة أن يكونوا تحت إمرة الخليفة الذي يستطيع أن يدعوهم إليه في أيّ ساعة من نهارٍ أو ليل . ولهذا فبيت الحكمة يستضيفهم .

ولكي نعتمد على هذا الكلام ونحدده ، نستعين ببعض استشهادات (ليكلر Leclercq) الإيحائية[1] المتعلقة بمتحف الإسكندرية الذي يسميه الكتّاب العرب (بيت الحكمة)[2] :

« يقول سترابون (١٦/١) : « يقع المتحف في قسم من القصر ، في بناء واسع مسوّر ، حيث يمكن التنزه والاستراحة ، هناك يلتئم شمل العلماء وأعضاء المتحف وهناك يأكلون . ولدى هذه المؤسسة أموال مخصصة لنفقاتها العامة ، ويرأسها كاهن كان تعيينه من قبلُ بيد ملوك الإسكندرية ، وهو الآن بيد القيصر » وتابع ليكلر يقول : « إن هذا النص أكده فيلوسترات . وفي هذا المتحف يأكل كل من يقيم فيه ، وإليه يدعى العلماء من أطراف الأرض . ويستخلص الكاتب نفسه أنّ في المتحف مجمعاً ملحقاً فيه بشكل رسمي ، وهو يتحمل كل النفقات ، وتختاره الدولة » ويتابع ليكلر قائلاً : « قال تيمون لوساتيرك بهذا الخصوص : « إن في مصر أناساً متفرغين للكتب والمناقشة ، يُقدَّمُ لهم الطعام وهم يقيمون في كهف » ويجب الاعتراف أن هذه النصوص عظيمة الدلالة ، بحيث يمكنها أن توضح لنا مفهوم بيت الحكمة .

ولكي يكون التشابه بين المتحف وبيت الحكمة كاملاً بقي أن نرى هؤلاء العلماء وهم يتناقشون في المؤسسة العباسيّة ، الأمر الذي نستطيع لحسن الحظ أن نستنتجه هنا .

---

(١) Leclercq, art. Bibliothécaire, in Cabrol, Dictronnaire d'Art et d'Archélogie, II, 839

(٢) انظر ص ٤٤ لمعرفة التشابه بين بيت الحكمة وسيرابيوم الذي كان قسماً من المتحف .

ونأخذ ذلك من الجزء الذي لم ينشر بعد من كتاب (الحيدة)[1] لعبد العزيز الكناني . يروي هذا الكتاب مفصّلاً تحت شكل قصصي الانقلابات المفاجئة التي حدثت لمؤلفه ، لقد غادر مكة ليخاصم ببغداد في قضية السنيّين ضد الذين أيدتهم قوة الخلافة ، والرعب الذي تحكم به ، فساندوا قضية خلق القرآن . واستطاع بفضل شجاعته المتهورة أن يبلغ عتبة الخليفة المأمون ، فتوسّل إليه للحصول على إذن بمناظرة بشر المريسي زعيم جماعة خصومه . وقد ترأس الخليفة نفسه تلك المناظرة ، واضطر كما تقول القصّة أن يُقرّ بغلبة عبد العزيز .

ومن هنا يبدأ القسم الذي يهمنا من القصة بشكل خاص . فقد أصرَّ أصدقاء عبد العزيز ومؤيدوه أن يملي عليهم خبر المناظرة ، فانتهى بعد اعتذارات متكررة إلى أن يفعل . وانتشر هذا الخبر وعرفته الأوساط المعنيّة . ولنستمع إليه يخبّر بما يلي[2] : « فشقّ ذلك على بشر وأصحابه وسائر من يقول بقوله ، وغلظ عليهم ، وعظم عندهم ماظهر للناس من كسر قولهم ، ودحض حجتهم ، وفضيحة مذهبهم ، فاجتمعوا عليّ ، وتآمروا ، وتشاوروا فيما نزل بهم ، فاجتمع رأيهم على إعلام أمير المؤمنين وإغرائه بي ، واستعدّوا ليوم مجلسه الذي يجلس فيه في بيت الحكمة ، وكان له مجلس في كل جمعة يجتمع فيه أهل الحديث والفقه والعربية وأهل النظر والكلام ، ويقعد المأمون وراء الستر بحيث يسمع كلامهم ومناظرة بعضهم لبعض ، ولا يخفى عليه منها شيء ، فاجتمعوا جميعاً على رأي واحد ، فلما تكامل بهم المجلس وقعد أمير المؤمنين المأمون حيث كان يقعد ، أمرهم الخادم بالكلام حسب ما كان يفعل قبل ذلك اليوم ، فقالوا جميعاً : يا أمير المؤمنين ، أطال الله بقاك ، لم يبق فينا للكلام موضع ، لما قد لحقنا في أنفسنا من المكروه والذل ، ومن تواثب العامة علينا ، وندائهم في المساجد والأسواق والطرق ، وقد ضاق

(١) نشره مجمع اللغة العربية سنة ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م (الترجمة) .

(٢) كتاب الحيدة ، الظاهرية ، تصوّف ، ١٢٩ ، ٦٧/ب .

علينا هذا البلد مع سعته . فقال لهم المأمون : ومم ذلك ؟ فقالوا : مما فعل هذا الجاهل عبد العزيز المكي ، خرج من مجلس أمير المؤمنين أطال الله بقاه ، واجتمع بالغوغاء والعوام ، فأملى عليهم ما جرى في مجلس أمير المؤمنين ، وزاد عليه مثله مما لم يجز ، فلا يفرق بين أمير المؤمنين وغيره بدعاء ، ولا يذكر الخلافة وجلالتها إلا بذكر اللقب ، فأزال هيبة أمير المؤمنين من قلوب الرعية . ولم يزالوا يكثرون عليه ، ويغلّظون قلبه ، ويعظمون الأمر عنده ، حتّى غاظه ذلك ، فأمر بعض الخدم بإحضاره ، فلما أحضر إليه كان قد جلس وهم بحضرته في غير بيت الحكمة » .

اعتذر عبد العزيز وشرع يهاجم بشراً ويخاطبه بهذه الكلمات : « يا بشر ، إنك بعد ذلك أول من خالف أمير المؤمنين ، والدليل على ذلك والشاهد عليك به وضعُك الكتاب الذي ترجمته بكتاب (الكمال في الشرح والبيان بخلق القرآن ، رداً على أهل الكفر والضلال) تذكر فيه أمير المؤمنين ومذهبه واعتقاده وما جرى في سائر مجالسه من الكلام ، ومناظرة كل من ناظرته بين يديه ، حتى بلغ ذلك الكتاب إليّ ، فوجدتك تذكر في آخر الكتاب أنك أكفرتني ، وأثبت الحجة عليّ في خلق القرآن بالشرح والبيان ، وأن أمير المؤمنين أقالني واستبقاني بعد وجوب القتل عليّ ، وصفح عما كان مني لميله إلى العرب . فمن أشد خلافاً على أمير المؤمنين ؟ » .

ووبخ المأمون بشراً بعد ذلك ، ثم عفا عن الاثنين ، وأمر أن يصان بيت عبد العزيز ، وأن تؤخذ منه الأمالي المنشورة[1] .

---

(١) بحثنا طويلاً عن كتاب بشر المسمى بالكمال فلم نعثر عليه . انظر بروكلمان ٣٤٠/١ ، والملحق ١٩٣/١٢

ويمكننا أن نعترض على هذه الأخبار لصالح بيت الحكمة ؛ قال ابن السبكي : إنّ كتاب (الحيدة) انتحل على عبد العزيز[1] والحق أنا لا نستطيع أن نثبت صحة القصة بكاملها ، لأنها ذات صفة روائية واضحة ، وجائز أنها وضعت بعد موت عبد العزيز بزمن يسير ، والذي كان سنة ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م فاتخذت شكل قصة جذابة صحيحة ، ولكن ، مهما يكن ، فهي قصة أخذت عناصرها من الواقع . وزيادة على ذلك ، فهي تروي بالتفصيل أسماء الأشخاص والأمكنة ، وتدخل في التفاصيل الدقيقة ، بحيث لا يمكننا الاعتقاد أنها من صنع خياله الخاص . وإني أترك لغيري الاهتمام بالكشف عن عقلية التعصب التي تظهر ضد المعتزلة والسخرية بأفكارهم والتغاضي عن حججهم[2] ؛ فهذا لا يهمني إنما يهمني هنا ما ورد فيها عن بيت الحكمة وعن اجتماع من كان يجتمع فيه يوم الجمعة ، وعن حضور الخليفة من وراء الستر ليسمع المناقشات ، وأنه بعد سماعه خصوم عبد العزيز استقبله في مكان آخر غير بيت الحكمة . إنّ كل ذلك تفاصيل كان واضع القصة في غنى عن إيرادها لو لم تحدث ، وما إيراده لها إلا دليل وقوعها . ولنفترض أن ابن السبكي كان على حق في أن الكتاب وضع ونسب إلى عبد العزيز فإذا صح ذلك ، فيمكننا أن نقول إن هذا الوضع حدث في زمن قريب من بطل القصة ، وبعد قرن منه على الأكثر ؛ فالخطيب البغدادي (ت ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م)[3] يحدث بهذا الكتاب بالسماع عن شيوخه ، سمعه منهم في أوائل القرن الخامس / الحادي عشر ، وهم سمعوه في نهاية القرن الرابع /

---

(١) طبقات الشافعية ، ٢٦٥/١ ـ ٢٦٦

(٢) ومع ذلك فيمكن إيجاد وجهات نظر متشابهة مع موضوع المناظرة التي قامت بين أحمد بن حنبل وابن أبي دؤاد . انظر سيرة أحمد بن حنبل في تاريخ الإسلام للذهبي ، تح أحمد محمود شاكر ، القاهرة .

(٣) انظر قائمة الكتب التي أوردها الخطيب في كتابنا (الخطيب البغدادي) دمشق ، ١٩٤٥ م ، ص ١٠٠

العاشر ؛ فلو أنه كان صُنع لـذكر في بـدايـة القرن الرابع / العـاشر . والقصـة إن لم تكن صحيحة في تفـاصيلهـا ، فهي تشير إلى ظروف وملابسـات مـأخوذة عما هو معروف عن بيت الحكمة .

وعلى كل حال وجب أن نعتقد حسب هـذه التفـاصيل بوجود جمـاعـات من المحـدثين وعلمـاء الكـلام والعربيـة والفقهـاء كانـوا يجتمعـون في بيت الحكمـة ، ويتناظرون فيه أمـام الخليفـة ، تجمعهم رابطـة المـذهب ، وكان بشر المريسي على رأسهم ، والمأمون يجري لهم أرزاقهم .

وربما تؤكد هذه النتيجة وتحددها معلومات أخرى لدينا ؛ فيؤكد لنا صاعدٌ على سبيل المثال وجود نقاش أمام الخليفة ، ويذكر هذا التعداد نفسه من المحـدثين وعلماء الكلام وعلماء العربية والفقهاء ، كما لو كان شاركهم في نقاشهم[١] . ويؤكـد ابن تغري بردي مثابرة بشر المريسي على مجالس المـأمون ، محـدداً السنـة التي بـدأ فيهـا ذلـك ، فيقول : « في سنـة ٢٠٩ هـ / ٨٢٤ م قرّب المـأمـون أهـل الكـلام ، وأمرهم بالمناظرة بحضرته ، وصار ينظر فيما يدل عليـه العقل ، وجـالسـه بشر بن غياث المريسي ، وثمامة بن الأشرس وهؤلاء الجنوس »[٢] . فالتفـاصيل المرويّـة في كتاب (الحيـدة) إذن تستـأهل التصـديق . ويمكننـا على ضوئهـا أن نكون أكثر دقة . ويعلمنا محمـد بن علي العبيـدي الخراسـاني بـالخبر التـالي المنقول إلى الخليفـة القاهر : « جالس المأمون المتكلمين ، وقرب إليه كثيراً من الجدليين والمنـاظرين ، كأبي الهذيل وأبي إسحـاق إبراهيم بن سيّـار النظّـام وغيرهم ممن وافقهم وخـالفهم ، وألزم مجلسه الفقهـاء وأهل المعرفـة من الأدبـاء ، وأقـدمهم من الأمصـار ، وأجرى

(١) صاعد ١٠٠

(٢) النجوم الزاهرة ١٨٧/٢

عليهم الأرزاق ، فرغّب الناس في صنعة النظر ، وتعلموا البحث والجدل ، ووضع كل فريق منهم كتباً ينصر فيها مذهبه ، ويؤيد بها قوله »[1] .

ويجب أن نشير إلى أنهم كانوا يتقاضون هذا الأجر عند إقامتهم في بيت الحكمة . ويمكن أن نؤكد أن مؤسسة المأمون كانت مركزاً للمناظرات والجدل بين المتكلمين والفقهاء والمحدثين وعلماء العربية ، وكل هؤلاء كانوا يقبضون أجوراً على عملهم ، ويؤلفون وحدة متجانسة ، تشترك في المذهب والمصلحة والاتجاه . كما يمكن أن نؤكد أيضاً أنهم كانوا يركزون جهودهم حول مذهب المعتزلة الذي كان يترأسه أكبر شخصياتها : النظّام وأبو الْهُذَيْل العلاّف وبشر المريسي وثمامة الأشرس .

والآن ، ماالنتيجة التي نستطيع أن نستخلصها من هذه الوقائع ؟ يجب في رأيي أن نستنتج ما يلي : كان بيت الحكمة أحد بؤر المعتزلة والمنزل الذي كانت تتغذى فيه من كتب الفلاسفة المترجمة . وفي هذا المكان ظهرت جذور فتنة خلق القرآن التي ابتدعت في الإسلام ، والتي نشأت بعد تلك الاجتماعات والمناظرات ، يشجعها فكر هذه الوحدة والتلاحم القائم بينها . وهنا لقي المأمون جماعة أولي عزم وقناعة ، فشرع يساندهم حتى بالقوة والإرهاب ، الأمر الذي أحدث الفتنة دونما إبطاء .

وقد لّمح كاتبان قديمان تلميحاً عابراً إلى ماتلا هذه الوقائع ، فذكرا أن (فتنة خلق القرآن) كانت نتيجة لترجمة علوم الأقدمين ، فهذا هو المقريزي يقول : « وقد كان المأمون لما شغف بالعلوم القديمة بعث إلى بلاد الروم من عرّب له كتب الفلاسفة ، وأتاه بها في بضع عشرة سنة ومئتين من سني الهجرة ،

---

(١) مروج الذهب ٣٠٠/٨ ، وملخصاً عن المقريزي ، سلوك ١ ، ١٦/١ ، وانظر أيضاً الدميري ١١٤/١ ، وخلاصة الذهب المسبوك ١٤١

فانتشرت مذاهب الفلاسفة ، واشتهرت كتبهم بعامة الأمصار ، وأقبلت المعتزلة والقرامطة والجهمية وغيرهم عليها ، وأكثروا من النظر فيها ، والتصفح لها ، فانجرّ على الإسلام وأهله من علوم الفلاسفة ما لا يوصف من البلاء والمحنة في الدين »[1] . وكلام الصفدي يؤكد ذلك بصورة مباشرة : « ولَمّا كبر المأمون عني بعلوم الأوائل ، ومهر في الفلسفة ، فجرّه ذلك إلى القول بخلق القرآن »[2] .

فهذان الشاهدان مفيدان جداً ، لنقدر إسهام ترجمة المؤلفات القديمة في ظهور فتنة خلق القرآن . فإذا نحن وضحناها من خلال الأحداث التي استطعنا أن نذكرها فيما يتعلق باجتماعات العلماء في بيت الحكمة ، فسنتأكد أكثر فأكثر أنّ بيت الحكمة كان بؤرة كبيرة للمعتزلة ، ومركزاً ترسم هذه المدرسة نظراتها فيه ، وتشكل مخططاتها هناك ، وتغترف منه قوة عملها . فإسهام بيت الحكمة هذا كان قوياً وسريعاً جداً .

قال أبو الفداء : « وفي سنة ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م أظهر المأمون القول بخلق القرآن »[3] ، أي بعد ثلاث سنوات[4] من إقامة المتكلمين في بيت الحكمة . ومع هذا فلم تقع الفتنة إلا سنة ٢١٨ هـ / ٨٣٣ م ، أي بعد تسع سنوات من تلك الإقامة ، وهو زمن قصير على كل حال ، الأمر الذي يبرهن على مشاركة بيت الحكمة الكبيرة .

ولنمض إلى مشكلة جديدة ، وهي علاقة بيت الحكمة بالشعوبيين . ولا نستطيع أن نؤكد قوة هذه العلاقات . كما ولا يمكن على كل حال أن نهمل الإشارة إليها . فمن بين أولئك الذين كانوا يديرون مختلف فروع هذه المؤسسة

---

(١) الخطط ، ٢٥٧/٢

(٢) الوافي ، أحمد الثالث ٢٩٢٠/٢ ، ١٧٥/١٧/أ ، ابن شاكر ، فوات ٢٢٩/١

(٣) أبو الفداء ، ٢٩/٢

(٤) كانت هذه الإقامة سنة ٢٠٩ هـ كما يقول ابن تغري بردي ١٨٧/٢

يظهر عربي واحد هو (الصنوبري) ، حتى ولو أنّ كامل الغزي يـدعي أن نسبتـه التي تفترض أن تكـون (الضبي) اسم القبيلـة العربيـة بنـو ضب يجب أن تقرأ الصيني »[١] . وبقية المديرين بالتحديد ليسوا عرباً ، ماعدا أحمـد بن محمـد المسمى صاحب بيت الحكمة ، وهـذا غير معروف الأصل . وتفضيل غير العرب في التعيين بحد ذاته يعطي مدلولاً ما ، حيث يصبح أشدّ إيحائية عنـدمـا نعلم أن رئيس بيت الحكمة غير المنـازع سهل بن هـارون هو زعيم الشعوبيـة في الـوقت نفسـه ، وكان يعمل معه نساخ شعوبي شـديـد التعصب هو علاّن بن الحسن المسمى بـالشعوبي . ومديرو بيت الحكمة الفرس الثلاثة الآخرون وهم سعيد بن حريم ومحمـد بن موسى الخوارزمي ويحي بن أبي منصور الذي كان مجوسياً قبل إسلامـه[٢] انتموا إلى حزب الشعوبيين . وبقي سلمـان الحراني[٣] والمترجمون السريـان غير منتمين للشعـوبيـة . ومن فضول القـول أن نستنتـج أنهم كانـوا يعملـون في الغـالب مـع البرامكـة ومـع الفضـل بن سهـل الـذي عرف بميـولـه ضـد العرب . وكان معظمهم ينتسب إلى مدرسة جنديسابور المدرسة الفارسية الخالصة .

أليست هذه الشواهد الإيحـائيـة تـدفعنـا إلى الاعتقـاد بـأن بيت الحكمـة كان مركزاً للشعوبية ؟ ونجد في كتـاب (الحيـدة) لمحة سريعـة إلى العنصريـة ؛ فقـد ادعى المؤلف أن بشراً المريسي أشار في كتـاب (الكمـال) الـذي ألفـه في الرد على خصمـه أنـه أثبت الحجـة عليـه حين يقـول : « وأنّ أمير المـؤمنين بـالتـالي أقـالـه واستبقاه ، بعد وجوب القتل عليه ، وصفح عما كان منه ، لميله إلى العرب »[٤] .

---

(١) مجلة المجمع العلمي العربي ، ٤٨٤/١١ ، ويحتج راغب الطباخ على ذلك قائلاً (مجلة المجمع العلمي العربي ٥٢/١٢ ـ ٥٤) : وحتى ولو شككنا بهذه النسبة فيمكن أن تكون : (ضبي بـالولاء) ، أي أنه أحد أفراد هذه القبيلة .

(٢) الخطيب ٣١٨/٤

(٣) قيل الحراني في مخطوطة اكتشفها كراوس ، انظر التراث اليوناني .

(٤) الحيدة ، الظاهرية ، تصوف ، ١٢٩ ، ٧٩/أ .

فكأن المـأمون ـ وهـو يصفـح عنـه ـ قـد غلبت عليـه عصبيتـه للعرب ضـد خصومه من أهل بيت الحكمة . أفلا يؤكد هذا الشاهد ماذكرناه آنفاً ؟

يبدو لنا أننا نستطيع الإشارة مستعينين بهذه الشواهد والوقائع ذات الدلالـة إلى أنّ (بيت الحكمة) أنشئ على طراز المؤسسات العلمية القديمة . فلقد اهتم مبدعو بيت الحكمة ورؤساؤه بتجميع المؤلفات القـديمـة فيـه ، وأمروا بترجمتهـا وتفسيرهـا وتلخيصها ، كما اهتموا باستقطاب المنجمين المزوّدين بالأجهزة ، وربمـا جمعوا إليهـا مراصد الفلك ، وهيؤوا كذلك كل مايحتاجه العلماء والعاملون المدعوون للمناقشـة في هذه الكتب ودراستها والمناظرة فيهـا . وكان المـأمون يجري أرزاقـاً لكل هؤلاء الذين يعملون هنا . ونعتقـد أننـا نستطيع الآن تعريف (بيت الحكـمة المتطور) بأنه مؤسسة شبه عامة ، تشتمل على مجموعة فروع مخصصة كما يلي :

١ ـ تنمية النشاطـات العلميـة ، بـدءاً من جمع الكتب وترجمتهـا والـدراسـات والإنتاج العلمي أيضاً .

٢ ـ التزام فريـق المنجمين المهرة بـإرضـاء رغبـات رؤسـائهم في التنبـؤ بالمستقبل .

٣ ـ إقامة عدد من العلماء الملتزمين بالعمل فيها وعقد اجتماعات علمية .

وهـذا التعريف لا ينطبـق طبعـاً على كل المـؤسسـات التي تحمـل اسم (بيت الحكـمة) . ويبـدو أنـه يكفي لمؤسسـة في ذاك العصر لتـدعى (بيت الحكـمة) أن يكون لديها مكتبة ذات أهمية معينـة[1] . ويجب أن نؤكـد هنـا أنّ المكتبـة عنصر أساسي في بيت الحكمة . ويمكن لهذه المؤسسة أن توجد من غير العنـاصر الأخرى ،

---

(١) يمكن أن تسمى كذلك مثلاً : (خزانة الكتب) . وقد تكلمنا في هذا الفصل أيضاً عن مكتبـات الخلفاء عامة .

لكنها لاتستطيع أن تقوم بدون المكتبة . فالمكتبة هي المركز الأول والمهين والمهم في المجمع الإسلامي الذي هو بيت الحكمة .

إن انتقال الخلافة من بغداد إلى سامراء أيام المعتصم الذي تلا المأمون كان مرحلة حاسمة في حياة بيت الحكمة العباسيّ . فضعفت صفته المجمعية ، وما كان أكثر من مكتبة ، واقتصر المؤرخون والباحثون على تسميته باسم خزانة كتب المأمون ، وبعبارة أخرى ، مكتبة المأمون ، ولم ينقطعوا عن التردد إلى هذه الخزانة حتى نهاية القرن الرابع / العاشر[1]، ولم يعودوا بعد هذا القرن يذكرونها . ويحتمل أن تكون ضُمت إلى إحدى خزائن كتب الخلفاء ، وربما بددها السلاجقة الذين قضوا على المعتزلة . ونعلم مع ذلك أنّ بعض المؤلفات التي تحتويها خزانة كتب [بيت الحكمة] والتي كانت تحمل علامة المأمون قدمت إلى ابن أبي أصيبعة حين كتابته (طبقات الأطباء) سنة ٦٤٣ هـ / ١٢٤٥ م[2] ، ويجب أن تكون الكتب في مكتبة المأمون في ذاك العصر مشتملة على النوادر التي قدمها إليه جماعته .

وهكذا ينتهي تاريخ (بيت الحكمة) للمأمون الذي أردناه أكثر شمولاً وتحديداً ، ونرجو أن يكون ماأوردناه صحيحاً ودقيقاً ، وأن نكون قد وفقنا إلى الإشارة للأهمية الأولى لبيت الحكمة الذي هو أهم شكل من أشكال المجامع والخزائن العربية .

---

(١) الفهرست ٥ ، الخطيب ٣٩١/١٠ ، الذهبي ، تاريخ الإسلام ٢٧٦/٣ ، الفهرست ١٩ ، ٥

(٢) ابن أبي أصيبعة ١٨٧/١

ثالثاً ـ سَمِّيات بيت الحكمة[1] :

كان هناك مؤسستان تختلفان عما تقدم ، حملتا اسم (خزّانة الحكمة) . وكان إلى جانبهما مؤسسة ثالثة لم تكن تحمل هذا الاسم .

فالأولى (خزانة الحكمة) لعلي بن يحيى المنجم (ت ٢٧٥ هـ / ٨٨٨ م) . وهو ابن يحيى بن أبي منصور الذي كان يشتغل في بيت الحكمة للمأمون ، كان راوية للأخبار والأشعار ، وشاعراً مجيداً ، أخذ الأدب وصنعة الغناء عن إسحاق بن إبراهيم الموصلي المشهور ، ونادم الخليفة جعفر المتوكل ، وكان من خاصة ندمائه ، وتقدّم عنده وعند من بعده من الخلفاء إلى أيام المعتمد[2] . وهذه قصة خزانته : « كان بكَرْكَرْ من نواحي القُفْص ضيعة نفيسة لعلي بن يحيى بن المنجم وقصر جليل ، فيه خزانة كتب عظيمة ، يسميها : (خزانة الحكمة) ، يقصدها الناس من كل بلد ، فيقيمون فيها ، ويتعلمون منها صنوف العلم ، والكتب مبذولة في ذلك لهم ، والصيانة مشتملة عليهم ، والنفقة في ذلك من مال علي بن يحيى ، فقدم أبو معشر المنجّم من خراسان يريد الحج ، وهو إذ ذاك لا يحسن كبير شيء من النجوم ، فوصفت له الخزانة ، فمضى ورآها ، فهاله أمرها ، فأقام بها ، وأضرب عن الحج ، وتعلّم فيها علم النجوم ، وأعرق فيه حتى ألحد ، وكان ذلك آخر عهده بالحج وبالدين والإسلام أيضاً »[3] .

تُظهر القصة هذه الخزانة في حقيقتها الواضحة ؛ أنها مكتبة وضعت تحت تصرف العلماء الذين كان يمكنهم أن يقيموا فيها وينالوا أجوراً مجزية ، وهي تشبه من هذه الناحية بيت الحكمة للمأمون . ولنضف إلى هذه الصفة ما نعرف عن

---

(١) انظر ماكنسون : على هامش تاريخ المكتبات ٥١ ، ٢٧/٥٢

(٢) الخطيب ١٢١/١٢ ـ ١٢٢

(٣) إرشاد ٤٦٧/٥ . وكلمة (صيانة) الواردة في هذا الشاهد يجب أن تقرأ (عناية) .

علي بن يحيى الذي « مال إلى الطب فنقل للمأمون منه كتباً كثيرة »[1] ، وألف له حنين بن إسحاق رسالة ذكر فيها مؤلفات جالينوس المترجمة إلى العربية ، وبعضاً من المؤلفات الأخرى غير المترجمة[2] . ونفهم من ذلك أنّ هذه الخزانة تشبه من حيث الضخامة (بيت الحكمة) ، وأنها تعتبر من سَمِيّاتها .

وأما خزانة الحكمة الأخرى ، فجمعها علي بن يحيى نفسه للفتح بن خاقان . وهذا الأخير (سليل الملوك) كان في نهاية الذكاء والفطنة وحسن الأدب ، اتخذه المتوكل أخاً ، وكان يقدّمه على سائر ولده وأهله ، وتوفي الفتح في الليلة التي قتل فيها المتوكل قتلاً معه بالسيوف[3] ، وكان يحضر لمجالسة المتوكل ، فإذا أراد القيام لحاجة أخرج كتاباً من كمّه أو خفّه ، وقرأه في مجلس المتوكل إلى عوده إليه ، ويفعل ذلك حتى في الخلاء[4] . قال أبو هفّان : ثلاثة لم أر قط ولا سمعت أحب إليهم من الكتب والعلوم ، الفتح بن خاقان والجاحظ وإسماعيل بن إسحاق القاضي[5] .

كلّف الفتح علي بن يحيى أن يجمع له خزانة قيمة ، « فعمل له هذا خزانة حكمة ، نقل إليها من كتبه ومما استكتبه الفتح أكثر مما اشتملت عليه خزانة حكمة قط »[6] . وهي خزانة « لم ير أعظم منها كثرة وحسناً »[7] .

---

(١) ابن أبي أصيبعة ٢٠٥/١ إسحاق بن حنين ترجم له كتاب عدد القاييس ، القفطي ١٣٢

(٢) الفهرست ٢٩٥ . نشر هذه الرسالة برجشتراسر .

(٣) الفهرست ١١٦

(٤) المرجع السابق ، عيون ، الظاهرية ، التاريخ ٤٧ ، ١٧٦/أ .

(٥) إرشاد ، نشر دار المأمون ٧٥/١٦ ، ابن الطقطقي ٣ وكذلك المبرد والخطيب تقييد العلم ١٣٩ ـ ١٤٠٠ ، الشريف المرتضى ، الأمالي ١٣٨/١

(٦) الفهرست ١٤٣ ، الوفيات ، سيرة علي بن يحيى ، إرشاد ٤٥٩

(٧) الفهرست ١١٦ ، إرشاد ١١٧/٦ ، ابن شاكر : فوات ١٢٣/٢ ، عيون ، الظاهرية ، تاريخ ، ٤٧ ، ١٧٦/أ .

هذا كل ماعرف عن خزانة الحكمة للفتح ، ولعلنا نستكمل حديثها بما نعرف عن الفتح نفسه ، كان يحضر داره نصحاء الأعراب وعلماء الكوفة والبصرة[1] . وكان يشجع المؤلفين وينفق عليهم ؛ فمحمد بن الحارث التغلبي كان في جملته[2] . وألف له محمد بن حبيب كتاب (القبائل الكبير والأيام) في نحو أربعين جزءاً ، كل جزء مئتا ورقة وأكثر[3] . أليست هذه أخباراً تصف الفتح بن خاقان على شكل تجعله يشبه أرباب خزائن الحكمة ؟ إنه بالتأكيد واحد من أبرزهم .

وما عدا علي بن يحيى والفتح بن خاقان ، نعرف ثلاثة إخوة اشتهروا بالعناية التي بذلوا من أجلها أموالهم للحصول على كتب الحكمة ، فأرسلوا البعثات لاستكشافها وترجمتها ، وهم محمد وأحمد والحسن أبناء موسى بن شاكر ، المعروفون باسم بني المنجم ، فيجب أن نعدهم في جملة أرباب خزائن الحكمة ، برغم أن المؤرخين لم يشيروا إليهم بهذا اللقب . ولكننا ندرك تماماً عند دراسة أخبارهم صدق رأينا فيهم « فهؤلاء الإخوة الثلاثة ممن تناهوا في طلب العلوم القديمة ، وبذلوا فيها الرغائب ، وأتعبوا فيها نفوسهم ، وأنفذوا إلى بلد الروم من أخرجها إليهم ، فأحضروا النقلة من الأصقاع والأماكن بالبذل السنيّ ، فأظهروا عجائب الحكمة ، وكان الغالب عليهم من العلوم الهندسة والحيل والحركات والموسيقى والنجوم »[4] ، « وأنفذوا حنين بن إسحاق وغيره إلى بلد الروم ، فجاؤوهم بطرائف الكتب وغرائب المصنفات في الفلسفة والهندسة والموسيقى والأرثماطيقي والطب »[5] .

---

(١) الفهرست ، ١١٦ ، عيون ١٧٦/أ .

(٢) الفهرست ١٤٨

(٣) الفهرست ١٠٧

(٤) الفهرست ٢٧١ ، القفطي ٣١٦

(٥) الفهرست ٢٤٣ ، القفطي ٣١

وأراد بنو المنجم أن يواظبوا على عملهم بانتظام ، فخصّصوا كل شهر تقريباً خمس مئة دينار (لعمل الترجمة وملازمته) ، وهو العمل الذي كان يشارك فيه حنين بن إسحاق وحبيش بن الحسن وثابت بن قرة وآخرون[1] .

وبرغم أن جمّاعي الكتب هؤلاء كانوا يشتغلون معاً ، فلم يكن لديهم مكتبة مشتركة ، وكان كلٌ منهم يقوم بمهمته منفرداً . ولفت أنظارنا بشكل خاص أبو جعفر محمد أبرز الثلاثة ، كان وافر الحظ من الهندسة والنجوم ، عالماً بإقليدس وكتابه المجسطي ، وجمع كتب النجوم والهندسة والحساب والمنطق ، وكان حريصاً عليها قبل الخدمة ، يكد نفسه فيها ويصبر[2] . ويبدو أنّ هذه المجموعة وضعت تحت تصرف العلماء . وقيل : إن « ثابت بن قرّة استصحبه محمد بن موسى لما انصرف من بلد الروم فتعلم في داره »[3] . وكان المترجمون يشتغلون عند محمد ، وهو يدفع لهم بسخاء ، وكان من أبرّ الناس بحنين بن إسحاق ، وقد نقل له حنين كثيراً من الكتب الطبية[4] ، ومن الكتب الأخرى كتاب الفصول[5] وكتاب الإكسير[6] وكتاب قاطيطون[7] ، وهذه الكتب الثلاثة شرحها جالينوس ، وحنين هو الذي أصلح المقالات الثاني الأخيرة لكتاب حيلة البرء لجالينوس ، الذي نقله حبيش[8] . واستخدم أحمد بن موسى كذلك المترجمين ، مثل عيسى بن يحيى ،

---

(١) الفهرست ٢٤٣ ، ابن أبي أصيبعة ١٨٧/١

(٢) القفطي ٤٤٢

(٣) الفهرست ٢٧٢ ، القفطي ١١٥

(٤) ابن أبي أصيبعة ٢٠٥/١

(٥) الفهرست ٢٨٨

(٦) المرجع السابق ، القفطي ٩٤ ، ٩٥

(٧) الفهرست ، المرجع السابق .

(٨) الفهرست ٢٩٠

الـذي ترجم لـه كتـاب الأخلاط بشرح جـالينوس[1] ، وهلال بن هلال الحمصي ، الذي ترجم له المقالات الأربع الأولى من كتاب المخروطات لأبلينوس[2] .

واتبع بنو المنجم ـ وخاصة محمد ـ الطريق الـذي اختطـه المـأمون فيما يخصّ إرسال المبعوثين لاكتشاف كتب الحكمة وتجميعها ، واستخـدام المترجمين لنقل هـذه الكنوز العلمية إلى العربية .

ولنذكر هنا أنّ المأمون « أثبت أبنـاء المنجم هؤلاء مع يحيى بن أبي منصور في بيت الحكمة »[3] ، واستطاعوا أن يتعلموا في هذه البيئة الوسـائل التي كان يـألفهـا الخليفـة . ولا ريب أنهم رغبوا في أن يكـون لهم معهـد مثلـه ، ولـذلـك ذكرنـاهم هاهنا .

وبعد فالحركة التي شرعها المأمون ، وأقامها بشكل محدد استمرت بعـده كمثـال يحتذى ، وقادها أشخاص كانت لهم من قبل علاقات لصيقـة ومعينـة مع مؤسستـه (بيت الحكمة) إما عن طريق الأب كعلي بن يحيى ، وكان ابناً لأحـد موظفيهـا ، أو عن طريق النشأة فيه كأبنـاء المنجم الـذين عملوا هنـاك شخصيـاً أو عن طريق الرغبة كالفتح بن خاقان . وكل عمل هؤلاء امتداد للعمل الأول .

وخـزائن الحكمـة هـذه استمرار لبيت حكمـة المـأمـون ، ومن سمياتـه وصـورة مصغرة عنه .

رابعاً ـ خزائن شبه عامة معاصرة لبيوت الحكمة :

ولم تكن بيوت الحكمـة وخـزائنهـا هي المكتبـات الـوحيـدة التي كان العلمـاء

---

(١) الفهرست ٢٨٨ ، القفطي ٩٥

(٢) الفهرست ٢٦٧ ، القفطي ٦٢

(٣) انظر ص (٧٢) .

يستفيدون منها ويترددون عليها ، بل كان إلى جانبها خزائن خاصة يؤمها جمهور محدد ، مختلف عن جمهور بيت الحكمة ، سنذكر ما عرفناه منها فيما يلي :

دار القراء : يجب أولاً أن نوضح مشكلة أثارها أحد كبار أساتذتنا بشأن ماسمي (دار القراء) ، وأنها بناء مخصص لقراء القرآن الكريم ، فذكر على قول الواقدي أن ابن أم مكتوم هاجر إلى المدينة المنورة بعد معركة بدر بقليل ، فنزل في تلك الدار وكانت لمخرمة بن نوفل[1] ، وأشار السيوطي إليها في دراسته عن أوليّة المدارس[2] . ويتساءل أستاذنا الكبير : ما كانت هذه الدار ؟ وما المهمة التي قامت بها ؟ والحق ، فليست هذه بالتأكيد دار القراء ولكنها دار القَراء (قراء مصدر قرى الضيف) . وأما فيما يخصّ القراء ، قراء القرآن الكريم فلم يكن بعد قد وجد أمثالهم .

بيت الجمحي : ولنوضح المسألة التالية ؛ وهي أول خزانة مفتوحة للأصدقاء : « كان عبد الحكم بن عمرو بن عبد الله بن صفوان الجمحي قد اتخذ بيتاً ، فجعل فيه شطرنجات ونردات وقِرْقات [نوع من الألعاب] ودفاتر فيها من كل علم ، وجعل في الجدار أوتاداً ، فمن جاء علق ثيابه على وتد منها ، ثم جرّ دفتراً فقرأه ، أو بعض ما يُلعب به فلعب به مع بعضهم »[3] . وإلى هذا البيت قدم يوماً الأحوص الشاعر المشهور (مات بين سنتي ١٠١ هـ / ٧١٩ م و ١٠٥ هـ / ٧٢٨ م) .

وهذا الخبر من ذاك العصر وتلك البيئة غريب جداً ، ذلك لأنّ الكتابة لم تكن بعد قد انتشرت بشكل جيد ، وكلمة دفاتر مع ذلك مُطمئِنة ؛ فالدفاتر وهي الشكل الأولي للكتاب كانت قد ظهرت في تلك المنطقة ، وضمّت مختلف

(١) المنتخب من ذيل المذيّل للطبري ٢٣٤٧/٣ ، ابن عبد البر ، استانبول ٣٣٧/١

(٢) حسن المحاضرة ١٨٥/٢

(٣) الأغاني ٥١/٤

الطرائف والأمثال والشعر . وتكمن الغرابة بشكل خاص في شخص عبد الحكم . ولقد بحثنا طويلاً في هويته دون جدوى . وبالتالي فالخبر تقدمه إلينا شخصية معتبرة ، ويجعله يشغل في عشيرته مكان الشرف والجدارة . ولن يمرّ المؤرخون وكتّاب السير سريعاً على شخصية كهذه ، وهم الذين ذكروا أشخاصاً أقل أهمية في ذاك العصر . ويبدو لي بعد تفكير عميق أنّ اسمه ليس عبد الحكم بن عمرو بن صفوان الجمحي ، بل عبد الله بن صفوان الجمحي ، المعروف حق المعرفة ، والمتوفى سنة ٧٣ هـ / ٦٩٢ م[١] ، أو غيره . ويحتمل أن يكون عبد الحكم بن عمرو هو الذي روى الخبر[٢] .

بيت ابن أبي ليلى : وفي هذا العصر كان لدى عبد الرحمن بن أبي ليلى ، المقتول سنة ٨٥ هـ / ٧٠٤ م[٣] « بيت فيه مصاحف ، يجتمع إليه فيه القرّاء ، قلّما تفرقوا إلا عن طعام »[٤] .

دار عبد الله الأندلسي : في نهاية القرن الثاني الهجري / بداية القرن التاسع الميلادي ، أعدَّ أبو عبد الرحمن ، عبد الله بن محمد بن هانئ الأندلسي داراً لكل من يقدم عليه من المستفيدين ، فيأمر بإنزاله فيها ، ويزيح علّته في النفقة والورق ويوسّع النسخ عليه[٥] ، وكان عنده كتب كثيرة بيعت فيما بعد بأربع مئة ألف درهم[٦] وهو مبلغ عظيم يقتضي أن يكون عدد الكتب كثيراً فقد كان ثمن

---

(١) انظر ابن الأثير ، أسد الغابة ١٨٥/٣

(٢) نسخة مخطوطة في المكتبة الخديوية برقم : الأدب ١٣١٩ ، ١٣/ب . وخطها حديث غير موثوق . أخذت عن الطبعة الأصلية .

(٣) انظر الزركلي ، الأعلام .

(٤) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ٧٥/٦

(٥) الأزهري ، تهذيب اللغة ٢٣ ـ ٢٤

(٦) المرجع السابق .

الكتاب العادي على وجه العموم عشرة دراهم ، والنسخة النفيسة قد تصل وسطياً إلى مئة درهم .

وينبغي أن تكون كتب هذا الجمّاعة ثمينة وغالية ، فكان كبار اللغويين ورجال الأدب يعملون لحسابه . وقد أعطى مرة أبا علي الأخفش وحده اثني عشر ألف دينار[1] . وإذن فمن المفروض أن يكون لديه عدد كبير من الكتب التي نسخها هؤلاء العلماء بأيديهم ، وهذا ماجعل مجموعة كتبه ثمينة جداً .

ويمكن القول إن هذه الخزانة نموذج تمهيدي لدار العلم .

---

(١) المرجع السابق .

الفصل الثاني

عصر دور العلم[1]

لا شك أنه كان إلى جانب بيوت الحكمة وخزائنها خزائن للأفراد تضم كتباً قليلة أو كثيرة . ولا يمكن ، أن نعتبرها في أي حال خزائن عامة أو شبه عامة ، وإنما هي ملك لأصحابها ، ويسمحون في حالات خاصة وعابرة بدخول عدد محدود من الأشخاص إليها . ولئن كانت بيوت الحكمة وخزائنها ملك الخليفة أو ملك جمّاعي الكتب المرموقين فإن من طبيعتها أن يأوي إليها العلماء ليقوموا بمهامهم في البحث والترجمة والشرح والجمع والتأليف . كما كان يدخل إليها المطالعون يستفيدون من غناها . وصحيح أنه لا يمكن وصفها بأنها عامة ، فإن لنا كل الحق أن نضعها مع الخزائن شبه العامة .

وإذن فهي تشكل أوائل المكتبات العربية الموضوعة تحت تصرف طبقة معينة من العلماء ، وكانت مرحلة أولى للمكتبات العامة الحقيقية . ويمضي نحو من ثلاث مئة سنة على ظهور الإسلام قبل أن تفتتح المكتبات للناس عامة . وتكاد تنقضي حياة بيوت الحكمة وخزائنها قبل ذلك أو في أوائل ذلك .. وفي بداية القرن الرابع / العاشر ظهرت المكتبات العربية العامة . ولكنها كانت ـ برغم اسمها الجديد : (دار العلم) وصفاتها الجديدة أيضاً ـ حلقة متصلة بسابقاتها ، أو بصورة

---

(١) هناك دراستان عامتان عن دار العلم : لامانس ، دار العلم وبيوت الحكمة ؛ مجلة الشرق ، السنة ٣٨ ، العددان ، ٢ و ٣ ، ص ١٢٩ ـ ١٣٢ ؛ مصطفى جواد ، دور العلم العراقية في العصور العباسية ، عالم الغد ، السنة الأولى ، العدد ٨ ، ص ٢٣٨ .

أدق متصلة بروادها ، واعتمدت عليها في طريقة نشوئها وعقلها ومخطط عملها . ونجد دليل هذا في أمرين مختلفين جداً . الأول أنه لم يكن قبل دور العلم مكتبة عامة أو شبه عامة استطاعت أن تؤدي إلى نشوء دور العلم غير بيوت الحكمة وخزائنها والثاني تشابه هاتين المؤسستين بحيث يصح أن يقال إنّ إحداهما نشأت عن الأخرى .

ولن نقتصر على بيان الأمر الأول تحدياً للمؤرخين بذكر مكتبة واحدة عامة أو شبه عامة سبقت دار العلم غير بيت الحكمة وخزانتها فلدينا أدلة كافية تثبت ذلك . وسنلتمس هذه الأدلة من تاريخ تشريع وقف الكتب . ولن نتطرق للأمر الثاني إلا بعد دراسة تاريخ دور العلم ؛ لأنّ ذلك سيتضح على ضوء هذا التاريخ .

أولاً ـ لمحة تاريخية عن تشريع وقف الكتب :

الوقف مال محبوس غير منقول ، لا يجوز تطبيقه على الكتب المعرّضة في طبيعتها إلى الضياع والتمزق والتلف . وشقّ على الفقهاء المسلمين وهم يؤمنون بالضرورة المباشرة والملحة لوقف الكتب أن يتسامحوا فيها ، مع أن ما يجدونه مما يستندون عليه من أفعال النبي ﷺ أو أقواله[1] يخالف المبدأ الأساسي للوقف . وانتهى معظمهم مع ذلك إلى القبول به ، معتمداً على قاعدة العرف الذي « يستند إلى خبرة العامة واتفاقهم على فعل شيء مألوف بشكل عادة وعلى احترام هذه العادة في العقود الخاصة بالعلاقات المدنية والدينية »[2] . وتجد هذه القاعدة

---

(١) انظر عن تاريخ تشريع الوقف شكري بيدر ، مؤسسة الأموال المساة (حبوس) أو (وقف) في القانون الإسلامي ، باريس ، ساغو ، ١٩٢٤ م ، كوتّا ، نظام الأوقاف في مصر ، هيفننغ ، مادة الوقف ، الموسوعة الإسلامية .

(٢) التهانوي ، مادة (العرف) .

حجتها في الحديث المروي عن النبي ﷺ : « فما رأى المسلمون حسناً ، فهو عند الله حسن » [رواه الإمام أحمد ٢٧٩/١] .

وهكذا ، فالعادة المألوفة لوقف نسخة من القرآن الكريم منذ صدر الإسلام تعطي دليلاً شرعياً لوقف الكتب . ومن جهة أخرى فالعادة الجارية واللاحقة لوقف الكتب تسمح للفقهاء المسلمين بنتيجة مبدأ العرف أن يجيزوا هذا الوقف على قاعدة فقهية مشروعة . ويمكن ونحن نجاوز حجج الفقهاء أن نذكر أيضاً أنّ وقف الكتب القائم على أساس أعمال البر أو التعليم ربما يعتبر كالوقف المشاع ، أي يُعتبر جزءاً مكملاً لبناء المكتبة . وهذا بالإجماع قاعدة مشروعة[1] .

ولم يقبل الفقهاء وقف الكتب بسهولة ، إذ مضى قرنان من المناقشات قبل أن يتوصلوا إلى اتفاق قطعي . ومن الضروري إيراد تلك المناقشات ، لأنها ترتبط بإيجاد عرف وقف الكتب الذي سيعلن عن ولادة المكتبات العامة بمعناها الدقيق .

قال الإمام أبو حنيفة كما يروي أحد تلاميذه وهو الحسن بن زياد (ت ٢٠٤ هـ / ٨١٩ م) : « ويجوز وقف المصاحف وقفاً مؤبداً لأهل المسجد الحرام أو لغيره وعبّار الطريق وأبناء السبيل يقرؤون فيها . ثم إن بدا للواقف ، فله أن يرجع فيها ولورثته من بعده أيضاً[2] » . وهكذا فوقف المصاحف ممكن ، ولكنه غير مؤبد . إنه يتبع رغبة الواقف ورغبة وارثيه من بعده . ومع هذا ، فمؤلف كتاب موقف العقول[3] يدعي بالمقابل أنّ وقف المال المنقول - ووقف الكتب شكل من أشكاله - مسموح به ، متبعاً رأي أبي حنيفة . وربما أراد المؤلف

---

(١) كل مؤلفات الفقه تقريباً تشير إلى هذا الاتفاق .

(٢) كتاب الوقف ، مخطوطة ولي الدين ، مجموعة رقم ١٥٥١

(٣) الظاهرية ، الفقه الحنفي ١٢٠ ، ١/ب .

أن يشير إلى الصفة الوقتية وغير الشرعية بالتالي لهذا الوقف عند إمام المذهب الحنفي . ورأي أبي حنيفة يتوافق مع عصر لم يكن فيه مكتبات عامة بالمعنى الحقيقي ، سوى أوقاف مصاحف منثورة دون كبير اهتمام .

واختلف رأي صاحبي أبي حنيفة محمد بن الحسن الشيباني وأبي يوسف فيما يخصّ وقف المال المنقول[1] .

فعند أبي يوسف (ت ١٨٢ هـ / ٧٩٨ م) عدم جواز هذا الوقف ، لفقدان الشرط الذي هو التأبيد[2] ، المبدأ الذي اعتبر أساسياً . ويجب إذن رفض القول المتفرد بكتاب السير[3] والذي تساهل أبو يوسف بموجبه في وقف المال المنقول بسبب العرف الدارج . ومثل هذا القول هو الذي ضلّل مؤلف كتاب الوقف المحفوظ في مكتبة ولي الدين باستانبول ، فبعدما ذكر رأي أبي حنيفة السابق فيما يخص وقف المصاحف أضاف رأياً لأبي يوسف مناقضاً تماماً يقول بمنع الرجوع في وقف المصاحف . فإن رجع فيها فلكل واحد من المسلمين أن يخاصمه فيرده إلى الوقف[4] .

واشترط محمد بن الحسن الشيباني (ت ١٨٩ هـ / ٨٠٤ م) لشرعية وقف المال المنقول أن يكون مبنياً على العرف ؛ لأن القياس عنده يترك عندما يتعارض مع العرف[5] . كذلك ربما يهمل مبدأ الدوام في وقف الكتب إذا أقره العرف .

---

(١) الطرابلسي ٢٠ ، السرخسي ١٢

(٢) موقف العقول ، الظاهرية ، الفقه الحنفي ١٢٠ ، ابن عابدين ، الحاشية ٣٨٥/٣ ، وانظر أيضاً السراج ٨/٣/أ ، الهداية ٤٣١/٥ ، الفتاوى البديعية ٢٢٢/٣/ب ، الفتح ٥٠٨/٢ ، البناية ٢ ، ٩٩٥/٢

(٣) ابن عابدين ، الحاشية ٣٨٥/٣

(٤) مجموع ١٥٥١

(٥) الإسعاف ٢٠ ، وانظر أيضاً السراج ٨/أ .

ويذهب مؤلف (كتاب السير) إلى أبعد من ذلك ، فيؤكد أنّ محمد بن الحسن أجاز وقف كل مال منقول[1] ، بغض النظر عن العرف ، وهذا ادعاء خاطئ يجب رفضه .

وأجمع غالب فقهاء الحنفية على قبول رأي محمد[2] ، الذي طرح مبدأ العرف ، وطبقوه على كل الأموال المنقولة ، حتى إنهم أجازوا وقف أشياء كان اعتبر محمد وقفها غير شرعي[3] . والصحيح أن العرف السائد في عصرهم أجاز لهم ذلك .

وأكد بعض الفقهاء أن محمداً أجاز وقف المصاحف والكتب[4] . والحق أنه اعتبر وقف المصاحف شرعياً . ونقع في كتاب الوقف ذاته ، والمحفوظ في مكتبة ولي الدين ، تتمة هذا الجواز بقوله[5] : لا يملك واقف المصحف أن يرجع بوقفه . فإذا تمزق المصحف الذي يحمل علامة الوقف وجب أن يوضع عند القاضي ، فيبيعه ، ويشتري غيره مكانه ، وإذا كان ثمنه في السوق لا يسمح بتبديله رده إلى ورثة الواقف ، واعتبره إرثاً لهم . وهكذا عرف وقف المصاحف في ذلك العصر . وقد وضع عثمان بن عفان رضي الله عنه أربع نسخ أو ستاً من القرآن الكريم في مساجد مختلفة من الدولة الإسلامية ، كما كتب إسحاق بن مرار أبو عمرو الشيباني (٩٦ هـ / ٧١٤ م ـ ٢٠٦ هـ / ٨٢١ م) بخطه مصحفاً ، وجعله في مسجد الكوفة ، حتى كتب نيفاً وثمانين مصحفاً بخطّه[6] . وهذان العملان أصبحا بشكل طبيعي نوعاً من أنواع الوقف ، مع أن مصادرنا لاتذكره . ومع ذلك فلدينا خبر

(١) ابن عابدين ، الحاشية ٣/٣٨٥ ، البحر ٥/٢١٨
(٢) في كل كتب الفقه تقريباً .
(٣) موقف العقول ٤/أ .
(٤) منح الغفّار ٢٦٥/أ ، الهداية ٥/٤٣١ ، الإسعاف ٢٠
(٥) مجموع ١٥٥١
(٦) الفهرست ٦٨ ، الخطيب ٦/٣٢٩ ، وفيات ١/٦٥ ، إرشاد ، ط الرفاعي ٦/٧٩

عن مصحف مخصص للوقف : كتب المفضل بن محمد الضبي (ت ٢٠٨ هـ / ٨٢٣ م) مصاحف وقفها على المساجد . وسئل عن ذلك فقال : اشتريت بذلك الهجاء الذي كتبته بيدي[١] .

وأصبح وقف المصاحف أيام المتوكل (حكم بين ٢٣٣ هـ / ٨٤٧ م - ٢٤٧ هـ / ٨٦١ م) مهماً جداً في جامع عمرو بالقاهرة ، حتى اضطر القاضي الحارث بن مسكين أن يعيّن أميناً لحفظها[٢] . وأُقر وقف المصاحف نهائياً . وأما بالنسبة لوقف الكتب بالذات فقد أكد ابن عابدين[٣] أنه لم يكن أقيم على مبدأ التعارف حتى عصر متأخر ، أو حتى زمن محمد بالأحرى .

ولا نرى عند زفر تلميذ أبي حنيفة (ت ١٥٨ هـ / ٧٧٢ م) أي تقييد في موضوع وقف المال المنقول مهما كان وضعه . لكنّ تلاميذ أبي حنيفة الآخرين يرون كأستاذهم وجوب تصديق القاضي على الوقف ، وهذا الأمر الشكلي صعب ومزعج[٤] .

وأيد رأي محمد نفسه فقيه بلخ الكبير وتلميذ أحد أصحاب أبي حنيفة نصير بن يحيى (ت ٢٦٨ هـ / ٨٨١ م) فأجاز وقف الكتب أيضاً[٥] ، ووقف كتبه[٦] هو على أصحاب أبي حنيفة[٧] . فهل أصبح العرف مفضلاً في هذا الجواز ؟

---

(١) عيون (الظاهرية ، تاريخ ، ٤٧) ٢٧/أ ، بغية ٣٨٦

(٢) صبح الأعشى ٤١٩/١

(٣) الحاشية ٤٧٢/١

(٤) موقف العقول ٢/ب .

(٥) الجامع الكبير ، الربع الثالث من الجزء ، شرح فتح القدير ٤٣٠/٥ ، الفتاوى البديعية ٢٢٢/٢/أ .

(٦) السراج الوهاج ٨/أ ، الهداية ٤٣١/٥ ، البحر ٢١٨/٥ ، تبيين الحقائق ٣٢٧/٣

(٧) بدائع الصنائع ٢٢٠/٦ . وتدعي ملاحظة مغلوطة (البناية ٢ ، ٢ ، ٩٩٥) أنّ هذا الوقف كان لأبي حنيفة قبل أن يموت ، وربما تقصد بذلك أصحاب أبي حنيفة .

لا يبدو ذلك كذلك . فلم يعتمد نصير بن يحيي في الواقع على العرف ، ولكن على المقارنة الاستنتاجية : يمكن أن تعتبر الكتب كالمصاحف[١] ، لأنها تتعلق بالدين ، وترتبط به كثيراً ، فهي تدعو إلى التعليم ، وتسهّل الدراسة ، وتسمح بالقراءة[٢] . ويقول ابن عابدين[٣] : إن عرف وقف الكتب لم يكن شائعاً في ذاك العصر ، فمحمد بن سلمى (ت ٢٧٨ هـ / ٨٩١ م) تلميذ أحد أصحاب أبي حنيفة لم يجز وقف الكتب بل وقف المصاحف . ولم يعتبرها كالمصاحف[٤] التي ثبت وقفها بالعرف .

والفقهاء الثلاثة الكبار في بقية المذاهب ؛ مالك بن أنس (ت ١٧٩ هـ / ٧٩٥ م) ، ومحمد بن إدريس الشافعي (ت ٢٠٤ هـ / ٨١٩ م) ، وأحمد بن حنبل (ت ٢٤١ هـ / ٨٥٥ م) أجازوا وقف كل الأشياء المستعملة غير القابلة للتلف والممكن بيعها[٥] . وهذا الجواز يُدخل الكتب . ولكن يجب أن ننتظر زمناً قبل أن نرى فقهاء هذه المذاهب يجيزون وقف الكتب . فالشافعية على سبيل المثال لم يجيزوا ذلك إلا متأخرين ، استناداً إلى قول فقيهين منهم ؛ أبي جعفر الهنداوي (ت ٣٦٦ هـ / ٩٧٩ م)[٦] وتلميذه أبي الليث . ولم يصرح الفقهاء قبلهما بشيء يتعلق بوقف الكتب الذي لم يكن شائعاً بعد .

من هذا العرض نستنتج أن معظم الفقهاء الذين قبلوا بمبدأ العرف وجب عليهم أن ينتظروا حتى نهاية القرن الثالث الهجري ، لكي يثبت عرف وقف

(١) السراج الوهاج ٨/أ .

(٢) الهداية ٤٣١/٥ ، البحر ٢١٨/٥ ، تبيين الحقائق ٣٢٩/٣

(٣) الحاشية ٤٧٢/١

(٤) البحر ٢١٨/٥ ، الجامع الكبير ، البناية ٢ ، ٩٩٥/٢ ، فتح القدير ٤٣٨/٥

(٥) فتح القدير ٤٣١/٥

(٦) البناية ٢ ، ٩٩٥/٢

الكتب . ويمكنهم حينئذ أن يؤيدوه ويصرحوا بشرعيته . ويجب التسليم بأنّ نشأة هذا العرف لا يمكنها أن تقدم إلاّ أوقافاً لكتب مفردة ومتفرقة . وبعبارة أخرى ، فالمكتبات العامة الغنية بكتبها ، الخاضعة للوقف لم تر النور بعد . وغيابها آنئذ أوجب على بيوت الحكمة التي نشأت في نهاية القرن الثالث الهجري أن تعتبر بالنسبة لدور العلم ـ وهي مكتبات عامة ـ الرائد الوحيد في ذاك العصر .

ثانياً ـ دار العلم الفاطمية[1] :

بعدما بيّنّا أن دور الكتب العامة لم تر النور قبل نهاية القرن الثالث / التاسع وجب علينا أن نؤكد أنّ دور العلم التي ظهرت في هذا العصر كانت هي المكتبات العربية العامة الأولى التي قامت على مبدأ الوقف . كما وجب علينا أن ندرس الظروف التي أشرفت على ولادتها وتطور نشوئها .

ويُلزمنا التاريخ أن نستهلّ موضوعنا بأولى هذه الدور نشأة ، لنمضي إلى التي تأتي بعدها في الزمن ، وهكذا . لكنه من المؤسف أننا ملزمون ولفائدة البحث بتجاوز الترتيب التاريخي ، فنبدأ بدار العلم الفاطمية ، وهي إحدى دور العلم الأخيرة . ومنشئ هذه المؤسسة أرادها أن تشبه بيت الحكمة للمأمون ، فسماها :

---

(١) انظر كاترمير ، دراسات جغرافية وتاريخية عن مصر ، باريس ١٨١١ م ص ٤٧٤ ـ ٤٨٥ ، هامر برجشتال ، إضافات على دراسات كاترمير ، بدرسون ، مادة مسجد في الموسوعة الإسلامة ٤٠٣/٣ ، بينتو ١٥٢ ، ١٥٤ ، ميز ، نهضة الإسلام ، بعد ص ١٦٤ ، هوتكور وويت ، مساجد القاهرة ، باريس ، ١٩٣٢ م ، ١٠٢/١ ، ماكنسون ، الخلفية التاريخية ، المجلة الأمريكية ١٠٠/٥١ ـ ١٠٢ ، ٢٣/٥٢ ـ ٢٤ ، طلس ، النظامية ، باريس ، غوتنر ١٦ ، ١٧ ، كرد علي ، خطط الشام ١٩٠/٦ ، إبراهيم حسن إبراهيم ، الفاطميون في مصر ، القاهرة ، ١٩٣٢ م ، ١٢٧/١ ـ ١٢٨ ، ١٣٧ ، ٢٢٣ ، ٢٦١ ، ٢٧٣ ، ٢٧٥ ، محمد عبد الله عنان ، تاريخ الجامع الأزهر ، القاهرة ٤٩ ، ٨٥ ، ٩٢ ، ٩٩ ، ميرهوف ، حول بعض المكتبات الخاصة في مصر زمن الفاطميين ، روما ، ١٩٣٠ م ، جـ ١١

(دار الحكمة) . فالتشابه بين المؤسستين كان تشابهاً فعلياً في حياة منشئها .. ويمكن أن نعتبر المؤسسة الفاطمية امتداداً لبيت الحكمة ، ومن ثم ينبغي أن تدرس بعدها . وهناك فائدة أخرى في تقديم بحثها على غيرها تتعلق بموضوعها ، وهي أن النصوص التي وصلت إلينا عنها أغنى نصوص عندنا عن دور العلم ؛ فهي تعرض تاريخ هذه المؤسسة ونظامها وحالها بشكل دقيق قدر الإمكان ، فنستطيع أن نستنتج منها صفات دار العلم العامة . وتكون دراسة دور العلم الأخرى بالتالي سهلة واضحة إلى درجة بعيدة .

ويتألف تاريخ دار العلم الفاطمية من ثلاث مراحل مختلفة عبر ١٧٢ عاماً من حياة مملوءة بالتقلبات : وكان عليها منذ نشأتها عام ٣٩٥ هـ / ١٠٠٤ م أن تثبت حماس الحاكم بأمر الله لأهل السنّة . وبعد عام ٤١٠ هـ / ١٠٢٠ م غيرت من سمتها ، لتصبح مركز تبشير للدعوة الإسماعيلية ضد أهل السنّة ، إلا أنها أغلقت عام ٥١٣ هـ / ١١١٩ م ، لأنها ساهمت في تطور العقل المناهض لمذهب الدولة الديني ، ثم أعيد فتحها عام ٥١٧ هـ / ١١٢٣ م ، لتحيا فيها الدعوة الإسماعيلية حياة هادئة ، انتهت عند انقلاب صلاح الدين الذي أدى إلى اختفائها عام ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م .

ودار العلم في القاهرة ـ والتي عرفت بالصراع الطائفي ـ لا تمكن دراستها إلا من هذه الوجهة . فمن الضروري إذن لكي نفهم هذا الصراع أن نلخص بادئ ذي بدء الوضع الديني في مصر آنذاك .

برغم اندفاع الفاطميين في فرض عقيدتهم الإسماعيلية[1] فإن المصريين وهم على المذهب المالكي منذ أمد طويل تمسكوا بعقيدة أهل السنة . وقد دلّ الصراع الدائم على هذه الخصومة ، كما ساهم في توتر العلاقات أكثر فأكثر ، وذلك عندما بدأ

---

(١) الموسوعة الإسلامية ٩٣/٢

الحاكم بأمر الله (ت ٤١٠ هـ / ١٠٢٠ م) سنة ٣٧٥ هـ / ٩٨٥ م بممارسة سلطته في الخلافة بعقلية طائفية ممزوجة بالأهواء الشاذة[١] . وها هو ذا وصف بعض المؤرخين للظروف التي كانت قائمة عند نشأة دار العلم .

أراد الخليفة الحاكم أن يفرض ميوله المبتدعة بعنف ، فهاجم بحدّة المؤسسات العزيزة عند السنيين ، ونقش على المساجد ـ ومن بينها تلك التي بنيت زمن عمرو بن العاص ـ شتائم مقذعة بحق صحابة النبي ﷺ الذين يعظمهم الناس . وأمر بنقش تلك الشتائم واللعنات بحروف من الذهب الموشّى بالألوان الصارخة ، وأرهب كل من رفض اعتناق مذهبه ، فسارع بعض من تملكه الخوف إلى إعلان تحوّله إليه[٢] . وعقدت مجالس خاصة في قصر الخليفة لتلقي انضمام المؤيدين وتسجيله . ولم يرض الخليفة بهذه النتائج ، بل ضاعف نشاطه ليلحق أضراراً مهينة بأهل السنة ، وجعل يجبرهم على أمور غير عملية تمس الحياة الاجتماعية ، كأن يمنعهم من أكل نوع من الطعام ، أو ارتداء زي معين من الثياب ، فأصبحت الحالة خطيرة ، لدرجة أن الشعب لم يستطع إخفاء استيائه ، ولم يعلن عصيانه فحسب ، بل أنذر بالثورة ، حتى بدأ بعضهم بشتم الخليفة رداً على الشتائم التي وجهت للصحابة ، فقاطع الخليفة من خلال تغيراته الطارئة الغريبة وبحماس شديد مذهبه الخاص ، وأظهر الميل إلى مذهب الإمام مالك والقول به[٣] . وقال بعض المؤرخين : إنه لكي يؤكد صدقه أنشأ مؤسسة لأهل السنة سماها دار الحكمة ، لكنها سرعان ما سميت دار العلم[٤] ، فهدأت الحالة ، وحُمد السلطان[٥] .

---

(١) الموسوعة الإسلامية ٢/٢٢٨ ـ ٢٢٩

(٢) المقريزي ٢/٢٨٦

(٣) مرآة الزمان (كوبريلي ، ١١٥٧) ١١/٣١٤

(٤) المرجع السابق ، ابن تغري بردي ، تح بوبر ، جـ ٢ ، مج ٢/١٠٥ ـ ١٠٦ ، المنتظم ، ط حيدرآباد ٧/٢٤٦

(٥) الذهبي ، دول الإسلام ١/١٨٦

رويت هـــذه الأحـــداث بين سنتي ٣٩٨ هـ/١٠٠٧ م و٤٠٠ هـ/١٠٠٩ م[١] . وهناك مؤرخان لم يفصّلا في الأحداث السابقة ، وحددا تاريخ افتتاح دار الحكمة بسنة ٣٩٥ هـ / ١٠١٤ م . ويروي المسبحي المؤرخ الفاطمي أكبر وثيقة عن ذاك العصر الذي عاش فيه ، فيعين يوم السبت العاشر من شهر جمادى الآخرة سنة ٣٩٥ هجرية / نيسان (أبريل) سنة ١٠٠٥ م يوماً لافتتاح دار الحكمة[٢] . وذكر يحي بن سعيد الكاتب الذي عاش في ذاك العصر أيضاً السنة دون تحديد اليوم أو الشهر[٣] .

وذكر المقريزي هذا التاريخ مرتين في روايته لحوادث تاريخ الفاطميين ، دون أن يبين مصدره المشابه لكتاب المسبحي الذي يبدو أنه اعتمد عليه[٤] ، ويمكن أن يكون هذا التاريخ صحيحاً . ومن جهة أخرى فالتحديدات التاريخية المتناقضة التي أوردها معظم المؤرخين لا تتطابق مع تتمة الأحداث التي رووها بنتيجة معلوماتهم . وتشير هذه التتمة ـ كما سنرى ـ إلى أنّ التاريخ الذي حدده المسبحي صحيح .

أمر الخليفة الحاكم ببناء هذه الدار بجوار القصر الغربي مكان إقامته خلف خان مسرور[٥] . وفُتح فيه منفذ على باب التبّانين . وفي (القرن التاسع / الخامس عشر) زمن المقريزي كان يدعى هذا المكان قبو الخرنشف[٦] . وصار في موضع هذه الدار بيت آل الخضيري بدرب الخضيري المقابل لمسجد الأقمر[٧] . وفي

(١) المصادر المذكورة في الحواشي ٣ ـ ٩ ، ص ١٠٦
(٢) المقريزي ٤٥٨/١
(٣) تاريخ يحي ١٨٨
(٤) المقريزي ٣٤١/٢ ، ٢٣٦/٢
(٥) القلقشندي ٣٦٦/٣
(٦) المقريزي ٤٥٨/١ ، وانظر القلقشندي ٣٥٦/٣
(٧) المرجع السابق .

عام ١٢٤٠ هـ / ١٨٢٨ م هَدم هـذا البيتَ سليمـان آغـا السلاحـدار ، وأضـافـه إلى أرض صنع منها داراً كبيرة لسكناه[١] .

وأولى الحاكم اهتماماتـه لبنـاء هـذه الـدار ، واحتفـظ فيهـا ببنـاء خـاص[٢] ، وفرشت[٣] وزخرفت[٤] وعلقت ستائر على جميع أبوابها[٥] وممراتها[٦] .

وأقيمت فيها مكتبة ، نقلت كتبهـا من خزانـة كتب الخليفـة الخـاصـة ، التي تعتبر من أعظم الخـزائن المشهـورة في الإسـلام[٧] ، وكانت الكتب المنقـولـة تضم مؤلفات نفيسة[٨] . ويقول سبط ابن الجوزي[٩] ومن بعده ابن تغري بردي[١٠] : إنها كانت في مذهب أهل السنّة . بينما يؤكـد المسبّحي أنهـا على العكس من ذلـك كانت في جميع العلوم والآداب[١١] . وهـذا التـأكيـد الأخير أكثر دقـة ، ومع ذلـك فيجب الأخذ بقول المؤرخين المذكورين أن مذهب أهل السنة كان هو الغـالب في انتقاء هذه المؤلفات التي لم تضم الكتب الدينيـة فقـط . وعلى كل حـال كان عـدد الكتب المختارة كبيراً[١٢] ومن أفضل الأنواع : كتبٌ نسخها أمهر الخطاطين بالخـط

---

(١) الخطط التوفيقية ١٢/٢

(٢) الكندي ، الولاة ٦٠٢

(٣) المرجع السابق ، مرآة (كوبريلي ١١٥٧) ٣١٤/١١ ، المقريزي ٤٥٨/١

(٤) المقريزي ، المرجع السابق .

(٥) الكندي ٦٠٢

(٦) المقريزي ٤٥٨/١

(٧) القلقشندي ، صبح الأعشى ٤٦٦/١

(٨) مرآة (كوبريلي ١١٥٧) ٣١٤/١١

(٩) المرجع السابق .

(١٠) جـ ٢ ، مج ١٠٥/٢ ـ ١٠٦ ، تح بوبر .

(١١) المقريزي ٤٥٨/١

(١٢) الكندي ٦٠٢

المنسوب[1] ، وكانت من الكثرة والجمال بحيث يمكن القول « إنها لا نظير لها عند أي خليفة غيره » . وهذا تعبير مألوف ، غرضه إبراز جمال هذه المخطوطات ، وتأكيد قيمتها بالنسبة للكتب الأخرى .

ومنذ فتحت هذه المكتبة أبوابها سارع الناس إليها[2] من كل الطبقات ودون تمييز ، لأنها كانت للجميع[3] ، فصاروا يترددون عليها للقراءة والنسخ والنقل . وكان العمل فيها ميّسراً : إذ توافرت أدوات الكتابة كالورق والحبر والأقلام[4] ، ووضعت تحت تصرف الباحثين .

وإذا تركنا هذه الصفة العامة وغير المنظمة ، وجدنا المكتبة تستقبل ناساً إن لم يكونوا من النزلاء فهم على الأقل ممن التزموا بالعمل فيها بشكل خاص . وأما الباحثون الذين كانوا يقصدونها فقد تنوعت اختصاصاتهم نوعاً ما . ويؤكد من ينسبون لهذه المكتبة التوجه نحو مذهب أهل السنة أن الالتزام بها كان مقتصراً على الفقهاء[5] والمحدثين[6] . وعلى العكس من هذا يشير مؤرخون إلى شمولية أوسع ، وبعضهم لم يعددوا اختصاصات العلماء فيها بالتفصيل ، بينما بيّن بعضهم الآخر وبالتعليل هذه الاختصاصات التي تضم القراء والفقهاء والفلكيين والنحويين واللغويين والأطباء الذين قرروا الإقامة فيها[7] . وعلى أي حال فقد خصصت

---

(١) المقريزي ٤٥٨/١

(٢) المقريزي ٤٥٩/١ ، ٣٤١/٢

(٣) المرجع السابق ٤٥٩/١ ، يحيى ، تاريخ ١٨٨

(٤) المقريزي ، المرجع السابق .

(٥) مرآة (كوبريلي ١١٥٧) ٣١٤/١١ ، ابن تغري بردي جـ ٢ مـج ٢ ، ١٠٥ ـ ١٠٦ تـح بوبر ، ابن كثير ، البداية (الأحمدية بحلب ، ١٢١٧ هـ) ٧ ، سنة ٤٠٠ ، العيني ، دولة بني العباس (المكتبة الوطنية ، عربي ، ٥٧٦١) ١٧٧/أ .

(٦) مرآة ، المرجع السابق ، ابن تغري بردي ، المرجع السابق .

(٧) المقريزي ٤٥٨/١

لهؤلاء مكافآت عرفت بالجوائز السنية ، تـدفع لهم من خزانـة الخليفـة نفسهـا ، أو بعبارة أخرى من بيت مال المسلمين[١] ، وليس من مال الوقف . وقام على خـدمـة المكتبـة القوام والخـدّام والفراشون[٢] والخزنـة على قول المسبّحي ، والبـوابـون على قول يحيى بن سعيد[٣] .

ومن جهة أخرى ، قيل إن الحاكم أمر بإقامة مجـالس في دار العلم ، يُقرأ فيهـا فضـائل الصحـابـة ، ليكسب ود أهل السنـة . بـالإضـافـة إلى دروس تشمل المواد العلمية كلها[٤] . لكننا لانقع على أي تحديد لهويّـة المـدرسين في هـذه المرحلـة من حياة دار العلم .

ويمكننا مع ذلك أن نستخلص أن الحاكم أمر بتعيين عالمين من شيوخ السنّة[٥] في هذه المكتبة ، حيث تفرغا لها . كان أحدهما أبا بكر الأنطاكي[٦] ، الـذي يمكن أن يشتبـه اسمـه مـع اسم علي بن سليمـان الأنطـاكي المقري[٧] . ويحتمـل أن يكـون الآخر أبا أسامة جنـادة بن محمـد بن الحسين الأسـدي الهروي . وليس لـدينـا عن الأول سـوى أخبـار ، رويت بصـدد الحـديث عن هـذه المكتبـة . أمـا عن الثـاني فنعرف أنـه كان لغـويـاً كبيراً ، وربمـا كان أعظم لغـويي زمـانـه[٨] . وأثر هـذان

(١) المرجع السابق .

(٢) المقريزي ٤٥٨/١

(٣) يحيى ١٨٨

(٤) يحيى ١٨٨

(٥) مرآة (كوبريلي ، ١١٥٧) ٣١٤/١١ ، تغري بردي جـ ٢ ، مج ١٠٥/٢ ـ ١٠٦

(٦) المرجع السابق .

(٧) ابن خلكان ٥٤٧/١ ، يقول إن أبا علي الأنطاكي المقري كان يتردد على دار العلم ، وفي موضع آخر ١٦٤/١ ط القـاهرة ١٢٩٧ هـ يـذكره بـاسم أبي الحسن علي بن سليمـان المقري (وانظر على رأي ابن خلكان : الذهبي ، الأحمدية بحلب ١٢٢٠ هـ ، ١٠٨/٤/ب ، السيوطي ، بغيـة ، ٢١٣ يكنيـه أبا إسحاق) .

(٨) انظر مراجع الحاشية السابقة .

العـالمـان على أهـل المغرب (البـلاد التي خضعت للفـاطميين) تـأثيراً جـديراً بالملاحظة ، وتمتعا بالحظوة عند الحاكم الذي رسم لهما أن يحضرا مجالسـه ، وأسكنهما دار الحكمة[١] . ويبدو أنّ شأناً كان لهما في حياة هذه المكتبة . وكانا يجتمعان فيها بـاستمرار مع علمـاء أهل السنّـة ، وخـاصـة مـع أبي محمد عبـد الغني بن سعيـد بن علي بن بشر[٢] أعظم محدثي مصر في عصره ، بـل في كل عصورهـا التـاريخيـة ، وجمعهما معه صداقة متينة ، نمتها مصاهرات متبـادلـة ، فكانوا يجتمعون معـاً في دار العلم ، ويتـذاكرون في مختلف المسـائـل العلميـة ذات العـلاقـة بـالأدب بشكل خاص[٣] .

وفي الثـالث عشر من شهر ذي الحجـة سنـة ٣٩٩ هـ / ١٠٠٩ م حُكم على الشيخين بالقتل . وحوادث مـاقبل هـذا التـاريخ غير معروفـة تمـامـاً ، ويصعب علينا أن نقف على السبب الحقيقي لهذا الحكم . يـدّعي يـاقوت[٤] نقلاً عن مصـدر شفوي مشكوك فيه أنّ جُنادة كان له درس في مصر بجامع المقياس ـ وفيـه العمود الذي يعتبرون به زيادة النيل من نقصه ـ وقـال : اتفق في بعض السنين أنّ النيل لم يزد زيـادة تـامّـة ، فقيل للحـاكم حينئـذ : إن جنـادة رجل مشـؤوم يقعـد في المقياس ، ويلقي النحو ، ويُعزِّم على النيل ، فلـذلـك لم يزد ، فـأمر من سـاعتـه بقتله فقتله . وهذا الخبر ـ وهو يشرح لنا سبب مقتل الرجل ـ لم يذكر شيئـاً عن صـديقـه ولا عن أشخـاص آخرين قتلوا في اليـوم نفسـه . وينبغي أن نبحث عن السبب الذي أسخط الخليفة على المكتبـة من جراء المنـاقشـات التي قـامت فيهـا ، وساعدت على انتشار مـذهب السنـة . كـذلـك سـارع إلى قتل المشرفين الرئيسيين

---

(١) مرآة ، المرجع السابق ، ابن تغري بردي ، المرجع السابق .

(٢) انظر لترجمته مراجع الحاشية (٧) ص ١١٠

(٣) خلكان ٥٤٧/١ ، الوافي (أحمد الثـالث ٢٩٢٠) ٢٣/١٩/ب ، عيون (الظـاهريـة ، تـاريخ ٤٩) ٣٥/ب ، الذهبي (الأحمدية بحلب ١٢٢٠) ١٠٨/٤/ب ، بغية ٢١٣

(٤) إرشاد ٢٤٧/٢

وبعض من تعاطف معهم . واستطاع عبد الغني وآخرون عندما خافوه أن يهربوا ، ويختبئوا[1] . ويدعي مؤرخون أن المكتبة هدمت بعد هذه الحوادث[2] ، بينما يؤكد مؤرخ آخر أنها ألغيت[3] .

ويرى مؤرخون غيرهم ، أنها أغلقت هكذا ببساطة[4] . ومن الغريب أن المؤرخَيْن الرئيسيين لذاك العصر لم يتعرضا لهذه الناحية . ويمكن أن نعذر أحدهما وهو المسبّحي ، لأنه لم يرو هذه الأحداث في كلامه عن دار العلم . إلا أننا لا نعذر الثاني وهو يحيى ، الذي أخبر عن النهاية المفجعة لبعض الشيوخ المكلفين بالتدريس فيها[5] . ولا يمكن تفسير هذا السكوت إلا بتفاهة سبب إغلاقها الموقت ، أو بعدم صحة هذا الخبر .

ويبدو أن المؤرخين الذين أكدوا - بأشكال مختلفة - إغلاقها ، نقلوه عن مصدر مشكوك فيه . وتجدر الإشارة أولاً إلى الخطأ في التسلسل التاريخي الذي صنعوه عندما عينوا زمن افتتاح دار العلم بسنة ٣٩٨ هـ / ١٠٠٧ م أو ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م بدلاً من سنة ٣٩٥ هـ / ١٠٠٤ م ، وهو التاريخ المعروف عند المعاصرين . فلقد نسوا أنهم حددوا قتل الشيخين بعد افتتاح المكتبة بثلاث سنوات ، أي سنة ٤٠١ هـ ، أو ٤٠٢ هـ / ١٠١١ م ، وبالتالي فيحدد أحدهم وهو الذهبي[6] تاريخ القتل بسنة ٣٩٩ هـ / ١٠٠٨ م ، وهذا ما يؤدي إلى تناقض واضح .

---

(١) انظر مراجع الحاشية (٣) ص ١١١

(٢) ابن كثير (الأحمدية بحلب ، ١٢١٧) ٧ ، سنة ٤٠٠ ، العيني ، دولة بني العباس (المكتبة الوطنية ، عربي ، ٥٧٦١) ١٧٧/أ .

(٣) الذهبي ، دول الإسلام ١٨٦/١

(٤) مرآة (كوبريلي ١١٥٧) ٣١٤/٩ ، ابن تغري بردي ، النجوم ، تح بوبر ، جـ ٢ ، مج ١٠٦/٢

(٥) يحيى ١٨٨

(٦) تاريخ الإسلام (الأحمدية بحلب ، ١٢٢٠ م) ١٠٨/٤/ب .

ومن جهة أخرى فقد بالغوا بأهمية هذه المؤسسة ، ومع احتمال كونها أنشئت لتهدئة خواطر أهل السنة ، إلا أنها لم تستطع إرضاءهم تماماً ، والواقع أنها لم تكن مؤسسة دينية ، برغم زعم المؤرخين ، وتظهر فيها فئات غير متجانسة : من فقهاء ومحدثين ومنجمين وأطباء ... إلخ . والاسم الرسمي الذي لم يذكره المؤرخون يدل على أنها مكتبة علمانية أكثر منها دينية . والإدارة فيها بعيدة عن سلطة أهل السنّة . إنه داعي الدعاة عبد العزيز بن محمد بن النعمان ، أحد مؤسسي الإسماعيلية المخلصين ، الذي كلفه الخليفة بالإدارة العليا مدة وظيفته داعياً للمذهب ، أي حتى سنة ٣٩٨ هـ / ١٠٠٧ م[1] . ويخطئ بعض المؤرخين المعاصرين كثيراً حينما يعتقدون أنّ عليهم الفصل بين هذه المؤسسة وبين دار العلم الحقيقية[2] . وأنّ حياتها برأيهم حياة عابرة . والحق أنه يجب استبعاد هذا الفصل ، فمع كثرة الاختلافات هذه تجدر الإشارة إلى نقاط مشتركة في الروايات بين جماعتين من المؤرخين : مقتل بعض شيوخ المكتبة ، تاريخ الافتتاح هو نفسه ، إذا افترضنا أنه كان قبل ثلاث سنوات من مقتلهم كما يسلم المؤرخون بذلك كلهم . فيكون الحساب ٣٩٩ - ٣ = ٣٩٦ هـ ، وهي السنة التي يجب أن نطرح منها أربعة أشهر (الفرق بين صفر وهو الشهر الثاني من السنة وجمادى الآخرة وهو الشهر السادس) فتنتج سنة ٣٩٥ ، وهذا هو التاريخ الحقيقي الذي أشير إليه في افتتاح دار العلم . وهكذا فلا بد أن تكون المؤسستان متماثلتين الواحدة مع الأخرى .

ومهما تشابهتا ، فالواضح أن هذه المؤسسة تشبه بيت الحكمة للمأمون . وكل الصفات التي كانت تميز تلك يمكن أن تكون مذكورة هنا ، باستثناء الترجمة ، ثم التأليف الذي أعطى ثماره فيما بعد . واسم المؤسسة الفاطمية شديد الإيحاء ، فكلمة

---

(١) الكندي ، الولاة والقضاة ٦٠٢

(٢) بدرسون ، الموسوعة الإسلامية ٤٠٢/٢ ، دوسلان ، في تحقيقه لابن خلكان ، المقدمة ٢٠/١

دار حلت فيها وبطريقة صحيحة محل كلمة بيت ، وخصص لها بناء مستقل يستحق بالضرورة اسم دار[1] ، ويضاف إلى التشابه في التسمية التشابه بينهما ، في الوجود ، وفي العلماء المتخصصين في كل فروع المعرفة . كما قاموا بالعمل ذاته : فكانوا يتذاكرون في العلوم ، ويتناظرون أمام الخليفة[2] أو في المكتبة . ولدينا رواية عن إحدى تلك المناظرات ، إنه القاضي الكراجكي أبو الفتح محمد بن علي بن عثمان الفقيه الشيعي تلميذ المرتضى (ت ٤٣٦ هـ / ١٠٤٤ م) وتلميذ المفيد (ت ٤١٣ هـ / ١٠٢٢ م) هو الذي تناول المناظرة ورواها[3] ، وموضوعها القياس ، الموضوع الذي ناقشه الفقهاء كثيراً . وها هو ذا يرويها :

« ذكر مجلس جرى في القياس مع رجل من فقهاء العامة اجتمعت معه بدار العلم في القاهرة . سألني هذا الرجل بحضر جماعة من أهل العلم ، فقال : ما تقول في القياس ، وهل تستجيزه في مذهبك ، أم ترى أنه غير جائز ؟ » واحتدم النقاش عند ذلك ، وانتهى الخبر بالجملة التالية : « فحار الحاضرون مما أوردت ، ولم يأت أحد منهم بحرف زائد على ما ذكرت ، والحمد لله » . ويبدو أن هذه المناظرة حدثت حوالي سنة ٤٠٧ هـ / ١٠١٦ م[4] ، أو سنة ٤٢٦ هـ / ١٠٣٤ م[5] ، أو فيما بينهما .

أليس للمكتبة المساة دار الحكمة ـ حيث يعمل الفلاسفة والمنجمون والفقهاء ويتناظرون ـ صفات بيت الحكمة نفسها ؟

---

(١) انظر الصفحات ٣٤ ـ ٣٦

(٢) المقريزي ٢٤١/٢

(٣) في كتابه كنز الفوائد ص ٢٩٣ ـ ٢٩٧

(٤) وكان في القاهرة تلك السنة نفسها ، المرجع السابق ١٥٣

(٥) وكان في القاهرة بهذا التاريخ ، المرجع السابق ٥٠

وربما غلبت تسميتها دار العلم على تسميتها دار الحكمة ، وحلت محلها أخيراً .

ويجب هنا أن نرفض الفكرة التي حاولنا الاستناد إليها ، والتي تكون كلمة حكمة في دار الحكمة بحسبها هي نفسها في مجالس الحكمة[1] ، وهي مجالس كانت تعقد لنشر أفكار الإسماعيلية . بينما تتعارض هذه الفكرة مع الظروف التي أدت إلى ولادة دار الحكمة . فمن أسباب قيامها تهدئة خواطر أهل السنة في السماح لهم بالتعبير عنها بحرية واسعة . ومن جهة ثانية ، فلو تمكنت هذه المجالس أن تجد مكاناً ملائماً لها في هذه الدار ـ إن اعتبرته مكاناً مناسباً ـ فما كان منها أن تدخل إليه ، فقد كانت تُعقد خارجها ، ولم يكن أصحابها يدخلون تلك المؤسسة ، ولا حتى فيما بعد حين نسي اسم (دار الحكمة) نهائياً ، وحل محله اسم (دار العلم)[2] .

وفي سنة ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م وقف الحاكم بأمر الله أوقافاً لصيانة الجامع الأزهر ، وجامع المقياس ، والجامع الحاكمي ، ودار الحكمة . وأخبر المقريزي عن هذا الوقف العظيم ، حين ذكر الرياع التي خصصت لتمويل هذا الوقف ، وقسمها إلى فئتين : الأولى ، لتغطية نفقات جامع المقياس . والثانية ، لصيانة ثلاث منشآت أخرى معاً ، منها : (دار العلم) .

ودار العلم التي كانت تُدعى في ذاك الوقف دار الحكمة عُيّن لها $\frac{٩}{٨٠}$ من الريع العام المخصص للمنشآت الثلاث في الفئة الثانية . وتعادل قيمة الحصة سنة ٤٠٠ هـ مبلغ ٢٥٧ ديناراً ، موزعاً على الشكل التالي[3] :

---

(١) انظر الصفحات ٩٠ ـ ٩٢

(٢) انظر الصفحات ٩١ ـ ٩٢

(٣) المقريزي ٤٥٩/١

دينار :

١٠	لشراء حصر القش وغيرها من الحصر .
٩٠	لشراء الورق اللازم للنسخ .
٤٨	لراتب الخازن .
١٢	لماء الشرب .
١٥	لراتب الفرّاش .
١٢	لشراء الورق والحبر والأقلام لمن يطالع فيها .
١	لإصلاح الستائر .
١٢	للتجليد .
٥	لشراء سجاد للشتاء .
٤	لشراء أغطية للشتاء .
٢٠٩	

فالمجموع ٢٠٩ دنانير . ويبقى ٤٨ ديناراً لم تحدد وجوه صرفها ، ويرجع تقديرها إلى ناظر الوقف ، حين يرى ذلك ضرورياً لسير المؤسسة الصحيح ، وفي حالات مشابهة لما ذُكر .

وقبل أن نحكم على هذا التوزيع يجب أن نشير إلى الأخطاء الحسابية في المبالغ والحصص الممنوحة شيئاً فشيئاً لهذه المؤسسات الثلاث . والمبلغ المخصص للجامع الأزهر في صك الوقف هو ٦٢٥ ديناراً من أصل ١٠٦٧ ديناراً ، والحصص المعينة له هي $\frac{٥٠١}{١٠٨٠}$ من مجموع الميزانية . وبالتالي ، فلو سلمنا أن المبلغ المخصص لدار العلم هو ٢٥٧ ديناراً كما حدده صك الوقف فيجب أن تكون الحصة من النسبة الكاملة :

١٠٦٧,٦	$\frac{٥٠١}{١٠٨٠}$
٢٥٧	س

$$س = \frac{٢٥٧ \times ٥٠١}{١٠٦٧,٦ \times ١٠٨٠} = ٠,٠٦٧$$

فـ ٠,٠٦٧ حصة منخفضة جداً بالنسبة إلى $\frac{٩}{٨٠}$ أو (= ٠,١١) التي يحددها صك الوقف ذاته . ولا بد من أخطاء في هذه الأرقام . والملاحظات الآتية ـ التي تبدو ضرورية لميزانية المكتبة ـ إنما هي مفهوم عام تقتضيه العملية الكاملة للتوزيع . ولنذكر هنا أننا سنشير فقط إلى الملاحظات التي تتعلق بشكل خاص بدار العلم موضوع بحثنا . وسوف ندرس في القسم الوصفي للمكتبات الأفكار العامة التي تشير إليها هذه القائمة فيا يخص المكتبات العربية عموماً .

ونستنتج بادئ ذي بدء أن المبلغ خصص كاملاً للمكتبة ، دون التنبؤ بالنفقات التي يستلزمها التعليم واجتماع العلماء وسكنى بعض منهم . وهذا النقص تفسره تتمة الأحداث التي سبقت الوقفية بعشرة أشهر[1] : مقتل الشيخين السنيين القاطنين في دار العلم ، وهروب بعض العلماء الذين تخوفوا الخطر ، وأخيراً إغلاق دار العلم الوقتي . وإذن فلا يمكن للصك أن يرصد المال إلا لمكتبة واحدة .

ونتساءل قائلين : على أي أساس صرفت رواتب العلماء الذين كانوا يسكنون دار العلم ويحضرون مجالس الخليفة الخاصة سنة ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م[2] ؟ ومن الممكن أن تكون مكافآتهم معينة في سجل وقف الأراضي المخصصة لتأمين رواتب القراء والفقهاء .. إلخ المذكورين بالسجل الذي كان سنة ٤٠٥ هـ[3] ، وحيث إن رواتبهم كانت تؤمّن من ميزانية الخليفة الخاصة فإن تعليمهم فيها ربما اتخذ صفة وقتية .

ومن ناحية ثانية فليس للناسخ المذكور بشكل خاص في الوقفية أيُّ راتب ،

---

(١) انظر الصفحات ٨١ ـ ٨٢ ، جرت هذه الأحداث عام ٣٩٩ هـ .

(٢) انظر الصفحات ٨٨ ـ ٨٩

(٣) المقريزي ٢/٢٩٥

وبالمقابل ، يخصص له من أجل الورق مبلغ كبير . فهل خصص هذا المبلغ له كذلك ؟ هذا ممكن ، ولو أنّ الوقفيات تميز عادة النفقات عن الرواتب[1] .

أما المبلغ المخصص للورق والأقلام والحبر مما يستعمل رواد دار العلم (١٢ ديناراً) فهو ضئيل جداً بالنسبة للمبلغ المخصص لورق الناسخ . ويبدو أنه مخصص لتأمين الأدوات اللازمة لكتابة بعض النقول وليس لنسخ المجلدات .

ويأتي الاهتمام بالتجليد في الوقفية بالدرجة الثانية ، إذ لا يقيم له واقف المكتبة كبير وزن ، فالكتب كانت في الواقع مجلّدة كلها ، لأنها جاءت من خزائن الخليفة .

أما المفروشات التي ذكرتها الوقفية ، فاقتصرت على السجاد والستائر ، مما يدل على اهتمام منشئها ، الذي رغب في بذل الرفاهية لقاصدي دار العلم .

وعلى كل حال ، فيبدو أن حياة دار العلم اطردت لتكوّن مكتبة . والطريف أنه بنفس الوقت الذي أبدى فيه الحاكم بأمر الله بعضاً من التسامح تجاه أهل السنّة ظهر العمل العلمي والتدريس في دار العلم . وفي عام ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م قرئ سِجلّ في القصر بالترضّي على السلف من الصحابة ، وأُمر في سائر طرقات مصر والقاهرة بتتبع الألواح المنصوبة على سائر الأبواب ، المشتملة على ذكر الصحابة والسلف الصالح بالسب واللعن ، وقلع ذلك وتعفية أثره[2] . يقول المسبحي[3] : وفي هذه السنة دعيت إلى الحاكم بأمر الله جماعة من دار العلم من أهل الحساب والمنطق ، وجماعة من الفقهاء منهم عبد الغني بن سعيد ،

---

(١) كاترمير ، بحوث ٤٧٦/٢ ، يجعل هذا المبلغ لراتب الناسخ . وهذه فكرة مرفوضة لأن للناسخ ضعف راتب الخازن .

(٢) المقريزي ٣٤١/٢

(٣) المقريزي ٤٥٩/١

وجماعة من الأطباء ، وكانت كل طائفة تحضر على انفرادها للمناظرة بين يديه ، ثم خلع على الجميع ووصلهم .

ولكن طباع الحاكم الشاذة لم تكن لتسمح للعلماء الذين كانوا يعملون في هذه المؤسسة أن يحيوا حياة مستقرة ، فلاحق في عام ٤٠٤ هـ / ١٠١٥ م المنجمين ، ولم يطلق سراحهم إلا بعد جهد جهيد ، واشترط عليهم ألا يعملوا في التنجيم ، فحفظوا بهذا الشرط وحده حياتهم وصانوا بيوتهم[١] . ولا بد أنه كان من بين هؤلاء من عيّن في دار الحكمة[٢] .

وفي هذا التاريخ تقريباً عيّن في دار العلم مدرس ، يعلم فيها اللغة والنحو ، وهو أبو الفضل جعفر الضرير ، الذي قدم على الحاكم ، فأعجب به ، ولقبه عالم العلماء[٣] ، ثم صار بالنسبة للدروز إحدى الشخصيات الخمس الأساسية التي تعتبر عندهم حدود الشريعة الظاهرة ، وكان ترتيبه الرابع في تسلسل هذه الشخصيات[٤] .

وهنا تتوقف معلوماتنا عن دار العلم زمن الحاكم بأمر الله . وبعد هذا التاريخ وحتى سنة ٥١٠ هـ / ١١١٦ م ، تسكت المصادر عن الأحداث المتعلقة بدار العلم . وبين هذين التاريخين مرحلة نشاط جديرة بالانتباه ، هي مرحلة الدعوة الإسماعيلية . كما أننا لانعرف بالضبط متى دخل هذا النشاط إلى دار العلم . ولقد أشرف عليها في ذلك الوقت كما رأينا عبد العزيز بن النعمان داعي الدعاة ، منذ إنشائها وحتى عام ٣٩٨ هـ / ١٠٠٧ م ، وكلف من بعده بوظيفته مالك بن

---

(١) يحيى ٢٠٦

(٢) انظر ص ٧٩ ، والمقريزي ٤٥٨/١

(٣) الكندي ٦١٠

(٤) البخاري (سليم) حل الرموز في عقائد الدروز (الظاهرية ، عام ، ٢٧٢٥) ٥٠

سعيد الفارقي[1] ، الذي حلَّ محله في الإشراف على دار العلم ، كما ذكر كتاب وقف المؤسسة[2] . ولا يدل منصب المشرف على أن دار العلم كانت مقر الدعوة الإسماعيلية ، إذ إنّ الداعي نفسه كان يشرف في الواقع على كل المساجد التي غدت ميداناً للدعوة .

ويجب من أجل توضيح مسألة الدعوة أن ندرس المصادر المتعلقة بها ، بادئين بخلافة الحاكم . يخبرنا المسبّحي كيف انتشرت هذه الدعوة ، قبل أن يكتب عن تاريخ الفاطميين ، أي قبل وفاته عام ٤٢٠ هـ / ١٠٢٩ م ، فيقول : « وكان الداعي يواصل الجلوس بالقصر لقراءة ما يقرأ على الأولياء والدعاوى المتصلة ، فكان يفرد للأولياء مجلساً ، وللخاصة وشيوخ الدولة ومن يختص بالقصور من الخدم وغيرهم مجلساً ، ولعوام الناس وللطارئين على البلد مجلساً ... »[3] .

وكانت هذه الجلسات تعقد في قصر الخلافة عامي ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م - ٤٠١ هـ / ١٠١٠ م[4] . وإذن فمنذ ذلك التاريخ ، وحتى اختفاء الحاكم سنة ٤١١ هـ / ١٠٢٠ م ، لا يمكن الاعتقاد أنّ دار العلم أتاحت المجال لنمو الإسماعيلية . ورغم الصعوبة التي تعترضنا في دراسة هذا العصر يمكننا الافتراض ، وبرأي الحاكم ، أنه يجب على هذه المؤسسة - باستثناء دورها الأول وهو تهدئة خواطر أهل السنة - أن تتفرغ وتتخصص لتحضير الأوساط الفكرية ، لتنسجم مع عقلية المذهب الإسماعيلي ، من خلال دراسة الفلسفة اليونانية . وهذا ما يفسره اسم دار الحكمة . ولذلك لا نجد تلميحاً للفلسفة بعد زمن الحاكم . ويمكن الاعتقاد من جهة أخرى أنّ من أعقبوه غيّروا من وضع دار العلم . ويقال دون تحديد الزمن أن دار العلم كانت

(١) المقريزي ٢/٢٨٥

(٢) المقريزي ١/٤٥٩ ، ٢/٢٧٣ - ٢٧٤

(٣) المقريزي ١/٣٩١

(٤) المرجع السابق ٢/٢٨٧ ، ٢٨٦ ، ١/٣٩١

بالواقع المركز الرسمي للدعوة الإسماعيلية ؛ يقول ابن الطوير المؤرخ الشيعي بهذا الصدد : « أما داعي الدعاة ، فإنه يلي قاضي القضاة في الرتبة ، ويتزيا بزيه في اللباس وغيره . ووصفه أنه يكون عالماً بجميع مذاهب أهل البيت ، يُقرأ عليه ، ويأخذ العهد على من ينتقل من مذهبه إلى مذهبهم ، وبين يديه من نقباء المعلمين اثنا عشر نقيباً ، وله نواب كنواب الحكم في سائر البلاد ، ويحضر إليه فقهاء الدولة ، ولهم مكان يقال له : دار العلم ، ولجماعة منهم على التصدير بها أرزاق واسعة »[1] .

ويأتي بعدئذ القلقشندي ليؤكد فيما يلي على الصفة الإسماعيلية لدار العلم الواقعة قرب قصر الخليفة ، فيقول : « كان داعي الشيعة يجلس فيها ، ويجتمع إليه من التلامذة من يتكلم في العلوم المتعلقة بمذهبهم »[2] .

ويوضح هو نفسه كلامه في موضع آخر فيقول : « داعي الدعاة ، وموضوعه عندهم أنه يُقرأ عليه مذاهب آل البيت ، بدار تعرف بدار العلم ، ويأخذ العهد على من ينتقل إلى مذهبهم »[3] . ويجعلنا هذان المؤرخان نقدر الأثر المهم لهذه المؤسسة في تطور المذهب الإسماعيلي ، فيؤكد الأول أنها مقر شيوخ الإسماعيلية التابعين لداعي الدعاة ، بينما يدعي الثاني أنها مقر إقامته . ونقبل بهذا الأثر لبيان تناقض المصدرين . وهذا ما يقودنا إلى تحديد صفة الدعوة الإسماعيلية . والواقع أنها قامت على مراحل ، كما خصصت لها جلسات متنوعة في أماكن مختلفة . ولا شك أن ابن الطوير أعلم بهذا الموضوع من القلقشندي ؛ فيخبرنا أن

---

(١) مامن شك في أن هذا المؤرخ يقصد العصر الذي سبق إغلاق دار العلم الذي قام به الأفضل فيما بعد . وأسند منصب داعي الدعاة لبني عبد القوي ، وآخر من مثلهم الجليس المتوفى زمن الأفضل (المقريزي ، المرجع السابق) وانظر لموضوع التصدير صبح الأعشى ٢٥١/١١

(٢) صبح الأعشى ٣٦٦/٣

(٣) المرجع السابق ٤٨٧/٣

الشيوخ الذي كانوا يجلسون في دار العلم هم أنفسهم يحضرون الدروس التي يجب أن تؤخذ في المراحل المختلفة[١] . وهو فضلاً عن ذلك يعرّفنا بأن تلك الدروس المهيأة تقدم للخليفة ليقرها ويضع عليها خاتمه ، ثم يكلف داعي الدعاة بقراءتها وشرحها في مكانين : الإيوان الكبير من قصر الخليفة[٢] ، والمحوّل مكان إقامته ، والذي وصفه ابن عبد الظاهر ، وأكد أنه مقر الداعي ، حيث يلقي على النسوة الدروس[٣] . وهكذا يمكننا أن نؤكد مع ابن الطوير خلاف ماادعاه القلقشندي أنّ الداعي لم يكن يجلس في دار العلم ، ولكنّ له فيها ممثلين . وبقي أن نعرف طبيعة هؤلاء ؛ كانوا فئة ذات شأن من فقهاء الإسماعيلية ، يشاركون في كتابة دروس الدعوة ، فيجتمعون يومي الاثنين والخميس ، يتناظرون ، ويكتبون مجالس الحكمة الإسماعيلية بالاتفاق مع الداعي ، وهو يقوم بالتصحيحات الضرورية لهذه الكتابات التي يحق لهم الاطلاع عليها . فلماذا كانوا يجلسون في دار العلم ؟ ويتدخل هنا نصّ القلقشندي ليقول : إن الطلبة يمكثون في دار العلم ، ويحضرون دروس العقيدة الإسماعيلية التي يدرّسها فقهاؤهم . ونرى هؤلاء الطلاب يتلقون حصصهم الكبيرة من الأضاحي التي ينحرها الخليفة في عيد الأضحى[٤] . وإذن فدار العلم مدرسة لتعليم الإسماعيلية ، ولتخريج علماء المذهب . وهي من ناحية أخرى تمثل المركز الروحي الذي يوجه الدعوة الإسماعيلية القائمة فيها ، حيث يتم تصورها وتحضيرها بالاتفاق مع الداعي .

---

(١) المقريزي ٣٩١/١

(٢) عن هذه الغرفة الكبيرة انظر المقريزي ٣٨٨/١

(٣) المقريزي ٣٩٠/١

(٤) صبح الأعشى ٥١٦/٣ ، بدلاً من أن يشير هذا النص إلى دار العلم ذكر دار العدل ، ولما لم يكن لدار العدل طلاب ، فإن المقصود بها دار العلم ونسخت خطأ ، ويجب أن يكون المخطوط الذي طبع منه الجزء الثالث من صبح الأعشى (دار الكتب ، أدب ، ١٩١٥) ٢٥٣/أ مغلوطاً .

وتبدو هذه النتيجة متناقضة مع تعاقب الأحداث التي جرت في دار العلم ، والتي أصبحت هذه المؤسسة في مجراها ميداناً لتطور مذهب يناقض الإسماعيلية ، مما أجبر المشرفين الفاطميين على وضع نهاية لحياة دار العلم . وهذه هي الأحداث :

في شوال من عام ٥١٠ هـ / كانون الثاني (يناير) ١١١٧ م ، كان متولي دار العلم أبو محمد بن آدم[١] . وسنتحدث عنه فيما بعد . وربما حدثت في أثناء توليته هذه الوقائع التي تفسرها روايتان مختلفتان . روى الأولى ابن المأمون ويقول فيها : كان هناك رجلان يسمى أحدهما بركات والآخر حميد بن مكي الأطفيحي القصار ، مع جماعة يعرفون بالبديعية ، وهم على الإسلام والمذاهب الثلاثة المشهورة ، وكانوا يجتمعون في دار العلم بالقاهرة ، فاعتمد بركات من جملتهم أن استفسد عقول جماعة ، وأخرجهم عن الصواب ، وكان ذلك في أيام الأفضل ابن أمير الجيوش ، عندما كان يتولى أمر البلاد ، لأن الخليفة صغير قاصر ، فأمر بإغلاق دار العلم[٢] . ويورد الرواية الثانية ابن عبد الظاهر ، فيخبرنا أن سبب الإغلاق كان لاجتماع الناس في أماكن من دار العلم ، والخوض في المذاهب ، والخوف من الاجتماع على المذهب النزاري من جهة أخرى[٣] . ويدعي هذا الاتجاه أن المستنصر نقل إمامة الإسماعيلية لابنه نزار ، لا لابنه المستعلي بالله ، كما يؤكد على ذلك المذهب السائد[٤] .

وبرغم أن ما عمله بركات لا يشكل سبباً أساسياً لهذا التفسير ، لكنه يبدو ضمناً

---

(١) ابن ميسر ، حوليات مصر ٦٦/٢ ، وكان هذا الرجل يستدعى مع دعاة آخرين للتشاور معاً في المسائل الدينية ، الأمر الذي يؤكد على الطابع الإسماعيلي لدار العلم .

(٢) هذا برأي ابن المأمون في المقريزي ٤٥٩/١

(٣) المقريزي ٤٦٠/١ ، صبح الأعشى ٣٠٦/٣

(٤) صبح الأعشى ٢٣٦/١٣ ـ ٢٣٨

في جملة الإزعاج الذي سببه اجتماع هؤلاء الناس . ومهما يكن سبب إغلاقها الرئيسي ، فإنه يظهر إخفاقها في دورها الأول ، وهو نشر الدعوة الإسماعيلية . كيف نشأ إذن هذا الإخفاق ؟ يجب هنا أن نستشف مهمة المكتبة ، إذ لو كان يصح أن جماعة من التلاميذ رغبوا في تلقي الإسماعيلية بدار العلم فليس صحيحاً أن تكون هذه المؤسسة موضوعة لخدمة الجميع ، باعتبارها تضم مكتبة عامة بالمعنى الدقيق للكلمة . وكانت المكتبة في هذه المرحلة من تاريخها المقر الطبيعي للمناظرات والنقاش ، كما قامت المكتبة في القاهرة بمهمة ، وشجعت بالتالي المذهب المنشق .

أُغلقت دار العلم ، ولوحق بركات الذي اختبأ في قصر الخليفة عند أستاذين[1] ، وكان قد عرف مذهب الخليفة الخاص ، ثم مات بعد ذلك ، وانكشف أمر الأستاذين فقتلا[2] .

قال ابن عبد الظاهر : ولم يزل خدام القصر يتوصلون إلى الخليفة لإحياء دار العلم ، حتى تحدّث في ذلك مع الوزير المأمون ، الذي عارض إعادة فتحها في المكان نفسه ، وقال : هذا لا يكون ، لأنه باب صار من جملة أبواب القصر ، ولا يمكن أن يكون مكاناً للاجتماع ، إذ لا يؤمن من غريب يتحصل به . وأشار بعضهم أن تكون في بيت المال القديم ، فقال المأمون : يا سبحان الله ، قد منعنا أن تكون متاخمة للقصر الكبير ، نجعلها ملاصقة ! فقال الثقة زمام القصور : في جواري موضع ليس ملاصقاً للقصر ولا مخالطاً له ، يجوز أن يعمر ، ويكون دار العلم . فأجاب المأمون إلى ذلك[3] .

---

(١) عن الأستاذين ، انظر صبح الأعشى ٤٨/٣ ، ٤٨٤ ـ ٤٨٥

(٢) المقريزي ٤٥٩/١

(٣) المقريزي ٤٦٠/١

وفي شهر ربيع الأول ٥١٧ هـ / أيار (مايو) ١١٢٣ م[١] أعاد الوزير المأمون فتح دار العلم في مكان قريب من القصر وإلى غربه ، في دار بظهر خزانة الدرق من باب تربة الزعفران . وكانت هذه الدار زمن المقريزي بجوار درب ابن عبد الظاهر ، قريباً من خان الخليلي بخط الزراكشة العتيق[٢] .

ويشير مؤلف كتاب الخطط التوفيقية إلى مكانها الجديد ، ويقول : حيث محلها الآن بعض المنازل الكائنة خلف وكالة رخا بشارع السكة الجديدة[٣] . ولتجنب أمثال المشكلات السابقة كلها ، قرر الوزير أن يكون متوليها رجلاً ديّناً ، وأن يشرف عليها الداعي ، وأن يقام فيها متصدرون برسم قراءة القرآن ، فاستخدم فيها أبو محمد حسن بن آدم ، فتولاها ، وشرط عليه ماتقدم ذكره ، واستخدم فيها مقرئون[٤] .

واختبأ حميد القصار ، تلميذ بركات إبّان الحوادث الأولى عام ٥١٣ هـ / ١١١٩ م ، ثم عاد فظهر ، وأخذ يتردد على دار العلم[٥] ، ثم ادعى الألوهية ، مستنداً إلى أقوال الحلاج ، الشهيد الصوفي[٦] . وهذا أمر ذو مغزى ، ولما روى داعي الدعاة تلك الأحداث في إحدى الجلسات أمام المأمون أذن له الوزير بملاحقة هذه الضلالة . وقبل نهاية عام ٥١٧ هـ / ١١٢٣ م قُتل القصار مع من رفض الرجوع عن مذهبه .

ويجب أن نرفض الترجمة التي نقلها ابن ميسَّر[٧] ، وفيها أن الوزير المأمون

---

(١) المرجع السابق ٤٤٥/١

(٢) المرجع السابق ٣٥/٢

(٣) الخطط التوفيقية ١٢/٢

(٤) المقريزي ٤٦٠/١

(٥) المرجع السابق ٤٥٩/١

(٦) انظر ماسينيون ، الحلاج .

(٧) ابن ميسّر ٦٤/٢

اغلق دار العلم عام ٥١٧ هـ . وتنسب هذه الترجمة سبب الإغلاق إلى القصار المذكور ، الذي أفسد فيها بعض العقول . كما أنّ فيها معلومات تناقض ما رويناه من الأخبار الموثوقة .

وفي عام ٥١٧ هـ / ١١٢٣ م عُين ابن آدم داعياً للدعاة ، لكنه عزل لصغر سنه ، فحل محله أبو فخر ، وكان هذا واعظاً في الأزهر ومشرفاً على دار العلم ، إضافة إلى منصبه داعياً[١] .

وفي ١٧ جمادى الآخرة ٥٣٤ هـ / كانون الثاني (يناير) ١١٤٠ م عيّن قاضي القضاة[٢] ، هبة الله بن حسن الأنصاري الأوسي ، المعروف بابن الأزرق ، بوظيفته في ٢ ذي القعدة ٥٣٣ هـ / تموز (يوليو) ١١٣٩ م[٣] ، وتسلّم بالإضافة إليها التدريس في دار العلم . أما سلفه الفقيه أبو الحسن علي بن إسماعيل الذي لم يتسلم قرار إقالته بشكل رسمي ، فقد تبادل معه الكلمات التي أصاب القاضيَ منها قدر كبير ورجع إلى القصر ماشياً وهو ممزق الثوب منقوض العمامة ، مما أزعج المسؤولين ، وعزل في اليوم نفسه ، وحكم عليه بغرامة[٤] .

واستمرت دار العلم مركزاً للإسماعيلية ، حتى انقلاب صلاح الدين ، الذي أزال الفاطميين عام ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م . ومنذ ذلك التاريخ ، لم يعد أحد يسمع عنها شيئاً .

تلك قصة دار العلم الفاطمية . ويمكن الآن أن نستخلص الفكرة الإجمالية من هذه الدراسة ، فنقول : يبدو لنا أنّ دار العلم هذه أنشئت على غرار بيت

---

(١) ابن ميسر ٦٤/٢

(٢) عن هذا المنصب انظر المقريزي ٤٠٢/١ ـ ٤٠٤

(٣) ابن ميسر ٨٣/٢

(٤) المرجع السابق ٨٤

الحكمة المأمونية من أجل أن تجمع العلماء وأرباب الرأي لقراءة كتب الحكمة ، بالإضافة إلى كتب اختصاصاتهم ، وليتناظروا في مواضيع العقل والعلم . فتتغلب الفلسفة التي أخذها المؤسس بعين الاعتبار ، على نزعات أهل السنة منهم ويضطرب رأيهم وقد ينتهي بهم الأمر إلى قبول المذهب الفاطمي . وهذا شأن أصحاب المذاهب الجديدة ، يحاولون أن يهدموا المذاهب القديمة بالتشكيك فيها ، ليقدموا مذاهبهم على أنها تهدي إلى الحق . وظاهر أنّ الحاكم بأمر الله لم يكن بوسعه أن يصل إلى هذا الهدف . ووجد أهل السنة في دار الحكمة مكاناً للاجتماع ، حيث كانوا يتناقشون بحرية ويسر ، ويعرضون أفكارهم . وهذا ماأدى وبشكل صحيح إلى تطور اتجاهاتهم ، ولم تؤثر علوم الحكمة فيهم بسرعة ، وعندئذ لم يستطع الحاكم أن يكظم غيظه ، فقتل من استطاع الإمساك به ، وهرب الآخرون . وبعد أن وضع لدار الحكمة نظام وقف يشبه النظام الذي وضعه للأزهر ، وتمكن به أن يتوجه توجهاً صحيحاً ، عاد إلى موقفه القديم من أهل السنة . فهل أدرك أن الزمن وحده كفيل أن يحقق له ما يريد ؟

واعتقد خلفاؤه أنه من المفيد إنشاء المؤسسات الإسماعيلية ، ففتحوا أبواب دار العلم لكبار الفقهاء الإسماعيليين ، الذين أتوا إليها ، واجتمعوا فيها للتشاور ، ولكتابة مجالس الحكمة ، ولتلقين أفكارهم إلى التلاميذ المتطوعين لهذا الهدف بشكل خاص .

ثم خصصت دار العلم لنشر المذهب الإسماعيلي ، ولكن حرية المناقشة والمناظرة القائمة فيها كباقي المؤسسات التي على طرازها سهّلت على خصومها نشر أفكارهم الخطيرة ، فخافت الإسماعيلية على نفوذها ، وحذرت من نهاية مشؤومة ، فأغلقت دار العلم ، وقضت على ماأحدث فيها ، ثم أعيد فتحها ثانية ، بعد أن أخضعت إلى أحكام قضائية ثابتة ، فتابعت دار العلم أيامها الأخيرة بهدوء حتى سقوط الفاطميين ، حين لفظت أنفاسها الأخيرة .

ثالثاً ـ دار العلم في الموصل[1] :

أول دار علم عرفت في الموصل أنشأها أبو القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الموصلي الشحّام[2] ، ولم يصلنا أي خبر عن تاريخ إنشائها ، وعلينا أن نحدد العصر الذي عاش فيه مؤسسها .

ينقل ياقوت[3] ، عن ابن النديم ، أن جعفراً ولد سنة ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م ، وتوفي سنة ٣٢٣ هـ / ٩٣٤ م . وبالرغم من عدم وجود هذين التاريخين[4] في الفهرست كتاب ابن النديم الأساسي الذي اعتمده ياقوت ، فلا شيء يؤكدهما . وكان ينقص طبعة الفهرست تعليق محققها (فلوجل) . والنصّ الذي رواه ياقوت عن ابن النديم فيه تعابير مغايرة لا معنى لها في النصّ المنشور . وعلى كلٍّ فهذان التاريخان لا يبدو منهما قِدَم العصر الذي كانت فيه هذه الشخصية ، إن أخذنا بشهادتين أخريين يرويها ياقوت نفسه ، نجد في إحداهما أبا جعفر بن حمدان كان يعرف الشاعر البحتري ويوازيه . والبحتري توفي سنة ٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م[5] . ونراه في الأخرى يمدح الخليفة المعتضد المتوفى سنة ٢٨٩ هـ / ٩٠١ م[6] . فمن المحتمل جداً أن دار العلم تأسست قبل هذا التاريخ ، لأنه نفي عن الموصل زمن المعتضد ، واستقر ببغداد[7] . وبهذا نستنتج أن المؤسسة كانت في الموصل .

---

(١) انظر بنتو ، المكتبة ١٥١ ، ماكنسون ، الخلفية التاريخية للمكتبات الإسلامية ، المجلة الأمريكية للغات والآداب الساميّة ، العدد ٥٢

(٢) أثبتنا اسمه من المصادر المذكورة فيا يلي ، ونضيف إليها الخطيب ٢١١/٧

(٣) إرشاد ، تح مارغوليوث ٤١٩/٢

(٤) ص ١٤٩

(٥) بروكلمان G ٨٠/١ ، S ١٢٥/١

(٦) الموسوعة الإسلامية ، مادة المعتضد .

(٧) إرشاد ٤١٩/٢

وتحتوي دار العلم لابن حمدان كتباً في جميع صنوف المعرفة ، وأعتقد مع الآنسة ماكنسون[1] أن مؤلفات الحكمة والفلك منها بشكل خاص تشغل حيزاً كبيراً ، بفضل اهتمام المؤسس الفلسفي والفلكي . فقد كان جعفر في الواقع بصيراً بالنجوم ، عالماً مطلعاً على علوم الأوائل[2] .

وكانت دار العلم وقفاً على كل طالب علم ، لا يُمنع أحد من دخولها ، إذا جاءها غريب يطلب الأدب ، وإن كان معسراً قدم له المال والورق ، وهي تُفتح في كل يوم[3] . وكانت بالإجمال مكتبة عامة بكل معنى الكلمة ، كما كان لها طابع البيوت المخصصة للغرباء المحتاجين .

ويجب أن نضيف لها صفة أخرى . والصحيح أن المكتبة تشكل جزءاً مكملاً لها دون أن تنفرد المكتبة وحدها بهذا الجزء . وقد خصّص مكان من دار العلم لإلقاء المحاضرات .

وكان جعفر يقصدها دائماً ، يجلس فيها ، ويجتمع إليه الناس ، فيملي عليهم من شعره وشعر غيره ومصنفاته ، مثل الباهر [في الأخبار][4] وغيره من مصنفاته الحسان ، ثم يملي من حفظه من الحكايات المستطابة ، وشيئاً من النوادر المؤلّفة ، وطرفاً من الفقه ، وما يتعلق به[5] .

ولهذه الدار كل صفات المؤسسات المشابهة لها تقريباً ، ماعدا المؤسسات الوقفية . كما أنّ لها صفات خزائن الحكمة ، ماعدا التي يسكن فيها التراجمة ،

---

(١) ماكنسون ، البحث المذكور .

(٢) إرشاد ٤١٩/٢ ، وانظر عنه عيون (الظاهرية ، تاريخ ، ٤٨) ٥٠/أ .

(٣) إرشاد ٤٢٠/٢ ، وانظر خليفة .

(٤) إرشاد ، المرجع السابق ، عيون ، المرجع السابق .

(٥) إرشاد ، المرجع السابق .

ويضاف إليها تلك التي يسكن فيها الشيوخ وطلابهم . وقد تحققت هذه الصفة في دور العلم ، وإذن فهي مرحلة انتقالية بين خزائن الحكمة ودار العلم .

رابعاً ـ مكتبة ابن سوَّار في البصرة[1] :

كان في مدينة البصرة في القرن الرابع / العاشر مكتبة عامة ، وقفها أبو علي بن سوار الكاتب ، وهو شخصية غير معروفة ، ويبدو أنه كان محباً للعلوم[2] ، وكان معاصراً لابن النديم (ت ٣٨٥ هـ / ٩٩٥ م) . ويذكر المقدسي في كتابه الجغرافي (أحسن التقاسيم) الذي ألفه سنة ٣٧٥ هـ / ٩٨٥ م هذه المكتبة كما يلي :

« اتخذها ابن سوَّار ، وفيها إجراءٌ على من قصدها ولزم القراءة والنسخ ... وفيها شيخ يُدْرس عليه الكلام على مذاهب المعتزلة »[3] .

ويتضح من ذلك أنّ للمكتبة شيخاً منقطعاً إليها ، وأنها أوسع من أن تكون مكتبة عادية ، ويمكن أن تصنف في طبقة مكتبة الموصل التي درسناها ، وهي لا تختلف عنها إلا بالاسم ، ولكننا سنرى فيما بعد أن اسم دار العلم الشائع الاستعمال سيحل محله أحياناً اسم آخر هو دار الكتب مثلاً[4] ، فلا يجب لذلك أن نتشبث بالمعنى الحرفي للكلمات المستعملة الدالة على المكتبات عند العرب المسلمين . والمؤرخون يستعملونها على أنها مترادفات مألوفة . ومكتبة البصرة هذه هي نفسها التي سماها ابن النديم : خزانة الوقف ، وسماها المقدسي دار الكتب[5] .

(١) انظر بنتو ، المكتبة ، ١٥١ ، ماكنسون ، الخلفية التاريخية للمكتبات الإسلامية ، المجلة الأمريكية للغات والآداب السامية ، العدد ٥١/٨٨

(٢) الفهرست ١٣٩

(٣) المقدسي ٤١٣

(٤) انظر ص ١٤٥

(٥) الفهرست ١٣٩ ، المقدسي ٤١٣

وهذه التعابير مترادفة كنا ناقشناها ، وهي ذات فوارق طفيفة[1] . وإذا لم نستطع أن نجد وصفاً لدار العلم بسبب نقص الوثائق المتعلقة بها ، فلن نتردد على الأقل في الإشارة إلى الشكل الذي كانت تمثله .

وربما تكون هذه المكتبة ـ كما تبين ذلك بنتو مع التعليل ـ[2] مشابهة للمكتبة التي احترقت سنة ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م ، وهي أول مكتبة موقوفة . والمصدر الذي يعرفنا أنها أول مكتبة موقوفة هو ملاحظة ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م)[3] التي نسخها العيني (ت ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م) كاملة[4] : « حرّض منجم سارق مُلاحَق أحد شيوخ القبائل التي تنزل قرب البصرة ، وحثه على الغارة عليها ، فهاجمها ودخلها ، وأخذت قبيلته في نهبها وإحراقها » ، « وفي جملة ما أحرقوا داران للكتب ، إحداهما وقفت قبل أيام عضد الدولة بن بويه (ت ٣٧٢ هـ / ٩٨٢ م) ، فقال عضد الدولة : هذه مكرمة سُبقنا إليها ، وهي أول دار وقفت في الإسلام .. » .

ويؤكد مصدر ثالث وهو ابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠ م) في قصة موجزة أن المكتبة التي أحرقها المنجم تِلْيا عندما استولى الأعراب على البصرة كانت قد أنشئت قبل عضد الدولة ، وأنها أول مكتبة موقوفة في الإسلام[5] . وأخيراً يوضح ابن كثير (٧٠١ ـ ٧٧٤ هـ / ١٣٠٢ ـ ١٣٧٣ م) ، ونقل عن هذا المصدر الأخير كما يبدو ، أنّ هذه المكتبة الموقوفة لم يكن لها مثيل في الإسلام[6] .

---

(١) انظر المقدمة .

(٢) بنتو ١٥١

(٣) ابن الأثير ١٢٢/١٠

(٤) عقد الجمان (ولي ٢٣٨٨) ٤٢٣/١٦

(٥) المنتظم (أياصوفيا ٢٠٩٨) سنة ٤٨٢

(٦) البداية (فيض الله ١٣٩٨) ١٨/١١/ب .

ويمكن أن تكون شهادتا ابن الأثير وابن الجوزي متقاربتين ، لأن ابن الجوزي الذي أكد أنها أول مكتبة أنشئت في الإسلام يقصد أول مكتبة موقوفة ، لأن الإنشاء والوقف مترادفان ، بينما يقول ابن كثير : إنها لم تكن قائمة . أما تأكيد عضد الدولة في آخر المطاف فهو أمر جوهري بالنسبة لنا ، لأنه برأيي هو الذي أوحى للمؤرخين المذكورين فكرة المكتبة الأولى في الإسلام ، ويجب أن ندرك المعنى الصحيح لهذا الادعاء ، فهو لا يعني أبداً عدم وجود أي مكتبة عامة من قبل ، بل يقصد المكتبة المنشأة على نظام الوقف وحده . وقد كانت دار العلم في الموصل مكتبة انتقالية بين الشكل النهائي لدور العلم وبين خزائن الحكمة ، ولكن ينقصها نظام الوقف .

خامساً ـ دار العلم لسابور في بغداد[1] :

في وسط مدينة بغداد يقع أحد الأحياء الكبيرة المزدحمة بالسكان ، هو حي الكرخ الذي يعتبر مركزاً ثقافياً مهماً ، تبوأ في القرن الرابع / العاشر المكان الأول ، فجذب العلماء من البلاد كافة ، فكانوا يجتمعون فيه ، ويبسطون نشاطاتهم[2] . وفي هذا الحي محلة ، كانت من أحسن محال بغداد ، بين برجين قديمين للمدينة فسميت محلة بين السورين[3] .

---

(١) انظر كاترمير ، ذوق الشرقيين في الكتب ؛ ميز ، نهضة الإسلام ، ص ١٦٤ وما بعد ؛ هيفننغ ، مادة كتابخانة في الموسوعة الإسلامية ؛ بنتو ، المكتبة ١٥٠ ، ١٥٩ ؛ ماكنسون ، أربع مكتبات كبرى ٢٨٨ ـ ٢٩٣ ، المرجع السابق ؛ الخلفية التاريخية للمكتبات الإسلامية ، المجلة الأمريكية ، العدد ٥١ ، بعد ص ١١٤ ، العدد ٢٤/٥٢ ، ٢٨ ؛ علي ظريف الأعظمي ، مختصر تاريخ بغداد ٦٦ ؛ الراجكوتي ، أبو العلاء وما إليه ١٠٦ ، ١١٥ ، ١٢١ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٥١ ؛ طه حسين ، تجديد ذكرى أبي العلاء ١٥٠ ، ١٥٢

(٢) عن الكرخ انظر الموسوعة الإسلامية ، لوسترانج ٦٣ ـ ٦٨

(٣) عن بين السورين انظر معجم البلدان ٧٩٩/١

كان سابور[1] وزير بهاء الدولة ذا ثقافة أدبية واسعة ، وكان أول أمره كاتباً ، أحب العلماء ، ووعده الشريف الرضي[2] ـ أكبر علماء الشيعة في عصره ـ أن يزوجه ابنته .

كان سابور شيعياً فارسي الأصل ، ولهذا السبب وقع اختياره على الكرخ من بين غيرها ، لأنّ أهلها كلهم كانوا كما يقول ياقوت من الشيعة[3] .

وفي سنة ٣٨٣ هـ / ٩٩٣ م[4] ، أو على الأرجح سنة ٣٨١ هـ / ٩٩١ م[5] اشترى داراً ، وعمرها ، وأمر بتبليطها بالرخام وطلائها بالكلس ، وسماها دار العلم ، ووقفها على أهله ، ونقل إليها كتباً من أفضل ما نسخ أشهر الخطاطين

---

(١) عن سابور انظر الموسوعة الإسلامية ، وله ترجمة مفصلة في الوافي ، (المكتبة الوطنية ، عربي ٢٠٦٤) ١٠٧/أ .

(٢) وردت صيغة الزواج بين أسرة سابور والشريف في صبح الأعشى ٩٧/١٤ ويبدو أن العقد ألغي مع ذلك فيما بعد ، الشريف الرضي ، ديوانه ٢٢٥/١

(٣) معجم البلدان ٢٥٥/٤

(٤) من الضروري أن نذكر هنا كل المصادر التي تذكر تاريخ إنشاء دار العلم وتأسيسها ، لأنها تسرد وبدون توسع ، الوقائع الأساسية التي شهرتها . وسنشير شيئاً فشيئاً إلى الخصوصيات التي يمكن أن نذكر بعضها لفهم هذا العرض . وهذه هي المصادر مرتبة حسب تسلسلها التاريخي : بنداري ١٧ ، معجم البلدان ٧٩٩/١ ، ابن الأثير ٧١/٩ ، ٢٤٦/٩ ، ٥/١٠ ، المنتظم (أياصوفيا ٣٠٩٦) ، سنة ٣٨٣ ، المرجع السابق (أياصوفيا ٣٠٩٧) سنة ٤١٦ و ٤٥١ ، مرآة ، (كوبريلي ١١٥٧) ١٨٥/١١/أ ، ٢١٤/١١/ب ، المرجع السابق (المكتبة الوطنية ، عربي ، ١٥٠٦) ٦٩/أ ، الذهبي ، تاريخ الإسلام (الأحدية بحلب ١٢٢٠) سنة ٣٠١ ـ ٥٠٠ ، ١١٠/ب ، المرجع السابق ، دول الإسلام ١٨٢/١ ، المرجع السابق ، العبر (المكتبة الوطنية ، عربي ، ١٥٤٨) ١٨٠/أ ، الوافي (المكتبة الوطنية ، عربي ، ٢٠٦٤) ١٠٧/أ ، عيون (الظاهرية ، تاريخ ، ٤٨ ، ٤٩) سنة ٣٨٣ ، ٤١٦ ، ابن تغري بردي ٥١/٢/٢ ، العيني (ولي الدين ٢٣٨٧) ٤٤٢/١٥ ، ٧٥٧/١٥ ، ١٦١/١٦ ، شذرات ١٠٤/٣

(٥) يذكر المؤرخون كلهم إنشاء دار العلم في أحداث سنة ٣٨٣ هـ ، ولكن معظمهم يؤكدون أنها أنشئت سنة ٣٨١ هـ ، ناسين ماذكروا من أنها أنشئت سنة ٣٨٣ هـ .

وكبار العلماء ، ابتاعها وجمعها ، فبلغت على ماقيل عشرة آلاف وأربع مئة مجلد ، منها مئة نسخة من المصاحف ، كتبها أفراد من أسرة بني مقلة المشهورة بالخطاطين . وهكذا قامت مكتبة عظيمة في بغداد لخدمة العلماء . وما لبثت أن اشتهرت فيما بعد بتشجيعها لأجلة العلماء ورجال الأدب ، وكانت كتبها تزداد ازدياداً سريعاً من الهبات التي قدمها أكابر العلماء ، الذين كانوا يفعلون ذلك لا ليقال إنهم يتشرفون بما يصنعون ، ولكن ليقفوا عليها أجود أعمالهم ؛ كما كان حال الطبيب المشهور جبرائيل بن بختيشوع (ت ٣٩٦ هـ / ١٠٠٥ م) ، الذي قدم لدار العلم كتابه الطبي القيم بعنوان الكناش ، ويقع في خمسة مجلدات[١] .

وما كانت المكتبة تقبل الهدايا المقدمة إليها دون فحص . وهي في الأصل ، خزانة تضم أنفس كتب العلوم العربية التي نسخها خطاطون ، أو علماء مشهورون بدقتهم وسعة معارفهم[٢] ؛ أرسل صاحب ديوان الإنشاء بمصر أحمد بن علي بن خيران الكاتب (ت نحو ٤٣١ هـ / ١٠٣٩ م) إلى بغداد جزأين من شعره ورسائله ، ليعرضهما على الشريف المرتضى أبي القاسم (الذي سنذكره فيما بعد ، وكان ناظراً لدار العلم) وغيره ممن يأنس به من رؤساء البلد ، ويستشير في إيداعهما دار العلم ، ليُنْفذ بقية الديوان والرسائل ، إن علم أنّ ماأنفذه منها ارتضي واستجيد[٣] ، لتوضع بجانب الآلاف العشرة من الكتب الرائعة في المكتبة . وهكذا أصبحت المكتبة المرجع الأول ، يقصدها كبار العلماء في ذاك العصر ، ينهلون من المعلومات الموثوقة . ويقال إنهم كانوا يؤمونها ليصلوا إلى نتيجة مناظراتهم العلمية . ولذا طلب المعري فيلسوف الشعراء العظيم أن تُراجع الوثائق

---

(١) ابن أبي أصيبعة ١٤٦/١

(٢) انظر القسم الوصفي : إنشاء خزائن العلماء في الفصل الأول .

(٣) إرشاد ، ٢٤٢/١ ، الوافي (أحمد الثالث ، ٢٩٢٠) ١١٣/٧/ب .

القـديمـة لـدار العلم ، للتحقق من التعـابير المختلفـة التي لم تثبتهـا المخطوطـات التي طالعها في المكتبات الأخرى ، ويقال إنّ مصادر دار العلم توضحها[1] .

وأرسل الواقف فهرساً صنعه سبط ابن الجوزي ، ينبغي أن نثق بما جاء في مقدمته ، وهذا هو نصّ تلك المقدمة[2] :

بسم الله الرحمن الرحيم . هـذا ثبت جمعـه سـابـور بن أردشير ، فيـه كتب القرآن الكريم وعلومه وتفسيره وقراءاته ، والفقـه[3] والعبـادات والفرائض والفقـه على المذاهب والتوحيـد والجـدل والخلاف وفيـه مصنفـات آل البيت عليهم السلام (أي الكتب التي ألفهـا رجـال آل البيت) وعلم الأنسـاب واللغـة والحكم والأمثـال والعربيـة والعروض والقـوافي ، وفيـه كتب عن الشعراء المخضرمين[4] والمحـدثين والطرائف والأخبار والرسائل وكتب الطب والتنجيم والحكمة والهندسة وغيرها من العلوم » . وبعد هذه المقدمة تذكر مواد مختلفة من الوقفية[5] . وجاء بعد ذلـك :

« جزى الله سابور بن أردشير على نيته الطيبة ولقاه ثواب مابنـاه وأنشـأه . ومن بدل شيئاً مما اشترطه فعليه لعنة الله وله عذابه الأليم » .

وسندرس هذه العلوم المذكورة من حيث تصنيفهـا ، مفصلين ذلـك في القسم الوصفي ، وسنحاول هنا أن نفهم رأيه . والحق أن موضوعات هـذه الكتب أدبيـة

---

(١) معاهد التنصيص ٣٩٨

(٢) مرآة (كوبريلي ١١٥٧) ١١/١٨٥أ ، والمرجع السابق (المكتبـة الوطنيـة ، عربي ، ٥٨٦٦) ١٤١/أ ، ابن الجوزي ، المنتظم (أياصوفيا ٣٠٩٦) سنة ٣٨٣ هـ ، ويؤكد دون تمهيد أن سابور هو الذي عمل لها فهرستاً .

(٣) ربما الفقه على المذهب الشيعي .

(٤) المخضرمون : من أدركوا الجاهلية والإسلام .

(٥) يضم الفهرس في مقدمته الوقفية . انظر قسم الوصف ، الفصل الرابع .

أكثر منها علمية أو عملية ، ولا يمكن التمييز مثلاً وبشكل واضح بين كتب معاني القرآن وبين تفسيره[1] كذلك لاندري لماذا ذكرت في الثبت العلوم الشرعية بعد الفقه ، والفقه جزء مكمل لها . ونقصت منه من ناحية أخرى بعض العلوم التي يجب أن تكون في أي مكتبة ، والتي تبدأ عادة بكتب الحديث الشريف[2] . ونتسامح بحذفه للجغرافية التي يمكن أن تكون أهملت ، أو أن تكون مشمولة بكلمة العلوم الأخرى . وجاء في الثبت المذكور كذلك : إنّ سابور نفسه هو الذي أرسل الفهرس . ويبدو هذا غريباً ، ولكننا إذا علمنا أن المؤسسين كانوا يهتمون بتصنيف الكتب بأنفسهم ، أو يعينون أناساً لهذا الغرض ، أو ينسب ذاك العمل إليهم ، فلا داعي للدهشة . وربما أسقط الناسخون كلمة تعطي مدلول عبارة ما . ولدينا بدلاً من الرواية المذكورة آنفاً الرواية التالية : هذا فهرسُ ما جمع سابور بن أردشير من كتب القرآن ... وإذن فلم يكتب سابور هذا الفهرس وإنما كتب له .

وتجدر الإشارة هنا إلى وجود مؤلفات للشيعة ، ومؤلفات تكثر فيها عبارة (عليهم السلام) التي تصف وبوضوح اتجاه المؤسس الشيعي ، وطبيعة المكتبة . كذلك تجدر الملاحظة أن لأهل السنة بمذاهبهم المختلفة مكانة في هذه المكتبة . وإذن فهي غير مخصصة لشيعة بغداد وحدهم ، بل للجميع .

ونلاحظ أيضاً وجود علوم الطب والفلك والحكمة والهندسة فيها . وهذا ما يبرهن على أن علوم القدماء امتزجت بحياة المكتبة التي غلب عليها العنصر الديني .

ويمكن أن تظهر النظارة على دار العلم كباقي المكتبات العربية الأخرى في مظهرين : الإشراف العام والإشراف الفني .

---

(١) من الصعب التمييز بين المؤلفات التي تتناول هذين النوعين من عنوان الكتاب فقط .

(٢) وعلم الحديث منفصل عن بقية العلوم ، تناوله ابن النديم بشكل مستقل (الفهرست ١٩٨) .

ويجب أن نفهم من كلمة الإشراف العام إدارة أموال الوقف التي تغذي المؤسسة ، وإدارة مصالح المكتبة العامة غير الفنية . أما الإشراف الفني الذي يخصّ الخازنين ومعاونيهم مباشرة ، فهو يهتم بالخدمة الفعلية للمكتبة[1] .

عندما أنشأ سابور دار العلم عهد بالنظر عليها إلى ثلاثة أشخاص[2] غير متكافئين ، يدعى أحدهم الشريف أبو الحسين ، أو أبو الحسن[3] محمد بن الحسين بن أبي شيبة ، أو ابن أبي شبيه ، أو ابن أبي سنيه ، وهو من طبقة محمد بن الحسين بن علي بن الحسين أبي الحسين بن أبي الشبيه بن الحسين الحسيني العلوي الذي ترجم له الخطيب البغدادي[4] . ويرى الخطيب أن هذا الرجل لا بد أن يكون زيدياً ، وقال : حدّث عن عبد العزيز بن إسحاق بن البقال المتكلم على مذاهب الزيدية من الشيعة .

وعيّن معه في الوظيفة نفسها شخصاً آخر علوياً[5] ، هو أبو عبد الله محمد بن أحمد الحسني البطحاني[6] المكافئ للشريف محمد ، الفضل بن أحمد بن طاهر الموسوي أبو عبد الله ، العلاّمة الشيعي المفيد (٣٣٦ هـ / ٩٤٧ م - ٤١٣ هـ / ١٠٢٢ م)[7] . وفي الوقت نفسه كُلف ثالث بهذه الوظيفة الغريبة : إنه

---

(١) انظر القسم الوصفي ، الفصلان السابع والثامن .

(٢) المنتظم (أياصوفيا ٣٠٩٦/٥) الجزء السادس ، سنة ٣٨٢ ، يذكر أسماء هؤلاء الثلاثة ، الوافي (المكتبة الوطنية ، عربي ، ٢٠٦٤) ١٠٧/أ ، يذكر اثنين ، وسكت عن محمد بن أحمد الحسين . كذلك يذكر صاحب الشذرات اثنين باسم القاضي .

(٣) الوافي ، المرجع المذكور .

(٤) تاريخ بغداد ٢٤٧/٢

(٥) المنتظم ، المرجع السابق .

(٦) ربما تجب قراءتها (البطحاوي) وصاحب هذا الاسم شارك الرضي في القدح بسلالة الفاطميين (ابن الأثير ، سنة ٤٠٢ هـ) .

(٧) المامقاني ١٣٠٢١

أبو عبد الله الحسين بن هارون الضبي قاضي بغداد في ذلك العصر ، وأبوه شغف كثيراً باقتناء الكتب[1] ، ووظيفته قاضياً ربما تنبئ عن مكانته ، وكان غالباً ما يتولى النظر على أموال الوقف كما سنرى .

ومع ذلك وبعد عدة سنوات من وفاة سابور[2] أشرف على دار العلم الشريف المرتضى[3] ، أبو القاسم علي بن الحسين بن موسى (ت ٤٣٦ هـ / ١٠٤٤ م) ، وهو شقيق الشريف الرضي .

كان الشريف المرتضى شيعياً متحمساً ، تقاسم مع أخيه بجدارة تأليف كتاب (نهج البلاغة) ، المجموع من كلام الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، رابع الخلفاء الراشدين ، وجدّ العلويين . وذكر المرتضى ابن بسام الأندلسي في كتاب (الذخيرة) ، فقال : كان هذا الشريف إمام أئمة العراق بين الاختلاف والاتفاق[4] ، وكان المرتضى من جهة أخرى شغوفاً بالكتب ، قيل إنه اشترى كتاب (الجمهرة) لابن دريد بستين ديناراً ، وهو مبلغ كبير في ذاك العصر[5] .

ويضيف ابن الجوزي[6] لهذه الأسماء اسماً آخر ، وهو الشيخ أبو محمد بن موسى الخوارزمي (ت ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م) ، شيخ مدرسة الأحناف ، كان عيّنه سابور للعناية بالمكتبة . ومن الصعب معرفة ماإذا كانت وظيفته في النظر على المكتبة ، أم في الإشراف العملي عليها .

---

(١) الخطيب ٣٢/١٤

(٢) سنرى في الصفحة ١٤١ أنه لا يمكن الاعتماد على هذا الكلام ، لأنه سيخلّ في تفسير بعض الوقائع .

(٣) إرشاد ٣٥٩/٦

(٤) ابن خلكان ، القاهرة ١٢٧٥ ، ٤٧٨/١

(٥) المرجع السابق ، عيون (الظاهرية ، تاريخ ، ٢٠٤/٤٩/ب و ٢٠٥/أ) .

(٦) المنتظم (أياصوفيا ٣٠٩٦) جـ ٦ ، سنة ٣٨٣ هـ ، وانظر عنه في الخطيب ٢٤٧/٣ ، الجواهر ١٣٥/٢

أبـو أحمـد عبـد السـلام بن الحسين بن محمـد البصري الملقب بـالـواجكا (٣٢٩ هـ / ٩٤٠ م ـ ٤٠٥ هـ / ١٠١٤ م)[١] ، أحد خازني مكتبة دار العلم ، كان عالماً باللغة والآداب ، عارفاً بـالقراءات ، محدّثـاً ، يحفـظ الشعر ، وكان كريمـاً ، وربما جاءه السائل وليس معه شيء يعطيه ، فيدفع إليه بعض كتبه التي لهـا قيمـة كثيرة ، وخطر كبير[٢] . ويذكر المعري في كتـابـه رسـالـة الغفران[٣] بعض كتبـه النفيسة ، وكانت تربطه به صلات ودية[٤] . قال الخطيب البغـدادي[٥] : « وكان [عبـد السـلام] يتـولى ببغـداد النظر في دار الكتب ، وإليـه حفظهـا والإشراف عليهـا »[٦] ، كما يرى ذلـك الصفـدي[٧] . والمقصود المكتبـة التي أنشـأهـا سـابور . ويقول المعري : إنه كان خازن دار العلم[٨] .

ويقـال كـذلـك : إن أبـا منصـور ، محمـد بن علي بن إسحـاق بن يـوسف الكاتب ، المتوفى سنة ٤١٨ هـ / ١٠٢٧ م ، أو ٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م ، كان خازن دار العلم[٩] ، أو بكل بساطة خازن دار الكتب[١٠] . ويتحدث المعري عنه في (رسالة الغفران)[١١] ، وكان عرفه معرفة جيدة عنـد إقـامتـه ببغـداد . في ذلـك العصر .

---

(١) الـوافي (أحمـد الثـالث ٢٩٢٠) ١٦٧/١٨/ب ، ابن قـاضي شهبـة (الظـاهريـة ، تـاريـخ ٤٣٨) ٣٦٨ ـ ٣٦٩ . ويشير في بغية الوعاة أنه توفي سنة ٣٢٩ هـ ، بينما هي سنة ولادته .

(٢) الخطيب ٥٨/١١ ، الأنبـاري ٤١٢ ، مرآة (كـوبريلي ١١٥٧) ١٨٠/١١/أ ، المنتظم (أيـاصـوفيـا ٣٠٩٦) ج ٦ ، سنة ٤٠٥

(٣) ص ١٨٤

(٤) المعري (ابن خلكان ٤٢٢/٣) يروي بعضاً من خطبه وهو يدرسه على أنّه (صديق وفي) .

(٥) ٥٨/١١

(٦) تعبير (دار الكتب ببغداد) غريب ، انظر ص ١٤٥

(٧) الوافي (أحمد الثالث ٢٩٢٦) ١٦٧/١٨/ب .

(٨) ابن خلكان ٤٢٢/٣

(٩) الخطيب ٩٣/٣ ـ ٩٤ ، السمعاني ١٨٥/أ .

(١٠) الخطيب ٢٠٣/٦

(١١) ص ٧٣

ومن عـام ٣٩٩ هـ / ١٠٠٨ م وحتى عـام ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م كان أبـو منصـور المذكور خازناً لـدار العلم ، ويـذكره أبو العلاء على أنـه الخـازن ، بينما يوضح في موضع آخر أنّ عبد السلام هو الذي كان الخازن[١] .

ويُذكر خـازن أخير ، هو أبو منصور ، محمد بن أحمد بن طـاهر بن حمد ، وكان من ساكني الكرخ حيث دار العلم . قيل إنه خـازن دار الكتب القـديمة[٢] . هـذا ويجب أن نـوازن بين هـذه المكتبـة ومكتبـة دار العلم . لم سميت المكتبـة القديمة ؟ لتقابل المكتبة الجديدة التي حلت محلها[٣] ، وهي دار العلم التي احترقت عـام ٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م والتي بـدت قـديمـة منـذ عـام ٥١٠ هـ / ١١١٦ م ، وهـو تاريخ وفـاة هـذا الخـازن عن عمر بلغ ٩٢ عـامـاً . وكان يُفضّل ـ لئلا نخلـط بين المكتبتين ـ أن تسمى المكتبة القديمة بالمكتبـة المنـدثرة . وفضلاً عن ذلـك ، يقول السيوطي[٤] : إن المقصود المكتبة الواقعـة بين السورين ، وهـذا في الحقيقـة مكان دار العلم . وبالإضافة إلى كون أبي منصور بن أحمد شيعياً[٥] فإنـه مؤهل بـالتـالي ليصير خازناً لهذه المكتبة . على أن عمره البالغ ٣٣ عاماً لا يؤكد هذا الافتراض .

ويؤكـد الميمني الراجكوتي أنّ اسم هـذه المكتبـة ـ التي تولاهـا هـذا الخـازن ـ يجب أن يُفهم كالتالي : (مكتبة الكتب القديمة) لا المكتبة القديمة . وهي برأيـه مكتبة الخلفاء العباسيين التي تضم كتباً قديمة ، أو بعبـارة أدق كتبـاً تتنـاول علوم

---

(١) رسالة الغفران ، ط الهند ، ١٣٢١ ، ص ١٨٤ . وعندئذ كان هذا الشخص قد توفي .

(٢) المنتظم (أيا صوفيـا ٣٠٩٧) سنـة ٥١٠ ، إرشـاد ٢٥٨/٦ ـ ٢٥٩ ، العيني (ولي ٢٣٨٨) ٧١٢/١٦ . ووردت ترجمته بالإضافة إلى هذه المصادر في كتاب ابن حجر ، لسان الميزان ٢٨/٥

(٣) مرآة (المكتبة الوطنية ، عربي ١٥٠٦) ٦٩/أ .

(٤) بغية ١١ . وبناء على كلام المامقاني ، رقم ١٠٣٢١

(٥) المنتظم ، المرجع السابق ، ابن حجر ، المرجع السـابق . ويضيف هذا المؤرخ أنه اتهم بالاعتزال .

الأوائل[1] . وهذه فرضية اعتباطية ، لاتؤيدها أي حجة قوية[2] . وكان ياقوت من جهة أخرى مشوشاً حول هذا الرجل الذي لا يشك في معرفته بالمكتبات ، ويقبل الكلام القائل بادئ ذي بدء : إن مكتبة بين السورين ، أي دار العلم ، هي نفسها المكتبة القديمة[3] .

وأخيراً ، يُذكر يوسف يعقوب بن سليمان الإسفراييني خازناً لدار العلم[4] ، وسيكون هذا الرجل خازن مكتبة المدرسة النظامية . توفي عام ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م ، أي بعد حريق دار العلم بسبعة وثلاثين عاماً ، ويبدو أنه كان أحد الخزنة الأخيرين ، إن لم يكن الخازن الأخير .

ونُخبَر من جهة أخرى أنه بعد عدة سنوات من وفاة سابور التي كانت عام ٤١٦ هـ / ١٠٢٥ م كما ذكر جميع من ترجموا له ، آلت مراعاة دار العلم إلى المرتضى ، الذي عيّن عليها أبا منصور ورتب معه آخر يعرف بأبي عبد الله بن حمد[5] . وهذه المعلومة تخبر أن تعيين المشرفين التابع للناظر لاتتناسب والمعطيات التي لدينا من قبل . ومن أبو منصور هذا ؟ إنه لا يمكن في رأينا أن يكون أحد الخازنين اللذين ذكرناهما آنفاً ؛ لأنّ الأول المتوفى سنة ٤١٨ هـ / ١٠٢٧ م أي بعد سنتين من وفاة سابور ليس هو الشخص الذي ندرسه ، وقد عيّن بعد عدة سنوات

---

(١) الميني الراجكوتي ١١٦ ، يذكر استناداً إلى فرضيته نصاً من القلقشندي في صبح الأعشى ٤٦٦/١ مشكوك به ، ويقول بناء عليه : كان في بغداد مكتبة للخلفاء العباسيين . وبالرغم من أننا لانعلم أنّ فيها مكتبة واحدة ، بل عدة مكتبات ، فإنه لا يمكن أن نكون هي أو غيرها بحال من الأحوال مكتبة المأمون التي توافق وصف الراجكوتي ، لأن المكتبة المعروفة باسم خزانة المأمون كانت مستقلة . انظر ص ٥٧

(٢) انظر أيضاً المامقاني رقم ١٠٢٢١

(٣) إرشاد ٣٥٨/٦ ـ ٣٦٠ . واضطرب هذا المؤرخ في تحديد هوية هذا الرجل .

(٤) ابن النجار (الظاهرية ، تاريخ ، ٤٢) في ترجمة علي بن حمد السوسي ، المامقاني ٢٦٧/١

(٥) إرشاد ٣٥٩/٦ ـ ٣٦٠

من وفـاة سـابور . والثـاني المولـود سنـة ٤١٧ هـ / ١٠٢٦ م أو ٤١٨ هـ / ١٠٢٧ م لا يمكن أن يكون خـازن دار العلم قبـل سنـة ٤٣٦ هـ / ١٠٤٤ م ، تـاريـخ وفـاة المرتضى . فكيف يكلف بالإشراف على المكتبة ولَمّا يبلغ ١٨ عامـاً ! ويبـدو هـذا محتملاً جـداً . ومن الضروري من أجـل أن نتجـاوز هـذه المشكلـة ألا نـأخـذ بعين الاعتبار النصّ الذي حدد التعيين زمن الخبر بعد عـدة سنوات من وفـاة سـابور ، أو أن نفترض أنّ هـذا التعيين حصـل قبـل وفـاة سـابـور لا بعـدهـا . وسنـدرس أبا منصور محمد بن علي الخازن . وإذا تيقنـا بصحـة الخبر وجب أن نفترض وجود خازن ثالث يدعى أبا منصور .

ومهما يكن ، فمن المفيد أن نورد ههنا الطرفة التي تروى بمناسبـة تعيينـه[١] ، لأنها تدخل في جو المكتبات آنئذ :

« أخـذ المشرف أبو عبـد الله بن حمـد السيء الطبع يستغـل سـذاجـة رئيسـه المنصور ، فمن ذلك أنه قال له يوماً : قد هلكت الكتب وذهب معظمهـا ، فقـال له وانزعج : بأي شيء ؟ قـال : بـالبراغيث وعيثهم فيهـا وعبثهم بهـا . قـال : فما تفعل في ذلك ؟ قال : تقصد الأجلَّ المرتضى ، وتطالعه بالحال ، وتسـألـه إخراج شيء من دوائهم المعـدّ عنـده لهم ، لننشره بين الـورق ويـؤمن الضرر . فمضى إلى المرتضى وخـدمـهِ ، وقـال لـه بسكون ووقـار ومن طريـق النصـح والاحتيـاط : يتقدم سيدنـا إلى الخـازن بـإخراج شيء من دواء البراغيث ، فقـد أوشكت الكتب على الهلاك بهم ، لنتدارك أمرهم بتعجيل إخراج الدواء المـانع لهم المبعـد لضررهم . فقـال المرتضى : البراغيث ! البراغيث ! (مكرراً) ، لعن الله ابن حمـد ، فـأمره كله هزل ، قم أيها الشيخ مصاحَباً ، ولا تسمع لابن حمد نصيحـة ولا قولاً » . ربمـا تساعدنـا هـذه الطرفـة على فهم الصلاحيـات التي كانت تعطى للخزنـة ، ومـدى سلطتهم المحدودة .

(١) إرشاد ، المرجع السابق .

وقبل أن ننهي عرضنا عن تاريخ الإشراف على دار العلم يجب أن نـذكر قول المعري عن عمل أَمَـةٍ تـدعى توفيـق السـوداء ، كانت تُخرج الكتب من الخـزائن ، لتقدمها إلى النساخ ، يوم كان أبو منصور محمد بن علي خازناً[١] .

وكان عـدد الأشخـاص الـذين اشتغلـوا في دار العلم كبير ، يبلـغ كما نرى ثلاثـة عشر رجلاً من المشرفين والإداريين . وربمـا كانوا يشكلون مجلس المكتبـة ؛ الخـازن ومعـاونـه والخـادم ، وقـد يكـون معهم بعض النسـاخ[٢] ، وهـذا يرجـع لأهميتها . إلا أننا لن نفهم وضع هذه المؤسسة ، مالم ندرس ما كانت عليـه بـالشكل الصحيح ! .

إنهـا مؤسسـة وقفت[٣] لخـدمـة العلمـاء والعلم[٤] . ومثـل هـذه المكتبـة كانت تغـذيهـا مصـادر متنوعـة ، وخصص لـلإنفـاق عليهـا[٥] بنـاءان في الكرخ ، (دار الغزل) وأصحاب اللَّعِب[٦] ، وكانت الأموال العائدة إليها كبيرة[٧] ، وكانت هـذه الأموال تصرف على ضيـافـة النزلاء ، وتـدفع منهـا أجور الموظفين وكلفـة صيـانـة المكتبة . ولمـا كانت الـدار موقوفـة للعلمـاء ، فقـد رسم لهـا أن تستضيف بعضهم . وستقترب في صفتهـا هـذه من دار العلم المنسـوبـة للشريف الرضي[٨] . ولا بـد أن

---

(١) المعري ، رسالة الغفران ٧٣

(٢) ربما لم يكن للنسـاخ الذين تخدمهم الأمة تعويض من ميزانية المكتبة .

(٣) انظر القسم الثاني ، الفصل الثالث .

(٤) تذكر المصادر التالية رعايتها للعلماء : الذهبي (الأحمدية بحلب ١٢٢٠) ١١٠/ب ، العبر (المكتبة الوطنيـة ، عربي ، ١٥٨٤) ١٨٠/١/أ ، ابن تغري بردي ٢/٢ ، ٥١ ، السيوطي ، تـاريخ الخلفـاء ٤٢٣ ، ويدعي ابن كثير وحده (الأحمدية بحلب ١٢١٧) ٧ ، سنة ٣٨٣ هـ أنها أنشئت للفقهاء .

(٥) الوافي (المكتبة الوطنية ، عربي ٢٠٦٤) ١٠٧/أ ، ويؤكد أنه يجب أن تؤمن دار الغزل عائداتها ، والعيني (ولي الدين ٢٣٨٧) ٧٣٧/١٥ يضيف إليها دار اللعب .

(٦) كان هناك ما يسمى بالملعب ، انظر البكري ، المغرب ، تح سلان ، ٤١ أو ٤٣ ، أهو ذلك ؟

(٧) العيني ، المرجع السـابق .

(٨) انظر ص ١٢٤

نـذكر أنـه كان من بين نزلاء دار العلم لسـابور الشـاعر المشهور أبو العلاء المعري ، الذي بيّن في إحدى رسائله الموجهة إلى أهل بلده المعرة إعجابه العظيم في الإقـامـة بدار العلم ، ووصفها أنها أفضل مكان[١] ، لكنـه أسف في موضع آخر ، لأنّ الوقت لم يسمح له بالإقامة فيهـا طويلاً[٢] ، وقـد كان رحل إلى بغـداد ليستفيـد منهـا . وقيل إنه أُسكن هذه المكتبة أو غيرها من المكتبات الخاصة بناء على طلبـه . وكان - كما قيـل - يحفـظ الكتـاب من قراءتـه الأولى[٣] ، وكانت هـذه المكتبــة تسترعي انتباهه بشكل خاص ، ولم ينسها أبداً ، وكان يناظر جميع خـازنيهـا من أصحـاب الثقافة العالية . وكان يقول لهم : كم يحب أن يبقى في دار العلم طيلة حيـاتـه[٤] ، وامتلأ قلبـه من الـذكريـات التي تركهـا فيـه[٥] ، وهو يـذكر ذلـك في شعره وفي كتبه[٦] ، وما أعجبته بغداد إلا لأنه أحب الإقامـة فيهـا لأجل هـذه المكتبـة ، إذ هي التي سمحت له إنشاء علاقات مع كثير من العلماء ، واطلع على حياتهم الجـادة الهادئة الجديرة بالاحترام[٧] ، وقدّر الاجتماعات والنقاش الذي كان يجري فيها[٨] . والحـق أنّـه مـا من مكتبـة عربيـة ذُكرت في حـديث الأدبـاء مثلمـا ذُكرت هـذه المكتبة . وكانت فيها تقوم الدروس والمحاضرات : دخل أبو القاسم بن ناقيا في يوم

---

(١) يشير ابن خلكان إلى ان بغداد كانت أول مكان استقر به المعري (طه حسين ، تجديد ، ١٤٧) . وحدد الراجكوتي ١١٣ سُكناه في قطيعة الفقهاء وربما يقـارب هـذا المسكن دار العلم الواقعـة في ذاك الحي .

(٢) رسائل ، تح مارغوليوث ، ٢٤ ، رقم ٨

(٣) ابن العديم (أحمد الثالث ٢٩٢٥) ٢٠٠/١/أ ، العمري (أياصوفيا ٣٤٢٨) ١٦٠/١٥/ب .

(٤) رسائل ٤٦ - ٤٧ ، رقم ١٦

(٥) رسائل ، نح مارغوليوث ، ٣٢ ، ٤٦ - ٤٧

(٦) ابن العـديم ، الإنصـاف (مخطوطـة المجمع العلمي) ٥٤ ، إعلام النبـلاء ، ١٢٧/٤ - ١٢٨ ، وانظر الراجكوتي ١٠٣

(٧) رسائل ٥٢ ، رقم ١٩

(٨) ذكر هؤلاء العلماء في رسالته رقم ١٩ ، ومن بين رسائلـه مـاأرسلـه إلى أبي القـاسم الحسين بن علي المغربي (رقم ١ ، ورقم ١٢) الذي كان يتردد على المكتبة .

بارد دار العلم ببغداد ، فوجد علي بن فضّال بن علي بن غالب المعروف بالفرزدقي (ت ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م) ، وهو يدرّس شيئاً من النحو[١] . وهذا الخبر هو الوحيد الذي عندنا عن الدروس الملقاة في دار العلم ، كما تؤكد ذلك شهادة أخرى . وقيل : إنّ هذا العالم أقرأ النحو واللغة ببغداد مدّة[٢] في أثناء مروره بها .

كان عالماً عظيماً ، ألف كتباً عديدة ، منها كتاب (الدول في التاريخ) ، شاهد ياقوت[٣] في مكتبة الوقف السلجوقي ببغداد ثلاثين مجلداً منه ، كان غزير العلم ، إلا أنّ العلماء لم يوثقوه ، وقالوا : إنه يضعف في الرواية[٤] .

ويؤكد ابن شاكر الكتبي[٥] ومن بعده العيني[٦] أنّ دار العلم لسابور هي أول مدرسة موقوفة في الإسلام .

ويقول ابن بسام مؤلف كتاب (الذخيرة) : إن الشريف المرتضى كان صاحب مدارس العراق[٧] . وقد اعتقد هذا المؤرخ على ما يبدو أن دار العلم التي أشرف عليها الشريف المرتضى كانت مدرسة[٨] .

وهذه الفكرة لا أساس لها من الصحة ، لأنّ دار العلم لم تكن قط مدرسة فعلية كالمدارس التي سنراها فيما بعد .

---

(١) إرشاد ٢٩٤/٥ . وترد هذه القصة فيه كما يلي : « ودخلت دار العلم ببغداد وهو يدرس شيئاً من النحو في يوم بارد ... » .

(٢) بغية الوعاة ٣٤٥

(٣) إرشاد ٢٩٥/٥ ، وبعده الوافي (أحمد الثالث ٢٩٢٠) ١٦٠/٢١

(٤) المنتظم (أياصوفيا ٣٠٩٧) سنة ٤٧٩ ، الوافي (أحمد الثالث ٢٩٢٠) ١٦٠/٢١

(٥) عيون (الظاهرية ، تاريخ ٤٨) سنة ٣٨٢ هـ .

(٦) عقد (ولي ٢٣٨٧) ٤٤٢/١٥

(٧) ابن خلكان ، القاهرة ، ١٢٧٥ ، ٤٧٨/١

(٨) هذا غير صحيح ، وانظر التباين بين المؤسستين ص ١٧٩ وما بعدها .

كانت دار العلم مكتبة قبل كل شيء ، وتعقد فيها مع ذلك بعض الجلسات ، وتقام بعض المحاضرات . وربما تكون هذه الصفة الأخيرة هي التي دفعت هذين المؤرخين ليقولا إنها مدرسة .

وهكذا نرى أي دور لعبته دار العلم في بغداد . كانت حرم علوم العربية ، إلا أنها لم تهمل العلوم الأخرى أبداً . ساعدت على تطوير العربية واللغة ، وربما العلوم الأخرى . وفتحت هذه المؤسسة الشيعية التي يشرف عليها الشيعة أبوابها للعلماء كافة دون تمييز . وكانت تقدم لهم المأوى ، وتدعوهم لتعليم روادها . ولكن صفتها الشيعية من جهة أخرى ـ وإن لم تكن متعصبة ـ هي التي أدت إلى زوالها نهائياً . والواقع أن سبب تدهورها لا يعود إلى خصوم مُنشئها العديدين ، إذ لم يتعرضوا لها سوى مرة واحدة . وقد استولى بنو عبد الرحيم على بعض كتبها الجميلة في حياة مؤسسها نفسه عندما كانوا وزراء[١] ، وهذه حادثة فريدة من نوعها . واستمرت دار العلم بعد وفاة مؤسسها . وعانت المكتبة بوجودها في الكرخ من النفور الذي شهده أهل السنّة في هذا الحي الشيعي . وعندما دخل طغرل بك بغداد مع الخليفة عام ٤٥١ هـ/١٠٥٩ م[٢] ، وليس عام ٤٤٧ هـ/١٠٥٥ م[٣] . هاجم أهل السنّة حي الكرخ مندفعين بهذا الحادث ، فنهبوه ، وأشعلوا الحرائق فيها[٤] ، فوقعت دار العلم فريسة بعضهم . ولا نعرف إن كانت استهدفت بالإحراق أم لا . وجعل عميد الملك الكُندري وزير طغرل بك يديم التردد على دار العلم بعد إخماد حريقها ، وأمر بطرد الدهماء الذين كانوا ينهبونها ، وبدأ

---

(١) الوافي (المكتبة الوطنية ، عربي ٢٠٦٤) ١٠٧/أ .
(٢) أجمع معظم المؤرخين أن الحريق حدث عام ٤٥١ هـ .
(٣) كما يؤكد ياقوت في إرشاد ٧٩٩/١
(٤) العيني (ولي ٢٣٨٨) ١٦١/١٦

ينتقي بنفسه أفضل كتبها التي نجت من الحريق[1] ، ثم أرسلها إلى بلده خراسان[2] .

سادساً ـ دار العلم في طرابلس[3] :

كذلك كان في طرابلس دار علم في نهاية القرن الخامس . وطرابلس ميناء في بلاد الشام ، غنية بزراعتها ، وغنية أيضاً بحرفييها . ويرى (ميشو) أنه كان فيها أربعة آلاف عامل ماهر ، كانوا يصنعون أقمشة الصوف والحرير والكتان[4] ، بالإضافة إلى معمل لصناعة الورق[5] ، أسهم في نشر الكتب ، وبالتالي في الثقافة .

ومن قبل ، وفي بداية القرن الخامس زمن المعري ، وقفت فيها للنّاس عدة خزائن كما يعتقد الذهبي ، وقد زارها المعري وعمل فيها طويلاً[6] ، وإليها ترجع ثقافته الأولى[7] ، وقد خلط بعض المؤرخين هذه الخزائن بدار العلم في طرابلس بعد وفاة المعري ، مما دفع ابن العديم أن يحتج على ذلك عندما أكّد أنّ دار العلم لم

---

(١) المصادر التي ذكرت إنشاء دار العلم هذه ، أشار معظمها إلى حريقها .

(٢) مرآة الزمان (كوبرلي ١١٥٧) ٢١٤/١١

(٣) انظر كاترمير ، ذوق الشرقيين في الكتب ، بنتو ، المكتبة ١٥٢ ، ١٦٠ ـ ١٦١ ، فان بيرشم ، Corpus ، القسم الثاني ، ص ٩٣ ، جورجي ياني ، تاريخ سورية ، بيروت ١٨٨١ م ، جورجي الخوري . ساكس مجلة الآثار ، العدد ١ ، نيسان ١٩١٢ م ، ص ٢٣١ ، مجلة الزهراء ، سنة ١٣٤٢ هـ ، ص ١١٠ ـ ١١٢ ، لامنس ، الصليبيون ومكتبات طرابلس الشام ، المشرق ، ١٩٢٢ م/١٠٧ ، ١٦٠ ، كرد علي ، خطط الشام ٦٧/٦ ، ١٩٧ ، محب الدين الخطيب ، الحديقة ، القاهرة ١٣٤٨ ، ١٧٢/٤

(٤) ميشو ، تاريخ الصليبيين ٥٤/٢

(٥) كرد علي ، خطط الشام ١٩١/٦

(٦) الذهبي (أيا صوفيا ، ٤٠٠٩) ح ١١ ، سنة ٤٤٩ هـ .

(٧) الوافي (أحمد الثالث ، ٢٩٢٠) ح ٧ ، ٤٦/ب ، معاهد التنصيص ٦٦ ، بغية الوعاة ١٣٦

تكن موجودة بعد في ذلك العصر[1] . ويضيف ابن العديم نفسه أنّ جلال الملك ، أبا الحسن علي بن محمد بن أحمد ، صاحب مدينة طرابلس وقاضيها (ت ٤٩٢ هـ/١٠٩٨ م) أنشأ دار العلم عام ٤٧٢ هـ/١٠٨٠ م . أي بعد ٢٤ سنة من وفاة أبي العلاء . وأبو الحسن هذا ينسب إلى أسرة بني عمار الذين استولوا على المدينة في منتصف القرن الخامس مع أبي طالب أمين الدولة الحسن ، عندما كان قاضياً صغيراً في تلك المدينة . ومُنحت دار العلم من جهة أخرى مجموعة كتب من الوقف كان من بينها ستة كتب للمعري[2] .

وكانت دار العلم في طرابلس غنية ، من أغنى ماامتلك المسلمون من مكتبات على الإطلاق . ويرى ابن أبي طي أنها كانت أجمل وأغنى مكتبة في عصرها . ويروي عن أبيه أنها احتوت على ثلاثة آلاف ألف كتاب ، كان من بينها خمسون ألف نسخة من المصاحف ، وعشرون ألف نسخة من التفاسير ، وعمل بها مئة وثمانون كاتباً ، منهم ثلاثون ، كانوا ينزلون بها ليلاً ونهاراً ، وقد أولى حكام طرابلس بنو عمار هذه المكتبة كل اهتماماتهم ، وهيؤوا لها وكلاء متجولين ، لا يتأخرون عن أي رحلة ، لشراء أفضل الكتب . وقد ازدهرت طرابلس زمن دولتهم بالعلوم ، وزارها العلماء من سائر البلدان ، وقدموا خدماتهم للمشرفين عليها[3] . نقل هذه الوقائع أحد رواة الشيعة كبني عمار . وربما بالغ عن قصد بعدد الكتب الذي تحتويه المكتبة ، وبعدد الكتّاب الذين كانوا يعملون فيها . والعدد الذي أورده النويري أقل من ذلك ، وهو مقبول أكثر[4] ، فبلغ عنده أكثر من مئة ألف مجلد . ونعرف أحد الخازنين في هذه الدار ، وهو الحسين بن بشر بن

---

(١) ابن العديم ، الإنصاف (مخطوطة المجمع العلمي) ٦٨

(٢) المرجع السابق .

(٣) ابن الفرات (ڤيينا A.F ١١٧) ٢٨/١

(٤) النويري (المكتبة الوطنية ، عربي ، ١٥٧٨) ١١٦/أ .

علي الطرابلسي المعروف بالقاضي . ذكره ابن أبي طي ، وقـال : كان صاحب دار العلم بطرابلس ، كان أديبـاً ، وصنف كتـابـاً في الخطب ، يضـاهي بهـا خطب ابن نباتة ، وله مناظرة مع الخطيب البغدادي ذكرها الكراجكي ، وقال : حُكم لـه على الخطيب بالتقـدم في العلم[1] ، وكانت هـذه المنـاظرة في شهر شعبـان من عـام ٤٦٢ هـ/١٠٦٩ م ، عندما دخل الخطيب طرابلس[2] ، أي قبل افتتاح دار العلم .

ونعرف أيضـاً مشرفـاً آخر على دار العلم ، هـو القـاضي أبـو الفضـل بن أبي دوح ، الذي أمره مؤسس دار العلم جلال الملك أن يفرق الـذهب على أهل دار العلم ، فانتظر ابن الخياط الشـاعر المشهور (ت ٥١٧ هـ/١١٢٣ م)[3] حصتـه من الذهب دون جدوى ، فأرسل قصيدة لابن أبي دوح ، يشتكي فيها من حرمانه من الذهب ، وكان بأمس الحاجة إليه ، وأنشأ صداقة مع القاضي ومدحـه في الجـامع ، فوثق بصداقته و إخلاصه ، ولم يقم وزناً لما قالـه مثيرو الفتن ، وأعطـاه من مـالـه الخاص[4] .

نستخلص من هـذه الطرفـة وجود أشخـاص (أي من الطلاب والشيـوخ) ، كانوا يقيمون في دار العلم بطرابلس .

وكانت حياة هذه المكتبة قصيرة ، وتألم النـاس لضيـاعهـا الـذي حـدث بعـد ثلاثين عاماً من إنشائها .

ولم تتـوقف الحروب الصليبيـة في الـواقـع عن حصـار طرابلس منـذ عـام

---

(١) ابن حجر ، لسان ٢٧٥/٢

(٢) انظر كتابنا عن الخطيب ، دمشق ، ١٩٤٥ م ، ١٤٤

(٣) بروكلمان ، الملحق ٤٤٨/١

(٤) ديـوان ابن الخيـاط ، النجف ، ١٣٤٣ ، ٧٤ . وكلمـة (ذهب) سـاقطـة من هـذه الطبعـة ، ووجدناها في مخطوطة كانت في أحد أسواق دمشق .

٤٩٣ هـ/١٠٩٩ م . وفي عـام ٥٠٣ هـ/١١٠٩ م استسلم سكان المدينـة بعـد وصـول رسالة من الخليفة أمر فيها أن يبعثوا إليه بامرأة جميلة فقيرة كان قد سمع بجمالها ، بدلاً من إعلانه عن إرسال مساعداتـه ونجـداتـه ، فـاستسلمت المدينـة كلهـا وهي يائسة إلى العدو ، الذي غزاها ، واستولى عليها . ولم يتخـذ من أجلهـا ـ على قول المؤرخين الـذين أشـاروا جميعهم إلى غـزو المـدينـة ـ أي حيطـة لحفـظ الأمـوال أو الأرواح ، بل هاجم هو ثرواتهـا ، ونهب بعض أمـاكنهـا[1] ، واحترقت المكتبـة عنـد دخـول المنتصرين المنتظر طـويـلاً . ولم يهتم المـؤرخـون من غير المسلمين بالحديث عن الحريق ، وأما المؤرخون المسلمون فقد أحزنهم أن تقع المدينـة الغنيـة في أيدي العدو دون مقاومة ، وعدّ بعضهم من ثرواتها المفقودة الكتب التي احتوتها دار العلم برأي ابن خلكان[2] ، ودور العلم برأي ابن الأثير[3] ، وكتب العلـوم حسب رأي ابن القلانسي[4] .

جميع هؤلاء المؤرخين على ما يبدو لم يكونوا يعلمون شيئـاً عن الحريق الـذي أتى على المكتبة ، والذي تعرفنا به ملاحظة واحدة أوردها ابن الفرات في كلمـاتـه التالية :

عنـدمـا دخل الصليبيون غـازين طرابلس أحرقوا دار العلم . ذلـك أن أحـد الكهنة فزع من كتب رآها فيها ، ووقع بصره على مجموعة جليلـة من المصـاحف . ولما أمسك مجلداً منهـا استنتج أنـه نسخـة من القرآن الكريم ، فقـارن بين عشرين نسخة منهـا ، فـاستنتج أنهـا نسخ من القرآن ، وأنّ كل مـا تحتويـه الـدار إنمـا هو

(١) إضافة إلى المصـادر المذكورة آنفـاً : سبـط ابن الجوزي ، بحث عن المؤرخين الشرقيين للصليبيين ٥٣٦/٣ ، وابن تغري بردي ، المرجع السابق ٤٩٠/٣

(٢) المرجع السابق ٨/٢

(٣) المرجع السـابق ٣٢٤/١٠

(٤) المرجع السابق ١٦٣

مصاحف .. ولهذا أحرقها الصليبيون ، واستولوا على جملة من الكتب نقلوها إلى بلاد النصارى .

ولقد رأينا آنفاً أن النص الذي رواه ابن أبي طي يبالغ في الوقائع ويفسرها بشكل لا يتوافق مع حقيقتها . أنشك بحريق المكتبة ! وهل نؤكد أنها نهبت ؟ لا شيء يلزمنا بهذا الاتجاه . إذ رغم فظاعة مثل هذا الحريق ، فإنه حدث مألوف في تاريخ العصر العباسي ، ولئن لم يتحدث عنه المؤرخون غير المسلمين فلأنهم حكموا عليه ألا فائدة مجدية من ذكره ، إذ كان الصليبيون يقومون كل يوم بأعمال وحشية . ومن جهة أخرى ذكر الكاتب الأرمني ماتيوديدس[1] حريق المدينة . وإذن فلا شيء يطعن في كلام ابن أبي طي . وقد أتت النار المستعرة في المكتبة على أكبر قسم من الكتب ، كما استولى الجنود الغازون على القسم الآخر . وهكذا اندثرت أجمل إحدى مكتبات العصر العباسي .

سابعاً ـ دار العلم في القدس[2] :

شهدت القدس عبر تاريخها زمن المسلمين تقلبات عديدة : عقد عمر بن الخطاب معاهدة مع المسيحيين تضمن احترام عبادتهم ، أعطى بموجبها لهذه المدينة ميثاقاً مستمراً وفعّالاً ، ولكن الأحداث السياسية التي كان العالم الإسلامي مسرحها ، لم تسمح بتطبيق هذه المعاهدة تماماً وبشكل دائم ، فقد توالى على القدس أسر حاكمة مختلفة ، وبتبدل السلطة فيها صعب فهم المعاهدة بشكل صحيح . وانتقلت القدس بعد العصر الأموي وبشكل طبيعي إلى السيطرة العباسية ، ومع ضعف السياسة العباسية ونشاط الدعوة والسياسة الفاطمية في القاهرة وقعت القدس عام ٢٩٢ هـ/٩٠٤ م تحت سيطرة الخلفاء الإسماعيليين في

---

(١) بحوث المؤرخين الأرمن عن الصليبيين ٩٠/١

(٢) انظر فان بيرشم ، Corpus ، ٢٦٢/١٩ ، القسم الثاني ٩٠/١ ، ٩٢/٢ ـ ٩٣

مصر ، واستمرت سلطتهم حتى عام ٤٩٢ هـ/١٠٩٨ م إلا ٢٦ عاماً من سنة ٤٦٣ هـ/١٠٧٠ م إلى ٤٨٩ هـ/١٠٩٥ م ، حين انتقلت القدس إلى السلاجقة[١] .
ويخبرنا ابن فضل الله العمري بما يلي : « وفي القُمامة كنيسة للروم يقال إنّ بها قبر حنّة أم مريم بنت عمران عليها السلام ، ثم صارت في الإسلام دار علم ، فلما ملك الفرنجة القدس سنة ٤٩٢ هـ/١٠٩٨ م أعادوها كنيسة »[٢] . وما من شك في أن هذا التحويل تمّ زمن الفاطميين . ويؤكد المؤرخون المسلمون وغيرهم أنّ الكنيسة كانت في القدس قبل زمن عمر رضي الله عنه ، وحافظت معاهدته عليها . وعندما غزا الصليبيون القدس عام ٤٩٢ هـ/١٠٩٨ م وطردوا الفاطميين منها ، وجدوا الكنيسة قد تحولت إلى دار علم . فمن الخليفة الذي فعل ذلك ؟ أسباب كثيرة تدفعنا إلى الاعتقاد بأنه الحاكم بأمر الله ، لأن معاهدة عمر لم تحترم زمن مؤسس دار العلم ، وكان هذا الخليفة ينفر من المسيحيين الذين كانوا هدفاً لاضطهاده في مصر والقدس ، وفي زمنه نهبت الكنائس التي ذكرتها المعاهدة وهدمت ، وهذا هو التخريب الوحيد الذي حدث في أموال المسيحيين زمن الفاطميين . ولذلك فالحاكم هو الذي أسس دار العلم في القدس على أقوى الاحتمالات[٣] . وهذا يقود إلى الخاتمة التالية : استقرت الدعوة الفاطمية عبر العالم الإسلامي في القدس الشريف ، فكانت على شكل مؤسسة عامة هدفها الظاهر علمي مثل نظيرتها في القاهرة ، ولا نعرف شيئاً عن تأثيرها . ونتوقع مع ذلك أن تكون أخفقت قياساً على مؤسسة القاهرة . وبقيت القدس زمن الفاطميين مدينة

(١) بوهل ، مادة القدس في الموسوعة الإسلامية ١١٥٨/٢ ـ ١١٦٩

(٢) صبح الأعشى ١٠٢/٤ ، أبو الفداء ٨٧/٣ ، ابن الوردي ١٠٥/٢ . ولم يرو مؤرخو صلاح الدين والقدس شيئاً عن هذا الموضوع ولكنهم تحدثوا فقط عن المدرسة التي أنشأها صلاح الدين مكان الكنيسة المذكورة . وانظر أبو شامة ١١٤/٢ و ٢٠٥/٢ ، مجير الدين ، الأنس الجليل ٣٠٣/١ ، عماد الدين ، الفتح ٦٩/١

(٣) يجب أن نستبعد فكرة إنشاء السلاجقة لدار العلم ، لأنّ حكمهم في القدس لم يستمر أكثر من ٢٦ عاماً ، ولم يؤذوا خلالها أماكن النصارى .

سنيّة بكل معنى الكلمة . ومع هذا كان لإنشاء هـذا المجمع بعض الأحـداث العلميـة التي سـاهمت في تطور النشـاط الفكري الحيوي منـذ غزو الصليبيين . وقـد أعـدم الصليبيون ـ كما يذكر المؤرخون المسلمون ـ عند دخولهم المدينة المقدسة عدداً كبيراً من الأطباء المسلمين[1] الذين كانوا يسكنونها .

بنى الصليبيون كنيسـة القـديسـة حنّـة القـديمـة كاملـة . والكاتب الإنكليزي سورليف الذي أمضى عامين في القدس بعد احتلالها ، وصف في كتاب له ـ والذي نشرتـه الجمعيـة الجغرافيـة ضمن كتب ومـذكرات ـ هـذه الكنيسـة ، وذكر قصـة القديسـة حنّة أم العـذراء التي بنيت الكنيسـة على ذكراهـا . ثم أعيـدت الكنيسـة وهدمت دار العلم بعد عامين من دخول الصليبيين إلى القدس[2] .

وعنـدمـا دخـل صـلاح الـدين القـدس عـام ٥٨٣ هـ/١١٨٧ م ـ وظروفهـا معروفة ـ اقترح عليـه بعض العلمـاء الـذين رافقوه أن يبني مـدرسـة للشـافعيـة ، فاختار لها موضع كنيسة حنّة التي أعادها الصليبيون[3] .

واليوم تنتسب الكنيسة القديمة التي أعـاد إصلاحهـا موس Mausse إلى الآبـاء البيض للكردينـال (لافيجري) . وتقع شمال طريق بـاب (ستّي مريم) ، قرب باب القديس (إيتين)[4] .

ثامناً ـ دور العلم الأخرى :

هناك بالتأكيد إلى جانب دور العلم التي درسناها دور أخرى انتثرت في المدن

---

(١) أبو الفداء ، ط ١٢٨٧ ، سنة ٤٩٢ هـ .

(٢) سورليف ٣٤٤/٤ ـ ٣٤٥

(٣) فـان بيرشم ، Corpus ، ٤٣ ، ح١ ، ٩٢/٢ ـ ٩٣ ، صبح الأعشى ١٠٢/٤ ، أبو الفـداء ٧٨/٣ ، أبو شامة ١١٤/٢

(٤) فان بيرشم ، المرجع السابق ، ٤٣ ، القسم الثاني ، الجزء الأول ، العدد الأول ، ص ٩٠ ، والجزء التاسع عشر ، ص ٢٦٣

الكبيرة ، تدخل في نطاق دراستنا ، ولم نستطع لسوء الحظ أن نكتشفها كلها . فلقد أهملت المصادر التاريخية كثيراً المؤسسات التي لاتستحق الذكر في نظر المؤرخين ، أو التي لم يحالفها الحظ ، بأن أشرف عليها أشخاص لم يكونوا جديرين بالذكر في التاريخ ، ونذكر فيما يلي عدداً من دور العلم التي استطعنا أن نقف على أسمائها من كتب المراجع .

دار العلم للشريف الرضي[1] ـ أنشأ هذه الدار ـ كما قيل الشريف الرضي أبو الحسن محمد بن الحسين (٣٥٩ هـ/ ٩٧٠ م ـ ٤٠٦ ـ ١٠١٦ م)[2] لطلابه . وقد ذكرت بصدد المقارنة بين مكانته ومكانة أخيه المرتضى . وها هي ذي القصة[3] : « حكى أبو إسحاق ، محمد بن إبراهيم بن هلال الصابي الكاتب ، قال : كنت عند الوزير أبي محمد المهلبي ذات يوم ، فدخل الحاجب واستأذن للشريف المرتضى ، فأذن له ، فلما دخل قام إليه ، وأكرمه ، وأجلسه معه ، حتى فرغ من حكايته ومهماته ، ثم قام فودعه وخرج . فلم تكن ساعة حتى دخل الحاجب ، واستأذن للشريف الرضي ، فخرج حتى استقبله من دهليز الدار ، فلما خفّ المجلس سألته عن سبب إعظامه الرضي على أخيه المرتضى ، فقال : إنا أمرنا بحفر النهر الفلاني ، وللشريف المرتضى على ذلك النهر ضيعة ، فتوجه عليه من ذلك ستة عشر درهماً ، أو نحو ذلك ، فكاتبني بعدة رقاع ، يسأل فيه تخفيف ذلك المقدار عنه ، وأما الرضي فبلغني ذات يوم أنه ولد له غلام ، فأرسلت إليه بطبق فيه ألف دينار ، فرده ، وقال : قد علم الوزير أني لاأقبل من أحد شيئاً ، فرددته إليه ، وقلت : إنما أرسلته للقوابل ، فرده الثانية ، وقال : قد علم الوزير أنه لاتُقبّل

(١) انظر ميز ، نهضة الإسلام ، ص ١٤٦ وما بعد .

(٢) الموسوعة الإسلامية ٣٤١/٤ ـ ٣٤٢

(٣) عمدة الطالب (المكتبة الوطنية ، عربي ٢٠٢١) ١٢٦/أ ، الشريف الرضي ، الديوان ، المقدمة ، ص ٢ ـ ٣ بتصرف وإيجاز .

نساءنا غريبة ، فرددته إليه ، وقلت : يفرقه الشريف على ملازميه من طلاب العلم ، قال : هاهم حضور ، فليأخذ كل أحد ما يريد ، فقام رجل وأخذ ديناراً ، فقرض من جانبه قطعة وأمسكها ، وردّ الدينار إلى الطبق ، فسأله الشريف عن ذلك ، فقال : احتجت إلى دهن السراج ليلة ، ولم يكن الخازن حاضراً ، فاقترضت من فلان البقال دهناً ، وأخذت هذه القطعة ، لأدفعها إليه عوض دهنه ، وكان طلبة العلم الملازمون للشريف الرضي في دار قد اتخذها لهم سماها دار العلم ، وعين لهم جميع مايحتاجون إليه .

فلما سمع الرضي ذلك أمر في الحال بأن يتخذ للخزانة مفاتيح بعدد الطلبة ، ويدفع إلى كل منهم مفتاح ، ليأخذ مايحتاج إليه ، ولا ينتظر خازناً يعطيه . وردّ الطبق على هذه الصورة ، وختم الوزير الحكاية بقوله : فكيف لاأعظم من هذا حاله !

يظهر من هذه الطرفة أن دار العلم قامت ببغداد ، وأنها كانت زمن دار العلم لسابور . وليس فيها ما يبعدها عن التصديق سوى الإشارة إلى الوزير أبي محمد المهلبي ، واسمه محمد بن الحسن المتوفى عام ٣٥٢ هـ/٩٦٣ م[١] ، أي قبل ولادة الشريف الرضي الذي تبنى هذا الموقف المذكور بحسب الطرفة المروية . ولا يمكن تصحيح هذا الخطأ بنسخة المخطوطة[٢] التي جاء فيها اسم الوزير كما يلي : (أبو محمد المهدي) . لأنه لم يكن في بغداد وزير يحمل هذا الاسم .

ومع ذلك ، فإن بعضاً من هذه الحكاية ذكره أبو حامد بن محمد الإسفراييني[٣] (ت ٤٠٦ هـ/١٠١٦ م) ورواه ابن أبي الحديد[٤] ؛ قال أبو حامد :

(١) الموسوعة الإسلامية ٣٤١/٤ ـ ٣٤٢

(٢) المكتبة الوطنية ، القسم العربي ، ٢٠٢١ ، ١٢٦/أ .

(٣) ترجمته في شذرات الذهب ١٧٨/٣

(٤) شرح نهج البلاغة ، ط البابي الحلبي ١٣/١

« كنت يوماً عند فخر الملك أبي غالب ، محمد بن خلف وزير بهاء الدولة وابنه سلطان الدولة ، فدخل عليه الرضي ، فأعظمه ، وأجلّه ، ورفع من منزلته » ثم علل ذلك بأنه كان أرسل للرضي ألف دينار ليعطيها للقابلة ، فردها الشريف الرضي وإذن فلا شيء في هذه القصة مما يتعلق بدار العلم . ولا ندري إن كان ابن أبي الحديد لخصها فاقتطع تتمتها ، أم أن الذين كانوا يحبون الرضيّ ويكرهون المرتضى ابتدعوا تلك التتمة الطريفة ، أم إنّ محمداً الصابي رواها على نحو أشمل من رواية الإسفراييني ، وهي الرواية التي نقلها ابن عنبسة دون الدقة اللازمة . وليس في المصادر المتيسرة لدينا ما يدفعنا إلى قبول أحد هذه التفسيرات المختلفة .

دار العلم بالفسطاط ـ ذكر ابن دقماق (ت ٧٩٣ هـ/١٣٨٩ م) دار علم تقع في الفسطاط[1] ، عندما تحدث عن ثمانية مساجد كانت لا تزال باقية في عصره من آثار تجيب ، ويبين أنه من بين هذه المساجد (مسجد أرضي قبالة دار العلم) . ويبدو أنّ دار العلم الأخيرة هذه قد أنشئت زمن الفاطميين ، وأنّ بناءها حفظ اسمها حتى القرن الثامن / الرابع عشر . ولم ينشئ الأيوبيون ولا المماليك فيما روى المؤرخون داراً للعلم في الفسطاط ولا غيرها ولو أنهم فعلوا ذلك لما أحجم المؤرخون في دراستهم للآثار التي شيدها عن ذكرها وتوضيحها .

دار علم نُوي إنشاؤها للمعري ـ قام الفاطميون بإقامة دور العلم . وقد اقتُرح زمن الحاكم بناء دور من أجل أبي العلاء المعري . وعن ذلك يخبر ابن العديم بقوله[2] : « كتب الوزير الفلاحي علي بن جعفر بن فلاح (ت ٤٠٩ هـ/١٠١٩ م)[3] إلى عزيز الدولة أبي شجاع فاتك متولي حلب وأعمالها بحمل هذا العالم [المعري] إلى مصر ، ليبني له دار علم ، يكون متقدماً فيها ،

---

(١) الانتصار ٨٠/٤

(٢) الإنصاف (مخطوطة المجمع العلمي العربي) ص ٨٥ ، إعلام النبلاء ١٥٣/٤

(٣) انظر الزركلي ، الأعلام ٦٦٢/٢

وسمح بخراج معرة النعمان له ، في حياته وبعده ، وأنّ عزيز الدولة نهض للوقت ، وسار إلى معرة النعمان ، واجتمع بأبي العلاء ، وقرأ السجل عليه ، فاستمهله ، وكتب إلى الوزير الفلاحي يستعفيه من ذلك ، فأعفاه ، وسمح بترك ذلك كله »[1] .

يوضح هذا النص بعض الشيء شأن دور العلم ، فيعرفنا منها ما كان يقام لكبار العلماء ، ويعهد إليهم الإشراف على تلك الدور وحولهم الأساتذة الآخرون وطلابهم .

ولا تختلف دور العلم هنا عن المدارس ، وقد استمرت في القاهرة حتى سقوط الفاطميين عام ٥٦٧ هـ/١١٧١ م . واندثرت دار العلم في بغداد عام ٤٥١ هـ/١٠٥٩ م ، وخمدت جذوة الدعاية الشيعية فيها حوالي ذاك التاريخ ، فتوقف الشيعة عن المشاركة في حياة العراق الاجتماعية . ونستنتج وجود مكتبتين في ذاك العصر تحملان اسم دار العلم ، ولكن لا صلة لهما بالشيعة .

دار العلم لابن أبي البقاء : أول دار للعلم بالبصرة هي دار أبي الفرج بن أبي البقاء البصري ، محمد بن عبيد الله بن الحسن (ت ٤٩٩ هـ / ١١٠٥ م) ، قاضي القضاة بالبصرة . كان عالماً فهماً فصيحاً ، كثير المحفوظ ، مهيباً ، وكان يقرئ كتب الأدب ، وكان من أعلم الناس بالعربية واللغة . قال الذهبي : « وبنى دار العلم بالبصرة في غاية الحسن والزخرفة ، ووقف بها اثني عشر ألف مجلد »[2] .

عدد من الكتب عظيم يفوق المجلدات التي كانت بدار العلم لسابور . ومن المحتمل جداً أن تكون هي التي وصفها الحريري (٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ م - ٥١٦ هـ / ١١٢٢ م) في مقامته الثانية ، المقامة الحلوانية ، حينما قال : « فلَمّا أبت من غربتي إلى موطن شُعبتي حضرت دار كتبها التي هي منتدى المتأدبين ،

(١) الإنصاف ، (مخطوطة المجمع العلمي) ص ٨٥ ، إعلام النبلاء ١٥٢/٤

(٢) ابن قاضي شهبة ، مناقب الشافعي (الظاهرية ، تاريخ ، ٥٧) ١٧٧/أ .

وملتقى القاطنين والمتغربين » . ويتابع المقامة فيورد قصة رجل ذي لحية كثة دخل ، فسلّم على الجالسين ، فجلس في أخريات الناس ، ثم قال لمن يليه : « ماالكتاب الذي تنظر فيه ؟ فقال : ديوان أبي عبادة [البحتري] . فارتجل السائل أشعاراً من أفضل ما في الديوان . فالتفّ القوم حوله ، ليمتحنوه ، وحينئذ عرفوا قيمته وقدره ، ثم صرح أخيراً عن نفسه أنه أبو زيد السروجي ، بطل المقامات[1] .

وقد تخيل الواسطي إحدى خزائن هذه الدار من نسخة مقامات الحريري المحفوظة في المكتبة الوطنية بباريس فرسمها وأمامها الجالسين حيث ظهر على شكل بديع قسم من تلك المكتبة . ولا ينبغي أن ندهش لذكر دار العلم في البصرة باسم دار الكتب لأنه أمر مألوف ، ويرد أحياناً باسم دور العلم[2] . ويسميها ابن الأثير خزانة الكتب[3] .

ونهب الأعراب هذه الدار عند فتنة العرب والترك ، لَمّا دخلوا البصرة وأحرقوا أسواقها ، فاندثرت المكتبة منذ ذلك الحين[4] .

دار العلم لابن المارستانية : وهناك دار علم أخرى ، بناها في بغداد عبيد الله بن علي بن نصر ، المعروف بابن المارستانية (٥٤١ هـ / ١١٤٦ م - ٥٩٩ هـ / ١٢٠٢ م) ، وهو فقيه حنبلي « كان قد قرأ الأدب وسمع كثيراً من الحديث ... وكان قد قرأ كثيراً من علم الطب والمنطق والفلسفة »[5] ، وكان

---

(١) الحريري ، باريس ٢٦/١ - ٢٧

(٢) انظر ص ١٤٥

(٣) ابن الأثير ٢٨٤/١٠

(٤) ابن قاضي شهبة ، المرجع السابق .

(٥) ابن النجار ، ذيل تاريخ بغداد (الظاهرية ، تاريخ ، ٤٢) ترجمة عبيد الله .

ابن المارستانية من جماعي الكتب ، كتب بخطه ، وحصّل نسخ الأصول[١] ، وكانت بينه وبين عبيد الله بن يونس صداقة ومصاحبة ، فلما أُفضت إليه الوزارة اختص به ، وقوى جاهه ، وبنى داراً بدرب الشاكرية وسماها دار العلم ، وجعل فيها خزانة كتب ، وأوقفها على طلاب العلم[٢] . وقال ابن رجب نقلاً عن ابن النجار إنّه جعل خزانة كتبه في دار العلم ووقفها على الطلبة[٣] .

ولم تستمر حياة دار العلم هذه طويلاً ، وكان مؤسسها قد « رُتِّب ناظراً على أوقاف المارستان العضدي ، فلم تحمد سيرته ، فقبض عليه وسجن في المارستان مدة مع المجانين مسلسلاً »[٤] . وحصل القبض عليه بعد عزل ابن يونس والقبض عليه وتتبع أصحابه[٥] ، « وبيعت دار العلم بما فيها من الكتب مع سائر أموال مؤسسها »[٦] ، ثم عاد هذا المؤسس فيما بعد على حال حسنة فاغتنى ، وحصل كتباً كثيرة ، ومع ذلك كانت دار العلم قد اختفت ببيعها هذا .

وإذن فهاتان داران من دور العلم ، كان وجودهما وقتياً ، ولم يكن لهما علاقة بالشيعة . وقد مثلتا شكلاً متخلفاً لدار العلم .

خزانة سيف الدولة : وينبغي قبل أن ننهي الحديث عن دور العلم أن نضيف إليها خزانة حلب لسيف الدولة وهي أول خزانة فيها . ونعتقد أنها دار

---

(١) ابن النجار ، المرجع السابق ، ابن الساعي ، مختصر أخبار الخلفاء ١٣٠ ـ ١٣١ ؛ ابن رجب ، ذيل طبقات الحنابلة (الظاهرية ، تاريخ ، ٦١) ١٧٨ ؛ العليمي ، المنهج الأحمد (مصورة المجمع العلمي العربي) ٣٢٣/٢ ، شذرات الذهب ٣٤٠/٤

(٢) ابن النجار ، المرجع السابق ، ابن الساعي ، المرجع السابق .

(٣) ابن رجب ، المرجع السابق ، العليمي ، المرجع السابق ، شذرات الذهب ، المرجع السابق .

(٤) ابن النجار ، المرجع السابق ، ابن الساعي ، المرجع السابق ، شذرات الذهب ، المرجع السابق .

(٥) ابن رجب ، المرجع السابق ، العليمي ، المرجع السابق .

(٦) مراجع الحاشية السابقة .

علم ، رغم أنّ هذا الاسم لم يرد في المصادر التي عدنا إليها . فلنشر بادئ ذي بدء إلى مانعرفه عنها ، لنمضي بعدئذ إلى استنتاجاتنا .

يخبرنا الذهبي[1] عن هذا الموضوع فيقول : « كان ثابت بن أسلم بن عبد الوهاب ، أبو الحسن الحلبي ، العالم الشيعي ، لغوياً كبيراً ، كلّف بحفظ الكتب في حلب ، واتهمه الإسماعيليون بإفساد دعوتهم ، لأنه صنّف كتاباً في كشف عوارهم وابتداء دعوتهم ، فأُرسل إلى صاحب مصر الذي أمر بقتله في حدود سنة ٤٦٠ هـ / ١٠٦٧ م . أما خزانة الكتب في حلب فقد أحرقت ، وكان فيها عشرة آلاف مجلد ، وقفها سيف الدولة بن حمدان (ت ٣٥٦ هـ / ٩٦٦ م) وغيره » .

ونصُّ الذهبي هذا نقلته مصادر أخرى[2] ، أشارت إلى وجود مكتبة كبيرة في حلب غنية بالكتب ، أودعها سيف الدولة وغيره ، ويبدو أن غناها الأساسي يرجع إلى سيف الدولة . وعندما تحدث السيوطي عن خازنها قال : « تولّى خزانة الكتب بحلب لسيف الدولة »[3] . ومن البديهي أنّ كلامه تفسير لنص الذهبي ، الذي أشار إلى أهمية مكتبة سيف الدولة .

ويمكن أن نؤكد أنّ الكتب كانت في بناء مستقل ، لأنّ عدد المجلدات كبير جداً من جهة أولى ، بحيث لا يسمح بإلحاقها بمسجد المدينة الجامع ، وهو المكان المخصص لمكتبة عامة عادة .

ولأنّ المؤرخ الذي عدنا إليه بالتالي يذكر أنّ المكتبة أحرقت ، ومن ثم

---

(١) الذهبي ، المنتقى من تاريخ الإسلام (الأحمدية بحلب ١٢١٩) السنوات الواقعة في حدود سنة ٤٦٠ هـ .

(٢) ابن قاضي شهبة ، طبقات النحاة (الظاهرية ، تاريخ ٤٢٨) ٢٣٧

(٣) بغية الوعاة ٢٠٩

فلا يمكن أن نتصور إذن أن الفاطميين هم الذين أحرقوا الجامع ، مهما بلغ عنفهم . وإذا ادعينا أن المؤرخ قصد حريق الكتب أو خزائن الكتب ، أجبنا أنه استعمل مرة كلمة كتب ، ومرة أخرى كلمة خزائن الكتب لا خزانة الكتب ، وهذا لا ينحصر بالخزائن وحدها أو بالكتب . ومن جهة أخرى فإن موضوع الحريق لم يكن ليشمل الكتب بشكل خاص ، إذ لا يمكن للكتب أن تكون شيئاً مشؤوماً في نظر الفاطميين ، لأنها تمثل مذهب سيف الدولة الشيعي . وقد استهدف الحريق خاصة بناء المكتبة ، الذي كان مركزاً لخصوم مذهب الفاطميين ونظامهم ، ومكان اجتماع أنصار ثابت بن أسلم خازن المكتبة المقتول .

ويجب بالضرورة القبول أنّ لخزائن الكتب في هذه الدار بناء مستقلاً . ومن هنا نستخلص أن طابعها كان طابع دار كتب ، على غرار عدة مؤسسات أخرى من النوع ذاته . ولما لم تكن دور الكتب في زمن سيف الدولة وحتى منتصف القرن الخامس / الثاني عشر إلا بشكل دور العلم ، فإن مكتبة حلب كانت على وجه الاحتمال إحدى دور العلم .

تاسعاً - خزائن العلم المعاصرة لدور العلم :

ليس من الغريب أن نستنتج أنه كان إلى جانب دور العلم مكتبات عامة تقوم في المساجد . ومنذ أن أعلن الفقهاء شرعية وقف الكتب أرادوا أن يقفوا كتبهم . ولما لم يتمكنوا من بناء دور خاصة بها ، فكروا وبشكل طبيعي أن يحفظوها موقوفة في المساجد . وهكذا نشاهد الكتب توقف في المساجد الكبيرة بعد قيام دور العلم بوقت يسير .

خزانة كتب جامع حلب : وظهر في حلب مثل هذا النوع من الخزائن . وهذا مثال مثير[1] ؛ يقول ابن العديم (٥٨٨ هـ / ١١٩٢ م -

---

(١) ابن العديم ، الإنصاف (مخطوطة المجمع العلمي العربي) ٦٧ - ٦٨ ، وإعلام النبلاء ١٣٦/٤

٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م) : « كان بحلب خزانة كتب في الشرقية التي بجامع حلب ، في موضع خزانة الكتب اليوم . واتفقت فتنة في بعض أيام عاشوراء بين أهل السنة والشيعة ، ونهبت خزانة الكتب . وكان ذلك في زمن أبي العلاء (ت ٤٤٩ هـ / ١٠٥٧ م) ، ولم يبق في خزانة الكتب إلا القليل » وقد ذكر أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي (ت ٤٦٦ هـ / ١٠٧٣ م) هذه الخزانة في قصيدته التائية ، التي كتبها من القسطنطينية ، يداعب بها أحد أصدقائه ، فقال :

بلّغ أبا الحسن السلام وقل له:	هذا الجفاء عداوة للشيعةِ
فلأطرقنَّ بما صنعت مكابراً	وأبث ما لاقيت منك لبنكةِ
ولأجلسنّك للقضية بيننا	في يوم عاشوراء بالشرقيةِ
حتى أثير عليك فيها فتنة	تنسيك يوم خزانة الصوفيةِ

وأبو الحسن هذا هو الفقيه سالم بن علي بن تميم الكفرطابي ، المعروف بالحمامي ، كان من فضلاء حلب ، وكان سني المذهب . وأبو محمد الخفاجي شيعي ، وكان بينهما مودة ومكاتبات . ونستنتج من هذه الأبيات أن غوغاء الشيعة نهبت المكتبة ، وأنّ الشاعر يهدد صديقه الحمامي بطريقة الدعابة ـ وكانت الفتنة قاسية على أهل السنة ـ ولوح له الشاعر أنه سيثير فتنة أشد ، تنسي الحمامي يوم المكتبة . والظاهر من الأبيات كذلك أن سبب الفتنة تحاكم جرى بين شخصين ، أو قل مناظرة حدثت بينهما ، ولعل أحدهما الحمامي ، حتى يذكره بذلك اليوم العنيف .

ولا ندري سبب تسمية هذه المكتبة باسم الخزانة الصوفية . وترد في ديوان الشاعر هذه التسمية ذاتها[1] .

(١) ابن سنان الخفاجي ، ديوانه ، بيروت ، ١٣٠٩ ، ص ١٧ ، ومخطوطة دار الكتب بالقاهرة ، الأدب ، ٥١٠ ، ص ٨٢

وبعد أن فقدت هذه الخزانة أكثر مافيها « جدد الكتب فيها أبو النجم هبة الله بن بديع ، وزير الملك رضوان (٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م - ٥٠٧ هـ / ١١١٣ م) ، ثم وقف غيره كتباً أخر بها »[١] .

واسم هذا الملك الأخير يدعو للاعتقاد أنّ الإسماعيليين اهتموا بالمكتبة . « والحق أن صاحب حلب كان بنى للإسماعيلية بحلب دار دعوة وهو أول من عملها »[٢] ، أي أول من بنى بحلب[٣] دار دعوة . ولا نعرف لسوء الحظ شيئاً عن دار الدعوة هذه . ومن المحتمل أنها مكان لاجتماع الدعاة وبثّ دعوتهم إلى المذهب الإسماعيلي ، وفيه يستقبلون أنصار المذهب . ومهما يكن رضوان متحمساً لمذهب الإسماعيلية فيجب أن نستبعد أثر الإسماعيلية في تلك الخزانة ، فقد كان ابن البديع مخالفاً لهذه الدعوة ، بالرغم من أنه كان وزير الملك رضوان[٤] . وبعد وفاة رضوان « أشار على الشاب لؤلؤ بقتل كل دعاة حلب ، فقتلهم ، وأغلق باب الدعوة »[٥] . وبالإجمال ، فالاهتمام الذي أبداه الوزير بالخزانة لا علاقة له بالإسماعيلية . ولم تساهم هذه الخزانة قط بالدعوة لهذا المذهب .

وتنبع أهمية هذه الخزانة من شخصية عظيمة كانت تشرف عليها وهي محمد بن محمد بن نصر بن القيسراني ، الشاعر المشهور (٤٧٨ هـ / ١٠٨٤ م - ٥٤٨ هـ / ١١٥٣ م) ، قال الصفدي : « سكن بدمشق وتولى إدارة الساعات التي على باب الجامع [الأموي] ، وسكن فيها في دولة تاج الملك ، وبعده سكن

---

(١) الإنصاف ، المرجع السابق .

(٢) مرآة ، ط شيكاغو ، ١١

(٣) المرجع السابق ٢٧

(٤) ابن العديم ، زبدة الحلب (المكتبة الوطنية ، عربي ١٦٦٦) ١١٩/أ .

(٥) مرآة .

حلب المحروسة مدة ، وولي بها خزانة الكتب ، قرأ الأدب ، وأتقن الهندسة والحساب والنجوم .. »[١] .

واستمرت هذه الخزانة إلى أن دخل صلاح الدين حلب عام ٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م ، وفي هذا التاريخ « نزل المسعودي محمد بن عبد الرحمن (٥٢٢ هـ / ١١٢٨ م - ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م)[٢] إلى جامع حلب ، وقعد في خزانة كتبها الوقف واختار منها جملة أخذها ، لم يمنعه منها مانع » . قال ابن خلكان : « ولقد رأيته وهو يحشوها في عِدْل »[٣] . ويدعي ياقوت[٤] أن صلاح الدين أباح له أن يأخذ منها ماشاء .

والحقيقة أنّ لصلاح الدين دأباً كهذا فقد أباح خزائن كتب المدن التي غزاها للمقربين إليه ، فعل مثل ذلك في مكتبة الفاطميين[٥] ومكتبة آمد[٦] .

على أنّ خزانة حلب لم تتشتت جميعها على مايظهر ورغم ماحلّ بها من ضياع . وقد رأينا من قبل[٧] كيف بقيت خزانة كتب في المكان ذاته زمن ابن العديم .

وكان أبو العلاء المعري على قول هذا المؤرخ يتردد على مكتبة الصوفية . والواقعة التالية حدثت له في تلك الخزانة ، عندما كان صغيراً ، وأنّ الخازن بها

---

(١) الوافي (الأحمدية بحلب ١٢١٦) باسم الشاعر ، والنعيمي ، الدارس ، (مصورة المجمع العلمي العربي) ٥٨٧/٢

(٢) بروكلمان ، تاريخ ٣٥٦/١ ، الملحق ٦٠٤/١

(٣) ابن خلكان ٣٥٠/٢

(٤) إرشاد ٢٠/٧

(٥) انظر المكتبة الفاضلية في مكتبات مدارس القاهرة .

(٦) المرجع السابق .

(٧) ص ١٣٢

كان شيعياً : وذلك أنه حفّظه في أيام قلائل عدة كتب ، فكان يقرأ عليه الكراسة والكراستين مرة واحدة فلا يستعيده أبو العلاء إلا ما يشك فيه ، ثم يتلو عليه ماقد سمعه كأنه قد كان محفوظه . ثم قدمه الخازن لابن منقذ الذي اختبره فوجده كما وصف . وقد روى ابن العديم هذه القصة عن ابن منقذ نفسه والذي يقول إنها حدثت في خزانة كتب أنطاكية ، ويضيف ابن العديم قائلاً : وهذه الحكاية فيها من الوهم مالا يخفى لو أنها حدثت بأنطاكية ، لأنّ الروم انتزعوا هذه المدينة من أيدي المسلمين عام ٣٥٨ هـ / ٩٦٨ م[١] ، وولد أبو العلاء بعد ذلك بأربع سنين وثلاثة أشهر . وبقيت أنطاكية في أيدي الروم إلى أن فتحها سليمان بن قطلمش في سنة ٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ م ، وكان أبو العلاء قد مات قبل ذلك في سنة ٤٤٩ هـ / ١٠٥٧ م ، وأخلاها الروم من المسلمين حين استولوا عليها . ويختم ابن العديم كلامه بقوله : « فكيف يتصور أن يكون بها خزانة كتب وخازن علوي في أيدي الروم ويشبه أن تكون هذه الحكاية بكفرطاب أو بغيرها . وقد تتصحف كفرطاب بأنطاكية وابن المنقذ هو أبو المتوج . وكان من أقران أبي العلاء المعري وكان له كفرطاب ، فيحتمل أن يكون ذلك كان معه ، والله أعلم »[٢] . ويضيف ابن العديم : « ويحتمل أنّ ذلك كان بحلب ، وأبو المتوج بن منقذ كان بحلب وله بها دار ومنزل ، وكان بها خزانة كتب في الشرقية .. »[٣] . وهذه هي القصة أتممنا روايتها . ويمكن أن تكون الافتراضات أيضاً أكثر تعدداً . فنخمّن مثلاً أن الخزانة التي كان يتردد عليها أبو العلاء المعري هي خزانة سيف الدولة[٤] التي درسناها قبل ، وكانت بحلب أيضاً ، وهي غير خزانة

---

(١) وسنة ٣٥٣ هـ في معجم البلدان ٢٨٦/١

(٢) ابن العديم ، تاريخ حلب (أحمد الثالث ٢٩٢٥) ٢٠٠/١/أ ، المرجع السابق ، الإنصاف ٦٦ ، وفي إعلام النبلاء ١٣٥/٤ ـ ١٣٦

(٣) الإنصاف ٦٧

(٤) انظر ص ١٣٠ ـ ١٣٢

الصوفية الملحقة بالجامع ، والتي استمرت حتى عهد صلاح الدين . أما خزانة سيف الدولة فقد احترقت كما رأينا في حوالي عام ٤٦٠ هـ / ١٠٦٧ م . وربما اخترعت تلك الطرفة على غرار كثير من مثيلاتها لتشيد بأبي العلاء .

وحسبنا أن نعرف أنّ مكتبة الصوفية هي المكتبة الوحيدة العامة المعاصرة لدور العلم ، والتي كانت جزءاً من بناء كبير .

مكتبة الجامع الأموي : من العجيب ألا نقع على خبر عن خزانة للوقف بدمشق في عصر دور العلم . ولا شك أنه كان فيها واحدة أو أكثر وقتئذ ، ولكن لم ينته إلينا خبرها . ومع ذلك نستنتج وجود وقف للمصاحف في الجامع الأموي ؛ فقد عثر على جزء من مصحف مكتوباً على الرق ، وهو محفوظ اليوم في متحف دمشق[1] وقد كتب عليه هذه العبارة : « وقف هذه الأجزاء وهي ثلاثون جزءاً في المسجد الجامع بدمشق عبد المنعم بن أحمد طلباً لثواب الله وابتغاء مرضاته . في ذي القعدة سنة ثمان وتسعين ومئتين / تموز إحدى عشرة وتسع مئة » .

خزائن المساجد بالقاهرة : علمنا أنه كان في زمن دور العلم مصاحف موقوفة كثيرة ؛ فقد حمل أحمد بن طولون إلى الجامع الذي بناه في مصر صناديق فيها مصاحف[2] . « وفي تاسع المحرم سنة ٤٠٢ هـ / ثالث عشر آب ١٠١١ م نزل القاضي ابن سعيد إلى جامع راشدة [المسمى بالحاكمي نسبة إلى الحاكم بأمر الله الفاطمي الذي بناه] ، ومعه الشهود ، وبين أيديهم صناديق فيها مصاحف وختمات فجعلوا فيه »[3] . وفي سنة ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م ، حمل الحاكم إلى الجامع

---

(١) الأمير جعفر الحسني ، دليل مختصر مقتنيات الأثر ، دمشق ، ١٩٣٠ م ، ص ١١٢ ، رقم ٢٢

(٢) البلوي ، سيرة آل طولون ، تح كردعلي ١٨٣

(٣) ابن دقماق ، تح فوللرس ٧٩/٤

العتيق (يعني جامع عمرو بن العاص) ٤٤٠ هـ (كذا) ختمة كبار مذهبة و ٧٤ ربعة مذهبة ، كلها بخطوط منسوبة[١] .

« وبنى الحاكم جامع القاهرة ، وجامع راشدة على النيل بمصر ، ومساجد كثيرة ، ونقل إليها المصاحف المذهبة »[٢] .

وبقي وقف المصاحف على المساجد مستمراً مألوفاً .

مكتبة العمراني : وإلى جانب الخزائن العامة ، كان جمّاعو الكتب والعلماء يضعون خزائنهم في خدمة من يحتاج إليها . فيجب أن نذكرهم هنا . وعندنا نصّان حول هذا الموضوع :

« جمع علي بن أحمد العمراني الموصلي كتباً ، وكان عالماً بالحساب والهندسة فاضلاً ، يقصده الناس للاستفادة منه ومن كتبه ، وكان الطلاب يقصدونه من البلاد النازحة للقراءة عليه ، وتوفي سنة ٣٤٤ هـ / ٩٥٥ م »[٣] .

مكتبة المرزباني : « كان في دار محمد بن عمران المرزباني (ت ٣٨٤ هـ / ٩٩٤ م) خمسون مابين لحاف ودواج معدّة لأهل العلم الذين يبيتون عنده »[٤] ، وكان أشياخه يحضرون عنده في داره فيسمعهم ، ويسمع منهم[٥] .

عاشراً ـ سميات دور العلم :

كان في أواخر عصر دور العلم ثلاث خزائن للكتب مستقلة ببنائها ، ولم

---

(١) العيني ، دولة بني العباس (المكتبة الوطنية ، عربي ٥٧٦) ١٧٧/أ .

(٢) النجوم الزاهرة ، ط القاهرة ١٧٧/٤ ، وانظر وفيات ٦/٢

(٣) القفطي ٢٣٣

(٤) المنتظم ، ط حيدرآباد ١٧٧/٧

(٥) المرجع السابق .

يبلغنا أنه أطلق عليها لفظ دار العلم ، بل بلغنا أنها دعيت دار الكتب ، ولعلها كانت تعرف إلى جانب اسمها هذا باسم دار العلم[1] . ولتمييز هذه المكتبات الثلاث عن دور العلم صنفناها وحدها ، ولو أننا نقدر أنها كانت شبيهة بدور العلم . ويمكن أن نعتبرها هنا على كل حال مكتبات سميات لها ، وهي :

١ ـ دار الكتب في شارع ابن أبي عوف ببغداد .
٢ ـ دار كتب للحكيم أرسطاطاليس بالإسكندرية .
٣ ـ دار كتب ابن شاه مردان بالبصرة .

دار الكتب في شارع ابن أبي عوف[2] : وقفها أبو الحسن محمد بن هلال بن المحسّن بن إبراهيم الصابئ المعروف بغرس النعمة عام ٤٥٢ هـ / ١٠٦٠ م .

وقيل إن السبب في وقفه « أن الدار [دار العلم] التي وقفها سابور الوزير بين السورين احترقت ، ونهب أكثر ما فيها ، فبعث الخوف غرس النعمة على ذهاب العلم أن وقف هذه الكتب »[3] ، « وأمر ببناء تلك الدار »[4] ، « بشارع ابن أبي عوف من غربي بغداد »[5] ، « وهو شارع منسوب إلى أحمد بن عبد الرحمن بن مرزوق بن أبي عوف ، يسلك منه إلى نهر القلايين وما قاربه من المواضع »[6] . وأوقف المنشئ في هذه الدار عدداً من الكتب لم تتفق المصادر ، في تحديده ، قدرها ابن الجوزي ، وسبط ابن الجوزي ، وابن كثير بنحو من ألف

---

(١) انظر ص ١٤٥
(٢) انظر (كرنكو) ، مادة (كتابخانة) في الموسوعة الإسلامية .
(٣) المنتظم ، ط حيدر آباد ٢١٦/٨
(٤) المرجع السابق ، ٤٢/٩ ، ابن الفوطي ، مجمع الآداب (الظاهرية ، تاريخ ، ٢٦٧) ١٣٣
(٥) المنتظم ٢١٦/٨
(٦) الخطيب ٢٤٦/٤

كتاب[1] . وحددها ابن كثير في مناسبة أخرى بأربعة آلاف مجلد[2] ، بينما نقل ابن الجوزي[3] في موضع ثان من كتابه عن معاصر للدار ، هبة الله بن المبارك السقطي أن عدد الكتب الموقوفة فيها يبلغ نحواً من أربع مئة مجلد في فنون العلوم . وبهذا العدد أخذ ابن الفوطي[4] .

ويبدو لنا أن عدداً كهذا صغيراً غير كافٍ لتشييد بناء خاص له . ولا سيما أنّ المؤسس أراد أن يعوض دار العلم لسابور . كانت في هذه أكثر من عشرة آلاف مجلد ، وهذا الرقم أقرب إلى القبول . والذي يقرب سبيل الظن بهذا أنّ غرس النعمة كان وافر الغنى ، خلّف بعد موته عام ٤٨٠ هـ/١٠٨٧ م سبعين ألف دينار[5] ، وليس يصعب على رجل غني مثله أن يجمع أربعة آلاف مجلد ، خاصة وأنه كان كاتباً مؤرخاً باحثاً[6] .

ويجب أن تصنف هذه الخزائن ضمن مكتبات الشيعة ، لأن مؤسسها كان شيعياً عرفنا ذلك من أنه دفن في داره بشارع ابن أبي عوف ثم نقل إلى مشهد علي رضي الله عنه[7] وزيادة على ذلك ، فقد « رتب على خزانة الكتب خازناً يقال له ابن الأقساسي العلوي »[8] .

---

(١) المنتظم ٢١٦/٨ ، مرآة (المكتبة الوطنية ، عربي ، ١٥٠٦) ٦٩/أ ، وابن كثير ، ٨٥/١٢ ، ط القاهرة .

(٢) المرجع السابق ١٣٤/١٢ ، و (الأحمدية بحلب ١٢١٧) ٧ ، سنة ٤٨٠ هـ .

(٣) المنتظم ٤٢/٩

(٤) ابن الفوطي ، مجمع الآداب ، المرجع السابق .

(٥) المنتظم ٤٢/٩ ، وابن كثير ١٣٤/١٢

(٦) ابن الفوطي ، المرجع السابق .

(٧) المنتظم ، المرجع السابق .

(٨) المرجع السابق .

ولم تستمر هذه المكتبة طويلاً « وقد تكرر إليها العلماء سنين كثيرة مالم تزل لخازنها أجرة ، فصرف الواقف الخازن وحك ذكر الوقف عن الكتب وباعها » فأنكر هبة الله بن المبارك السقطي ذلك عليه فقال غرس النعمة : « قد استُغني عنها بدار الكتب النظامية (التي أنشئت عام ٤٥٩ هـ/١٠٦٦ م) فردّ الناقد : بيع الكتب بعد وقفها محظور . فقال غرس النعمة : قد صرفت ثمنها في الصدقات »[1] .

وقدمت هذه الخزانة خدماتها للعلماء ، وأفادت برغم حياتها القصيرة ، فكانوا يجتمعون فيها للمناقشة والبحث ، ولدينا وصف لمناظرة جرت فيها يرويها ابن عقيل (ت ٥١٣ هـ/١١١٩ م)[2] . قال : « حضرنا يوماً بدار الكتب بشارع ابن أبي عوف ، فتذاكرنا أمر العقل وتحسينه وتقبيحه . فقال إنسان يميل إلى مذهب أبي الحسن الأشعري : إن الشرع حكم بأشياء تخالف العقل كإيلام الحيوان ، وجعل ذبحه تقرّباً . وكان بالحضرة رجل ينتحل مذهب العدل والتوحيد (معتزلي) فأجاب : هل استدلالك هذا حسن أو قبيح ؟ فإن قلت حسن أو قبيح سألناك عن طريق تحسينه أو تقبيحه ، فإن أجبت بأنه العقل كفانا ذلك إبطالاً لما قررت ، وإن قلت علمت ذلك بالشرع قيل لك أين النص .. إلخ ، فسكت صاحب أبي الحسن وظفر المعتزلي » .

هذا مثال للمناظرات التي كانت تجري في دور العلم ، وهو مثال إيحائي ، يشهد بسمو الفكر وعمق المناقشة .

دار الكتب للحكيم أرسطاطاليس ـ والبناء الثاني هو دار كتب الحكيم أرسطاطاليس الإسكندرية ، وفيها حبس أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت

---

(١) المرجع السابق .

(٢) كتاب الفنون (المكتبة الوطنية ، عربي ٧٨٧) ١٩٥/أ ، ودلني على أن اسمه : (كتاب الفنون) صديقي الدكتور مصطفى جواد ، وهو معقل من الاسم .

الـداني (ت ٥٢٩ هـ/١١٣٤ م) ، « كان هـذا الرجـل أديبـاً فـاضـلاً ، حكيمـاً منجماً ... حدّث أبو عبد الله الشامي وكان قد درس عليه أن الأفضل كان قد تغيّر عليه وحبسه بالإسكندرية في دار كتب الحكيم أرسطاطاليس » . وكان الحبس في مثـل هـذه الأمـاكن معروفـاً[١] ، وكان سبب حبسـه أنّ مركبـاً غرق في الإسكنـدريـة ، فصنع أميـة آلـة وحبـالاً ليجره . فلما وصـل المركب قريبـاً من الشاطئ تقطعت الحبال ، فغرق من جديـد . فغضب عليـه الوالي وحبسـه »[٢] ، ويبدو أنّ أمية حبس في سجنه مدة عشرين سنة[٣] . فاستفـاد من ذلـك ، وأكبّ على العلم ، فخرج في فنون العلم إماماً ، وأمتن علومه الفلسفـة والطب[٤] . ولا بـد أن تكون هذه المكتبة غنيـة بهـذين العلمين . وكان أصحـابـه يختلفون إليـه ومنهم تلميذه أبو عبد الله الشامي[٥] ، وكانت المكتبة آنئذٍ عامة . ولا بـد أن الفـاطميين هم الذين أنشؤوها ، وكانت خاضعة لسلطـانهم ، بحيث يمكنهم أن يحبسوا فيهـا كل من يتعرض لهم .

وإذا تأملنا بإمعان اسم (دار كتب الحكيم أرسطاطاليس) لبدا لنـا أن هـذا الاسم يخـالف الأصول المرعيـة عنـد المسلمين ، ويجب أن يكـون مشتقاً من : دار الحكمـة ، وهـو الاسم الـذي تحـول إلى دار كتب الحكمـة ، ثم إلى دار كتب الحكمـة الأرسطـاطـاليسيـة ، ليصبح : دار كتب الحكمـة لأرسطـاطـاليس . والمـؤرخـون معرضون لمثل هذه الأخطـاء في العبـارات . يشير ابن القفطي إلى خزانـة الحكمـة

---

(١) حَبس ابن تيميـة في خزانـة البنود (الوافي ، أحمد الثـالث ٢٩٢٠) ٧/٩٧ب . وحَبس منصور بن مظفر عميد الدولة في البيمارستـان (الوافي ، المرجع السـابق) ٢٦/١٠٠ب . وحَبس مكي المنشد في دار الضرب (إرشاد الأريب ، تح الرفاعي) ٢٨١/٢

(٢) العمري ، مسالك (أياصوفيا ٣٤٢٢) ١٥٩/ب .

(٣) المقري ٣٧٧/١

(٤) المقري المرجع السابق .

(٥) إرشاد ٢٦٤/٢

للمأمون باسم خزانة كتب الحكمة[1] . ويلزم بالضرورة على كل حال أن نفترض أن اسم المكتبة غير صحيح ، لأنه لا يمكننا أن نفهم بصورة ما أن هناك مكتبة خصصت لاسم أرسطو وتمجيده ، إذ لم يألف المسلمون إطلاق أسماء القدماء على مؤسساتهم . ولو أنهم فعلوا ذلك بشكل استثنائي ، لقالوا عندئذٍ : دار الكتب الأرسطاطاليسية . مثلما قالوا : دار الحديث النورية ، والمدرسة الصلاحية ، والنظامية ، والمستنصرية ، والبيمارستان العضدي ... إلخ . وعندما يرتبط اسم شخص بمؤسسة ما ، يفهم أنه هو الذي أسسها ، كخزانة الحكمة للمأمون ، ودار العلم لسابور . ولا يمكن أن تكون دار كتب الحكمة لأرسطو من إنشائه . ولذلك كانت هذه التسمية بعيدة عن الصحة . ويجب أن تكون هذه الدار كما أشرنا من قبل : دار الحكمة ، وهو اسم أطلقه الفاطميون على دار العلم في القاهرة . ولذا فإن مؤسسة الإسكندرية على ما يظهر لي هي دار العلم .

دار الكتب لابن شاه مردان ـ دار الكتب الثالثة هذه وقفها الوزير أبو منصور بن شاه مردان . « وكان في هذه الدار نفائس الكتب وأعيانها ، وأحرقها الأعراب عام ٤٨٣ هـ/١٠٩٠ م ، عندما استولوا على البصرة ، ونهبوا ما فيها نهباً شنيعاً »[2] . أما مؤسسها فهو وزير الملك ابن أبي كاليجار الديلمي أمير البصرة ، وملك فارس من عام ٤٤٠ هـ/١٠٤٨ م ، وحتى عام ٤٤٧ هـ/١٠٥٥ م[3] . وربما أنشئت المكتبة بين هذين التاريخين .

حادي عشر ـ نظرة عامة على دور العلم :

من خلال دراستنا لدور العلم ، يمكننا أن ندرك ثلاث صفات لها :

---

(١) القفطي ٢٥٥

(٢) ابن الأثير ١٢٢/١٠ ، العيني (ولي ٢٣٨٨) ٤٢٣/١٦/ب .

(٣) سفر نامة ، تح وترجمة شارل شيفر ٢٣٦

١ ـ قامت دار العلم على نظام الوقف ، واستقلت في بناء خاص وقدّر لها قبل كل شيء أن تكون مكتبة عامة .

٢ ـ كانت الدعوة المذهبية هي المبدأ الخفي لدور العلم بشكل عام .

٣ ـ أدت سكنى العلماء في دور العلم إلى إقامة الطلاب وتعليمهم .

وستقودنا دراسة المظاهر المختلفة لهذه الصفات الثلاث ، وكذا الظروف الخاصة والعامة التي أعطت دور العلم شكلها النهائي ، ستقودنا إلى تحديد روح دور العلم .

يجب البحث عن أصل هذه الصفات في بيت الحكمة وسمياته . فتحوُّل هذه المؤسسة الأخيرة إلى دار العلم أمر لا شك فيه[١] . وقد برهنا من قبل أنّه ليس هناك مكتبات ذات صفة عامة أو شبه عامة غير بيت الحكمة وسمياته . وليس هناك غيرها . ولم يكن وقف الكتب مألوفاً بعدُ إلا وقف المصاحف . ولا يمكن من جهة أخرى أن نتوقع أنّ المكتبات كغيرها من المؤسسات العلمية ولدت في المسجد ، وكانت تابعة له . بل كانت المكتبة مختلفة تماماً وهذه المكتبات العامة منذ نشأتها وجدت مستقلة بمكانها وبإدارتها ، فأصلها مختلف إذن . وخزانة الحكمة كانت نموذجاً لدار العلم ، وتحولها من اسمها الأول (دار الحكمة) إلى اسمها الثاني (دار العلم) أمر لا شك فيه . وستثبت لنا دراسة هذا التحول الصفات النهائية لدور العلم .

في بداية القرن الرابع / العاشر كانت الحاجة ملحة إلى مكتبة عامة ، وكانت الحركة العلمية آنئذٍ متسعة اتساعاً عظيماً[٢] ، ولم تكن خزائن الحكمة عامة بكل معنى الكلمة ، لأنها لا تستقبل للدراسة فيها كل الأشخاص . ونجد غيرها في الواقع

---

(١) انظر الصفحات ٩٨ ـ ١٠٤

(٢) انظر كتاب ميز القيّم (نهضة الإسلام) .

مكتبات خاصة ، وضع أصحابها كتبهم بين أيدي أصدقائهم . ولم يكن هناك مؤسسات قادرة أن تقدم للمتعلمين وعموم الطلاب مايحتاجون إليه من كتب المصادر للمطالعة والدراسة ، فكان على خزائن الحكمة ، وهي المكتبات الوحيدة ذات الصفة العامة تقريباً أن تتحول إلى مكتبات عامة . وهكذا ولدت دور العلم ، ولدت لحاجة ضرورية . إنها مكتبات عامة تماماً ، فتحت أبوابها للناس كافة ، حتى الأغراب الذين كانت تفضلهم على المقيمين ، وتقدم لهم الأرزاق الكافية ، وتوفر لهم الأقلام والحبر والورق ، ليتمكنوا من نسخ ما يريدون من الكتب التي تشمل الأدب وسائر العلوم ، والتي كتبها أشهر الخطاطين وأجلة العلماء .

وليست دار العلم مكتبة فحسب ، بل هي أوسع من ذلك . وعلينا أن نستنتج أن المكتبة تشكل أعظم أقسامها وأهمها ، حتى ليسميها بعضهم (المكتبة) من غير إضافة لشيء آخر ، أو يقال : مكتبة بغداد (دار الكتب ببغداد) ، لتعني دار العلم لسابور[١] . ويعني قولهم أحياناً (مكتبة القاهرة) دار العلم للفاطميين[٢] .

ونذكر الآن انتقال بعض الظواهر من بيت الحكمة إلى دار العلم : إقامة العلماء والطلاب في دار العلم أولاً ، ومن ثم التعليم ؛ وكان بيت الحكمة يؤوي التراجمة لنقل المؤلفات القديمة ، والباحثين المختصين لشرح هذه المؤلفات ، والعلماء للمناظرة والنقاش . وكانت أبوابه تفتح لجميع القراء عند اللزوم . وكان العلماء يعقدون فيه جلسات المناظرة ، ويتبادلون الآراء ، يحيط بهم الطلاب ،

---

(١) الخطيب ٥٨/١١ ، الأنباري ٤١٢ ، مرآة (كوبرلي ١١٥٧) ١٨٠/١١/أ ، المنتظم (أياصوفيا ٣٠٩٦) ٦ ، سنة ٤٠٥ هـ ، الوافي (أحمد الثالث ٢٩٢٠) ١٦٧/١٨/ب ، ياقوت ، معجم البلدان ٧٩٩/١ ، ابن الأثير ٥/١٠ ، بداري ١٧ ، المنتظم (أياصوفيا ٣٠٩٧) سنة ٤٥١ هـ .

(٢) ابن خلكان ، ٥٤٧/١ ، الوافي (أحمد الثالث ٢٩٢٠) ٢٣/١٩/ب .

يصغون إليهم ، وهم يخوضون في الآداب والدين . ثم تنتهي هذه المناظرات العابرة إلى دروس . ولا يحتاج الدخول في هذه الدروس الفعلية إلا إلى الوقت والرغبة الدافعة . واستنتجنا أن المؤسس نفسه كان يدرّس الأدب في دار علم الموصل ، وابن الفضّال في دور العلم ببغداد ، وأبا الفضل جعفر في دور العلم بالقاهرة .

هذا وإن انتقال التعليم المذهبي من بيت الحكمة إلى دار العلم كان أمراً ذا مغزى[1] . والمعتزلة التي قامت في بيت الحكمة وازدهرت هناك ونشرت أفكارها وتأثيرها تابعت حياتها في دور العلم الأولى دونما صعوبة : ففي دار العلم في البصرة مثلاً كان أحد الشيوخ يتولى تعليم مذهب المعتزلة . واستولى الشيعة على هذه المؤسسة بعد أن وجدوها مكاناً مناسباً للدعوة إلى مذهبهم . دفعهم إلى ذلك ظروفهم . ونسبت السيطرة على أوضاع البلاد الإسلامية في الواقع إلى مذهب أهل السنّة والجماعة ، واعتنق الناس كلهم هذا المذهب ، وتمسكوا به ، بينما كانت الحكومات في مصر والعراق كذلك شيعية ، وكانت تهدف وبشكل طبيعي إلى فرض مذهبها الخاص على عامة الناس ، الذين ظلوا أوفياء لمذهب أهل السنة .

في هذه الظروف ولدت دور العلم . ولم يتردد الشيعة بالاستيلاء عليها ، واستخدامها لدعم مخططاتهم السياسية والدينية .

ولقد أسس سابور والحاكم بأمر الله وبنو عمار وأحد الحكام الفاطميين على التوالي دور علم في بغداد والقاهرة وطرابلس والقدس ذات طابع شيعي . ولكن اختلف اتساع دعوتهم في شدّته وسط هذه الدور بين مؤسسة وأخرى . وقد برهنا من قبل أن المشرفين على دار العلم ببغداد كانوا كلهم من الشيعة ، بل ومن رؤساء الشيعة . ومع ذلك لم تثبت الدعوة المنفتحة المباشرة . وربما أخطأت الوثائق ،

---

(١) ماكنسون ، الخلفية التاريخية للمكتبات الإسلامية ، المجلة الأمريكية ٨٤/٥١ عالجت مسألة الدعوة إلى المذاهب في المكتبات العربية .

ولكن المرجح أنها لم تطرح علناً . ولا نشك على كل حال أن دار العلم ببغداد كانت شيعية .

وكانت الدعوة الشيعية في القاهرة فعلية . وكان كبار الفقهاء يحضّرون فيها مجالس الحكمة ، ويعلمون مذهبهم لطلابهم المختارين . وعندما أعاد الوزير المأمون فتح دار العلم عام ٥١٧ هـ/١١٢٣ م ، تولى إدارتها داعي الدعاة نفسه[١] . ومنذ ذلك التاريخ لم يحظ منهم أهل السنة على أي امتياز أو تسامح .

وليس لدينا لسوء الحظ وثائق إيجائية عن دار العلم في طرابلس ، لنعرف منها تنظيمها الداخلي وهدفها . فاقتصرنا على الافتراضات ، ولكن من الطبيعي جداً أن يحاول بنو عمار حكام المدينة الجدد فرض مذهبهم ، ليوجدوا أنصاراً لأنفسهم ؛ يخبرنا ابن الفرات أنهم أحيوا زمن حكمهم مذهب الإمامية[٢] ، فكان عليهم أن يقوموا بنشاط واسع من أجل هذا الإحياء . زد على ذلك أنّ دار العلم ساهمت يقيناً بهذا النشاط .

أما عن القدس فالمسألة معقدة فيها أكثر ، بسبب نقص مجموعة من المعلومات . ولكن نقطة مهمة ثبتت ولا شك ، وهي أنّ دار العلم فيها كانت شيعية المنشأ ، وأنها إن لم تؤسس زمن الحاكم بأمر الله ، فقد أسست على الأقل زمن أحد أخلافه . ويجب بالبداهة أن يكون برنامج عملها قد نسخ عن برنامج عمل دار العلم بالقاهرة ، مع اختلاف الظروف .

وبالإجمال فقد استخدم الشيعة المكتبة أداة للدعوة ونشر الأفكار المذهبية ، وخضعت بسهولة لهذا الغرض . وما كانت ثمة صعوبة تمنعها من خدمة أي غرض .

---

(١) انظر ص ١٢٥

(٢) ابن الفرات (ڤيينا A.F ١١٧) ١/٢٨/ب .

فاستنتجنا أن أصولها سهلت غرضها . ولكن يجب أن نضيف لذلك سبباً آخر ليس أقل منه أهمية ، وهو مكانة الكتاب في الحضارة العربية الإسلامية .

ولنحاول هنا تفسير المهمة التي أداها الكتاب في حياة الملل . إذ من الطبيعي أن أي أفكار دينية تولد من أدب خاص ، وهذا أمر جدير بالملاحظة في الإسلام على وجه الخصوص . ولكن الأدب عموماً لا يتأثر بالفكرة الدينية . ولا داعي هنا للدخول في التفاصيل المعروفة في الأدب الديني . ولنقل مع ذلك في الاستنتاج : إن لكل أمة كتبها الخاصة بها ، لدرجة أننا لوتفحصنا كتب أي واحدة منها لحكمنا بضرورة إحراقها ، ومن هنا كان يصدر الحكم على الكتب بالإحراق ، لأن ترويجها يعني ترويج مذهبها ، ووضع أدب أي ملة تحت تصرف الناس يعني دعوتهم للتفكير بمبادئها ، ومن ثم فهم بواعثها . ومن المؤسف أننا لا نمتلك فهرساً بمؤلفات مكتبة من مكتبات دور العلم ، لنعرف منه كيف كان الشيعة يحاولون التأثير على القراء بواسطة الكتب . ومقدمة فهرس دار العلم في بغداد تسمح لنا مع ذلك أن نستنتج وجود كتب للشيعة ، وتعبير (كتب آل البيت) كما جاء في تلك المقدمة[1] يعتبرها كتباً متميزة . وهو تعبير ذومغزى مهما كان مدلوله . ويشير هذا التعبير اللطيف إلى الأدب الشيعي .

وهكذا عرف المسلمون كيف يستفيدون من المكتبات بهدف الدعوة ، وهو هدف متميز في حياتهم الثقافية . في حين لم يستخدم الإغريق قبلهم ولا شعوب أوربا في عصر النهضة وحتى نهاية القرن التاسع عشر مكتباتهم لنشر أي مذهب إلا في بداية القرن التاسع عشر ، حين أنشأت بعض الأحزاب السياسية وبعض المدارس العلمية مكتبات تضم كتباً تدعو إلى مذهبها . بينما كانت الصلة بين الكتب والمذاهب الدينية عند المسلمين وثيقة جداً ، الأمر الذي هيأ لهم فهم الأحزاب المختلفة ، ودفعهم بالتالي إلى إنشاء المكتبات الداعية لها .

---

(١) انظر ص ١٣٥ ـ ١٣٦

وقد تأكد لدينـا قبل تحولُ المكتبـة من خزانـة حكمـة إلى دار علم ورأينـا أن ما يتلو هذا التحول كان عظيماً ومهماً . وهـذا هو التطور الـذي عرفتـه الفلسفـة في هـذه الظروف الجـديـدة . على أن الحيز الـذي أعطي للفلسفـة في بيـوت الحكمـة ومنافساتهـا كان في الحقيقـة كبيراً جـداً ، لكنـه تضـاءل في دور العلم لينطوي على نفسه في الظروف الجديدة .

وبدأت الحظوة التي لاقتها الحركة الفلسفية مع بداية الحكم العبـاسي في بلاط الخلفـاء تتضـاءل . كـذلـك سكنت ريـاح المعتزلـة فتركت البـلاط عـام ٢٣٤ هـ/٨٤٨ م بفضل الخليفة المتـوكل ، وانسحبت مـع المعتزلـة الفلسفـة والفكر الفلسفي ، مما أفسح المجـال للعلوم الـدينيـة والأدب . ولم ينقطع كثير من العلمـاء عن الاهتمام بالدراسـات الفلسفيـة ، رغم أن الخلفـاء انصرفوا عنهـا . ولا تفسر ردة الفعل في مجال المكتبات باستبعاد كتب الفلسفة ، بل بهيمنـة كتب العلوم العربيـة والـدينيـة ، التي ظهرت مع كتب الحكمـة جنباً إلى جنب . والتعبير الـذي يمثـل الاشتراك بينهما هـو كلمـة العلم[1] . وبـدل بيت الحكمـة قـامت دار العلم . وهكـذا ولـدت هـذه الأخيرة بشكل فعلي ، فهي تمثل العلوم الفلسفيـة والإسلاميـة معـاً . وهذا ما استنتجناه عندما تحدثنا عن فهرس دار العلم لسابور ، وعندما رأينا إقامـة الفلاسفة في دار الحكمة بالقاهرة .

والخلاصة ، فإنه مع نهاية القرن الثـالـث / التـاسع ترجمت العلوم المـوروثـة ، عن الأوائل بشكل واسع ، وبمسـاعـدة رجـال الـدولـة . ولئن انتفع بتلـك العلـوم العلماء وكبـار الشخصيـات ، فـإن نشـاطهـا انتقل كما قيل من الحيـاة العـامـة إلى الأوساط الخاصة . واختفت مع ذلك الانتقال المؤسسة التي كانت تقدم لهم خدماتها لتفسح المجال لمؤسسـة أخرى من نوع جـديـد هي دار العلم التي جعلت تستعير من

---

(١) انظر ص ٣٦

سابقتها كل صفاتها ، وتتابع نشاطاتها ما عدا الترجمة والتأليف والبحوث الفلكية . وقد أخذت هذه النشاط والصفات الموروثة أحياناً أشكالاً جديدة تطلبتها الظروف السياسية والدينية والاجتماعية ، وهي إقامة العلماء وأجورهم ، وسكن التلاميذ ، والتعليم الحر حسب برنامج محدد ، ودروس في أفكار المذهب المبتدع . وأخيراً تكونت دار العلم على شكل مؤسسة أصيلة ، ولكنها احتفظت بصفات سابقتها ، أو بطرازها على وجه الدقة .

وفيما يلي إتمام ما قلناه ، مما يحدد الشكل المتطور لدور العلم : « دار العلم مؤسسة وقف شبه رسمية ، وهي مكتبة عامة تقوم في مكان مستقل ، حيث حاول أصحابها باستمرار ترسيخ تعليم الدعوة ، وتلقين المذهب المبتدع ، وتدريس العلوم غير الدينية[1] . وكان فيها يسكن المدرسون والطلاب ويأخذون أجورهم » .

وهكذا طرحت دور العلم بتعريفها هذا مشكلات هامة ، يلزم أن تخضع للفحص ليُعرف المكان الذي كانت تحتله في حياة المؤسسات العلمية الإسلامية وبشكل فعلي .

ثاني عشر ـ إسهام دور العلم في حياة المؤسسات العلمية :

ولادة المدرسة :

اشترك المسجد ودار العلم معاً في تطوير التعليم قبل تأسيس المدارس . وهذا ما يطرح مسألة تأثرها به في هذا المجال . والمؤرخون الذين درسوا أصول مؤسسات التعليم وتطورها في الإسلام أخطؤوا حينما تجاوزوا وبصمت هذه المسألة المهمة التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بتاريخ التقدم العلمي عند المسلمين . وسنرى بادئ ذي بدء

(١) فان بيرشم ، (Corpus ، ج ١٩ ، مصر ، ٢٥٥) يحدد بشكل موجز نشأة (دار العلم) ، وربما قال بالضبط (دار الحكمة) للفاطميين .

كيف شرح هؤلاء المؤرخون ، وكل حسب طريقته نشأة المدرسة ، ثم تابعوا شرحهم بعد ذلك فتحدثوا عن أثر دور العلم .

في القرون الهجرية الأربعة الأولى تعلّم المسلمون دينهم ، ومارسوه في المساجد في الوقت نفسه . وشمل هذا التعلم جميع صنوف العلوم التي أقرها الإسلام : اللغة والأدب والتاريخ .

واستمرت هذه المهمة التي قام بها المسجد في التعليم حتى اليوم ، ولكنه اقتصر مع ذلك على العلوم الدينية . وفي القرن الخامس قامت في البلاد الإسلامية مؤسسات علمية واضحة المعالم ، هي المدارس ، ساهمت على الدوام مع المساجد في تطوير ثقافة الشعب العالية . وكانت المساهمة مشتركة متجانسة بين المسجد والمدرسة . واختلطا في العصور المتأخرة بعضهما مع بعض . قامت بعض المدارس في المساجد أو خضعت لإشرافها نفسه ، وعلى العكس ، كانت هناك مساجد تشكل أحياناً جزءاً مكملاً من المدارس . واستنتج (بدرسون) من هذه الظاهرة الهامة أنه لافرق بين المدارس والمساجد[1] ، ورأى أنه من السهل أن نستخلص أنّ المدرسة خرجت من المسجد ، دون أن تنفصل عنه انفصالاً كاملاً . ولا يعتقد هذا الباحث أنّ عليه تفسير هذا الانفصال غير التام .

ولئن كان للمسجد بالتالي تأثير على المدرسة ، فهناك ظروف سياسية واجتماعية خاصة ، سهلت استقلالها ، وأعطتها سمة بقيت خاصة بها دائماً[2] .

ويحلل (فان بيرشم) بشكل مدهش الدوافع السياسية والدينية التي أسهمت في ولادة المدارس الإسلامية ، دون أن يحاول ربط نشأة المدرسة بالمسجد . ويرى

(١) بدرسون ، مادة المسجد في الموسوعة الإسلامية ٤٠٧/٣

(٢) وذلك ما يظهر في الواقع من دراسة (فان بيرشم) الموجزة في هذا الفصل ، فقد قامت المدرسة خلال القرنين الخامس والسادس بمهمة سياسية بالدرجة الأولى لم يستطع المسجد القيام بها .

أن « تاريخ المدرسة يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالحركة الدينية التي أثارها غزو المغول والصليبيين في الإسلام »[1] . وانحاز أمراء المغول الذين غزوا بغداد في القرن الخامس إلى الخلافة وتحمسوا لأهل السنة ، فساعدوا الخليفة ضد العلويين ، واعتنقوا مذهب الأشاعرة[2] . وظل عامة الناس أوفياء للسنّة ، وقد لاحظوا جيداً قوة المغول من جراء هذا الحدث . ولكي يقروا هذه السياسة ، كان يلزمهم (أداة عملية ، مؤسسة دائمة) ، وعندئذٍ ظهرت المدرسة في بغداد[3] . ويفسر أصلها بالمهمة السياسية والدينية التي قامت بها ؛ إنها مدرسة الدولة . ولكي يعلّم المدرس في المدرسة لابد له من شهادة رسمية ، في حين بقيت الدروس حرة في المساجد . وكان المؤسس يدفع المال ويوفر سكن الطلاب[4] . ويمكن أن نضيف لهذه البيانات إثباتاً إيحائياً لم يكشف عنه (فان بيرشم) ، وهو أن خطبة الجمعة كانت قائمة في المدرسة المستنصرية . وعلى ذلك فيجب أن تقام فيها صلاة العيدين التي قررها فيها أحد الخلفاء العباسيين[5] . ويتابع الكاتب نفسه القول بأن الطلاب كانوا مكلفين بأعمال عامة . ألم يتغلب الفقهاء وهم قواد الشعب الحقيقيون على السلطة السياسية ، فأقاموا سلطتهم على الأسس الروحية ؟ ولم يكن العامل الديني بالمقابل أقل أهمية ولا دلالة . وعدا عن التشجيع والدعم الذي تكنّه المدرسة للمذهب الأشعري ، فإنها تمثل ملّة مؤسسها ، وتساهم في نشرها[6] .

كذلك دافع الأتابكة والأيوبيون في العراق وسورية ومصر عن الدين والسنّة ، فقضوا على الفاطميين ، وساعدهم الصليبيون عن غير قصد . كما ساهم

---

(1) فان بيرشم ، المرجع السابق ٢٥٤

(2) المرجع السابق ٢٥٧

(3) المرجع السابق ٢٦٠

(4) المرجع السابق ٢٦٠ (الحاشية) و ٢٦٢

(5) ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة ٢٨٥

(6) فان بيرشم ، المرجع السابق ٢٦١ (الحاشية) .

ضعف الخليفة ببغداد في ازدياد نفوذهم الروحي عند عامة الناس . كذلك استخدموا المدرسة لزيادة هذا النفوذ ومحاربة البدعة .

هذا هو ملخص دراسة (فان بيرشم) القيمة عن أصل تأسيس المدارس . وتجعلنا هذه الدراسة نتابع الظروف السياسية والدينية التي ولدت فيها المدرسة في العراق وسورية ومصر . وإذا ذكرنا تأثيراتها الاجتماعية فإننا لاندري أي نموذج أوحى للمؤسسين إنشاء هذه المؤسسة الجديدة فجاءت كاملة لم تتغير كثيراً منذ ذلك الحين . وربما يجيب (بدرسون) عن هذا التساؤل بأن نشأة المدارس كان مهيئاً في المسجد . وهذا تفسير يكمل تفسير (بيرشم) . وبقي أن نوضح كيف يمكن أن تتحول الحلقات في العراق وسورية ومصر فجأة إلى بناء عام ، يقيم فيه المدرسون والطلاب ، ويتقاضون أجوراً ، ليعملوا معاً حسب برامج مقررة ، وحسب شروط الوقفية التي تشير بوضوح إلى رغبة المؤسس الواعية .

لا يمكننا أن نفهم أن هذا الانتقال حدث بشكل مفاجئ . وقد وصف (فان بيرشم) شكلاً متوسطاً بين المسجد من جهة والمدرسة التي نظمها رجال الدولة من جهة أخرى . تلك هي المدرسة الخاصة التي أنشأها في البيوت شيوخ تركوا المسجد لسبب ما ، ودرّسوا طلاباً اختاروهم بأنفسهم . ولدت هذه المدارس الخاصة « وسط بلاد فارس الشرقية الشيعية حيث لمع منذ القرن الثاني / الثامن بيت ازدهر بالدراسات السنية المتعلقة بالمذهب الشافعي »[1] . أيمكن أن تكون هذه المدارس الخصوصية في بلاد فارس هي النموذج الذي احتذاه مؤسسو مدارس العراق والشام ومصر ؟ وبعبارة أخرى أيمكن الانتقال من مدرسة خصوصية مصغرة إلى مؤسسة رسمية معتبرة ، واعية لدورها ، اكتملت بين عشية وضحاها ، من غير أن تتبع نموذجاً سابقاً واسعاً قوياً ، هو دار العلم ؟ لا يمكننا أن نتصور ذلك . ويظهر هذا التماثل الإيجابي بين دور العلم والمدارس تأثير تلك على هذه .

(١) فان بيرشم ، المرجع السابق ٢٥٩

ولقد رأينا أنّ الشكل المتطور لدار العلم كان أداة للدعوة الشيعية الإسماعيلية . أنشأتها حكومات شيعية لتستخدمها في فرض مذهبها الديني بين أهل السنة . وفي الظروف التي وصفها (فان بيرشم) كانت المدارس تهدف إلى القيام بردة فعل ضد جميع أنواع البدع ، وبشكل أساسي ضد الشيعة ، ولتحل محل دور العلم أيضاً .

وعندما حدث حريق الكرخ في بغداد ، أكلت النار دار العلم لسابور . والحق أننا لانستطيع إثبات أنّ السنيين الذين أحرقوا الكرخ كانوا يهدفون إليها بشكل مباشر . كذلك ليس أقل صحة من ذلك أن الحريق لم يزعج الغازي السني عميد الملك ، الذي قدم ليفرز الكتب القليلة الناجية . وكان مصير دار العلم للفاطميين أقل غموضاً ؛ فبعد أن قضى صلاح الدين على الفاطميين أمر بإزالتها . ومن جهة أخرى فإن الصليبيين الذين ساعدوا على الدوام وبلا قصد الأتابكة والأيوبيين هدموا دار العلم في طرابلس ، وقضوا عليها في الوقت نفسه تقريباً .

ورافق هذا القضاء على دور العلم إنشاء المدارس . ويأتي إنشاء المدارس الجديدة بعد اختفاء دور العلم تماماً . فقد افتتحت المدرسة النظامية ومدرسة مشهد الإمام أبي حنيفة عام ٤٥٩ هـ / ١٠٦٦ م[١] ، أي بعد انتهاء دار العلم لسابور بثمانية أعوام .

وهكذا نجد العلاقات التي تربط قيام إحدى المؤسستين بالأخرى وثيقة . فكيف ورغم ردة الفعل التي رسخها مؤسسو المدارس الجديدة في تأسيس عملهم بهذه الظروف لم يستوحوه من تكوين وتنظيم ووسائل عمل دور العمل ؟ وبعبارة أخرى ، فقد وضعوا أفكارهم الجديدة التي كانوا يحملونها جانباً ، عندما أنشؤوا تلك المؤسسة ، وجعلوا نصب أعينهم مؤسسة علمية ذات صلة بمؤسستهم ، وكان

---

(١) مرآة (المكتبة الوطنية ، عربي ، ١٥٠٦) سنة ٤٥٩ هـ ، ابن خلكان ٢٤٥/٢

عليهم أن ينقلوا إليها التفاصيل التي لا تضر بمبدئهم الأول وأن يأخذوها بعين الاعتبار وبشكل عملي . ولكن ، يجب ترك هذه البراهين النظرية . ولنحاول أن نبين بأي شيء تبدو المدرسة مكملة لدار العلم .

لقد استنتجنا آنفاً أن دار العلم مؤسسة شبه رسمية ، كانت مستقلة في معظم الأوقات من حيث تأسيسها وإدارتها ، وكانت الإدارة فيها تجري على أنها مؤسسة وقف عامة . وبالتالي فوقفية المدرسة تشبه وقفية دار العلم تماماً . كانت دار العلم من جهة ثانية تقدم الضيافة للشيوخ والطلاب ، كما كان شأن المدارس .

وتخبرنا رواية مهمة أخرى عن نشأة هاتين المؤسستين ، تقول : إنّ دار العلم كانت تضم ضريح شخصية مقدسة ؛ ففي دار العلم بالقاهرة مثلاً قبر الداعي المؤيد في الدين هبة الله بن موسى الأعجمي[1] . وانتقل ذلك إلى المدارس حيث صارت الشخصيات السياسية والدينية تدفن فيها[2] (أبو حنيفة) . حتى لنعتقد أن محاولة نظام الملك نقل رفات الإمام الشافعي إلى بغداد كانت صحيحة ، كما يؤكد (فان بيرشم)[3] . وهي بالأحرى تظهر رغبة ذاك الوزير برفع شأن المدرسة التي خصصها لمذهبه .

ويمكننا الافتراض ـ لنعترض على هذا التقارب ـ أنّ الوقائع المروية حتى هنا تصف المسجد ، ويمكن أن تكون المدرسة قد أخذتها منه . وربما يكون هذا افتراضاً اعتباطياً . وعلينا إثبات التحول المباشر والمؤكد إلى المدرسة عن طريق خاص بدار العلم ، دون أن نحاول إلغاء أساسه .

---

(١) المقريزي ٤٦٠/١

(٢) بدرسون ، مادة المسجد ، الموسوعة الإسلامية ٤٠٧/٣

(٣) فان بيرشم ، المرجع السابق ٢٦٠ (الحاشية) .

ولقد رأينا في الواقع أن تعليم الآداب العربية في دار العلم كان يقوم بـه شيوخ مشهورون . وخصص في دار علم الموصل لكل من يرغب في تعلم الأدب استقبال ملائم[1] ، وإذا تساءلنا : لماذا يفضل هذا النوع من المعارف التي تطفلت على حياة هذه المؤسسة فسنرى أن المسجد الذي بذل طويلاً هذا العلم بدأ في القرن الرابع / العاشر يعادي الأدب[2] . وعلى العكس فدار العلم التي قدمت وبشكل حر كافة العلوم ، لم يكن يمكنها إلا أن ترحب به ترحيباً كريماً . وهكذا تركت الآداب المسجد لتستقر في دور العلم . ولقد أُقر هذا التعليم في المدارس أولاً ، بصرف النظر عن العامل الديني والسياسي الذي طرحته هذه المؤسسة . ولا بد أن يكون تحول دار العلم إلى مدرسة أمراً حقيقياً . وحدث في الواقع انتقال آخر وبشكل مباشر بين المؤسستين المذكورتين : ذلك هو انتقال المكتبة ، وهذه المؤسسة الأخيرة انتقلت مباشرة من دار العلم ، واختير لها المدرسة مكاناً . وكان للمدرسة النظامية في بغداد مكتبتها الجميلة ، التي هي إحدى المكتبات المشهورة في تاريخ الإسلام ، مثلما كان لها قاعاتها المخصصة للتعليم[3] . ولم يكن قبل القرن الخامس / الحادي عشر مسجد واحد يضم بناء خاصاً للمكتبة ، ولا يشك بتأثير دار العلم الذي حصل هنا . فانتقلت المكتبة العربية مباشرة من دار العلم إلى المدرسة . ولا نستطيع أن نستنتج أي مرحلة من مراحل التطور . ويثبت الاقتباس الخالص البسيط من مكتبة دار العلم إلى المدرسة أكثر من مرة ، وأنّ المدرسة باستثناء اختلاف مذهبها ورثت مهمة دار العلم بكامل اتساعها . وهناك انتقال آخر أكثر إيحاء وهو الأهم ، ذلك هو انتقال الطلاب . وهؤلاء كان لهم حق الإقامة في دور العلم . الأمر الذي حصلوا عليه هنا . ودخل التعليم في حياة دور

---

(١) انظر ص ٩٩

(٢) انتقدت شخصيات دينية معتبرة تعليم الأدب في المسجد ، انظر : بدرسون ، المرجع السابق ٤٠١/٣

(٣) انظر المكتبة النظامية .

العلم بالشكل البسيط لاجتماع العلماء ومناظراتهم ومناقشاتهم ، لكنه استقر شيئاً فشيئاً فيما بعد وتوسّع نشاطه ، فأنتج ظاهرة مهمة جداً تتلخص في محاولة أدت إلى انتصار التعليم ، تلك هي تكوين طبقة من الطلاب والشيوخ . وظهر هذا التكوين في مصر خاصة . وفي سنة ٣٧٨ هـ / ٩٨٨ م سأل الوزير أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن كلس الخليفة العزيز بالله الفاطمي في صلة رزق جماعة من الفقهاء ، فأطلق لهم ما يكفي كل واحد منهم من الرزق ، وأمر لهم بشراء دار وبنائها ، فبنيت بجانب الجامع الأزهر ، فإذا كان يوم الجمعة حضروا إلى الجامع ، وتحلقوا فيه بعد الصلاة ، وكانت عدتهم ٣٥ رجلاً[١] . وقد حاول المعتضد ببغداد أن يجمع في القصر الذي ابتناه أصحابَ المهن على شكل جماعات ، وكان من بين هؤلاء العمال مدرسون[٢] . وقامت محاولة مماثلة في العصر نفسه بشيراز أحدثها الملك البويهي عضد الدولة ، الذي خصص جناحاً معيناً من قصره للعلماء[٣] . وفيما عدا ذلك كانت طبقة العلماء والطلاب تجتمع في المساجد ، إلا أنها استقرت بشكل طبيعي في دار العلم منذ تأسيسها ، فكان لها حق إقامة الدروس فيها . ويجب أن نعدّ مثلها دار العلم بالقاهرة . وكانت هذه الطبقة تحصل على نصيبها من الذهب من دار العلم بطرابلس ومن المدارس الكبيرة أيضاً ، كما كانت تتقاضى أجوراً منها . وهذا أمر لم يكن في المسجد ولا في المدارس الخاصة ، وهذه الطبقة ليست إلا مقلدة لطبقة دار العلم . وشيء واحد لم تقلد فيه المدارس دور العلم ، وهو تعيين موظفي الدولة فيها . وقد رأينا أن دار العلم بالقاهرة كانت تعيّن فقهاء الدولة[٤] .

(١) المقريزي ٢٧٣/٢

(٢) مسكويه ٤١٨/٢

(٣) المرجع السابق .

(٤) انظر ص ١٢١ ـ ١٢٢

وهنا برهان واضح يأتي ليعزز الشهادات المذكورة آنفاً ، وليثبت انتقال التعليم من دار العلم إلى المدرسة . إنها شكل من أشكال دار العلم ، استمر عبر المدارس الإسلامية ، وكان قسماً مكملاً لها . وهكذا يمكننا أن نقول إن دار العلم مكتبة قامت فيها محاولة لترسيخ أفكار الدعوة وتلقين البدعة ، وما يحل محل التعليم في المدرسة إنما هو تعليم السنة ، تماماً كما قال (بيرشم) ، وأيده كثير من الباحثين[١] وتقوم السنة النبوية بالتالي على إرشاد الناس في حياتهم على هدي أقوال النبي ﷺ وأعماله . ومن هنا جاءت ضرورة معرفة ما أمر به النبي ﷺ وما نهى عنه . والعلم الذي ينشر هذه المعرفة هو علم الحديث . ولذا كان لا بد أن تتعارض دراسة الحديث في المدرسة مع الدعوة إلى التشيع[٢] . والمدارس الأولى التي أنشئت لتردّ على التعليم البدعي في دور العلم تبنت تعليم الحديث . ولما كان هذا التعليم عملاً واضحاً فقد كان يحلّ أحياناً في مكتبة المدرسة . فعندما زار نظام الملك بغداد أملى جزء حديث في المكتبة النظامية ، وحضر قراءة جزء آخر[٣] . وكان على المدرس والتلاميذ الذين عينوا للعمل في الحديث بالمدرسة المستنصرية حسب الوقفية أن يقوموا بهذا العمل في مكتبة المدرسة[٤] . وهكذا تمثل هاتان المكتبتان فكر دار العلم . وما أعظم مدلول ذلك ؟ اقتبست المدرسة بعض الصفات الخاصة بدور العلم من البلاد الإسلامية ، وانطبعت هي بصفات أخرى لا تخصّ تلك بل تنفرد بها وحدها كاملة . وإذن يمكننا أن نؤكد مطمئنين أن دار العلم كانت نموذجاً احتذته المدرسة .

---

(١) فان بيرشم ، المرجع السابق وخاصة ص ٢٥٧ ، غودفروا - ديومبين ، العالم الإسلامي ٣٠٧ ، بدرسون ، المرجع السابق .

(٢) ومع قيام المدارس الكبيرة قامت مدارس لتعليم الحديث خاصة ، ويذكر اسمها بالتالي بدار العلم وهي دور الحديث . ويقال لها في بلاد فارس : دور السنة . ومن هنا نرى : عقلية التعارض والتقليد في الوقت نفسه .

(٣) عيني (ولي الدين ٢٣٨٨) ٣٩٣/١٦ ، ابن خلدون ، العبر ٤٧٧/٣

(٤) خلاصة الذهب المسبوك ٢١٢

ولـو تسـاءلنـا الآن : مـاالعنصر المشترك الـذي يربـط المكتبـة بـالمـدرسـة الإسلامية ؟ لوجدنا أنّه تأثير الكتاب في التعليم العربي . وكانت سلطة المدرس في الواقع قائمة عند المسلمين على الكتب المقررة . هذه مسألـة لم تُـدرس بعـد جيـداً ، ولا يمكننا بحثها بعمق . وهي تتصل بقضايا لا علاقة لهـا بموضوعنـا . ومع ذلـك فنشير إلى عنصر يبدو ذا فائدة عجيبـة هو نظـام الإجـازات ، إلا أننـا لانستطيع الدخول في التفاصيل . وكما يقول أستاذنا النـابغـة (لويس مـاسينيون) : تشهـد الإجـازات التي منحهـا المـدرسون المسلـون في العصر الـوسيـط بـالقراءة الـدقيقـة الصحيحة لكتاب محدد مع المدرس الذي يمنح هذه الإجازة[1] . وهـذه الإجـازات ليست في معـارف مـادة مـا ، والتي هي موضوع الإجـازة ، وإنمـا هي بـالأحرى مجموعة من المعطيـات المرتبـة في كتـاب ، تظهر مكانـة المؤلف نفسـه ، لا المـدرس الذي يفسرهـا . ومن كثرت إجـازاتـه كثر علمـه . فمهمـة المـدرس إذن تقتصر على الشرح فقـط . وعلى الطـالب أن يفهم الكتب ويهضمهـا . والكتــاب هـو المــادة المتبادلة بين المدرسين والطلاب . وهذا صحيح ، وخـاصـة فيما يتعلق بتعليم العلوم الدينية منذ القرن الخامس / الحادي عشر ، وهو العصر الذي توصلت فيه الدولـة تحت تأثير جهابذة علماء السنـة إلى فرض مـذهب واحـد يسدُّ طريق المنـاقشـات والتجديد . ولكن العلوم الأخرى استفادت من هـذه الطريقـة السهلـة الكسول ، التي تطلبتها في هذا العصر الرغبة في الأوضـاع الثـابتـة . وذلـك يتزامن من جهـة أخرى مع إنشاء المدارس ، التي كانت غايتها الأولى ـ كما أشـار تـاريخهـا ـ توحيـد المذاهب الدينية وفرض هـذا التوحيـد . لكننـا نلاحـظ كيف ارتبطت المـدرسـة بالكتاب تمام الارتباط ، وأعلت مكانته . فـانتهى الأمر بهـا إلى أنهـا لم تعترف إلا بالكتاب ، وأنشئت مدارس لتدريس كتـاب محـدد فقـط ، وهـذه حـالـة غريبـة مثالها دار مثنوي في بغداد ، كما ذكر أستاذنا (لويس ماسينيون)[2] .

(١) في أحد دروسه غير المنشورة في الكوليج دو فرانس سنة ١٩٣٨ م .

(٢) دروس غير منشورة ، سنة ١٩٣٨ م . والكتاب المدرّس هو (مثنوي جلال الدين الرومي) .

بيد أن هذا الشرح لا يفسر انتقال التعليم من دار العلم إلى المدرسة فحسب ، بل إنه يفسر أيضاً دخول التعليم إلى دور العلم . لأنّ بين الكتاب الذي هو الثروة الوحيدة للمكتبة وبين التعليم علاقات وثيقة لدرجة أننا لن ندهش عندما نرى اشتراكهما بعضهما مع بعض .

والخلاصة : ربما نحاول تنسيق مختلف المعطيات التي أثبتناها وتحليل سبل تطور التعليم .

وبتمة العلاقات الوثيقة بين الكتاب العربي والتعليم ، فإن الكتاب المقرر منذ نشأة المسجد دخل البلاد الإسلامية في حياة المكتبات العامة التي أصبحت ضرورية ، وتحولت من خزانة الحكمة إلى دار العلم . ولكن مذهب الشيعة الأكثر ثورة ، والذي كانت هذه المؤسسة الأخيرة مجبرة على استضافته بدل المسجد حاربه بضراوة ملوك السلاجقة والأتابكة والأيوبيين . وهذا مادفع بهؤلاء إلى إلغاء دور العلم لتحل المدرسة محلها . والمدرسة المخصصة لتخريج موظفين للدولة أكفياء بالعلوم الدينية تبنت التعليم المرتبط بالكتاب ارتباطاً وثيقاً ، وجعلته هدفاً رئيساً .

ورغم اختلاف المبدأ فقد أخذت هذه المؤسسة بعض الأساليب عن سابقاتها ، ولنقل عن رائديها . ويمكن أن نذكر منها ما يلي :

١ ـ التنظيم الإداري للوقف . ٢ ـ محاولة تأمين الاجتماع والسكن والطعام للطلبة تحت تأثير خزائن الحكمة غير المباشر . ٣ ـ وجود قبر لبعض الشخصيات الهامة على شكل ضريح . ٤ ـ المكتبة المتطورة بكل ألقها وقوتها منذ وجودها زمن دور العلم والتي حافظت على ذكرى ذاك الوجود في دروس الحديث القائمة بها .

وهكــذا ، فــإن التعبير المنهجي الـلامـع لأستــاذنــا القــديـر (غـودفروا ـ ديمومبين) : « التحول من دار العلم إلى المدرسة »[1] تعبير واقع . والمكتبـة ولّـدت المدرسة العربية الإسلامية .

(1) غودفروا ـ ديمومبين ، العالم الإسلامي ٣٠٧ ، وهذا التعبير يلخص دراسة (فان بيرشم) المذكورة آنفاً . ويتفوق عليها من هذه الناحية بذكاء .

الفصل الثالث

الخزائن الملحقة

تمهيد

كنـا درسنـا وبشكل شـامـل قـدر الإمكان عصر دور العلم وأثرهـا في إنشـاء المدارس ، ومضينا بتلك الدراسة بعيداً ، ملبين ما يتطلبه تاريخ المكتبات بدقة ، وحجتنـا أن المكتبـة في ذاك العصر كانت أكبر مركز للنشـاطـات العلميـة ، بحيث لا يمكننا ونحن نتنـاول عملنـا ذاك أن نغض من شـأنهـا . ولننتقل الآن إلى دراسـة العصر الثالث ، وهو عصر الخزائن الملحقة .

ولفهم نظام هذه المكتبات جيداً ، سنقتصر فقـط على التفـاصيل الضروريـة فيها .

ومع ذلك فتبدو لنا في الوقائع نفسها نقـاط أسـاسيـة تفيـد في معـالجـة هـذا النظام وتحديده وشرحه . تلك النقاط هي :

١ ـ نوع المؤسسة التي ألحقت بها الخزانـة ـ كما سنرى في القسم الوصفي ـ تتبنى وبشكل طبيعي غايتها ومنهجها واتجاهها ، وتحتوي من الكتب ما يسعف هـذه في مهمتها . ونحن نريد بذلك أن نحدد نوع هذه المؤسسة وهدفها ، الأمر الذي يسمح لنا باستنتاج الظروف الملائمة التي قامت عليها خزانتها .

٢ ـ أن نحـدد منشئ المؤسسـة الأم وميـولـه في الخـزانـة إن وجـدت ، ونحـدد توجهـه العلمي ، بمعنى نـوع اختصـاصـه ، أي مضمـون خـزانتـه كما سنرى في القسم

الوصفي . وسيكون ذاك المضمون مخصصاً لهذا التوجه ؛ فعندما يكون المنشئ باحثاً في التاريخ مثلاً ، فإن المؤلفات التاريخية ستشغل الحيّز الأول في خزانته ، وسيتناول ثلثا مضمون الخزانة على الأقل موضوع اختصاصه .

٣ ـ ولن نتعرض عندما نذكر الخَزَنة إلا لشيء من ترجمة حياتهم فالإطالة غير مهمة في هذا الصدد ، بينما اعتمدنا أن نذكر الخازن واختصاصاته العلمية لأنها تظهر ميوله ومن هنا تتوجه اهتماماته ويلمع اسمه في خدمتها ، وهي في الواقع وفي جميع الأحوال تشغله بقصد آخر أو بدون قصد ، وتعمدنا كذلك مابوسعنا أن نثبت تاريخ وفاته ، إذ إنه يحدد العصر الذي عاش فيه ويشكل مفتاح البحث خلال سجله . وسننتبه إلى جميع المعلومات الأخرى المتعلقة بقدراته الخطية وحبّه للمكتبات .

٤ ـ تتبعنا بالتفصيل كل ما يتعلق بالنسخ التي وقفت في الخزائن ، بما فيها ذكر الأوقاف التي تستند عليها والسماعات المسجلة فيها وكذلك المخطوطات الأصلية (نسخ الأصول) وفنون الخط التي تجعلها مشهورة ، بيد أننا أوجزنا في سرد اسم الكتاب أو اسم المؤلف ، فهذا شيء يطول استيفاؤه ويضر بتركيز الكتاب وهو معروف تماماً ، ويسهل البحث عنه لمن شاء في كتب الفهارس مثل (كشف الظنون) .

وهناك عدد من كلمات المصطلحات ينبغي أن نذكرها ونحددها في مواضع متعددة وهي :

١ ـ السماع : وهو حالة قراءة كتاب يقوم بها شيخ أو بحضوره حيث يسمح بروايته ، ويطلق السماع أيضاً على ما يكتب على دفة الكتاب المقروء والتي تذكر أسماء السامعين ، مع ذكر الزمان والمكان أحياناً .

٢ ـ **الأصول** : وهي النسخ التي تعد أصلاً ومرجعاً بصحتها وضبطها وإتقانها ، والسماعات التي عليها .

٣ ـ **كتب الأصول** : وهي الكتب الأساسية التي تعد مراجع أولى في العلم والمعرفة ككتب الصحاح الستة ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ، والتاريخ والتفسير للطبري ، والنهاية والأم والشامل في الفقه الشافعي ، والكتاب الجامع لمحمد ، والمبسوط للسرخسي في الفقه الحنفي .. إلخ .

٤ ـ **الأجزاء** : وهي كراريس يشكل كل منها جزءاً أو كتاباً صغيراً وغالباً ماتعالج موضوعات الحديث الشريف وحجمها عامة نحو من ١٨ × ١٤ سم ، وعدد أوراقها لا يتجاوز العشر تقريباً .

٥ ـ **الكتب الكبيرة** : وهي كتب ضخمة ، تتألف عادة من عدة مجلدات ، ككتاب الأغاني للأصفهاني .

٦ ـ **الناظر في الخزانة أو الكتاب** : هو المكلف بالمحافظة الواعية على خزانة كتب أو كتاب معين ، فهو إذن مدير ، لا من ينظر في الكتاب ويقرأ فيه ، كما يفهم من كلمة نظر .

أما الترتيب الذي اتبعناه في العرض فقد بدأنا من الشرق إلى الغرب ، فابتدأنا بمكتبات العراق ثم الشام ثم مصر ، وبدأنا في كل قطر من هذه الأقطار بالعاصمة أولاً ثم انتقلنا إلى غيرها من المدن الأخرى دون ترتيب محدد . ولما كان في كل مدينة عدد كبير من الخزائن فقد ذكرنا منها في البدء الخزائن الملحقة بالمدارس ، ثم بالمساجد ، ثم بالأربطة ، ثم بالمشاهد ، ثم بالبيمارستانات .

ووجدنا هذا العرض هو الأصلح ، لأنه من المفيد أن نجد مكتبات مدينة ما مجمعة مصنفة حسب المنشآت التابعة لها ، وتحتوي على خاتم خاص بها . وسنتبع في

كل قسم من أقسام المنشأة التسلسل التاريخي لتأسيس الخزانة أو إنشائها الأول . ولقد بذلنا قصارى جهدنا في أن نقتصر على ذكر نصوص فحسب . تركناها تتكلم بدلاً منّا ، وتشرح مختلف ظروف المكتبات . ولم نجد صعوبة في هذا ، لأن النصوص تتحدث عن نفسها ولا حاجة لتفسيرها . ولم تتحقق لنا مثل هذه الظروف في دراستنا عن بيت الحكمة ودار العلم . ومع ذلك فقد كنا مجبرين على ترتيب بعض الجمل في مواضع عدة ، لتتلاءم وموضوعنا ، وتصبح مفهومة أكثر . وفي هذه الحال لانعتقد أن من واجبنا وضع الجمل المذكورة آنفاً بين قوسين ، لأن تسلسلها حينئذ كان سيتغير .

أ ـ الخزائن الملحقة في بغداد :

١ ـ خزائن المدرسة النظامية في بغداد[١] :

المكتبة النظامية في بغداد أولى المكتبات الجامعية في الإسلام ، ولها قصة عظيمة ، وهي مكتبة مشهورة بخزَنتها ، مثلما هي غنية بمؤلفاتها .

عرف نظام الملك أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي ، المولود سنة ٤٠٨ هـ / ١٠١٨ م في بيئة متوسطة الحال ، عرف بفضل نشاطه وذكائه كيف يفرض وجوده بالقرب من ملوك السلاجقة ؛ ففي سنة ٤٦٥ هـ / ١٠٧٢ م بعد وفاة ألب أرسلان كان هو الملك الحقيقي ، وأما ملكشاه فلم يكن سوى ملك اسمي ، وربما يكون هو الذي اغتاله سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م[٢] .

كان نظام الملك أحد رجال الدولة ، شغف بالعلوم والحضارة بسبب ذوقه واهتماماته ، وجعلته تربيته العلمية الناجحة يتمتع بالمناقشة مع العلماء ، متحلياً

(١) انظر : كاترمير ، ذوق الكتب ، كرنكو ، مادة كتابخانة في الموسوعة الإسلامية ١٥١ ، ماكنسون ، كبريات المكتبات ٢٩٣ ، أسعد طلس ، النظامية .

(٢) الموسوعة الإسلامية ٩٩٧/٢ ـ ١٠٠٠

بذوق عميق إيجابي رغم مزاجه القاسي ، ودفعته تلك التربية إلى زيارة المؤسسات العلمية ، حتى إنه كان يعقد فيها جلسات لتعليم الحديث الشريف .

وفي عام ٤٥٧ هـ / ١٠٦٤ م[١] أمر بتشييد مدرسة على ضفاف دجلة قرب قصر الخليفة . واستمر العمل في إنجازها حتى عام ٤٥٩ هـ ، حين كان هو غائباً في مهمة خارج بغداد[٢] .

كان في تلك الجامعة الرائعة بناء خاص للمكتبة التي عرفت حيناً باسم دار الكتب . واهتم نظام الملك بها كثيراً ، فحافظ عليها ، وراقب أعمالها[٣] ، وكتب فيها كراسة في الحديث الشريف عند زيارته الأولى لها سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م .

وحُفظ لنا ولحسن الحظ جزء من القصة الإدارية لتلك المكتبة .

كان من أوائل الخزنة فيها أبو يوسف الإسفراييني ، يعقوب بن سليمان بن داود[٤] ، واسمه مشهور (ت ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م) ، كان فقيهاً أديباً[٥] شاعراً خطاطاً[٦] ، وكان خازن الكتب في المكتبة النظامية[٧] ، وبعد وفاته سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م حلَّ محله أبو مظفر ، محمد بن أحمد الأبيوردي ، الشخصية المشهورة في الأدب العربي . وقد أقام هذا في بغداد عشرين عاماً[٨] ، ثم رحل

---

(١) أشرنا لهذا الموضع طبوغرافياً حسبما دلّ عليه العيني (ولي ٢٣٨٨) ١٦ وحدده بشكل أفضل صديقي مصطفى جواد ، انظر المعلم الجديد ، سنة ٨ ، ح ١١٢/٢

(٢) مرآة (المكتبة الوطنية ١٥٠٦) سنة ٤٥٩ هـ .

(٣) البنداري ٧٤ ، تاريخ دولة آل سلجوق .

(٤) انظر عنه بروكلمان ٣٥١/١ ، والملحق ٥٩٤/١

(٥) عيون (الأحمدية بحلب ١٢٣٨) ٩/١٢/ب .

(٦) الأسنوي (الظاهرية ، تاريخ ٥٦) ١٨/أ و ١٩/ب .

(٧) السبكي ٢٩/٤

(٨) إرشاد ٢٤٦/٤

عنها ليبحث عن ثروة تناسب طبعه المزهو وقدراته ، ونجح فيما أراد ، فأصبح واحداً من كبار موظفي السلطان محمد بن ملكشاه ، ملك خراسان . وقد تبين لنا حسب رأي ياقوت أنه كان يتمتع بشخصية ذات همة عالية ، لاتتوقف عن الطموح ، وكان قادراً على بذل أقصى جهده ليرضي غروره ، وشبهه بالمتنبي[١] الأديب العظيم الشاعر ، لكنه اشتهر بعلم الأنساب ، ذاك العلم المفيد جداً للمكتبات ، من حيث المعرفة التي يقدمها عن المؤلفين .

وكان هناك خازن مشهور ، هو أبو زكريا ، يحي بن علي بن محمد الشيباني الخطيب التبريزي ، كان أديباً ، ألف عدّة كتب مهمة[٢] ، كُلف تعليم الأدب والفلسفة في المدرسة النظامية ، كما كلف في الوقت نفسه المحافظة على المكتبة فيها[٣] . ومن الصعب تحديد تاريخ إسناد هاتين المهمتين إليه ، ومن المرجح أنّ ذلك كان بعد خازني المكتبة المذكورين قبلُ . استقر أبو زكريا في بغداد بعد سفر طويل في الشام ، وبقي فيها حتى وفاته التي حدثت فجأة عام ٥٠٢ هـ / ١١٠٨ م[٤] . وبما أن الأبيوردي كان ترك المدينة قبل هذا التاريخ فقد توجب أن يحلّ هو محله .

وكان هناك خازن مكتبة أخير ، هو أكرم الدين أبو سهيل خازن دار الكتب النظامية ، كان معاصراً للعماد الأصفهاني ، وتروى عنه الطرفة التالية[٥] ، قال : « دخل عليّ عزيز بن محمد الشلكي دار الكتب بالنظامية وبيده عصا ، فقلت : إنّ العصا للشيخ رجل ثالثة . فقال على البديهة :

---

(١) المرجع السابق .

(٢) بروكلمان ٢٧٩/١ ، والملحق ٤٩٢/١

(٣) إرشاد ٢٨٦/٧

(٤) خلكان ط ١٢٧٥ ، ٢٤٦/٢

(٥) علي بن ظافر الأزدي ، بدائع البدائه ، القاهرة ١٢٧٨ ، ص ٢٢٢

ضعف جسمي لمشيبي لم يضع مني وقارا
صار حالي عبرة العا قل إن رام اعتبارا
العصا صارت حماري ولما صرت حمارا»

ونعلم أنّ هناك من بين مستخدمي هذه المكتبة من يُدعون بالمشرفين . وسنرى في القسم الوصفي من دراستنا أن هذه الوظيفة تساوي وظيفة معاون خازن المكتبة ، وقد عهد بها في أيامنا إلى من يساعدون أمين المكتبة في إنجاز عمله .

كان الدبّاس أبو جعفر عمر بن أبي بكر بن عبيد الله أحد المشرفين في المكتبة النظامية القديمة ، « وكان شاباً جميلاً فاضلاً ذا فضل وافر ومعرفة بالأدب وعلم الكلام ، وكان حنبلي المذهب أولاً ، ثم انتقل إلى مذهب الشافعي رضي الله عنه ، وأقام مشرفاً على المكتبة النظامية ، وبقي في هذه الوظيفة حتى وفاته سنة ٦٠١ هـ / ١٢٠٤ م »[1] .

« وعيّن الوزير نصير الدين نصير بن المهدي خازناً لهذه الخزانة رجلاً من الشيعة فعارضه في ذلك ناظرها قائلاً : الوقفية تشترط راتباً واحداً لخازن واحد في الخزانة القديمة . فقال له الوزير : سمّه مشرفاً على هذا الشيعي في هذه الوظيفة ، ونحافظ على شروط المنشئ نظام الملك »[2] .

وفي سنة ٥١٠ هـ نشب حريق في هذه المدرسة ، وسريعاً ما نقل طلابها كتب المكتبة المهددة بالاحتراق ، والتهمت النيران بناء المكتبة[3] ، مما أوجب إعادة تشييده ، ووضعت الكتب على رفوف جديدة .

---

(١) ابن الساعي ، تاريخ ١٦٠

(٢) هندوشاه النخجواني ، تجارب السلف . واتصلت من أجل هذا النص بصديقي مصطفى جواد .

(٣) ابن الأثير ٢٦٦/١٠ ـ ٢٦٧ ، عيون (أحمد الثالث ٢٩٢٢) ٢٥/١٦/ب . العيني (ولي ٢٣٨٨) ٧٠٩/١٦ . ابن الفرات (فيينا ، أ ـ ب ١١٧) ٩٤/١/أ ، المنتظم ، ط حيدرباد ١٨٤/٩ . ابن كثير (الأحمدية بحلب ٢٢١٧) ٧ سنة ٥١٠ هـ .

وهـا هـو ذا علي بن أحمـد البكري ، أو على الأرجـح علي بن عمر بن أحمـد (ت ٥٧٥ هـ / ١١٧٩ م) ، وله معرفة جيدة بالأدب ، كان أحـد خزنـة المكتبـة النظامية التي جـددت ، وهو مليح الخـطّ جيّـد الضبـط ، كتب من كتب الأدب الكثير ، الـذي يفـوق الحصر[١] . ويمكن أن نخمّن أنّ جـزءاً منهـا قـد أغنى هـذه المكتبة .

ويرى ابن الأثير أنّ الخليفة العباسي الرابع والثلاثين[٢] ، الناصر لـدين الله ، شيّد عام ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م صرحاً مخصصاً لخدمة مكتبة المدرسة النظامية[٣] .

وهكـذا وجـدت مكتبتـان بـاسم النظـاميـة : الأولى قـديمـة ، وهي مكتبـة نظام الملك ، والأخرى حديثة وهي مكتبة النـاصر ، وليست حـداثتهـا ببنـائهـا فحسب ، بل وبمجموعـاتهـا التي تجـاوزت آلاف الكتب المنتقـاة من خـزانـة كتب الخليفة الخـاصـة[٤] ، وهي الكتب التي اختـارهـا أبو الرشيـد الملقب بـالبرهـان ، مُبشِّر بن أحمد بن علي الرازي المتوفى سنة ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م[٥] .

وتدخُّلُ الخليفة الشخصي في أعمال المدرسة النظامية عمل جـدير بـالانتبـاه ، لأنه يرتبط بالسياسة العامـة ، من أجل توطيـد سلطتـه في الخلافـة ؛ فقـد كانت النظامية مركزاً مهماً للحركة العلمية المتجهة نحو السياسة ، بسبب كثرة أسـاتـذتهـا المسيطرين وطلابها النشيطين ، فكان لا بد للناصر من أن يهتم بها .

---

(١) إرشاد ١٠٤/٥ ، بغية ٣٢٦

(٢) الموسوعة الإسلامية ٩٢٠/٣

(٣) ابن الأثير ٦٧/١٢ ، ابن كثير (فيض الله ، ١٣٩٨ هـ) ١٥٧/١١/ب ، تغري بردي ، ط القـاهرة ١٣٢/٦ ، وانظر خلاصة الذهب ٢٠٨

(٤) ابن الأثير ، المرجع السـابق ، ابن كثير ، المرجع السـابق (فيض الله ١٥٢٤) ٧٥/٩/أ . ويـزعم ابن تغري بردي أن الناصر نقل لهذه المكتبة عشرة آلاف مجلد بالخط المنسوب وخطوط أخرى .

(٥) القفطي ٢٦٩

وكان للمدرسة النظامية ـ التي سميت بهذا الاسم نسبة لمؤسسها ـ أمناؤها ، نذكر منهم عبد القادر بن داود بن أبي ناصر بن النقّار الواسطي المتوفى سنة ٦١٩ هـ / ١٢٢٢ م ، الذي اشتغل فيها مدة ، ثم تركها ليقرئ في بيته الفقه الشافعي والفرائض[1] .

قال ابن الباقلاني : كان علي بن عبيد الله بن علي المتوفى سنة ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م مشرفاً منذ سنة ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م ، تعلم الفقه في النظامية وعين قاضياً في الكوفة سنة ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م ، ثم ترك منصبه بعد شهر ، وعاد إلى النظامية طالباً فيها ، ومشرفاً في الناصرية[2] .

وأما علاء الدين أبو الحارث أرسلان بن داود الأترازي (ت ٧٠٢ هـ / ١٣٠٢ م) الفقيه الأديب فسكن النظامية ، وكان معيداً فيها ، ودرّس النحو في الناصرية ، مع توليه خزانة كتبها[3] . كذلك سكن النظامية فخر الدين أبو محمد جعفر بن مكي الحاجب ، كان أديباً وكان خازن كتب الناصرية ، توفي بعد عام ٧٢٩ هـ / ١٣٢٨ م[4] .

واسترعت هذه المكتبة انتباه الخلفاء والأفراد ؛ فقد وقف محمد بن محمود بن الحسن محب الدين بن النجار (ت ٦٤٣ هـ / ١٢٤٥ م)[5] مصنف التاريخ الذي ذيّل به على (تاريخ بغداد) للخطيب البغدادي المعروف ، وقف كتبه

---

(١) الوافي (أحمد الثالث ٢٩٣٠) ٢٥/١٩/ب ، ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة ٣٨٢/٢ ، ويرى الدبيثي في ذيل (المكتبة الوطنية ٥٩٢٢) ١٧٨/أ أنه بقي في المدرسة التي كان يقرئ فيها مدة لا بأس بها .

(٢) الوافي (أحمد الثالث ٢٩٢٠) ١٢٢/٢١/ب .

(٣) ابن الفوطي ، تلخيص (الظاهرية ، تاريخ ، ٢٦٧) ورقة ١١

(٤) المرجع السابق ، الكتاب المذكور ، ورقة ١٦٧

(٥) انظر بروكلمان ٣٦٠/١ ، والملحق ٦١٣/١

بالنظامية[1] والمقصود النظامية القديمة . وكان لابد لهذا المحدث والمؤرخ العظيم أن يجمع كتباً كثيرة خلال رحلته في البلاد الإسلامية . كما وقف تاج الدين ، علي بن أنجب بن الساعي ، القارئ المحدث الفقيه المؤرخ الشاعر (ت ٦٧٤ هـ / ١٢٧٥ م) كتبه في النظامية[2] . وطبيعي أن تحتوي هذه المجموعة على كتب كثيرة نفيسة . وأما الفقيه الحافظ محمد بن علي ، أبو جعفر الأزدي الطبري (ت ٥١٨ هـ / ١١٢٤ م) فوقف مجموعة كتبه على النظامية[3] .

ويمكننا أن نذكر من بين المؤلفات التي ضمتها المكتبة كتاب غريب الحديث لإبراهيم الحاربي ، وهو في عشرة مجلدات ، نسخه أبو عمر بن حيوه ، وقدمه هدية لنظام الملك[4] . كما كان فيها ذات يوم كتاب (الأيك والغصون) للمعري[5] .

وتبنّت هذه المكتبة قانون المؤسسة الأم نفسه ، وقامت النظامية من أجل نشر المذهب الشافعي ، ونصّ قانونها على أن يكون متولي كتبها أو خازنها شافعياً[6] ، ومن أجل هذا تحوّل الدبّاس ـ أحد المشرفين فيها ـ عن المذهب الحنبلي إلى المذهب الشافعي ، ليقبل في عمل فرعي بها[7] .

---

(١) ابن شاكر ، فوات ٢٦٤/٢

(٢) الأسنوي ، طبقات الشافعية (الظاهرية ، تاريخ ، ٥٦) ١٢٢/ب .

(٣) الذهبي ، تاريخ الإسلام (الأحمدية بحلب ١٢٢٠) ٢٢٩/٤/أ .

(٤) السبكي ٢٣٠/٣

(٥) ابن العديم ، الإنصاف في إعلام النبلاء ١١٤/٤

(٦) المنتظم (أياصوفيا ٣٠٩٧) سنة ٤٨٥ هـ .

(٧) انظر ص ١٩٧

٢ ـ المكتبة المستنصرية[١] :

أمر الخليفة المستنصر بعد سنتين من تولّيه الخلافة بالشروع في بناء[٢] مدرسة للمذاهب الأربعة ، وأما المكان الذي عيّن ليشغل هذه المدرسة العظيمة فحدّد على شطّ دجلة ، من الجانب الشرقي مما يلي دار الخلافة[٣] ، قرب المدرسة النظامية[٤] . وقد بُذلت الأموال المخصصة للنفقات بسخاء عجيب ، ولم تنته الأعمال فيها إلا بعد ست سنوات ، وذلك عام ٦٣١ هـ / ١٢٣٣ م ، وكان تشييد المدرسة رائعاً جداً ، لم يُشهد له مثيل ، وذهب الخليفة بنفسه إليها ، يتبعه الوزراء وكبار الموظفين ، فافتتحها بأبهة[٥] .

وكان الخليفة مولعاً بالكتب التي ارتفع ثمنها زمن خلافته ارتفاعاً باهظاً ، وانكبّ على قراءتها ، وأحب الخطوط[٦] ، كما أهدى للمدرسة أفضل الكتب المشهورة في عصره[٧] ، المكتوبة بخطّ أشهر الخطاطين ، كابن مُقلة وابن البواب[٨] . كذلك بلغت نسخ الربعات الشريفة والكتب النفيسة المحتوية على العلوم الدينية والأدبية ماحمله مئة وستون حمّالاً[٩] . وعلى قول ابن عنابة

---

(١) انظر كاترمير . ذوق الكتب . بنتو ، المكتبات ، ١٥١ ، ماكنسون ، أربع مكتبات كبرى في بغداد ، ٢٩٧ ـ ٢٩٨

(٢) ابن الفوطي . الحوادث ٥٤

(٣) أبو الفداء ١٧٩/٣

(٤) كما يفهم من كلام العيني (ولي ٢٣٨٨) ٧٠٩/١٦

(٥) ابن كثير (ولي ٢٣٥٠) ٤٢/٤ ، ابن الفوطي ، الحوادث ٥٥ ـ ٥٦

(٦) الوافي (أحمد الثالث ٢٩٢٠) ٩٧/٢٦/ب .

(٧) ابن كثير (النسخة المذكورة) ٥٤ ، و (المكتبة الوطنية ، عربي ، ١٥٠٦) ٣٧/ب و ٨٩/أ .

(٨) مرآة (فيض ١٥٢٥) ١٩/٩/ب ، وط شيكاغو ٤٨٩

(٩) ابن الفوطي ، المرجع السابق ٥٤ . الإربلي (خلاصة الذهب ٢١٢) ويروي ابن الساعي أنّ عدد الحمالين ٢٩٠ حمّالاً . وعند الصفدي (الأحمدية ، تاريخ ١٢١٦) ٩٤/ب والسيوطي ، تاريخ الخلفاء ١٨٥ ، أنّ الذي نسخ عن ابن الساعي كتب رقم ١٦٠

العلوي ٨٠٠٠ مجلد[١] ، وهو رقم مبالغ فيه بالتأكيد . ويستثنى منه الكتب التي أهداها إلى المكتبة فيما بعد كبار الموظفين وأصدقاء المدرسة ، اقتداء بالخليفة ، واكتساباً لعطفه[٢] .

أودعت هذه الكتب في المكتبة الفريدة[٣] ، وأمر المستنصر الشيخ عبد العزيز [ابن دَلَف] شيخ رباط الحريم الطاهري[٤] وابنه ضياء الدين أحمد الخازن بخزانة كتب الخليفة التي في داره بالحضور إلى المستنصرية وإثبات الكتب واعتبارها وترتيب مؤلفاتها ، فقاما بذلك ، ونظماها قدر الإمكان ، ورتباها حسب فنونها ، ليسهل تناولها ، ولا يتعب مناولها[٥] . واستدعي ثلاثة أشخاص لمراقبة سير العمل على الوجه الصحيح فيها ، وهم : شمس الدين علي بن الكتبي الخازن[٦] ، وعماد الدين علي بن الدباس المشرف ، وجمال الدين إبراهيم بن حذيفة المناول[٧] . وما أن بدأ هؤلاء عملهم حتى أهملوا واجباتهم ، ولما زار الخليفة المكتبة عام ٦٤٠ هـ / ١٢٤٢ م ودهش للفوضى التي تعمها أمر بحبس المستخدمين يومين[٨] .

وكان للمكتبة المستنصرية أهمية كبرى من حيث مكانها الذي تشغله من المدرسة ، وكانت الشخصيات التي تجوز ببغداد لا تتوانى عن زيارتها ؛ ففي عام ٦٣٤ هـ / ١٢٤٥ م دخل نور الدين أرسلان شاه بن عماد الدين زنكي المكتبة عند

---

(١) عمدة الطالب (المكتبة الوطنية ، عربي ٢٠٢١) ١٢٤/ب .
(٢) عيون (فاتح ٤٤٤٠) ٤ ، سنة ٦٣١ هـ . الصفدي (الأحمدية ١٢١٦) ٩٤/ب .
(٣) الذهبي ، دول الإسلام ١٠٣/٢
(٤) وكان خازناً لعدة مكتبات في بغداد .
(٥) ابن الفوطي ، الحوادث ٥٤
(٦) الصفدي ، تاريخ (الأحمدية بحلب ١٢١٦) ٩٤/ب .
(٧) الفوطي ٥٦
(٨) المرجع السابق ١٧٠

زيارته للمدرسة ، وأمضى فيها ساعة كاملة[1] ، كما زارها أيضاً سنة ٦٩٦ هـ / ١٢٩٦ م محمود غازان التتري أمير بلاد فارس (٦٧٠ هـ / ١٢٧١ م - ٧٠٣ هـ / ١٣٠٣ م) ، فأمضى فيها وقتاً[2] .

ووفد إليها سنة ٦٩٨ هـ / ١٢٩٨ م قطب جيهان حَمْد بن عبد الرزاق قاضي قضاة المماليك ، يصحبه رهط من علماء قزوين ، وعندما شاهد الكتب المكدسة التي تضم مجموعة فريدة ، لم ينظر في كتاب منها ، بل سأل إن كان في المكتبة كتب الهياكل السبعة ، لأنه كان يريد أن يضعها مكان كتابه المفقود[3] .

وحينما كان ابن الفوطي خازناً لهذه المكتبة زارها أمير الحج عز الدين زيد بن علي العلوي[4] ، والأمير عز الدين زيد بن محمد العلوي المكي[5] ، والكاتب فخر الدين عبد الله بن أحمد الهشتي الخوارزمي[6] .

وغالباً ما كان يؤم المكتبة رجال مشهورون ؛ ذكر ابن الفوطي أربعة منهم في معجمه وهم :

١ ـ الفقيه علاء الدين علي بن يعقوب الكنكري ، الذي نسخ لنفسه عدداً من كتب الفقه[7] .

٢ ـ الفقيه قوام الدين أبو بكر بن أبي النجم البغدادي[8] .

---

(١) المرجع السابق ٨٩
(٢) الفوطي ٤٩٢
(٣) الفوطي ، تلخيص ، مجموع (الظاهرية ، تاريخ ٢٦٧) ٢٢١
(٤) المرجع السابق ٦
(٥) المرجع السابق ٦
(٦) المرجع السابق ١٩٤
(٧) المرجع السابق ١٢١
(٨) المرجع السابق ٢٣٩

٣ ـ الأديب المهندس قوام الدين هبة الله بن أحمد الشهرباني (ت ٦٨٢ هـ / ١٢٨٥ م) ، الذي عين في المستنصرية مدرساً للنحو[١] .

٤ ـ الأديب قوام الدين محمد بن علي بن العكيكي[٢] .

ولم يلبث وقف الكتب أن أغنى المكتبة . وقد نسخ الطبيب الحكيم عيسى بن القسيس الحظيري كتاب (القانون في الطب) لابن سينا بخطه في شبيبته ، « ثم خرجت النسخة عن ملكه بحكم شرعي ، وحصلت في خزانة المستنصرية »[٣] .

ولما أسنّ عيسى بن القسيس الحظيري طلب النسخة ، وقابلها ، وصححها ، وأعادها إلى مكانها ، لأنه كان يريد ألا يزري عليه بعد موته أحد[٤] .

أما الفقيه فخر الدين الحسن بن محمد الطبسي المعيد في المدرسة فقد نسخ كتباً كثيرة بخطه وضبطه ، واقتنى كتباً أخرى نفيسة ، ووقفها على المدرسة ، وشرط فيها الذي شرطه الإمام المستنصر ، واستفاد الناس بها[٥] .

ومن بين الكتب التي كانت في المكتبة يمكننا أن نذكر كتاب (تاريخ بغداد) للخطيب البغدادي في اثني عشر مجلداً ، نسخها المصنف بخطه[٦] ، ومسند أحمد بن حنبل في تسعة عشر مجلداً ، نقل عن النسخة التي كتبها ابن الجواليقي[٧] ، وكان هذان الكتابان في عصر ابن الدواليبي (توفي نحو ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م)[٨] .

---

(١) المرجع السابق ٢٥٣

(٢) الفوطي ، المرجع السابق ٢٤٨

(٣) ابن العبري ٤٧٩

(٤) المرجع السابق .

(٥) الفوطي ، تلخيص (الظاهرية ، تاريخ ٢٦٧) ١٦٧

(٦) ابن الدواليبي ، ثابت (الظاهرية ، حديث ٢٨٥) ١٤٠/أ .

(٧) المرجع السابق ٦٠

(٨) ذكر حاجي خليفة عدداً من المجلدات المختلفة عندما تحدث عن نسخ المستنصرية : ١٤ مجلداً للكتاب الأول (كشف ، ط استانبول ٢٢١/١) الطبعة الأولى ، و ٢٤ للثاني (المرجع السابق ٤٣١/٢) .

كما وجدت نسخة منه في المستنصرية في عصر المقريزي[1] .

ذكرنا من قبل أن المستنصرية كانت مدرسة للمذاهب الأربعة ، الحنفية والشافعية والحنابلة والمالكية ، من كل مذهب اثنان وستون فقيهاً ، وأربعة معيدين ، ومدرس لكل مذهب ، وشيخ حديث ، وقارئان ، وعشرة مستمعين ، وشيخ طب ، وعشرة من المسلمين يشتغلون بعلم الطب[2] . وقد رأينا أنّ فيها ثلاثة موظفين ، وهم الخازن ومعاونه والمناول . وذكر في الوقفية محدث واحد (شيخ عالي الإسناد) ، مع قارئين وعشرة طلاب ، يقيمون في المكتبة لدراسة الحديث الشريف . وكانت دروس الحديث الشريف تقام أيام السبت والاثنين والخميس[3] . وخصص لكل من يعمل بالمدرسة راتبٌ شهري بحسب وظيفته :

	خبز بالرطل يومياً	لحم بالرطل يومياً	دينار بالشهر
المدرس	٢٠	٥	١٢
الخازن	١٠	٤	١٢
المعيد	٧	٢	٣
مساعد الخازن	٥	٢	٣
المناول	٤	١	٢
الطالب	٤	١	٢ و١٠ قراريط[4]

ونستنتج من ذلك أن خازن الكتب يأتي في المرتبة الثانية ، والمدرس أعلى منه مكانة . أما معاون الخازن فيتقاضى مثل راتب المعيد تقريباً ، وهذا أعلى منه

(١) الخطط ٣٥٨/٣

(٢) ابن كثير (ولي ٢٣٥٠) ٤٢/٤

(٣) الإربلي ، خلاصة الذهب المسبوك ٢١٢

(٤) عيون (فاتح ٤٤٤٠) ٤ ، سنة ٦٣١ هـ .

مرتبـة ، ولـذا يـأخـذ من الخبز أكثر مما يـأخـذه برطلين . وأمـا المنــاولـون فهم متساوون ، سواء اشتغلوا بالمكتبة ، أم عملوا بـالمـدرسـة . وهـذه الملاحظـات التي أوردناها هنا ستساهم في فهمنا للقسم الوصفي للمكتبـات ، وتوضح دور المكتبـات العربية وأهميتها .

وهكـذا يظهر أن عـدد المهتمين بـالخزانـة خمسـة حين فتحت ، ثم تضـاءل مع الزمن إلى أربعة ، وهم نـاظر الخزانـة أو المشرف عليهـا ، والخـازن ، والمشرف على الخازن ، والمناول .

وكان النـاظر زمن المستنصر عفيف الـدين عبـد العزيز بن دلف النـاسـخ ، (ت ٦٣٧ هـ/١٢٣٩ م) قـال ابن السـاعي : « وفوض إليـه المستنصر أمر خـزانـة الكتب بمدرسته »[١] ، وهذا يعني أنه كلفه بالنظر عليها ، وليس بخزانـة كتبهـا كما ادعى ابن الجزري[٢] ، فقد كان شمس الدين ـ كما مرّ معنا ـ هو الخازن فيها ، أمـا بعـد المستنصر فـالأرجح أن الإشراف على الخزانـة انتهى فيـه إلى شيخ المـدرسـة ، وهـذا هـو محيي الـدين محمـد بن عبـد الله بن محمـد الـواسطي العـاقـولي الفقيـه (ت ٧٦٨ هـ/١٣٦٦ م) « حصّل مشيخـة المستنصريـة والإفـادة بهـا عن والـده ، والإشراف منها على خزانة الكتب »[٣] .

وفي سنة ٧٢٨ هـ/١٣٢٧ م توفي والده[٤] تاركاً له جميع وظـائفـه[٥] ، وهكـذا حصل الإشراف على الخزانة مع المشيخة .

---

(١) ابن رجب ، ذيل (الظاهرية تاريخ ٦١) ٢٥٨/أ .

(٢) ابن الجزري ، غاية النهاية ٢٩٣/١٢

(٣) ابن رافع السلمي ، منتخب ١٨٥

(٤) شذرات ٨٧/٤

(٥) المرجع السابق .

وتتــابــع على الإشراف خــزنــة كبــار ، منهم علي بن الحسن بن أنجب بن عثمان بن الساعي[1] (ت ٦٧٤ هـ/١٢٧٤ م) ، وكان مؤرخاً فقيهاً إلى علوم أخرى اشتهر بها ، ومنهم جمال الدين ياقوت المستعصي[2] (ت ٦٩٨ هـ/١٢٩٨ م)[3] ، وهو أحد الخطاطين المشهورين ، ومحيي الـدين أبو حـامـد يحيى بن شمس الـدين أبي المجد الخالدي شيخ ابن الفوطي[4] ، وهذا لم يمـارس على الأرجح أي وظيفـة ، فقد استناب عنه فخر الدين أبا بكر محمد بن عبد الله التفتـازاني المحـدث الفقيـه ، الـذي تولى القضـاء[5] . ومن الخـزنـة عبـد الرزاق بن أحمـد بن الفـوطي المؤرخ الأديب ، ولـد عـام ٦٤٢ هـ/١٢٤٤ م ، وأسر عنـد غـزو التتر ٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م ، « وولي بعد إطلاق سراحه خزانة كتب المستنصرية »[6] ، وعندما تسلّم عمله هـذا اشتغل مع الخازن جمال الـدين يـاقوت المستعصي[7] ، ثم مع الخـازن فخر الـدين أبي بكر محمد بن عبد الله التفتازاني[8] ، وكلف فيما بعـد خزن كتب الرصـد بمراغـة بضع عشرة سنة ، وكان بصيراً بالكتب النفيسة فيها ، عارفاً بالمؤلفـات التـاريخيـة التي لا تحصى ، ثم عاد إلى بغـداد ، فولي خزانـة كتب المستنصريـة ، فبقي متوليـاً عليهـا إلى أن مـات (٧٢٣ هـ/١٣٢٣ م) . ويقــال إنــه ليس في البـلاد أكثر من هاتين الخزانتين ، اللتين باشرهما[9] . وما من شك أنّه استفاد منهما في مؤلفاته التي

---

(١) شذرات ٣٤٣/٥

(٢) الفوطي ، تلخيص (الظاهرية ، تاريخ ٢٦٧) ٢٤٨

(٣) بروكلمان ٥٩٨/١ ، ذكر مخطوطة كتبها بنفسه ٧٠٤ هـ/١٣٠٤ م وربما تكون مزيفة .

(٤) الفوطي ، المرجع السابق ١٨٤

(٥) المرجع السابق .

(٦) الطبراني ؛ المكتبة الوطنية ، ١٥١٦) ٢٢٩/أ .

(٧) الفوطي ، المرجع السابق ، ٢٤٨

(٨) المرجع السابق .

(٩) الذهبي ، تذكرة ٢٧٥/٤ ، ابن رجب ، ذيل (الظاهرية ، تاريخ ٦١) ٣١٢

قيل إنها (وقر بعير)[1] وكان يكتب في كل يوم أربع كراريس بخطه الفائق الرائق ، ويكتب وهو نائم على ظهره[2] . وقد أوردنا كثيراً من أخبار خزانة المستنصرية نقلاً عنه . وكان يهتم بالكتب ، شأن الخزنة العارفين . فكان قوام الدين علي بن عبد الله الشيباني ، يتردد عليه ، وكان عارفاً بخطوط المصنفين وبقيمة الكتب ، واقتنى كتباً نفيسة ، وكان يعرض مايحصل له من النسخ المختارة بخطوط الأدباء[3] . ونعرف من بين المناولين فيها محمد بن سعيد الحدادي صاحب ابن الساعي ووصيَّهُ ، وابنه عبد الرحيم بن محمد المناول (ت ٧٤١ هـ/١٣٤٠ م) كان له بخزانة كتب المستنصرية معرفة تامة[4] .

٣ ـ خزائن المدارس الأخرى ببغداد :

الجيلية ـ جمع الفقيه الحنبلي أبو سعد المُخَرِّمي المبارك بن علي (ت ٥١٣ هـ/١١١٩ م) كتباً كثيرة ، لم يُسبق إلى جمع مثلها ، وبنى مدرسة بباب الأزج ، ولعله وقف فيها بعضاً من كتبه إن لم يكن كلها . ثم وسع تلميذه الشيخ عبد القادر الجيلي (ت ٥٦١ هـ/١١٦٥ م) بناء المدرسة ، وسكن فيها ، فعرفت به[5] .

وكان في هذه المدرسة على مانعلم مجموعتان : الأولى كتب أبي الفضل بن ناصر ، التي نرى ذكرها في سماع على نسخة من كتاب الأولياء لابن أبي الدنيا[6] : « من الأصل الذي بخط ابن جرير من وقف ابن ناصر بمدرسة الشيخ عبد القادر الجيلي

---

(١) ابن رجب ، ذيل (الظاهرية ، تاريخ ٦١) ٢١٢

(٢) ابن شاكر ، فوات ٢٧٢/١

(٣) الفوطي ، المرجع السابق ٢٤٥

(٤) ابن حجر ، الدرر الكامنة ٣٦٠/٢

(٥) المنتظم ، ط حيدرآباد ، ٢١٦/٩ ، ابن رجب (الظاهرية ، تاريخ ٦١) ٦٤/أ ، العليمي (نسخة مصورة في المجمع العلمي العربي) ٢٢٩/١ ، ابن كثير ، ط القاهرة ١٨٥/١٢

(٦) الظاهرية ، عام ٤٥٧ ، ٢٢/أ .

ببغـداد » . ونقـع على ذكر آخر لـه في نسخـة أخرى في الظـاهريـة[1] ، كما يلي : « شاهدت كتاب ذم المسكر ، نسخه بخطـه الخطيب في وقف ابن نـاصر » . والمقصود أبو الفضل بن نـاصر ، كما ذكر ذلـك بعـد أسطر . فهو إذن أبو الفضل محمـد بن نـاصر السلامي الحنبلي المحدث الأديب (ت ٥٥٠ هـ/١١٥٥ م)[2] .

والثـانيـة ، كتب أبي الحسن البطـائحي ، علي بن عسـاكر (ت ٥٧٢ هـ/١١٧٦ م) المقرئ المحـدث النحوي . قـال يـاقوت[3] : ووقف كتبـه على مـدرسـة الشيـخ عبـد القـادر الجيلي . وقـال ابن رجب[4] : إنـه وقف كتبـه بمدرسة الحنابلة بباب الأزج ، أي في مدرسـة الجيلي . ولم يحـدد ابن الجوزي مكان هذه الكتب عندما أشار إلى وقفها[5] .

وأخيراً يروي ابن كثير في النسخة المطبوعة من (البدايـة والنهـايـة)[6] أنـه وقف كتبـه بمسجـد ابن جرارة ببغـداد . وفي نسخـة خطيّـة منـه[7] : بمسجـد ابن جردة . والمؤرخون أثبت أقوالاً عندنا . إلا إذا كان المسجـد الـذي يشير إليـه ابن كثير قسم من مدرسة الجيلي[8] .

مدرسة ابن هبيرة ـ اكتملت سنة ٥٥٧ هـ/١١٦١ م أعمـال بنـاء المـدرسـة التي أنشـأهـا الـوزير ابن هبيرة (يحيى بن محمـد) في بـاب البصرة[9] ، وأوقف منشئهـا

---

(١) الظاهرية ، مجموع ، ٦٠/٢/ب .

(٢) ترجمته في المنتظم ، ط حيدرآباد ، ١٦٣/١٠ و ٢٢٥/١٠ ، ابن رجب (الظاهرية ، تـاريخ ٦١) ٩٢/أ .

(٣) إرشاد ٢٧٤/٥

(٤) ذيل (الظاهرية ٦١) ١٣٩ ، عليمي (نسخة مصورة ٢٩٨/٢) .

(٥) المنتظم ، ط حيدرآباد ، ٢٦٧/١٠

(٦) البداية ٢٩٦/١٢

(٧) المرجع السـابق (الأحمدية بحلب ١٢١٧) ٧ ، سنة ٥٧٢ هـ .

(٨) ابن الساعي ، الجامع المختصر ٣٢ ، يذكر هذا المسجد باسم جردة .

(٩) مرآة ، ط شيكاغو ١٤٨

عليها بعض كتبه . وبعد وفاته « استوزر الخليفة شرف الدين أبا جعفر أحمد بن محمد البلوي ، فشرع في التضريب على أولاد الوزير وأسبابه ، فقبض على ولديه ... وبيعت كتب الوزير الموقوفة على مدرسته وغيرها ، حتى إنّه بيع كتاب (البستان في الرقائق) لأبي الليث السمرقندي بخط منسوب ـ وكان مذهباً يساوي عشرة دنانير ـ بدانقين وحبة ، فقال بعض الحاضرين : ماأرخص هذا البستان ! فقال جمال الدين الحصني : ثِقْل ماعليه من الخراج أرخصه ، أشار إلى الوقفية وغيرها ، وقال بعض الحاضرين : كيف يجوز بيع الكتب بعد أن حكم بها القاضي ؟ فأُخذ وضرب ضرباً مبرّحاً ، وحبس ، وامتنع الناس من الكلام في ذلك »[١] . وقيل إنه جمعت من مدائح ابن هبيرة ما يزيد على مئتي ألف قصيدة في مجلدات . فلما بيعت بعد موته اشتراها أحد خصومه ، فغسلها[٢] .

الفخرية ـ بنى الأديب فخر الزمان أبو الفضل مسعود بن علي ، المعروف بابن الصَّوابي (ت ٥٧٨ هـ/١١٨٢ م) المدرسة الفخرية بعقد المصطنع في المأمونية ، ووضع فيها خزانة كتب ، تضم مصنفات في جميع أنواع العلوم ، وكان من بيت الوزارة فأعرض عنها وجعل داره رباطاً للصوفيين[٣] .

الجوزية ـ بنى المؤرخ المشهور الفقيه الواعظ أبو الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي مدرسة بدرب دينار ، وقف عليها كتبه ومؤلفاته ، وسئل عن عددها فأجاب : إنها تزيد على ثلاث مئة وأربعين كتاباً يتراوح كل كتاب بين كراسة واحدة وعشرين مجلداً[٤] .

---

(١) المرجع السابق ، ١٦٣

(٢) ابن رجب (الظاهرية ، تاريخ ٦١) ١٨١/أ .

(٣) الفوطي ، تلخيص (الظاهرية ، تاريخ ٢٦٧) ١٧٨ . وابن الساعي (جامع ، ١٢) يذكر الواقف باسم فخر الدولة أبي المظفر بن المطلب .

(٤) ابن رجب (الظاهرية ، تاريخ ٦١) ١/٦٧/أ . ويذكر هذه المدرسة ابن الساعي ، الكتاب المذكور ٦٥

مـدرسـة شـارع ابن رزق الله ـ أنشـأت أم الخليفـة أبي أحمـد عبـد الله المستعصم بالله مدرسة بظاهر محلة شارع ابن رزق الله بـالجـانب الغربي ، وأوقفت على هذه المدرسة تفسير أبي الحسن المـاوردي المسمى بـالعيون والنكت . وبقي من النسخة الموقوفة مجلدان ، أحدهما وهو الخامس عند السيد باش أعيـان في البصرة ، والآخر وعليه أنه الثالث دخل في ملـك السيـد أسعـد العينتـابي بحلب ، كما أشـارا إليه[1] وعلى المجلدين إشارة وقف متماثلة تقريباً ، وصورتها مايلي :

« هذا ماوقفه وتصدق به الجهة الشريفة المكرمة المقدسـة[2] الزكيـة المعظمـة جهـة المستعصم أمير المؤمنين ، وأمرت أن يكون في المـدرسـة الميمـونـة التي ـ أمرت بإنشائها بظاهر شارع ابن رزق الله بالجـانب الغربي . وأن يعـار برهـان حـافـظ للقيمـة فمن بـدل ذلـك أو قصر في حفظـه كائنـاً من كان سـواء الخـازن أو المستعير أو غيرهمـا فعليـه لعنـة الله والملائكـة والنـاس أجمعين ، ولا يقبـل الله منـه يـوم القيامة ، فمن بدله بعدما سمعه فإنما إثمـه على الـذين يبـدلونـه إن الله سميع عليم . وكتب في شهر رمضان المبارك من عام ٦٥٢ هـ/١٢٥٤ م » .

مدرسة عبيد الله ـ أمر الخليفة الناصر (ت ٦٢٢ هـ/١٢٢٥ م) بإقامـة أبنيـة عديدة من بينها مشهد عبيد الله ، وجلب إليه مصاحف وكتباً نفيسـة ، مكتوبـة بـالخـط المنسوب[3] . والمشهـد هو المؤسسـة المـذكورة في الخبر التـالي : وقع الغرق ببغـداد عـام ٧٢٥ هـ/١٣٢٤ م ودام أربعـة أيـام ، فخربت أمـاكن كثيرة ، منهـا

---

(١) وتلطف السيد ياسين باش أعيـان ، فـأرسل إليَّ وصفـاً مفصّلاً للنسخـة التي بحوزتـه وذكر أنّ نسخة السيد محمد العينتابي يجب أن تكون المجلد السادس لأنها تكمل الفصول الموجودة في نسخته هو .

(٢) وتعني كلمة (الجهة) قرابة وثيقة من الخليفة كأمه أو أخته .

(٣) الوافي (أحمد الثالث ٢٩٢٠) ٢/٤٩/أ ، ونسب هذا المصدر العمل خطأ للظـاهر . ولمحمد عبـاس العزاوي رأي آخر في مؤسس هذا المشهد . انظر تاريخ العراق ٢٩٦/١

مدرسة عبيد الله ، وغرقت خزانة كتبها التي بها وكانت تساوي عشرة آلاف دينار[1] . وهذا المشهد مدرسة في الوقت نفسه ، واحتوى على خزانة من أغنى الخزائن .

البشيرية ـ وكان في المدرسة البشيرية[2] خزانة كتب عليها خازن يسمى فخر الدين إبراهيم بن حسن ، ويعرف بابن البواب الكاتب ، كان شاعراً كاتباً ، نسخ كتباً كثيرة بخطه الصحيح ، وكُلف كتابة فهرس المدرسة البشيرية ، فأنجزه بطريقة حسنة وذلك سنة ٧١٤ هـ/١٣١٤ م[3] .

المسعودية ـ بنى الخواجة مسعود بن سديد الدولة منصور (ت ٧٨٥ هـ/١٣٨٥ م) مدرسة للمذاهب الأربعة على غرار المستنصرية ، ووقف عليها الأوقاف الكثيرة ، وكان فيها دار للكتب ، نسخ معظمها بخطه البديع[4] .

٤ ـ خزائن المساجد ببغداد :

الزيدي ـ « لما عاد عضد الدين ابن رئيس الرؤساء إلى الوزارة بعث إلى الشريف الزيدي أبي الحسن علي بن أحمد بألف دينار ، وكتب للخليفة المستضيء يقول : إني نذرت إن عدت إلى الوزارة بعثت إلى الشريف بألف دينار . وفعل الخليفة مثلما فعل وزيره ، وبعث إليه بألف دينار أيضاً . ولم ينفق الشريف المال ، بل اشترى به داراً بدرب دينار الصغير[5] . وبناها مسجداً ، ثم اشترى بما بقي معه كتباً نفيسة ، ووقفها على المسجد »[6] .

---

(١) ابن الوردي ٢٧٧/٢

(٢) ذكر العزّاوي هذه المدرسة في عدة مواضع ، تاريخ العراق ج١ ، انظر الفهرس .

(٣) الفوطي ، تلخيص (الظاهرية ، تاريخ ٢٦٧) ١٤٧

(٤) الغياثي ، تاريخ ، ص ١٨٥ ، وذكرها العزاوي في كتابه المذكور١٧٦/١

(٥) انظر ياقوت ، معجم البلدان ٥١٨/٢

(٦) مرآة ، ط ، شيكاغو ٢٢٧

وكان الشريف الزيدي (ت ٥٧٦ هـ/ ١١٨٠ م) شافعياً . وهو أحد الأعيان الأفراد الأخيار والعلماء الزهاد ، فقيه محدث[١] ، كتب وحصل الأصول الكثيرة حتى تهيأ له من المصنفات والمسانيد والأجزاء شيء كثير وقفه بمسجده[٢] ، بالإضافة إلى الكتب التي اشتراها بالمال الذي وهبه له الخليفة ووزيره .

وكان هذا الوقف مشهوراً ، حتى قال ياقوت[٣] وهو يترجم له : الزيدي صاحب وقف الكتب بدار دينار ببغداد . ويشير ابن الأثير[٤] إلى أهمية هذا الوقف بقوله : « وعلي بن أحمد الزيدي ، له وقف كتب كثيرة ببغداد » .

وفي مسجده هذا وقف ياقوت الحموي (ت ٦٢٦ هـ/١٢٢٨ م) ، المؤرخ الجغرافي الأديب كتبه ، وسلمها إلى الشيخ عز الدين أبي الحسن علي بن الأثير صاحب التاريخ الكبير ، فحملها إلى هناك[٥] . ولا شك أنها كتب حسنة كثيرة ، لأنّ ياقوت وهو وراق بصير بالكتب كان يسافر في جمعها وبيعها . ولو لم يكن فيها إلا مؤلفاته لكفاها أن تكون قيّمة[٦] .

أسهم جعفر بن الأسعد بن أبي القاسم الخياط (ت ٦٣٢ هـ/١٢٣٤ م) في إغناء مكتبة مسجد الزيدي ، كان محدثاً « طلب الحديث بنفسه وسمع الكثير بعد علو سنه ، وحصّل الأصول ، وكتب بخطه كثيراً مع ضعف يده ورداءة خطه ، وأوقف كتبه بمسجد الشريف الزيدي بدار دينار »[٧] .

---

(١) هذا برأي الديبثي عند مصطفى جواد ، في مقالة نشرها في الناشئة الإسلامية ، السنة الأولى ١٠٨/٩

(٢) المرجع السابق ١٠٩

(٣) ياقوت ، الكتاب المذكور ٢٠٩/١

(٤) ٢٠٥/١١

(٥) ابن خلكان ١٧٠/٣

(٦) لم ينشر ياقوت مؤلفاته ، الأمر الذي وضع عقبات أمام من يحتاج إليها . انظر مقدمتي معجميه الأدبي والجغرافي .

(٧) الوافي (أحمد الثالث ، ٢٩٢٠) ٤٢/١١/أ .

وتولى عبد العزيز بن دلف الناسخ (ت ٦٣٧ هـ/١٢٣٩ م) خزانة كتب هذه المكتبة وكثيراً غيرها من المكتبات[١] .

المستجدّ - في شعبان من سنة ٦٢٦ هـ/١٢٢٨ م تكامل بناء المسجد المستجدّ ، المعروف بقمرية ، بالجانب الغربي على شاطىء دجلة ، المقابل للرباط البسطامي ، وجعل فيه خزانة للكتب ، وحمل إليها كتب كثيرة[٢] .

٥ - خزائن الرباطات ببغداد :

رباط المأمونية - يضم رباط المأمونية مكتبة تبدو لنا مهمة . ومن بين الكتب التي احتوتها هذه المكتبة كتاب (الفنون) وكتاب (الفصول) لابن عقيل (ت ٥١٣ هـ/١١١٩ م) . أما كتاب الفنون « فهو كتاب كبير جداً ، فيه فوائد كثيرة جليلة ، في الوعظ والتفسير ، والفقه والأصلين ، والنحو واللغة ، والشعر والتاريخ ، والحكايات . وفيه مناظراته [المؤلف] ومجالسه التي وقعت له وخواطره ونتائج فكره قيدها فيه . وهذا الكتاب مئتا مجلدة »[٣] . وأما الكتاب الآخر ، كتاب (الفصول) ويسمى أيضاً (كفاية المفتي) فهو في الفقه ، ويقع في عشرة مجلدات[٤] . فالكتابان ضخمان في ٢١٠ مجلد . وكان لابن عقيل تلميذ اسمه عبد الله بن المبارك المعروف بابن نبّال (ت ٥٢٨ هـ/١١٣٣ م) ، وكان رجلاً خيّراً من أهل السُّنة ، « وكان يصحب شافعاً الجيلي ، فأشار عليه بشراء كتب ابن عقيل ، فقبل نصيحته ، وباع مُلكاً له ، واشترى بثمنه كتاب (الفنون) وكتاب (الفصول) ، ووقفهما على المسلمين »[٥] . ولا بد أن يكون

(١) ابن رجب (الظاهرية ، تاريخ ٦١) ٢٥٨/أ ، العليمي ، نسخة مصورة ، ٣٧٥/٢

(٢) ابن الفوطي ، حوادث ٤

(٣) ابن رجب ، الكتاب المذكور ، ٦٠/أ ، العليمي ، الكتاب المذكور ٢٣٤/١

(٤) العليمي ، الكتاب المذكور .

(٥) ابن رجب ، الكتاب المذكور ، العليمي ، الكتاب المذكور ، المنتظم ، ط حيدرآباد ، ٢٩/١٠ ، الذهبي (الأحمدية بحلب ١٢٢٠) ١/ب ، ٢٧١/أ .

وقفها في رباط المأمونية ، لأن ابن الجوزي (ت ٦٥٤ هـ/١٢٥٦ م) طالع كتاب الفنون ببغداد في وقف المأمونية وهو نحو ٧٠ مجلداً[١] .

وقد آل إلى هذه المكتبة مابقي من كتب عبد الله بن أحمد بن الخشاب الفقيه اللغوي النحوي المحدّث (ت ٥٦٧ هـ/١١٧١ م) ، وكان ابن الخشاب يكتب خطاً حسناً ، ويضبط ضبطاً متقناً ، فكتب كثيراً من الأدب والحديث وسائر الفنون ، وحصل من الكتب والأصول وغيرها مالا يدخل تحت الحصر ، ومن خطوط الفضلاء وأجزاء الحديث شيئاً كثيراً . وكان ابن الخشاب عندما يموت أحد من أهل العلم وأصحاب الحديث يسارع ليشتري كتبه كلها ، فحصلت أصول المشايخ عنده . وذكر أنه اشترى يوماً كتباً بخمس مئة دينار ، ولم يكن عنده شيء ، فاستمهلهم ثلاثة أيام ، ثم مضى ونادى على داره ، فبلغت خمس مئة دينار ، فنقض سياجها وباعه بخمس مئة دينار ، ووفى ثمن الكتب ، وبقيت له الدار . ولما مرض أشهد عليه بوقف كتبه ، فتفرقت ، وبيع أكثرها بعد وفاته ، ولم يبق إلا عشرها ، فتركت في رباط المأمونية وقفاً[٢] ، وما بقي ليس بكبير قيمة . واشتهرت كتب ابن الخشاب ، حتى قال عنها البرزالي : إنها « فاخرة بديعة الحسن والصحة »[٣] .

وهذه قصة جرت في مكتبة المأمونية زمن ابن الدهان المبارك بن المبارك ، المعروف بالوجيه النحوي (ت ٥٨٥ هـ/١١٨٩ م) الذي « حضر بدار الكتب التي برباط المأمونية ، وخازنها يومئذٍ أبو المعالي أحمد بن هبة الله ، فجرى حديث المعري ، فذمه الخازن ، وقال : كان عندي في الخزانة كتاب من تصانيفه فغسلته ، فقال الوجيه : وأي شيء كان هذا الكتاب ؟ قال : كان كتاب نقض

---

(١) التراتيب ١٨٦/٢

(٢) ابن رجب ، الكتاب المذكور ، ١٣٢/ب ، العليمي ٢٩٥/٢

(٣) المشيخة البغدادية (الظاهرية ، ٦٢ [٣٨]) ٢/ب .

القرآن . فقال له أخطأت في غسله ، (لأنّ هذا الكتاب لا يمكن أن يتوصل لمحاكاة القرآن الكريم ، وحفظه يفيد في البرهان على إعجاز القرآن) ، فاستحسن الجماعة قوله "[1] . والخازن هنا يلام على فعله لأسباب . ويمكن أن يكون معذوراً من وجهة نظره هو ، مادام لم يتلف الكتاب ، بل أفسد الكتابة فقط ، حين بدا له في محتواها ضلالة وزيغ .

رباط المرزبانية : كان في مكتبة رباط المستجد خازن يدعى فخر الدين سليمان بن أحمد ، وهو أديب كاتب ، استقر في بغداد عام ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م ، ولقيه ابن الفوطي في هذه المكتبة ، واستمع إلى شعره[2] في خزانة هذه الكتب . وقد نجز بناء رباط المستجدّ المعروف برباط المرزبانية سنة ٥٩٩ هـ / ١٢٠٢ م[3] زمن الخليفة الناصر (ت ٦٢٢ هـ / ١٢٠٥ م) ، الذي نقل إليه الكتب النفيسة بالخطوط المنسوبة والمصاحف الشريفة[4] .

الشونيزي : وقف أحمد بن محمد بن أحمد الأصفهاني أبو حامد البلخي كتبه برباط الشونيزي بالجانب الغربي ، وكان يقيم فيه ، وكان حياً سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م[5] .

الزوزني : كُلف علي بن أحمد بن أبي الحسن ، المؤدب المقرئ من أهل البصرة ، بخزانة كتب رباط الزوزني عام ٥٩٢ هـ / ١١٩٥ م . وكان مليح الوجه ، يدل مظهره على تقواه وحسن سريرته ، وحضر عليه في القراءة جماعة من الصوفيين برباط الزوزني[6] .

---

(١) إرشاد ٢٣٥/٦

(٢) تلخيص (الظاهرية ، تاريخ ٢٦٧) ١٩٢

(٣) ابن الساعي ، الجامع المختصر ٩٩

(٤) الوافي (أحمد الثالث ٢٩٢٠) ٤٩/٢/أ وينسب هذا العمل خطأ إلى الظاهر .

(٥) الديثي ، ذيل تاريخ بغداد (المكتبة الوطنية ، عربي ٢١٨٣) ٥٢/ب .

(٦) ابن النجار ، ذيل تاريخ بغداد (الظاهرية ، تاريخ ٤٢) في مقالة باسمه .

رباط الحريم الطاهري : في ربيع الأول من سنة ٥٩٠ هـ / آذار ١١٩٤ م « فُرغ من عمارة الرباط الذي أمر بإنشائه الخليفة الناصر[١] في محلة الحريم الطاهري غربي بغداد ، على دجلة ، وهو من أحسن الرُّبُط ، ونقل إليه كتباً كثيرة من أحسن الكتب »[٢] . « النفيسة المكتوبة بالخطوط المنسوبة والمصاحف الشريفة »[٣] . وكان الشيخ عبد العزيز بن دلف الناسخ (ت ٦٣٧ هـ / ١٢٣٩ م)[٤] خازن مكتبة هذا الرباط زمن الخليفة المستنصر (حكم من ٦٢٣ هـ / ١٢٢٦ م وحتى ٦٤٠ هـ / ١٢٤٢ م) ، وكان كلف أيضاً بخزانة كثير من المكتبات الأخرى[٥] .

الخاتوني : فوّض الخليفة الناصر أبو العباس أحمد (ت ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م) مبشّر بن أحمد الرازي ، « واعتمده في اختيار الكتب التي وقفها بالرباط الخاتوني السلجوقي ... وأدخله إلى خزائن الكتب بالدار الخليفية ، وأفرده لاختيارها »[٦] . وكان هذا الرباط مدرسة وفيه تربة وهو منسوب إلى زمرد خاتون أم الناصر (ت ٥٩٩ هـ / ١٢٠٢ م)[٧] ، وكانت المكتبة داخل التربة ، سماها ياقوت : الوقف السلجوقي .

وفيها طالع كتاب (الدول في التاريخ) لعلي بن عيسى أبي الحسن الربعي ، وهو نسخة ناقصة ، تقع في ثلاثين مجلداً[٨] . وولي عفيف الدين عبد العزيز بن

---

(١) خلاصة الذهب ٢٠٨

(٢) ابن الأثير ٦٧/١٢ ـ ٦٨

(٣) مرآة (فيض ١٥٢٤) ٧٥/٩/أ ، اليافعي ، جامع التواريخ (المكتبة الوطنية ، عربي ، ١٥٤٣) ٤/أ ، الوافي (أحمد الثالث ٢٩٢٠) ٤٩/٢/أ ، ينسب هنا العمل إلى الظاهر .

(٤) ابن الفوطي ، الحوادث ٥٤

(٥) انظر ابن رجب (الظاهرية ، تاريخ ٦١) ٢٥٨

(٦) القفطي ٢٦٩

(٧) أبو شامة ، ذيل الروضتين (المكتبة الوطنية ، عربي ٢٨٥٢) ٩٤

(٨) ابن قاضي شهبة ، طبقات النحاة (الظاهرية ، تاريخ ٤٢٨) ٤٣٩

دلف الناسخ (ت ٦٣٧ هـ / ١٢٣٩ م) نظر خزانة الكتب بهذه المكتبة ، ثم صرف عنها ، ثم أعيد إليها ، كما عمل في غيرها[١] .

الأخلاطية : أنشأ الخليفة الناصر رباط الأخلاطية ، وجلب إليه المصاحف الشريفة والكتب النفيسة بالخطوط المنسوبة[٢] . وقدم عز الدين إلى بغداد ، فعيّن خازن كتب في الأخلاطية ، وتوفي عام ٦٢٣ هـ / ١٢٢٦ م[٣] .

رباط باتكين : أنشأ الأمير أبو المظفر باتكين بن عبد الله الرومي الناصري (ت ٦٤٠ هـ / ١٢٤٢ م) ، مملوك عائشة ابنة الخليفة المستنجد بالله المعروفة بالفيروزجية ، رباطين ، جعل في أحدهما كتباً ، ووقف في جميع المدارس [ببغداد] كتباً[٤] .

رباط النيّار : في عام ٦٤٩ هـ / ١٢٥١ م فتح عز الدين الحسين بن محمد بن النيّار وكيل الجهة أم الخليفة المستعصم رباطاً ، وكان أنشأه مجاوراً لداره ، وأسكن به جماعة من الصوفية ، وأجرى لهم الجرايات من خالص ماله ، وأنشأ به خزانة للكتب النفيسة والخطوط المنسوبة ، وجعل النظر فيها للأرشد فالأرشد من أولاده[٥] .

---

(١) ابن رجب (الظاهرية ، تاريخ ٦١) ٢٥٨ ، العليمي (نسخة مصورة في المجمع العلمي) ٣٧٥/٢

(٢) الوافي (أحمد الثالث ٢٩٢٠) ٤٩/٢/أ ونسب فيه هذا العمل خطأ للظاهر . وانظر أيضاً المرآة (فيض ١٥٢٦) ٧٥/٩/أ . اليافعي ، جامع (المكتبة الوطنية ١٥٤٣) ٤/أ . خلاصة الذهب المسبوك ٢٠٨

(٣) الفوطي ، تلخيص (الظاهرية ، تاريخ ٢٦٧) ٦٩ وبما أن اسم هذا الرجل غير مذكور في النسخة فقد اضطررنا إلى استنتاجه : فهو يقع بالضبط بين من يسمون عز الدين أحمد بن محمد . وبقية اسمه غير معروف .

(٤) المرجع السابق ، الحوادث ١٨١

(٥) المرجع السابق ، تلخيص (الظاهرية ، تاريخ ٢٦٧) ٤

رباط النجمي : في المكتبة الظاهرية كتاب[1] عليه علامة الوقف التالية :
« هذا ماأوقفه وتصدق به المفتقر إلى رحمة الله تعالى الحاجي إقبال بن عبد الله الحر وعتيق السعيد المرحوم نجم الدين بن المؤذن رحمه الله تعالى . وجعل مستقره بالرباط المعروف بالسعيد المرحوم نجم الدين ابن المؤذن بمحروسة بغداد ، بمحلة البستان الكبير ، بالمأمونية ، لا يباع ، ولا يوهب ، ولا يعار إلا برهن يزيد على قيمته . فمن بدله بعدما سمعه ، فإنما إثمه على الذين يبدلونه ، إن الله سميع عليم » .

٦ ـ مكتبات المشاهد ببغداد :

مشهد أبي حنيفة : بنى أبو سعد محمد بن المنصور المستوفي شرف الملك (ت ٤٩٤ هـ / ١١١١ م) قبة على قبر الإمام أبي حنيفة ، وجعله مشهداً كبيراً ، ثم أنشأ بجواره مباشرة مدرسة خصصها للحنفية ، وذلك سنة ٤٥٩ هـ / ١٠٦٦ م[2] . ويبدو أنّ اسم الضريح الذي سمي به اشتمل على كل من المشهد والمدرسة[3] .

ولا نعرف إن كان في المشهد خزانة كتب في أول أمره أم لا ، وكل مانعرفه من بدايات هذه المكتبة أن يحي بن عيسى بن جزلة الطبيب أوقف كتبه قبل وفاته ، وجعلها في مشهد أبي حنيفة[4] . ويوضح ابن العبري أنه فعل ذلك وهو

(١) حديث ٢٥٦

(٢) المرآة (المكتبة الوطنية ١٥٠٦) ١٠٩ . خلكان ، القاهرة ١٢٧٠ ، ٢٤٥/٢ وصحح المقطع الذي ذكره ٦٧/٢ . عيون (الأحمدية بحلب ١٢٢٨) ٥٣/أ . ابن كثير (الأحمدية بحلب ١٢٠٧/٣) ٧ سنة ٤٥٩ هـ .

(٣) انظر الوافي (أحمد الثالث ٢٩٢٠) ١٣٢/١٣/ب . ابن الساعي ، مختصر ، ٢٣٦ . ولمصطفى جواد دراسة مفصلة عن مدرسة أبي حنيفة في المعلم الجديد ، العدد الأول ، السنة ٦ ، الصفحات ٢٣ ـ ٤٤ ، والعدد الأول ، السنة ٧

(٤) خلكان ٢٥٦/٣ ، المنتظم ط حيدرأباد ١١٩/٩ ، أبو الفداء ٢٢٣/٢ ، العيني ، عقد الجمان (ولي الدين ٢٣٨٨) ٥٢٥/١٦/ب .

على فراش الموت سنة ٤٩٣ هـ / ١٠٩٩ م[١] . وينبغي أن تكون مجموعة ابن جزلة حسنة ، على الأقل فيما يتعلق بالكتب التي ألفها أو نسخها ، لأنه كتبها بالخط المنسوب[٢] .

ومن المؤلفات الموقوفة في مشهد أبي حنيفة تفسير القرآن لعبد السلام بن محمد بن يوسف القزويني (ت ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م) شيخ المعتزلة في زمانه ويفترض أن مؤلفه نفسه هو الذي وقفه . وهو كتاب ضخم جداً ، يبلغ على بعض الأقوال سبع مئة مجلد ، وأربع مئة على قول آخر ، وفي قول ثالث ثلاث مئة . وكتاب مثل هذا تصعب كتابته في نسخة كاملة . ولهذا « قال المؤلف » من قرأه علي وهبته له فما قرأه أحد »[٣] ومن المحتمل أنه وقفه بعد أن أيأسه ذلك ، وقد تكون نسخته بيعت مع كتبه التي بلغت أكثر من أربعة آلاف مجلد كما قالوا[٤] ، فآلت إلى المشهد .

وقف الزمخشري محمد بن عمر المشهور (ت ٥٣٨ هـ / ١١٤٣ م) كتبه على مشهد أبي حنيفة[٥] ، وينبغي أن تكون تلك الكتب قيمة باعتبار صاحبها الأديب الكبير والمفسر العظيم . وكان في المشهد معظم كتب الجاحظ التي طالع فيها هناك سبطُ ابن الجوزي (ت ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م)[٦] . وكان من خازني المشهد

---

(١) ص ٢٣٩

(٢) عيون (الأحمدية بحلب ١٢٣٨) ١٢/٤٨/ب .

(٣) مرآة (المكتبة الوطنية ١٥٠٦) ٢٢٢/أ .

(٤) عيون (الأحمدية بحلب ١٢٥٨) ١٢/١٢/ب . وقال سبط ابن الجوزي (المرآة ، المرجع السابق) إنه نزل مصر وبقي فيها أربعين عاماً فجمع كتباً كثيرة نقلها إلى بغداد . وقال ابن كثير (الأحمدية بحلب ١٢١٧) ٧ ، سنة ٤٨٨ هـ إنه اقتنى عدداً هائلاً من الكتب .

(٥) كما قال القاضي عياض في برنامج المكتبة العبدلية ١/ب .

(٦) المرآة (نسخة مصورة ، مكتبة القاهرة ٣) ٥٨/١٠ ، مقدمة الحيوان للجاحظ ، تح عبد السلام هارون ١/د

عبد العزيز بن علي بن أبي سعيد الخوارزمي الفقيه (ت ٥٦٨ هـ / ١١٧٢ م) الذي قدم بغداد وسكن في المشهد المذكور ، حيث المكتبة التي عمل فيها[١] .
ومنهم ابن الأهوازي (ت ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م) خازن الكتب بمشهد أبي حنيفة[٢] . ويذكر ابن الجوزي أنه كان « خازن دار الكتب بمشهد أبي حنيفة »[٣] ، وتجعلنا عبارة (دار الكتب) نخمّن أن المكتبة كانت هامة جداً ، ليس لأنها في بناء مستقلّ . وقد سمتها نشرة صدرت عن الخليفة باسم خزانة الكتب ، لا دار الكتب . ولو كانت داراً لوصفها بذلك إعظاماً لها وحددت النشرة وظائف ضياء الدين أحمد مسعود التركستاني مدرس مشهد أبي حنيفة . وأشارت في بقيتها إلى أمور تتعلق بالمكتبة :

« وليثبت ما بخزانة الكتب من المجلدات وغيرها ، معارضاً ذلك بفهرسته ، متطلباً ما عساه قد شذّ منها ، وليأمر خازنها بعد استصلاحه بمراعاتها ونفضها في كل وقت ومرمة شعثها ، وألا يخرج منها إلا إلى ذي أمانة ، مستظهراً بالرهن عن ذلك »[٤] . وهذا الإيضاح يبيّن أمر المكتبة قليلاً .

مشهد يونس بن جعفر : كتب الوزير علي بن علي روزبهار ، أبو مظفر الكاتب البغدادي (ت ٦٠١ هـ / ١٢٠٤ م) كثيراً من النسخ بخطه وكان شيعياً ، أوقف كتبه بمشهد موسى بن جعفر ، واشترط عدم الإعارة[٥] . وهذا المشهد في مقابر قريش ، ويسمى اليوم بالكاظمية[٦] .

---

(١) القرشي ، الجواهر ٣٢٠/١
(٢) ابن كثير ، ط القاهرة ٢٨٦/١٢ ، ومخطوطة (الأحمدية بحلب ، ٢١٧) ٧ سنة ٥٦٩
(٣) المنتظم ، ط حيدرآباد ٢٤٨/١٠
(٤) ابن الساعي ، الجامع المختصر ٢٣٦
(٥) الوافي (أحمد الثالث ، ٢٩٢٠) ١٣٨/٢١/ب .
(٦) أخبرني بذلك صديقي محمد عباس العزاوي .

وفي هذا المشهد رأى ابن النجار (٦٤٣ هـ / ١٢٤٥ م) مصحفاً كتبه الملك المعظم ، علي بن أحمد الناصر (ت ٦١٢ هـ / ١٢١٥ م) ، وكان من كرام الملوك ، باذلاً للصدقات والمبرات ، وعرف بالإضافة إلى ذلك بجمال الخط[١] .

عون ومعين : أنشأ الخليفة الناصر (ت ٦٢٢ هـ / ١٢٦٥ م) مشهد عون ومعين ، نقل إليه المصاحف الشريفة والكتب النفيسة بالخطوط المنسوبة[٢] .

كتب فخر الدين أبو سعد المبارك بن يحي بن المبارك بن المخرمي البغدادي شيخ رباط الحريم (ت ٦٤٤ هـ / ١٢٦٥ م) بيده عدّة مصاحف وربعات ، وقفها على المشاهد[٣] .

٧ ـ وقوف كتب متفرقة :

كتب الخطيب : وقف الخطيب البغدادي أحمد بن علي بن ثابت (ت ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م) جميع كتبه وتصانيفه على المسلمين[٤] ـ ونعرف بعضاً من كتبه ، وكل مؤلفاته تقريباً[٥] ـ وقد سلمها إلى أبي الفضل بن خيرون (ت ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م) ، فكان يعيرها ، ثم صارت إلى ابنه الفضل ، فاحترقت في داره[٦] .

---

(١) ابن النجار ، ذيل تاريخ بغداد (الظاهرية ، تاريخ ٤٢) ١٥٤/ب .

(٢) الوافي (أحمد الثالث ٢٩٢٠) ٤٩/٢/أ ، وفيه نسب العمل خطأ للظاهر .

(٣) ابن الفوطي ، تلخيص (الظاهرية ، تاريخ ٢٦٧) ١٧٧

(٤) ابن أبي حاتم ، الأربعين (الظاهرية ، حديث ٤٢٣) ٥/أ . ابن عساكر ٤٠٥/١ . ابن عساكر ، تبيين كذب المفتري ٢٦٩ . أبو الفداء ١٩٧/٢

(٥) ذكرتها في كتابي عن الخطيب البغدادي ط دمشق ١٣٦٤ ، ٩٢ ، ١٣٧

(٦) المنتظم ط حيدرآباد ، ٢٦٩/٨ . إرشاد ، ط الرفاعي ، ٢٧/٤ ، المرآة (المكتبة الوطنية ، عربي ١٥٠٦) ، ١٣٢/أ . والسبكي ١٢/٣ يقول إن بعض أعماله احترق بعد وفاته وقبل نشره . ويروي الذهبي (الأحمدية بحلب ١٢٢٠) ١٤٨/أ في حوادث سنة ٤٨٢ هـ أنّ بيت أبي الفضل بن خيرون نهب عام ٤٨٢ هـ .

كتب الحميدي : نسخ المحدث الأديب الفقيه محمد بن فتوح الحميدي (ت ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م) كثيراً من الكتب . وكان من اجتهاده ينسخ بالليل ، وفي الحر ، فكان يجلس في إجّانة ماء يتبرد به ، ثم أوقف كتبه[١] على أهل العلم[٢] . وينبغي أن تكون كتبه قيمة ، لأنّه (صنف التصانيف ، وجمع المجموع)[٣] .

التهذيب : سافر الخطيب التبريزي (ت ٥٠٢ هـ / ١١٠٨ م) ليلقى أبا العلاء المعري ، ويقرأ عليه نسخة من كتاب (التهذيب في اللغة) للأزهري ، « فنفذ العرق من ظهره إليها ، فأثر فيها البلل [في أثناء سفره] . وهذه النسخة في بعض المكاتب الموقوفة ببغداد إذا رآها من لا يعرف خبرها ظنّ أنها غريقة ، وليس بها سوى عرق الخطيب »[٤] الذي جعلها على هذه الحال .

كتب المستظهري : هو منتخب بن عبد الله أبو الحسن الدارمي المستظهري (ت ٥٠٩ هـ / ١١١٥ م) ، كان رجلاً خيّراً كثير الصلاح ، وقف كتباً على أصحاب الحديث ، منها مسند الإمام أحمد بن حنبل[٥] .

كتب ابن التعاويذي : في المكتبة الظاهرية جزء[٦] فيه سماعات لجماعة ، وقيل فيه إنهم سمعوا كتاب إقراء الضيف من أصوليه في وقف ابن التعاويذي الشاعر المشهور أبي الفتح محمد بن عبيد الله (ت ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م) ، ولا نعرف أين كان مقر وقفه .

---

(١) الذهبي ، تذكرة ٢٠/٤ ومن البدهي أن يكون هذا الوقف ببغداد كما يذكر السمعاني في الأنساب ١٧٧/ب .

(٢) المقري ٣٨٢/١

(٣) السمعاني ، المرجع السابق .

(٤) إرشاد ، ط الرفاعي ٢٦/٢٠

(٥) المنتظم ، ط حيدرآباد ١٨٣/٩

(٦) مجموع ، ٦٠ ، ١٥/ب .

كتب الكاتب : وقف الحسن بن محمد بن أبي سعد الكاتب (ت ٦١٥ هـ / ١٢١٨ م) ، آخر بني حمدان ، قسماً كبيراً من كتبه للطلبة . كان حسن الخط صحيح النسخ ، وافر الهمة في الطلب ، حصل الأصول ، وجمع الكتب الكثيرة[١] .

كتب لذكرى أبي اليُمن : وجد الخليفة الناصر على مولاه أبي اليمن نجاح بن عبد الله الحبشي (ت ٦١٥ هـ / ١٢١٨ م) ، وتصدق عنه بعشرة آلاف دينار على المشاهد ، وبمثلها على المجاورين بالحرمين ، وأعتق مماليكه ، وأوقف عنه خمس مئة مجلد[٢] .

كتب ابن حارث : وقف محمد بن محمد بن حارث (ت ٧٢٢ هـ / ١٣٢٢ م) الفقيه القارئ اللغوي كتبه بألف دينار وعقاره[٣] . وربما يعني ذلك أن كتبه تساوي هذه القيمة ، أو أنها نقل مصحف لكلمة درب دينار ، المحلة المشهورة ببغداد ، وفيها جامع الزيدي .

ونذكر هنا[٤] أن محمد بن داود شمس الدين الموصلي التاجر (ت ٧٢٨ هـ / ١٣٢٧ م) أوقف كتباً كباراً بدمشق وبغداد .

٨ ـ خزائن أخرى ببغداد :

مكتبة سور الحلاويين : قال ابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠ م) : « كان بسور الحلاويين خزانة كتب فيها اثنا عشر ألف مجلد »[٥] .

---

(١) الدبيثي ، ذيل تاريخ بغداد (المكتبة الوطنية ، عربي ٢١٣٣) ١٧٣/ب .

(٢) ابن كثير (الأحمدية حلب ١٢١٧) ٧ ، سنة ٦١٥ هـ .

(٣) الوافي ، تحقيق ريتر ٢٣٢/١

(٤) الطبراني (المكتبة الوطنية ، عربي ١٥١٦) ٢٥٢/آ . ابن حجر ، الدرر ٤٣٧/٣

(٥) مناقب بغداد ٢٨

أبنية الناصر : ونورد هنا نصاً يتعلق بالأبنية التي شيدها الخليفة الناصر (ت ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م) ، حيث أوقف الكتب ، وقد ذكرنا من قبل قسماً من هذا النص في مناسبات[١] : « عمر الناصر رباط الأخلاطية والتربة ، ورباط الحريم ، ومشهد عبيد الله ، وتربة عون ومعين ، وتربة والدته ، والمدرسة إلى جانبها ـ والرباط الذي يقابلها كان دار والدته ـ ومسجد سوق السلطان ، ورباط المرزبانية ، ودور المضيف في جميع المحالّ ، ودار ضيافة الحاجّ ، وغرِم على هذه الأماكن أموالاً جليلة ، ونقل إليها الكتب النفيسة بالخطوط المنسوبة ، والمصاحف الشريفة » . وهذا مافعله للخزائن بالدار الخليفية في اختيار الكتب[٢] .

مكتبة العلقمي : في سنة ٦٤٤ هـ / ١٢٤٦ م فتحت دار الكتب التي أنشأها الوزير مؤيد الدين بن العلقمي (ت ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م) في داره . كانت الدار رائعة جداً ، أودع فيها كتباً قيمة كثيرة[٣] في أنواع العلوم[٤] بسبعة آلاف مجلد ، يقوم عليها ابن الطقطقي[٥] ، وأثنى عليها موفق الدين بن القاسم في منظومة[٦] ، وفيها ذكر بعض كتبها : كالمحصول والحاصل ، والفضل والفاضل ، ومجمع البحر ، والمهذب ، والمغني ، والوسيط ، والنهاية ، والكامل . وهناك بحسب المنظومة مؤلف ناقص منها وهو كتاب (الشامل) .

---

(١) الوافي (أحمد الثالث ٢٩٢٠) ٤٩/٢/أ ، ونسب هذا العمل خطأ إلى الخليفة الظاهر (ت ٦٢٣ هـ / ١٢٢٦ م) الذي لم تتجاوز خلافته سوى تسعة أشهر ونصف الشهر ، بينما ذكر مؤرخون هذه الأماكن ونسبوها للناصر .

(٢) القفطي ٢٦٩

(٣) الطبراني (المكتبة الوطنية ١٣١٦) ٥٧

(٤) الفوطي ، الحوادث ٢٠٩

(٥) الفخري .

(٦) الفوطي ، الكتاب المذكور .

هذا ماا ستطعنا الحصول عليه من معلومات عن خزائن الكتب العامة الملحقة ببغداد ، ومع أننا لم نذكرها جميعها ، إلا أننا ذكرنا أفضلها .

يقول رينو[1] : « شارك ابن سعيد (المولود عام ٦١٠ هـ / ١٢١٤ م) في ست وثلاثين مكتبة في بغداد قبل أن يسلبها التتر ، فقدمت كل المصادر التي يُحتاج إليها » . ولا ندري إن كان هذا العدد يتضمن الخزائن الخاصة التي قد تكون آلت إلى ابن سعيد ، فإن تضمنها ، فسيأتي ذكرها قريباً . وذكرنا في الواقع أكثر من عشرين خزانة عامة في بغداد كانت قبل غزو التتر ، يجب أن يضاف إليها عشر خزائن كبيرة خاصة .

ولم يوضح المؤرخون الذين ذكروا نكبات هذه الحقبة ما يتعلق بهدم التتر للمكتبات العامة سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م ، ولم يرووا شيئاً بهذا الصدد . أما ابن خلدون[2] فيورد الخبر التالي : « واستولى التتار من قصور الخلافة وذخائرها على ما لا يبلغه الوصف ولا يحصره الضبط والعدّ ، وألقيت كتب العلم التي كانت بخزائنهم جميعها في دجلة وكانت شيئاً لا يعبّر عنه » ولا يتطرق هذا الخبر إلى ذكر مؤسسات الوقف . لكننا نستنتج أن بعضاً من تلك المؤسسات تابع نشاطه بعد النكبة .

ب ـ المدن الأخرى في العراق :

جامع البصرة : وعندما احترق جامع البصرة سنة ٦٢٤ هـ / ١٢٢٦ م ، أعاد أبو المظفر عبد الله الرومي (ت ٦٤٠ هـ / ١٢٤٢ م) عمارته ، وبنى في دهليزه حجرتين ، جعل في إحداهما كتباً ، ووقف في جميع المدارس كتباً[3] .

---

(١) مقدمة كتاب أبي الفداء ١٦٢

(٢) العبر ٥٣٧/٣ و ٥٣٤ ، القلقشندي ، صبح الأعشى ٤٦٦/١ ، يقول : « إن نهاية المكتبات كانت على يد التتر » .

(٣) ابن الساعي ، حواشي ص ٧٦ ، نقلاً عن ابن الفوطي .

المدرسة البدرية في الموصل : رُتّب الفقيه الأديب عماد الدين إسماعيل بن هبة الله الموصلي (المولود سنة ٥٧٥ هـ / ١١٧٩ م) معيداً بالمدرسة البدرية بالموصل وخازن كتبها[١] ، وشاهد ابن الفوطي[٢] فيها ديواناً للأديب فخر الدين أبي إسحاق إبراهيم بن أسعد الموصلي ، الذي نهل من الكتب في خزائن الموصل .

مشهد حسام الدين في ماردين : بنى الفيلسوف حسام الدين بن أرتق مشهداً في ماردين ، وقف فيه كتب الحكمة . كذلك وقف فيه فخر الدين المارديني (ت ٥٩٤ هـ / ١١٩٧ م) كتبه القيّمة وهي نُسَخُهُ التي كان قرأ أكثرها على مشايخه وحررها ، وقد بالغ في تصحيحها وإتقانها[٣] .

مدرسة أبي الحسن في ماردين : في مكتبة بلدية الإسكندرية مخطوطة بعنوان (فهم القرآن لأبي معشر عبد الكريم بن عبد الصمد)[٤] ، وعليها علامة وقف تاريخها ٦٧٦ هـ / ١٢٧٧ م ، تشير إلى أنها أوقفت في مدرسة شيدها السلطان أبو الحسن في ماردين .

خانقاه ماردين : وقف الفرضي المحدث شمس الدين أبو العلاء محمود بن أبي بكر الحنفي أجزاءه بخانقاه ماردين حيث توفي سنة ٧٠٠ هـ / ١٢٠٠ م[٥] .

مدرسة قره أرسلان في ضاحية ماردين : كتب على نسخة من كتاب العالم والمتعلم العلامة التالية[٦] : « وقف السلطان ... أبو حرب قره أرسلان ابن الملك السعيد ... بن ... أرطوق أرسلان ... هذا الكتاب لمن يرغب باستخدامه أو

---

(١) تلخيص (الظاهرية ، تاريخ ٢٦٧) ٤٠

(٢) تلخيص ، المرجع السابق ١٤٧

(٣) ابن أبي أصيبعة ٢٠٠/١

(٤) ١٢١٨ ، ب/٣

(٥) الذهبي ، تذكرة ٢٨٤/٤

(٦) القاهرة ١٩٣٩ م ، ص ٧

مطالعته أو نسخ بعضه . ويشترط أن يوضع في مكتبة المدرسة التي بناها في ضاحية ربض ميافارقين المحروسة ويستخدم في المدرسة لا خارجها ... شهر جمادى الآخرة من سنة ٦٧٦ هـ / ١٢٧٧ م » .

جامع ميافارقين[١] : جمع الوزير الكاتب الشاعر أبو نصر أحمد بن يوسف المنازي (ت ٤٣٧ هـ / ١٢٤٥ م) كتباً كثيرة ، ثم وقفها على جامع ميافارقين[٢] وجامع آمد[٣] . ويقول أبو الفداء (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) : « إنها إلى قريب كانت بخزائن الجامعين » ويعني هذا أنها تفرقت في عصره[٤] .

مجموعة أبي القاسم المغربي : من المحتمل أن يكون الوزير الكاتب أبو القاسم المغربي (ت ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م) وقف مجموعته لأهالي مدينة ميافارقين[٥] .

جـ ـ المكتبات الملحقة بدمشق[٦] :

١ ـ الجامع الأموي بدمشق :

يبدو لنا أن خزائن معاصرة لدار العلم كانت قد أنشئت في الجامع الأموي بدمشق . احترق هذا الجامع عام ٤٦١ هـ / ١٠٦٨ م ، ودمره الحريق كله ، وأزال

---

(١) انظر هامر بورجشتال ، إضافات على دراسة كاترمير ،

(٢) ابن خلكان ٧٧/١

(٣) الذهبي (الأحمدية بحلب ١٢٢٠) ٦٥/ب . الوافي (أحمد الثالث ٢٩٢٠) ١٣١/٨/أ . عيون ، (الظاهرية ، تاريخ ، ٤٩) ٢١٣/ب . أبو الفداء ١٧٦/٢ . شذرات ٢٥٩/٣

(٤) أبو الفداء ، الكتاب المذكور . ويجب أن يفهم من قول ابن العماد في الشذرات الكتاب المذكور ، أنّ هذا الوقف كان على جامعي المدينتين كما ذكر ذلك أحد سابقيه ، وعنه نسخ ابن العماد .

(٥) مارجوليوث ، أبو العلاء ١٤

(٦) انظر كرد علي ، خطط الشام ، ٢٠٠/٦ و ١٩٣/١

محاسنه[1] بعد أن احترقت خزائنه معه ومضت مدة من الزمان غير يسيرة قبل تمام إصلاحه ، وقبل أن يغدو مركزاً للثقافة . ومن المحتمل أن يكون أحمد بن علي بن الفضل بن الفرات (ت ٤٩٤ هـ / ١١٠٠ م) أول من أوقف عليه الكتب بعد الحريق ، « وكان قد أوقف خزانة كتب في الجامع الكبير »[2] ، وكان شيعياً[3] . ومن الطبيعي أن يكون آخرون سبقوه في وقف المصاحف . فقد رأى الشيخ طاهر الجزائري ـ وهو أول مدير لدار الكتب الظاهرية ـ جزءاً من القرآن الكريم مكتوباً عليه أنه حبس على مشهد زين العابدين صلوات الله عليه وعلى أبنائه الأئمة سنة نيف وسبعين وأربع مئة[4] . كما سار علي بن طاهر بن جعفر أبو الحسن السلمي النحوي (٤٣١ هـ / ١٠٣٩ م ـ ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م) على منوال ابن الفرات « وكانت له حلقة بالجامع بدمشق ، ووقف فيه خزانة كتب »[5] . وتبعهما فعل عبد الله بن عبد الكريم أبي المعالي بن الطويل ، (ت ٥١٤ هـ / ١١٢٠ م) « كان صالحاً ديّناً ، وقف كتبه في الزاوية الغربية من جامع دمشق »[6] . وفي هذه الزاوية وقف كتاب (تلخيص المتشابه) للخطيب البغدادي ، الذي نسخه حوالي سنة ٤٦١ هـ / ١٠٦٨ م تلميذ مؤلفه غيث بن علي بن عبد السلام الأرمنازي . وعلى النسخة[7] التي لا تزال محفوظة في الظاهرية الكتابة التالية : « وقف مؤبد ، وحبس محرم بالزاوية الغربية بجامع دمشق » .

---

(١) شذرات ٣٠٨/٣

(٢) ابن عساكر ٤٠٨/١

(٣) عيون (الأحمدية بحلب ١٢٣٨) ٥٣/١٣/أ .

(٤) كرد علي ، خطط ٢٠٠/٦

(٥) ابن عساكر (الظاهرية ، تاريخ ١١) ٢١٨ ، بغية ٣٣٩

(٦) مرآة ، ط شيكاغو ٥٨

(٧) انظر فهرسنا مخطوطات دار الكتب الظاهرية ، التاريخ وملحقاته ، دمشق ط ، ١٩٤٧ م ، ص ١٩٣

وقد أودعت النسخة بالتأكيد بعد تاريخ نسخها مباشرة ، لأن الجامع احترق في العام نفسه كما رأينا .

الخزانة الفاضلية : حوّط ابن القاضي الفاضل (المعروف بالقاضي أشرف) أحمد بن عبد الرحيم بن علي البيقاني (ت ٦٤٣ هـ / ١٢٤٥ م) درابزيناً شمالي بركة الكلاسة شمالي جامع دمشق ، وجعل داخله مكاناً يقرأ فيه القرآن والسنة ، ووقف خزانة كتب في المقصورة[١] التي تليها ، والتي أنشأها والده القاضي الفاضل[٢] . وعرفت هذه المقصورة باسم دار الحديث الفاضلية . وفي الخزانة الفاضلية وقف المحدث تقي الدين عبد الرحمن بن أبي الفهم « معظم كتبه ومجاميعه التي بخطه ... وقد اقتنى كتباً كثيرة »[٣] ثم خربت دار الحديث الفاضلية ، والمقصورة التي تليها ، وأضيفت إلى المسجد لما بنيت التربة الأشرفية ، وبقي ذلك يقرأ فيه الحديث[٤] .

التربة الأشرفية : تقع التربة الأشرفية بجوار الكلاسة ، التي هي زيادة الجامع الكبير في شماله . بناها الملك الأشرف موسى بن محمد بن أيوب (٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م - ٦٣٥ هـ / ١٢٣٧ م)[٥] ، ووضع فيها الكتب الكثيرة المليحة[٦] ، وكان ابن خلكان يزور هذه الخزانة التي سماها الخزانة الأشرفية ، ورأى فيها ديوان ابن أبي الصقر الواسطي[٧] (ت ٤٩٦ هـ / ١١٠٢ م) ، وديوان

---

(١) انظر هذه الكلمة في الموسوعة الإسلامية .

(٢) أبو شامة ، الذيل على الروضتين (المكتبة الوطنية ، عربي ٥٨٥٢) ١٧٦

(٣) ابن كثير (المكتبة الوطنية ١٥١٦) ٧٥/أ . سوفير ٥٤/١ : ابن كثير يسميه خطأ بالبادرائي ، يخلط بينه وبين منشئ البادرائية .

(٤) أبو شامة ، الكتاب المذكور .

(٥) انظر لترجمته الموسوعة الإسلامية ٤٩١/١

(٦) الوافي (أحمد الثالث ٢٩٢٠) ١٤٣/٢٦/ب .

(٧) خلكان ٣٤٨/٢

البهاء السنجاري[1] (ت ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م) . وبقيت هذه الخزانة حتى القرن التاسع / الخامس عشر . وقد تولى قاضي القضاة صدر الدين بن الأدَمي (ت ٨١٦ هـ / ١٤١٦ م) الإشراف على خزانة كتب الأشرفية في الجامع[2] .

مشهد ابن عروة : يجب أن نعدّ مشهد ابن عروة إحدى المؤسسات الملحقة بالجامع الأموي ، وهو محمد بن عروة الموصلي ، شرف الدين (ت ٦٢٠ هـ / ١٢٢٣ م) ، وسمي المشهد باسمه : « لأنه كان مخزناً فيه آلات تتعلق بالجامع فعزّله ، وبيّضه ، وجدد في قبلته المحراب والخزانتين عن يمينه وشماله ، ووقف فيهما كتباً »[3] ، كما وقف عليه أوقافاً خصصها لنفقات المنبر الجديد والخطبة ، ووقف فيه أيضاً كتباً[4] . واختصر محمد بن عبد الكريم أبو الفضل الحارثي الدمشقي المهندس (ت ٥٩٩ هـ / ١٢٠٢ م) كتاب (الأغاني) للأصفهاني ، وكتب نسخة منه في عشرة مجلدات ، ووقفها بدمشق في الجامع ، مضافاً إلى الكتب الموقوفة في مقصورة ابن عروة[5] . وكان فيها أيضاً كتاب (طبقات الأطباء) لابن أبي أصيبعة ، في عشرة أجزاء صغيرة ، وعندما زار المقصورة ابن فضل الله العمري (ت ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م) وجد في المشهد « خزائن كتب موقوفة »[6] .

حلقة الحنابلة : كان العماد الحنبلي إبراهيم بن عبد الواحد (ت ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م) يصلي بالجماعة في حلقة الحنابلة بالجامع ، ولم يكن

---

(١) المرجع السابق ١٨٢/١

(٢) النعيمي ، الذيل ، مخطوطة المجمع العلمي العربي ٧٣٨/١ ، مخطوطة ميونخ ١٩٢

(٣) أبو شامة ، الذيل (المكتبة الوطنية ، عربي ٥٨٥٢) ١٤٨/ب ، الوافي ، (أحمد الثالث ٢٩٢٠) ٤٦/٤ ، وانظر سوفير ٢٧/١

(٤) الطبراني (المكتبة الوطنية ، عربي ١٥١٦) ١٢/ب .

(٥) أصيبعة ١٩١/٢ ، وانظر الوافي (الأحمدية بحلب ١٢١٦) ، باسم محمد بن عروة . النعيمي ٣٣٢/٢

(٦) مسالك الأبصار ١٩٦/١

للحنابلة في حياتـه هـذا المحراب ، وإنما كان يصلي إلى خزانتين مجتمعتين في موضع المحراب الآن[1] .

بيت الملك المحسن : كان للملك المحسن أحمد بن صلاح الـدين بيت غرب الكلاسة ، شمال الجامع ، جانب الفاضلية ، أودع فيه كتبه تقي الدين أبو طـاهر إسماعيل بن عبد الله الأنماطي (ت ٦١٨ هـ / ١٢٢١ م) . « كان (الأنماطي) في زمانه أحذق الناس بقراءة الحديث وكتابته وإفادة الشيوخ وحسن كتابة طبقـات السماع ، وحصّل كتباً كثيرة ، وكتب بخطه أجزاء عديدة ، وكان سريع الكتـابـة والقراءة جداً ، مع معرفة بعلم الحديث ، واطلاع على دقائق فيه »[2] .

تجميـع مكتبـات الجـامـع : جمعت مختلف الخـزائن المبعثرة في أنحـاء الجـامـع الأموي زمن الملك المعظم عيسى بن العادل (ت ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م) ، ووضعت في مشهد عروة ، « وسببه أنّ قـاضي دمشق جمـال الـدين يونس بن بـدران حسّن للسلطـان المعظم عيسى بن العـادل أن يجمـع خـزائن الكتب التي في الجـامـع إلى مشهد ابن عروة ، فنقلت الخزائن من الزاوية الغربية ومن الكلاسة ، ومن أروقـة الجامع ، فكان من جملة المنقول الخزانتان اللتان بحلقة الحنـابلـة[3] ، ولهـذا السبب بنى الملك المعظم خزائن في شرق المشهد وفي غربه »[4] .

ولم تستمر هذه الحال طويلاً ، بل فصلت خزانتا الحنـابلـة بعضهما عن بعض ، « وعمـل ركن الـدين الأمير المعظمي محرابـاً لهم للصـلاة ، في مكان الخـزانتين الأصلي ، ومن بعـد وردت الخـزانتـان إلى الحلقـة ، فجعلتـا عن يمين المحراب

---

(١) أبو شامة ، الذيل (المكتبة الوطنية ، عربي ٥٨٥٢) ١٤٣/أ .

(٢) المرجع السابق ، وانظر ابن كثير (الأحمدية بحلب ١٢١٧) ج ٧ / سنة ٦١٨ هـ .

(٣) أبو شامة ، المرجع السابق ١١٤/أ .

(٤) المرجع السابق ١٤٨/ب .

ويساره »[1] . كذلك كان ينبغي إعادة الكتب الأخرى إلى مكانها الأول . ورأينا كيف زارها بعض المؤرخين بعد تلك الفترة .

كتب الكندي ـ وكان في الجامع الأموي مقصورة بجوار مشهد زين العابدين تعرف بمقصورة ابن سنان ، ثم بالمقصورة الحلبية ، كانت في الزاوية الشمالية الشرقية من الجامع[2] ، وفيها أودع ياقوت ويقال : يعقوب بن عبد الله (ت ٦٢٣ هـ / ١٢٢٦ م) المملوك الذي أعتقه الشيخ تاج الدين الكندي بن الحسن (ت ٦١٣ هـ / ١٢١٦ م) جملة من الكتب التي وقفها عليه سيده هذا ، ثم على ولده من بعده ، ثم على العلماء ، وخصص لها خزانة كبيرة[3] . وكانت الكتب التي فيها نفيسة[4] قيّمة[5] ، جمع فيها أصول الكتب[6] . وقرأ سبط ابن الجوزي فهرسها الذي وصفه الكندي ، فأحصى فيه ٧٦١ مجلداً ، موزعة على النحو التالي : ١٤٠ كتاباً في علوم القرآن ، ١٩ كتاباً في الحديث ، ٣٩ كتاباً في الفقه ، ١٤٣ كتاباً في اللغة ، ١٢٢ كتاباً في الشعر ، ١٧٥ كتاباً في النحو والصرف ، ١٢٣ كتاباً في علوم الأوائل ، كالطب وغيره ... إلخ[7] . وكان الكندي أوحد عصره رواية ودراية بأنواع علم الأدب . وانتهت إليه القراءات والروايات وعلم النحو واللغات[8] . ولم تستمر المكتبة طويلاً ، إذ تناثرت زمن سبط ابن الجوزي ، الذي قال عنها : « ثم إنها تفرقت ، وخرجت عن الخزانة ، وعدمت ، وبيع جملة منها

---

(١) المرجع السابق ، وفيه بعض الإشكال .

(٢) ابن كثير (الأحمدية بحلب ١٢١٧) ١٠ سنة ٦٢٣ هـ ، النعيمي ٧٠٧/١

(٣) أبو شامة (المكتبة الوطنية ، عربي ٥٨٥٢) ١٠٦/أ .

(٤) إرشاد ٢٢٢/١

(٥) الوافي (المكتبة الوطنية ، عربي ٢٠٦٤) ١٠٣/ب .

(٦) أبو شامة ، المرجع السابق .

(٧) أبو شامة ، المرجع السابق .

(٨) أبو شامة ، المرجع السابق .

سراً وجهراً »[1] ، ولم يبق منها سوى قسم يسير[2] ، ومع ذلك فقد. وجدت خزائن كتب في المقصورة الحلبية كانت زمن ابن فضل الله العمري (ت ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م)[3] .

كتب الفخر المالكي : أوصى الفخر المالكي ، محمد بن عمر بن عبد الكريم الشافعي (ت ٦٤٣ هـ / ١٢٤٥ م) بخزانة كتب توضع مقابل محراب الصحابة ، ونسخ بخطه المليح المعلق الدقيق أجزاءً وأوراقاً[4] .

مصحف الجامع : رتّب الصاحب ، بهاء الدين علي بن محمد (ت ٦٦٩ هـ / ١٢٧٠ م) مصحفاً في الجامع ، وخصصه للقراءة بعد صلاة الفجر تحت قبة النسر ، وأجرى على القارئ فيه كل شهر شيئاً معلوماً[5] .

مشهد أبي بكر : كان زمنَ ابن فضل الله العمري (ت ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م) في مشهد أبي بكر الواقع في زاوية الجامع عدة خزائن للكتب الموقوفة[6] .

مجموعة ابن الطحان ، ومصحف شيخو الفارابي : أوقف الحسن بن محمد بن إسماعيل بن الطحان (ت ٧٤٧ هـ / ١٣٤٦ م) كتباً على الجامع الأموي[7] . ووقف فيه شيخو الفارابي الناصري الساقي (ت ٧٥٢ هـ / ١٣٥١ م) ، أحد الأمراء بمصر والشام ، ربعة كتبها بخطه بقلم المحقق ، في القَطْع البغدادي الكبير[8] .

---

(١) أبو شامة ، المرجع السابق .

(٢) ابن كثير (الأحمدية بحلب ١٢١٧) ٧ ، سنة ٦١٣ هـ ، النعيمي ٧٠٦/١

(٣) المسالك ١٩٦/١

(٤) الوافي (أحمد الثالث ٢٩٢٠) ١٢٧/٤/ب .

(٥) النعيمي ٦١٨/٢

(٦) المسالك ١٩٦/١

(٧) ابن حجر ، الدرر ٣٤/٢

(٨) المرجع السابق ١٩٦

نظرة عامة على مكتبات الجامع الأموي ـ تلك هي خزائن جامع دمشق الكبير ، أنشئت في أوقات مختلفة ، وكانت كثيرة بلا ريب ، ويمكننا أن نقدرها بأكثر من ٢٠ خزانة ، أي أكثر من ٥٠٠٠ مجلد . كما يجب أن نأخذ بعين الاعتبار اختصاصات واقفيها ، وهم متضلعون بمختلف العلوم . ونستطيع التأكيد على أن الكتب في جامع دمشق كانت تضم مؤلفات في مختلف مواد المعرفة المتنوعة .

مكتبة مسجد درب المدنيين : ولنذكر قبل أن نترك المساجد خزانة لطيفة كانت زمن ابن عساكر الكبير (ت ٥٧١ هـ / ١١٧٥ م) ، في مسجد كبير بدرب المدنيين ، في باطن الأرض . وكان لهذا المسجد إمام ومؤذن[١] .

٢ ـ الخزائن الملحقة بالمدارس بدمشق :

العادلية : وقف قطب الدين النيسابوري ، مسعود بن محمد (ت ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م) كتبه على طلبة العلم وعندما بنيت المدرسة العادلية نقلت إليها[٢] . كان قطب الدين إماماً في المذهب والخلاف والأصول والتفسير والوعظ ، وكان فضلاً عن هذا أديباً مناظراً[٣] . وقد وضعت خزانة الكتب بالمجلس الكبير في صدر الإيوان وهو الموضع الذي يجلس فيه غالباً للفتوى وغيرها ، ومنه يخرج إلى الصلاة في المدرسة[٤] . والعادلية اليوم مقر المجمع العلمي العربي [مجمع اللغة العربية فيما بعد] ، بدأ بناءها نور الدين زنكي ، وأتمها الملك العادل[٥] .

---

(١) ابن عساكر ٢١٥/١

(٢) أبو شامة (المكتبة الوطنية ، عربي ٥٨٥٢) ، سنة ٥٦٨ . النعيمي ٥١٨/١

(٣) السبكي ٣١٠/٤

(٤) أبو شامة ، الذيل (المكتبة الوطنية ، عربي ٥٨٥٢) ٤٠/ب .

(٥) سوفير ١٠٦/١ ـ ١٠٨

الشبليـة ـ بنى كافـور بن عبـد الله الحسـامي ، شبـل الـدولـة (ت ٦٢٣ هـ / ١٢٢٦ م) مـدرسـة على ضفـة نهر تـورا ، لأصحـاب أبي حنيفـة ووقف عليها الأوقاف ، ونقل إليها الكتب الكثيرة[١] ، ومنها في الظـاهريـة اليوم الجزء الحـادي عشر من (حليـة الأوليـاء) لأبي نعيم الأصفهـاني[٢] ، كتب عليـه العبارة التاليـة : « وقفـه العبـد الفقير إلى رحمـة القـدير كافور بن عبـد الله الحر الحسامي ، على جميع طوائف المسلمين ، وجعل مستقره بمدرسته التي أنشأهـا بجبل قـاسيـون ، وجعـل شرطـه على مـا يقتضيـه كتـاب وقف الكتب . وذلـك ثـالـث وعشرين ربيع الآخر ، من سنة إحدى وعشرين وست مئة [١٢٢٤ م] »[٣] .

الرواحيـة : بنى زكي الـدين أبـو القـاسم ، هبـة الله المعروف بـابن رواحـة (ت ٦٢٣ هـ/١٢٢٦ م) ، وكان من أكابر العدول والتجـار ، مـدرسـة للشـافعيـة بـدمشق داخل بـاب الفراديس ، ووقف عليهـا أوقـافـاً حسنـة ، وقنع بعـد ذلـك بـاليسير ، وكان يسكن في بيت المـدرسـة ، وهـو الـذي في إيـوانهـا من الشرق ، ويقابله من الغرب خزانـة الكتب التي وقفهـا ، وهي كتب جليلـة[٤] . وفي هـذه المدرسة وقف برهان الدين السـويدي (ت ٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م) كتبه[٥] .

البـادرائيـة : بنى نجم الـدين البـادرائي أبـو محمـد عبـد الله بن أبي محمـد (٥٩٤ هـ/١١٩٧ م ـ ٦٥٥ هـ/١٢٥٧ م) بدمشق مدرسـة البـادرائيـة داخل بـاب الفراديس . وهي مدرسة حسنة خصصها للفقهاء الشافعيـة ، ووقف عليهـا وقوفـاً

---

(١) المرآة ، ط شيكاغو ، ٤٢٣ . الصفدي ، تاريخ (الأحمدية بحلب ، ١٢١٦) ٧٢/أ .

(٢) تصوف ١١٧

(٣) انظر أيضاً فهرس مخطوطات الظاهرية ٢٨٠

(٤) أبو شـامـة ، الـذيل ، (المكتبـة الوطنيـة ، عربي ٥٨٥٢) ٦٤/ب . اليـافعي ، جـامع (المكتبـة الوطنية ، عربي ، ١٥٤٣) سنة ٦٢٣ هـ .

(٥) أبو شامة ، المرجع السـابق ، ٢١٨/ب .

حسنة وجعل فيها خزانة كتب جيدة[1] . فكان من خازني هذه الخزانة جمال الدين محمد بن علي بن صالح المصري ، وهو من القرّاء (ت ٧٠١ هـ/١٣٠١ م)[2] . ومن نسخة كتاب الرافعي التي وقفها البادرائي في مدرسته اختصر محيي الدين النووي (ت ٦٧٦ هـ/١٢٧٧ م) كتابه الروضة وهي نسخة فيها سقمٌ ، استعان عليها بنحوها ، فحصل بذلك نقص وخلل ، يخفى على المبتدي ، ويشكل على المنتهي ، وكان مع ذلك رحمه الله كالسابق الجد[3] .

الناصرية : وكان في مدرسة الناصرية نسخة من المعجم الكبير للطبري ، استخدمت مرة لمقابلة نسخة المدرسة النورية حين قراءتها عام ٦٨٠ هـ/١٢٨١ م . ولكن لم يعول عليها[4] . وفي هذه المدرسة وقف مصنف لفتح الدين أبي محمد عبد الله بن محمد القيسراني (ت ٧٠١ هـ/١٣٠١ م) في أسماء أصحاب النّبي ﷺ ، الذين خرّج لهم في الصحيحين وشيء من أحاديثهم في مجلدين كبيرين[5] .

السيفيّة : وولي الفقيه شهاب الدين داود بن سليمان الكوراني (ت ٧٣٤ هـ/١٣٣٣ م) ، تدريس المدرسة السيفية التي بناها الأمير سيف الدين بكتمر (ت ٦٢٤ هـ/١٢٢٦ م) ، وأوقف شهاب الدين جملة من الكتب على الطلاب المشتغلين[6] .

---

(١) المرجع السابق ، ٢١٧/أ . وانظر أيضاً الطبراني (المكتبة الوطنية ، عربي ١٥١٦) ٧١/ب . النعيمي ، ٢٨٥/١ . اليافعي ، المرجع السابق ٢٣٨/أ . المقريزي ، المقفى (المكتبة الوطنية ، عربي ٢١٤٤) ٥٧/أ .

(٢) ابن الجزري ، غاية ٢٠٣/٢ ، ابن حجر ، الدرر ٦٦/٤

(٣) هذا كلام الأذرعي في كتاب السخاوي ، ترجمة النووي (الظاهرية ، تاريخ ٧٣١) ٥١

(٤) وهذا التنويه على نسخة النورية التي آلت إلى الظاهرية وحفظت فيها ضمن كتب الحديث ٢٨٥

(٥) الطبراني (المكتبة الوطنية ، عربي ١٥١٦) ٧٠١

(٦) النعيمي ٢٨٩/١

الجوزية : في المكتبة الظاهرية كتاب[1] عليه علامة الوقف التالية :

« وقف على سائر المسلمين ، مقره بالمدرسة الجوزية بدمشق المحروسة ، ينتفع به من له به حاجة ، ثم يرده إليها . كتبه أحمد بن ... المقدسي بإذن شهاب الدين بن عبد القوي المقدسي ، سلخ ربيع الأول عام ٧٤٠ [هـ/١٣٣٩ م] والحمد لله وحده » .

٣ ـ خزائن دور الحديث بدمشق :

دار الحديث النورية : « كان السلطان نور الدين محمود بن زنكي (٥١١ هـ/١١١٨ م ـ ٥٦٩ هـ/١١٧٤ م) حسن الخط ، حريصاً على تحصيل الكتب الصحاح والسنن ، كثير المطالعة للفقه والحديث ، كثير النسخ[2] ، وحصّل الكثير من كتب العلوم ووقفها على طلابها ، وأقام عليها الحفظة من نقلتها وأربابها »[3] . ولا بد أنه نقل عدداً كبيراً من هذه الكتب إلى دار الحديث النورية التي بناها بدمشق[4] . ومن النسخ التي رأيناها الجزء التاسع[5] من ستين جزءاً من القرآن الكريم ، وهو في متحف دمشق[5] ، وكتب عليه : « وقفه وحبسه الملك العادل نور الدين ... على المدرسة التي أنشأها بمدينة دمشق حرسها الله وشرط أن يقرأ فيها ولا يخرج منها . طلباً لمرضاة الله وثوابه . في ذي الحجة ٥٦٢ هـ »/١١٦٣ م . ومن وقف نور الدين جزء آخر من القرآن في متحف دمشق أيضاً[6] . وفي ملك الشيخ عبد الجليل الدرة في دمشق جزء ثالث

(١) لغة ٤٢

(٢) ابن عساكر (الظاهرية ، تاريخ ١٥) ١٤٧ ـ ١٤٩ ، النعيمي ١٠٠/٢

(٣) ابن عساكر ، المرجع السابق ، الصفدي ، تحفة أولي الألباب (المكتبة الوطنية ، عربي ٥٨٢٧) ١٤١/أ يقول : حصل نور الدين على كثير من كتب العلوم وكتب الصحاح وأوقفها . وانظر أيضاً القرشي ، الجواهر ١٥٨/٢

(٤) النعيمي ١٠٠/٢

(٥) برقم ع/٣٤٢

(٦) برقم ع/٣٤٢

عليه العبارة التالية : « يشترط ألا يخرج من المدرسة » . وفي الظاهرية كتاب في الحديث عليه[1] : « وقفه مولانا نور الدين على سائر طوائف المسلمين من أهل السّنة والجماعة » . وتشير أجزاء عديدة[2] في المكتبة الظاهرية أنّ نصّ سماع من استمعها مكتوب على النسخة التي وقفها نور الدين بدمشق .

وأوقف المحدث أحمد بن محمد الجواهري ٦٤٣ هـ/١٢٤٥ م على النورية كتبه وأجزاءه . وكتبَ الكثير وحصّل مالم يحصّله غيره[3] .

ووقف شمس الدين ، عبد الله بن أحمد بن الحلوانية ، أبو سعد ، كتبه وأجزاءه على دار الحديث النورية ، وتوفي شاباً[4] (سنة ٦٧٥ هـ/١٢٧٦ م) .

وفي المكتبة الظاهرية اليوم[5] جزء وقفه في دار الحديث النورية بدمشق علي بن عبد الكافي الشافعي ، ومن المحتمل أنه تقي الدين السبكي (٧٥٦ هـ/١٣٥٥ م) ، وقال : « ونظره لشيخها من كان » . وفي الظاهرية[6] أيضاً جزء آخر وقفه الحوبي (؟) بدار الحديث النورية بدمشق ، وكتب عليه : لا يباع . وفي النورية جزء ثالث وقفه البرزالي ، علم الدين القاسم بن محمد (ت ٧٣٩ هـ/١٣٣٩ م) من تخريجه[7] ، وجاءت من النورية كذلك ستة أجزاء غيرها ، دون أن يذكر فيها أسماء واقفيها[8] .

---

(١) حديث ١١٧

(٢) حديث ٢٧٠

(٣) الوافي (أحمد الثالث ٢٩٢٠) ٧٥/٨/أ .

(٤) الذهبي (الأحمدية بحلب ١٢٢٢) ٢٤٢ / ب .

(٥) مجموع ٧١ (٢٧) .

(٦) مجموع ٣٧ (٤) .

(٧) الظاهرية ، مجموع ٣٧ (١٠) .

(٨) مجموع ٧١ (١١) ، ٧٦ (٤) ، ٩٢ (٤) ، ٦٦ (٣) ، ٢٦ (٢٣) ، حديث ، ٢٤٤ (٢) .

وكانت نسخ النورية تستعمل للسماع ، وتكتب عليها صيغته . ففي عام ٦٨٠ هـ/١٢٨١ م قرئ كتاب (المعجم الكبير) للطبراني ، من النسخة المحفوظة في الظاهرية اليوم[1] ، وكتب عليها العبارة التالية : « وكانت القراءة من هذه النسخة مع حضور النسخة الموقوفة بالمدرسة النورية وقرئ مافيها من زائد واختلاف وأصلح بعض ماكان فيها من سقم » . وفي عام ٧٤١ هـ/١٣٤٠ م قرئ كتاب في الحديث محفوظ في الظاهرية[2] وكتب عليه شهادة السماع التالية : « وقد لخص سماع من سمعه كاملاً وكتب على نسخة النورية » . وفي الظاهرية[3] كتاب آخر في الحديث ، منقول من النسخة التي وقفها نور الدين .

دار الحديث الأشرفية : « اشترى الملك الأشرف موسى بن أبي بكر بن أيوب (ت ٦٣٥ هـ/١٢٣٧ م) داراً في دمشق ، وقفها ، وجعل فيها النعل الذي يقال إنه نعل النبي ﷺ ، ونقل إليها كتباً كثيرة[4] ، وهي كتب نفيسة »[5] . وكان من بينها كتاب (سلوة العارفين وأنس المشتاقين) لمحمد بن عبد الملك بن خلف السلمي في التصوف ، وهي النسخة التي رآها السبكي[6] ، وكانت مكتوبة بخط مليح مضبوط ، وكتاب (ذيل بغداد) للدبيثي ، والمجلدان الموجودان في المكتبة الوطنية بباريس من هذه النسخة الأشرفية[7] .

ونقل تقي الدين السبكي نص وقفية دار الحديث الأشرفية ، وهذا ما يتعلق

---

(١) حديث ٢٨٣

(٢) حديث ٢٨٢

(٣) حديث ٢٧٠

(٤) مرآة (كوبرلي ١١٥٧) ٤٣٢/١١

(٥) الصفدي ، تاريخ (الأحمدية بحلب ١٢١٦) ١٠٧/ب ، وانظر أيضاً النعيمي ٥٠٥/٢ ، اليافعي ، جامع (المكتبة الوطنية ١٥٤٣) ٦٦/ب .

(٦) طبقات ، ٧٦/٣

(٧) المكتبة الوطنية ، عربي ، ٥٩٢١ ، ٥٩٢٢

بخزانة الكتب[١] : « ويصرف إلى خازن الكتب ثمانية عشر درهماً في كل شهر ، وعليه الاهتمام بترميم الكتب وإعلام الناظر أو نائبه ليصرف فيه من مَغَلّ الوقف مايفي بذلك ، وكذا إذا مست الحاجة إلى تصحيح كتاب ومقابلته ... ويصرف في شراء ورق وآلات النسخ من مركب وأقلام ودوي وكراسي ونحو ذلك مايقع به الكفاية لمن ينسخ في الإيوان الكبير أو قبالته الحديث أو شيئاً من علومه أو القرآن العظيم أو تفسيره ، ويصرف إلى من يكتب في مجالس الإملاء وإلى من يتخذ لنفسه كتباً أو استجازة ، ولا يعطى من ذلك إلا لمن ينسخ لنفسه لغرض الاستفادة والتحصيل ، دون التكسب والانتفاع بثمنه . وللشيخ الناظر أن يستنسخ للوقف أو يشتري ماتدعو الحاجة إليه من الكتب والأجزاء ، ثم يقف ذلك أسوة مافي الدار من كتبها » .

وسندرس شروط هذه الوقفية في القسم الوصفي من كتابنا هذا ، ونكتفي هنا بالإشارة إلى أن الكتابة في مجالس الإملاء لاعلاقة لها بالخزانة ، إلا أننا ذكرناها هنا لاستيفاء ماورد من المعلومات عن نسخ الكتب .

وتبدو خزانة الأشرفية من الخزائن العظيمة المهمة ، اجتذبت أهل الخير الذين كانوا كثيراً مايخصونها بعنايتهم .

ومن بين الذين وقفوا كتبهم فيها الفقيه الكبير محي الدين النووي (ت ٦٦٧ هـ/١٢٧٧ م) . ويقول الذهبي عنه : « ماأخذ للأشرفية فيما بلغني جامكية [راتباً] ، بل اشترى بها كتباً ووقفها »[٢] . وقال ابن دقماق : « إنه كان يجمع جامكيته عند الناظر ، وكلما صار له حق سنة اشترى به ملكاً ، ويوقفه على دار الحديث [الأشرفية] ، أو كتباً فيوقفها على خزائنها »[٣] . ولا شك أن

(١) فتاوى (الظاهرية ، الفقه الشافعي ٢٨٥) ١٩٩

(٢) السخاوي ، ترجمة النووي (الظاهرية ، تاريخ ٧٣١) ٧٩

(٣) المرجع السابق .

الجامكية كانت كبيرة مجزئة ، تقدر بـ ٩٠ درهماً ، في الشهر أي خمسة أمثال جامكية الخازن .

وأوقف القاضي المحدث أمين الدين ، أحمد بن عبد الله الأشتري الشافعي (ت ٦٨١ هـ/١٢٨٢ م) ، المحدث الذي حصل الكثير وسمع أجزاءه ، بدار الحديث الأشرفية[١] . وأوقف فيها كتبه أيضاً شهاب الدين محمد بن عبد الخالق الأنصاري (ت ٦٩٠ هـ/١٢٩١ م) ، وكان فقيهاً عالماً[٢] .

ولما استولى التتر على دمشق سنة ٦٩٩ هـ / ١٢٩٩ م خربوا فيها أماكن كثيرة ، ومن بينها دار الحديث الأشرفية[٣] ، فأعاد بناءها[٤] الشيخ زين الدين الفاروقي ، الذي كان مهتماً بإصلاح الأوقاف . وعاد الواقفون إليها يقفون كتبهم منهم الأرموي الشافعي المتكلم (ت ٧١٥ هـ / ١٣١٥ م)[٥] . « واحتاج جلال الدين محمد بن عبد الرحمن بن أبي دلف العجلي (ت ٧٣٩ هـ / ١٣٣٨ م) إلى وفاء ماعليه من ديون لأوقاف الأشرفية فقوّم من كتبه ماوفى به الدين ، وجعلها وقفاً فيه »[٦] . وأوقف فيها المحدث ابن الصلاح عثمان بن عبد الرحمن (ت ٦٤٣ هـ / ١٢٤٥ م) مجموعة من الكتب ، رآها الأسنوي واطلع عليها[٧] . وأوقف صفي الدين جوهر الظهيري التفليسي جميع أجزائه للمسلمين كافة ، وعين مكانها دار الحديث الأشرفية . وبقي منها اليوم في المكتبة الظاهرية جزء

---

(١) الطبراني (المكتبة الوطنية ، عربي ١٥١٦) ١٠٥/أ . النعيمي ٣٢٦/٢

(٢) النعيمي ٥٠٧/٢

(٣) الطبراني (المكتبة الوطنية ، عربي ١٥١٦) ١٧١/أ .

(٤) المرجع السابق ١٨٤/أ .

(٥) المرجع السابق ٢٠٩/أ .

(٦) ابن حجر ، الدرر ٥/٤

(٧) طبقات الشافعية (الظاهرية ، عام) في ترجمة ابن الصلاح .

واحد[١] . ومن الكتب التي وقفت على هذه الدار كتاب (مناقب الإمام الشافعي) ، لإسماعيل بن إبراهيم القرّاب (ت ٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م) ، وهو كتاب حافل . وقد رأى السبكي نسخة في مجلدين في خزانة دار الحديث الأشرفية[٢] ، وحفظ جزء واحد من كتب الأشرفية في المكتبة الظاهرية[٣] .

وتولى على خزن هذه الخزانة أشخاص معروفون مترجمون ، ولعل منهم الحسن بن محمد بن إسماعيل أبو علي القيلوبي (ت ٦٣٢ هـ / ١٢٣٥ م) . ذكر الصفدي عنه أنه كان على صلة بالملك الأشرف ، ولازمه زمناً في حران ودمشق ، وكان يتولى على خزائن الكتب فيها[٤] هذا إذا لم يقصد بخزائن الكتب هنا الخزانة الخاصة بالملك الأشرف ، وكان للقيلوبي معرفة حسنة بخطوط العلماء ، وقال عن نفسه : كتبت ألفي مجلدة[٥] . ومن الخزنة المحدث شرف الدين الحسين بن علي بن بشارة الشبلي الحنفي (ت ٧٣٧ هـ / ١٣٣٦ م) ، وكان ناظراً ومعيداً في المدرسة الشبلية ، وخازن الكتب بدار الحديث الأشرفية في الوقت نفسه[٦] . ومنهم ابنه المحدث أحمد بن الحسين بن علي (ت ٧٤٤ هـ / ١٣٤٣ م)[٧] . والمحدث يحي بن عبد الله الفارقي فتح الدين (ت ٧٤٣ هـ / ١٣٤٢ م) وكان إماماً بالأشرفية وخازن الكتب بها[٨] .

---

(١) مجموع ٦٠ (٣) .
(٢) طبقات ١١٥/٢
(٣) مجموع ٧٩ (٢) .
(٤) الوافي (أحمد الثالث ٢٩٢٠) ٩٠/١٢/أ .
(٥) المرجع السابق .
(٦) ابن حجر ، الدرر ٦٠/٢
(٧) المرجع السابق ١٢٥/١
(٨) المرجع السابق ٤٢٠/٤

دار الحديث الضيائية : « أنشأ المحدث المشهور ضياء الدين المقدسي محمد بن عبد الواحد (ت ٦٤٣ هـ / ١٢٤٥ م) مدرسة على باب الجامع المظفري بسفح قاسيون ، وأعانه عليها بعض أهل الخير ، بناها للمحدثين والغرباء الواردين »[١] ، وكتب بخطه الكثير من الكتب الكبار وغيرها ، ويقال إنه كتب عن أزيد من خمس مئة شيخ ، وحصّل أصولاً كثيرة[٢] ، ووقف على هذه المدرسة كتبه وأجزاءه[٣] ، بالإضافة إلى كتب كثيرة نسخها بيده[٤] ، وعدداً كبيراً من المسانيد[٥] ، والأجزاء حصلها من أصفهان ، ونسخاً من الأصول النفيسة ، يسّر الله له الحصول عليها بطرق متنوعة : بالشراء والنسخ والهبات[٦] .

وقد آل قسم من هذه الكتب إلى المكتبة الظاهرية حفظت فيها ، وعليها علامة الوقف على المكتبة التي كانت في حوزتها من قبل . ولا يمكننا أن نعددها هنا جميعها ، لأن كتابنا هذا ليس فهرساً ، وإنما هو تاريخ لدور الكتب . ونكتفي بذكر الكتب التي تتألف من مجلد أو أكثر ، مع إحصاءات للأجزاء تبين موضوعها ، مشيرين إلى أرقامها في المكتبة الظاهرية ، لتسهيل الرجوع إليها :

ـ من كتب السنن والصحاح جزء واحد والمجلدات التالية :

---

(١) الوافي (أحمد الثالث ٢٩٢٠) ١/ب ، ٣٢/أ ، النعيمي (المجمع العلمي العربي) ٢٧٦/٢ ، ابن طولون ، القلائد (نسخة مصورة) ٥١ ـ ٥٢ وانظر أيضاً سوفير ٢٨٥/١

(٢) ابن رجب ، ذيل (الظاهرية ، تاريخ ٦١) ٢٦٤/ب ، العليمي ، المنهج (نسخة مصورة) ٣٨٠/٢

(٣) الكتاب المذكور .

(٤) الطبراني (المكتبة الوطنية ، عربي ١٥١٦) ٥٥/ب . النعيمي ٢٧٤/٢ . ابن طولون ، القلائد (نسخة مصورة) ٥١

(٥) الوافي ، المرجع السابق . الصفدي ، تاريخ (الأحمدية بحلب ١٢١٦) ١٢٠/ب . ابن طولون ، المرجع السابق .

(٦) مجموع ٩٧ (٢) .

١ ـ الجزء الثالث من صحيح الترمذي ، حديث ٢٣٢
٢ ـ المختصر لمجهول ، حديث ٣٤٣
٣ ـ الجامع بين الصحيحين ، حديث ٢٠

ـ من العوالي والمسلسلات : ٣ أجزاء[١] .
ـ من الفوائد والمسائل : ٧ أجزاء[٢] .
ـ من المسانيد والمعاجم : ٣ أجزاء[٣] والمجلدات التالية :

١ ـ مسند أنس ، من الأحاديث المختارة للضياء المقدسي ، حديث ٣٤٢
٢ ـ المجلد الأخير من مسند الروياني ، حديث ٢٧٨
٣ ـ المجلد الثامن من مسند أبي عوانة ، حديث ٢٧٤
٤ ـ المجلد الأول من القسم الأول من المعجم الكبير للطبراني ، حديث ٢٨١

ـ الأحاديث المسندة : ١٩ جزءاً[٤] .
ـ من الأمالي : ٦ أجزاء[٥] .
ـ من الكتب ذات الأحاديث المقدرة بعدد : ٣ أجزاء[٦] .
ـ من الأحاديث المرتبة على الموضوعات : ٣ أجزاء[٧] .
ـ من الإجازات والفهارس : جزء واحد[٨] .

---

(١) مجموع ١٠ (١) ، ١١٠ (٨) ، ١١١ (١٨) .
(٢) مجموع ١٦ (٢) ، ٢١ (٤) ، ٦٠ (٣) ، ٧٩ (٥) ، ٩٢ (١٤) ، ١١٤ (١) ، ١١٦ (١٠) .
(٣) مجموع ٨١ (٥) ، ١١٠ (١٥) ، حديث ٣٤٤
(٤) مجموع ١٥ (٥) ، ٢٠ (٦) ، ٢١ (٢) ، ٢٦ (٢١) ، ٣٤ (٣) ، ٤٦ (٣) ، ٤٦ (٩) ، ٧٢ (١٠) ، ٧٨ (٣) ، ٨٢ (١٥) ، ٨٥ (٣) ، ٨٦ ، ٨٨ (٢) ، حديث ٣٤٤ ، مجموع ٨٨ (٥) ، حديث ٣٤٤ ، مجموع ٩٢ (١) ، ٩٤ (٧) ، ٩٤ (٢٢) .
(٥) مجموع ٢٢ (١) ، ٤٦ (١٢) ، ٦٣ (٢٢) ، ٨٩ (٧) ، ٩٢ (٢) ، حديث ٢٩٧
(٦) مجموع ٧٢ (١٣) ، ٨١ (١١) ، ١١٣ (٩) .
(٧) مجموع ٢١ (١) ، ٨١ (٤) ، ٨٣ (٣) .
(٨) مجموع ٤٦ (١٦) .

ـ من الأحاديث والحكايات : ٢ أجزاء[1] .

ـ من التوحيد والعقائد والمذاهب : ٤ أجزاء[2] مع المجلد التاني :

● كتاب الإيمان لأبي عبد الله بن منده ، حديث ٢٣٨

ـ من الفقه والأصول ، المجلدات التالية :

١ ـ مسائل الإمام أحمد بن حنبل ، رواية المروزي ، فقه حنبلي ، جزآن .
٢ ـ مسائل الإمام أحمد بن حنبل ، رواية السجستاني ، حديث ٣٣٤
٣ ـ جزء من الموطأ ، ولعله الأول ، حديث ٣٦٠

ـ من التصوف والآداب الشرعية : ٣ أجزاء[3] .
ـ من المواعظ : جزءان[4] .
ـ من الأدب النثري : ٤ أجزاء[5] .
ـ من التاريخ والتراجم : ٦ أجزاء[6] مع المجلدات التالية :

١ ـ الكامل في معرفة الضعفاء ، لعبد الله بن عدي ، حديث ٣٦٤
٢ ـ أسماء الضعفاء ، لابن الجوزي ، حديث ٣٦٣
٢ ـ كتاب التاريخ والعلل ، ليحيى بن معين ، مجموع ١١٢

ـ من السيرة النبوية : جزء واحد[7] .

المجموع ثلاثة عشر مجلداً وسبعون جزءاً .

(١) مجموع ١٥ (٣) ، ٢٠ (١٢) ، ٨٧ (٥) ، ٣ (١١ ، ١٣) .
(٢) مجموع ٢٨ (٩) ، ٧٠ (٥) ، ٧٦ (٨) .
(٣) مجموع ١٠ (١٦) ، ٤١ (٥) ، ٨٩ (١) .
(٤) مجموع ٨٨ (١) ، ٣ (٧) .
(٥) مجموع ٤٦ (١٤) ، ٧١ (٢) ، ٩٨ (١٠) ، ٩٨ (١٣) .
(٦) مجموع ٤٢ (١) ، ٧٠ (٩) ، ٧٨ (١٠) ، ٨١ (١) ، ٨٣ (٤) ، ٣ (١٤) .
(٧) مجموع ٧١ (٨) .

تداول المحدّثون هذه الكتب والأجزاء ، فقرؤوها ، إمّا بطريقة السماع ، أو بطرق أخرى ، فجمعوها ، أو اتخذوها نسخاً أصلية ، معتمدين عليها أساساً لمقابلة النسخ وضبطها . وعلى الكتب نفسها إشارات لتلك الطرق المختلفة .

ويطول بنا الأمر لو قصدنا استقصاء ذلك ، إلا أنه يمكن الرجوع من أجله وبشكل خاص إلى الجزء ذي الرقم : مجموع ٨٣ (٣) ، وإلى الكتاب ذي الرقم : حديث ٢٧٨ .

وقد وقع الضياء على بعض الأجزاء شروط وقفيته[١] ، ونسخها غيره بأوجه مختلفة شكلاً متقاربة معنى . ومثال ذلك :

ـ حديث ٢٠ ، وقفه وحبسه وسبله على جميع المسلمين الحافظ ضياء الدين محمد رحمه الله . وشرط أن يكون بمدرسته بجبل الصالحية ولا يعار إلا برهن حافظ للقيمة ، ولا يخرج إلى بلد ولا قرية أخرى سوى دمشق .

ـ مجموع ١١٤ (١) ، وقف الحافظ ضياء الدين أبي عبد الله ، ولا يعار إلا برهن يحفظ القيمة ، ولا يعار إلى غير دمشق والجبل .

ـ حديث ٢٣٢ ، وقف مؤبد محرم ، لا يعار إلا برهن حافظ للقيمة .

وقد أعان الضياء المقدسي على توسيع الخزانة ونموها عدة علماء ، ذكر منهم الصفدي في عبارته التالية : « وفيها من وقف الشيخ موفق الدين ، والحافظ عبد الغني وابن الحاجب ، وابن سلام وابن هامل ، والشيخ علي الموصلي »[٢] .

وحفظت المكتبة الظاهرية بعضاً من وقف هؤلاء وسنعدد أخبار كل واحد

---

(١) حديث ٢٨١

(٢) الوافي (أحمد الثالث ، ٢٩٢٠) ٣٢/٤ ، الصفدي ، تاريخ (الأحمدية بحلب ، ١٢١٦) ١٣٠/ب ، النعيمي (المجمع العلمي العربي بدمشق) ٢٧٥/٢ ، ابن طولون ، القلائد (النسخة المصورة) ٥١ ـ ٥٢

منهم ونضيف إليهم ممن أهملهم الصفدي عدداً آخرين وذلك على الترتيب التاريخي لوفياتهم ، إن كان معروفاً .

ولنبدأ بالحافظ عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي (ت ٦٠٠ هـ / ١٢٠٣ م)[١] . كان محدثاً حصل الكتب الجيدة وكتب بخطه مالا يوصف كثرة . ولم يزل ينسخ ويصنف حتى توفاه الله[٢] . وهذه هي الكتب التي وصلت من خزانته إلى المكتبة الظاهرية ، وهي محفوظة فيها إلى اليوم :

- من علوم القرآن : جزء واحد[٣] .

● المحدث الفاصل بين الراوي والواعي ، للرامهرمزي (في علوم الحديث) حديث ٤٠٠

- من العوالي والمسلسلات : جزآن[٤] .
- من الفوائد والمسائل : ٧ أجزاء[٥] .
- من المسانيد والمعاجم : جزء واحد[٦] والمجلد التالي :

● مسند الإمام أحمد بن حنبل ، حديث ٢٥٧

- من الأجزاء في الأحاديث المسندة والمتفرقة : ٧ أجزاء[٧] .
- من الأمالي ٧ أجزاء[٨] .
- من الأحاديث المقدرة بالأعداد : جزآن[٨] .

---

(١) انظر لترجمته بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ٢٥٦/١ ، والملحق ٦٠٣/١

(٢) ابن رجب ذيل (الظاهرية ، تاريخ ٦١) ١٨١/ب . العليمي ، منهج (نسخة مصورة) ٣٢٤/٢

(٣) مجموع ٢٦ (٧) .

(٤) مجموع ٦٦ (٤) ، ٩٤ (٤) .

(٥) مجموع ١٠ (١٤) ، ٨٠ (٣) ، ٣ (١٧) ، ١١٣ (٢) ، ١١٣ (٨) ، حديث ٢٥٢ ، ٢٨٩

(٦) مجموع ٨٠ (١٤) .

(٧) حديث ٢٤٨ ، مجموع ٤١ (٣) ، ٦٦ (١٤) ، ٦٨ (١٦) ، ٨٨ (٦) ، ٩٨ (٧) ، ١٢٠ (٥) .

(٨) مجموع ٤١ (٢) ، ٦٣ (١) ، ٨٦ (٨) ، ١١٣ (٤) ، ١١٥ (٤) ، حديث ٣٣٠

- من الأحاديث المرتبة على الموضوعات : جزآن[1] .
- من الوعظ : جزء واحد[2] .

● الجزء الأول من كتاب غريب الحديث لابن قتيبة (في اللغة) ، لغة ٣٤
- من الأدب المنثور : جزآن[3] .

والمجموع ثلاثة مجلدات ، وأربعة وثلاثون جزءاً . وكثير من هذه الرسائل من خط عبد الغني أو تأليفه . ونرى في إحداها[4] شروط الوقف التي تمنع بيعها أو توارثها أو رهنها أو إعارتها إلا برهن يحفظ القيمة .

أما المحدث الفقيه الحنبلي موفق الدين عبد الله بن محمد بن قدامة المقدسي (ت ٦٢٠ هـ / ١٢٢٣ م) فوقف كتبه في خزانة خاصة بالمدرسة الضيائية[5] . وحفظ في المكتبة الظاهرية جزء عليه العلامة التالية : وقف بالخزانة الموفقية . والكتب التالية وصلت منها إلى المكتبة الظاهرية :

- من الفوائد والمسائل : ٣ أجزاء[6] .
- من الأجزاء في الأحاديث المسندة والمتفرقة : ٦ أجزاء[7] .
- من الأمالي : جزء واحد[8] .
- من الأحاديث المرتبة على الموضوعات : جزء واحد[9] .

---

(١) مجموع ٥٦ (١١) ، ١٠١ (٦) .
(٢) مجموع ١١٦ (٥) ، ١٢٤ (٣) .
(٣) مجموع ١١٦ (٦) ، ١٢٤ (٣) .
(٤) مجموع ١٠٨ (٢) .
(٥) مجموع ٤٠ (٥) .
(٦) مجموع ٣١ (٤) ، ٤٠ (٥) ، حديث ٢٩٧
(٧) مجموع ٣١ (٢) ، ٣١ (٥) ، ٣١ (٦) ، ٣١ (٧) ، ٣١ (٨) ، ٩٨ (١٧) .
(٨) مجموع ٣١ (٢) .
(٩) مجموع ٢٨ (٤) .

ـ من التوحيد : جزء واحد[1] .

ـ من الفقه ، مجلد من كتاب في الفقه الحنبلي . فقه حنبلي ٥٣

ـ من التصوف والآداب الشرعية : جزء واحد[2] .

ـ من الأوراد والأدعية : جزء واحد[3] .

والمجموع الإجمالي ، مجلد واحد وأربعة عشر رسالة .

وكتب شروط وقفه بالصورتين الآتيتين :

ـ الظاهرية ، فقه حنبلي ، ٥٣ ، الجزء ١١ ، « وقفه على المنتفعين به ابتغاء ثواب الله ومرضاته ، فلا يباع ولا يوهب ولا يورث ولا يعار إلا برهن » .

ـ الظاهرية ، حديث ٢٩٧ ، « لا يعار إلا برهن ، فإن أعير بغير رهن فكفارته رده إلى مقره بعد قضاء الحاجة منه » .

وجلبت إلى دار الحديث الأشرفية نسخة من جزء كان محفوظاً في خزانة موفق الدين ، وعليه سماع تاريخ ٦٦٧ هـ/١٢٦٨ م[4] .

وآل إلى دار الكتب الظاهرية[5] من وقف الفقيه الزاهد بهاء الدين عبد الرحمن بن إبراهيم المقدسي (ت ٦٢٤ هـ/١٢٢٦ م)[6] سبعة أجزاء .

وفي خزانة دار الحديث الضيائية كتب وقفها الحافظ الرحلة عز الدين بن

---

(١) مجموع ١١٤ (٢) .

(٢) مجموع ٣١ (٣) .

(٣) مجموع ٣٨ (٧) .

(٤) مجموع ٣ (٤) .

(٥) مجموع ١٨ (١) ، ٨٥ (١١) ، ٩٢ (١٦) ، ٧٨ (٥) ، ٧٨ (٥) مكرر ، ٧٨ (٦) ، حديث ٣٤٨

(٦) لترجمته انظر شذرات الذهب ١١٤/٥

الحاجب عمر بن محمد بن منصور (ت ٦٣٠ هـ/١٢٣٢ م)[١] . وفي الظاهرية[٢] رسالة كتب عليها : « وقف بمدرسة الحافظ ضياء الدين بخزانة العز عمر بن الحاجب » ، وهذه هي النسخ التي وصلت منها إلى الظاهرية :

المجلدات والرسائل التالية :

- من علوم القرآن : جزء واحد[٣] .
- من مقدمات الأحاديث : جزء واحد[٤] .
- من العوالي والمسلسلات : جزء واحد[٥] .
- من الفوائد والمسائل : ٧ أجزاء[٦] .
- من المسانيد والمعاجم : جزء واحد[٧] .
- من الأجزاء في الأحاديث المسندة والمختلفة : ١١ جزءاً[٨] .
- من الأمالي : ٧ أجزاء[٩] .
- من الأحاديث المرتبة على الموضوعات : ٣ أجزاء[١٠] .
- من الفقه وأصوله : جزء واحد[١١] .

---

(١) لترجمته انظر شذرات الذهب ٣٧/٥ ـ ١٣٨

(٢) حديث ٢٨٧

(٣) مجموع ٧٣ (٧) .

(٤) مجموع ٩٧ (١) .

(٥) مجموع ٧٠ (٤) .

(٦) مجموع ٢٤ (٣) ، ٣٥ (٨) ، ٥٦ (١٣) ، ٦٤ (٥) ، ٨٧ (٤) ، حديث ، ٣٤٤ ، ٢٩٧

(٧) حديث ٢٧٢

(٨) مجموع ٢٢ (٥) ، ٢٤ (٦) ، ٢٦ (٤) ، ٦٦ (٨) ، ٧٣ (٣) ، ٧٩ (٩) ، ٨٣ (٥) ، ٩٢ (٧) ، ٩٢ (١٣) ، حديث ، ٢٤٨ ، ٣٣٠

(٩) مجموع ٣٥ (٤) ، ٦٣ (٩) ، ٦٤ (٧) ، ٦٤ (٩) ، ٩٤ (١٤) ، ١٠١ (٩) ، ١١٠ (٧) .

(١٠) مجموع ٧١ (٦) ، ٨٠ (١٥) ، ١٢٤ (١٢) .

(١١) مجموع ٣٨ (٣) .

من التصوف : جزءان[١] .
- من الأدب المنثور : ٤ أجزاء[٢] .
- من الأدب المنظوم : جزء واحد[٣] .
- من التاريخ : ٥ أجزاء[٤] ، ومجلد معرفة الرجال ، ليحي بن معين ، حديث ٣٨٧
- من السيرة النّبوية : جزء واحد[٥] .
والمجموع مجلد واحد وستة وأربعون جزءاً .

وأشار في جزء محفوظ في المكتبة الظاهرية[٦] إلى شروط الواقف فقال : « وقف مؤبد وحبس محرم حارم على طلبة العلم ، بشرط ألا يخرج من مقره إلا بتذكرة حسنة » .

كانت مكتبة ابن الحاجب مستقلة بإدارتها وخزنتها وكانت تقبل الأوقاف إليها . ويبين ذلك رسالة محفوظة في الظاهرية[٧] كتب عليها : « وقف هذا الجزء محمد بن محمد بن عباس بن أبي بكر بن جعوان (صفوان) الأنصاري عفا الله عنه على جميع طلبة الحديث أو سائر العلوم من المسلمين ، وجعل مقره بخزانة المحدث عز الدين أبي الفتح عمر بن الحاجب الأميني رحمه الله التي بالمدرسة الضيائية بجبل قاسيون ، والنظر فيه لناظر الخزانة المذكورة ، فيعيره على ما يرى » .

---

(١) مجموع ٨ (١١) ، ١١١ (١٠) .
(٢) مجموع ٦٤ (٤) ، ٨٠ (١) ، ٨٧ (٧) ، ٩٤ (١٦) .
(٣) حديث ٢٤٨
(٤) مجموع ٢٤ (١٦) ، ٣٠ (١) ، ٥٥ (١١) ، ٦٢ (١) ، ١٩٢ (٦) .
(٥) سيرة ٢٧
(٦) مجموع ٩٧ (١) .
(٧) مجموع ٩٧ (١١) .

يقـول الـذهبي[1] : نسـخ المحـدث محمـد بن الحسن بن سـالم بن سـلام (ت ٦٣٠ هـ/١٢٣٢ م) كتبـاً كثيرة وحصّـل ، وخرج ، ووقفت أجـزاؤه في الضيائية ، وعُدِم أكثرها في نوبة غـازان عـام ٦٩٩ هـ/١٢٩٩ م ، كما أودعت هـذه الأجزاء في خزانة خاصة . وهذا ماوصل منها إلى المكتبة الظاهرية :

- من علوم القرآن : جزء واحد[2] .
- كتـاب الإلمـاع في أصـول الروايـة والسماع (مقـدمـة في علـوم الحـديث) حديث ٤٦
- كتـاب أطراف الصحيحين ، لخلف بن محمـد الـواسطي (في السُّنن والصِّحاح) ، حديث ٣٧١
- من الفوائد والمسائل : جزء واحد[3] .

من أجزاء في الأحاديث المسندة أو المختلفة : ٦ أجزاء[4] .

- من الأمالي : جزء واحد[5] .

● كتـاب التنبيـه على كتـاب الغريبين ، لأبي الفضـل محمد بن النـاصر (في اللغة) لغة ٥١

● كتاب في موضوع غير معروف : جزء واحد[6] .

والمجموع ثلاثة مجلدات وعشرة أجزاء .

---

(١) الذهبي ، تاريخ الإسلام (الظاهرية ، عام ٤٦٢١) في ترجمة ابن سلام . وانظر أيضاً شذرات الذهب ١٤٠/٥

(٢) مجموع ٤٦ (٢) .

(٣) مجموع ٩٨ (٤) .

(٤) مجموع ٤٠ (١٥) . ٦٠ (٥) . ١٠١ (١١) . ١١٥ (١٠) ، ١١٥ (١٣) ، ١٢٩ (٨) .

(٥) مجموع ٢٤ (٤) .

(٦) مجموع ١١ (٢) .

وفيما يلي شروط الوقف ، كما تتبين في مجلد محفوظ في الظاهرية[1] : « وقف أبي عبد الله محمد بن سالم بن سلام بخزانة بالمدرسة الضيائية بسفح قاسيون ، وقفاً مؤبداً وحبساً محرماً ، ولا يعار إلا برهن » .

ولا يزال في الظاهرية جزآن من الكتب التي وقفها الحافظ أحمد بن عيسى بن قدامة (ت ٦٤٣ هـ / ١٢٤٥ م)[2] ، صنف هو أحدهما[3] . وأما الآخر فعليه علامة الوقف التالية : « أوقفه ، وحبسه ، وأبده على أهل السنة ، فلا يعار إلا برهن حافظ للقيمة »[4] .

وعني شمس الدين محمد بن عبد المنعم (ت ٦٧١ هـ / ١٢٧٢ م) بالحديث عناية كلية ، وكتب الكثير ، وتعب ، وحصّل كثيراً ، ثم وقف كتبه وأجزاءه بالضيائية[5] .

وهذا مابقي من وقفه في المكتبة الظاهرية :

- من علوم القرآن : جزء واحد[6] .
- من السنن والصحاح : جزء واحد[7] .
- من العوالي والمسلسلات : ٤ أجزاء[8] .

---

(١) لغة ٥١

(٢) لترجمته انظر شذرات الذهب ٢١٧/٥

(٣) مجموع ٩٣ (١٥) .

(٤) حديث ٢٢١

(٥) الذهبي (الأحمدية بحلب ١٢٢٠) ٢٢٤/ب ، ابن رجب ، ذيل (الظاهرية ، تاريخ ، ٦١) ٢٨٠/أ ، النعيمي (مخطوطة المجمع العلمي العربي) ٢٠٠/٢ ، العليمي ، المنهج ٣٩٢/٢ ، ابن طولون ، القلائد ، (نسخة مصورة) ١٥٥ . وانظر النعيمي ٢٧٨/٢ ، ابن طولون ٥٢

(٦) مجموع ٢٦ (٢٠) .

(٧) حديث ٢٤٨

(٨) مجموع ١٦ (١) ، ٦١ (١٤) ، ٨٣ (٢) ، ١١٠ (١٠) .

- من الفوائد والمسائل : ٥ أجزاء[١] .
- من المسانيد والمعاجم : جزء واحد[٢] .
- من الأجزاء في الأحاديث المسندة والمختلفة : ١٢ جزءاً[٣] .
- من الأمالي : ٤ أجزاء[٤] .
- من الأربعينات والأحاديث المقدرة بالعدد : جزآن[٥] .
- من الأحاديث المرتبة على الموضوعات : جزآن[٦] .
- من الأحاديث والحكايات : جزء واحد[٧] .
- من التوحيد : جزء واحد[٨] .
- من التصوف : جزء واحد[٩] .
- من التاريخ : ٤ أجزاء[١٠] .

والمجموع تسعة وثلاثون جزءاً .

نقع في هذه النسخ على كثير من السماعات ، نلاحظ فيها قوة التحصيل وتعب المحصل . والمثال على ذلك بشكل خاص : جزء في الأربعين حديثاً

---

(١) أدب ٧٩ ، مجموع ٥٣ (٤) ، ٧٨ (١) ، ٨٥ (١٤) ، ٨٧ (١) .

(٢) مجموع ١٣ (٥) .

(٣) مجموع ٤٠ (١٠) ، ٥٣ (٢) ، ٥٣ (٣) ، ٧١ (٤) ، ٧٨ (٢) ، ٧٨ (٩) ، ٨١ (٣) ، ٨١ (٩) ، ٨٧ (١٠) ، ٨٧ (١٦) ، ٨٨ (٤) ، ٩٢ (١٥) ، حديث ٣٤٨

(٤) مجموع ٣٨ (٢) ، ٩٨ (١١) ، ١٠٣ (١) ، حديث ٢٨٧

(٥) حديث ٣٤٨ ، مجموع ٨٧ (١٩) .

(٦) مجموع ١٥ (٦) ، ٧٦ (١٠) .

(٧) مجموع ، ١٦ (٤) .

(٨) مجموع ١٠١ (١٢) .

(٩) مجموع ١٧ (١) .

(١٠) حديث ٣٤٤ ، مجموع ١٦ (٨) ، ١١٦ (٨) .

المستخرجة من كتب الصحاح (حديث ٣٤٨) وفيه ٥٢ سماعاً وقراءة مختلفة مع المشايخ وخمس معارضات خاصة .

ومما حفظ في الظاهرية[١] من وقف المحدث الفقيه الأديب شمس الدين محمد بن عبد الهادي المقدسي (ت ٦٧٥ هـ / ١٢٧٦ م) جزآن[٢] . وانتابت هذه الخزائن والأوقاف المختلفة مصيبة ، فنهبت في نكبة الصالحية نوبة غازان وراح منها شيء كثير[٣] سنة ٦٩٩ هـ / ١٢٩٩ م عندما غزا التتر دمشق واستباحوها ، فخربوا فيها أماكن عديدة ، ونهبوا كتباً كثيرة من الرباط الناصري والضيائية وخزانة ابن البزوري ، وكانت تباع وهي مكتوب عليها الوقفية[٤] . وفي الظاهرية كتاب[٥] كتب عليه : « وقف مقره بخزانة ضياء الدين المقدسي ، صار إلى كاتبه محمد بن طولون بعشرين » . وابن طولون عاش في أوائل القرن العاشر / السادس عشر .

علماً أن هذه الخزائن تماثلت وتراجعت[٦] وعاد العلماء إليها يقفون فيها كتبهم وخزائنهم .

فهذا هو المحدث الصوفي علي بن مسعود بن نفيس بن عبد الله الموصلي (ت ٧٠٤ هـ / ١٣٠٤ م) بعد أن وقف كتبه على جميع المسلمين سنة ٦٦٧ هـ / ١٢٦٩ م ، وجعل لنفسه النظر عليها مدة حياته ولمن يشار إليه في علم

---

(١) عنه انظر الزركلي ، الأعلام ٨٥٢

(٢) مجموع ٥٦ (١٠) ، ١٠٥ (١٢) .

(٣) الوافي (أحمد الثالث ٢٩٢٠) ٣٢/٤/أ ، الصفدي ، تاريخ (الأحمدية بحلب) ١٣٠/ب ، النعيمي (المجمع العلمي العربي) ٢٧٥/٢ ، ابن طولون ، القلائد (المجمع العلمي) ٥٢

(٤) الطبراني (المكتبة الوطنية ، عربي ١٥١٦) ١٧١/أ .

(٥) حديث ٣٦٠

(٦) انظر مراجع الحاشية رقم (٣) .

الحديث بالبلد المقرر بها الموقوف من بعده[1] استقر في دمشق ، ووقف كتبه على الضيائية ، وذكر ذلك على ظهرها[2] . وقد أولع بالكتب كثيراً ، وحصّل منها الأصول ، وكان يجوع ويشتري الأجزاء ، ويتعفف ، ويقنع بكِسْرة[3] ، وكان فقيهاً .

وهذه هي الكتب التي وصلت منها إلى الظاهرية :

- كتاب مختلف الحديث ، لابن قتيبة (مقدمة في علوم الحديث) ، حديث ٣٠٣
- من العوالي والمسلسلات : جزء واحد[4] .
- من المسانيد والمعاجم : ٧ أجزاء[5] وكتاب الفوائد لأبي قاسم تمّام الرازي ، حديث ٣٣٩
- من الأجزاء في الأحاديث المسندة أو المختلفة : ٢٢ جزءاً[6] .
- من الأمالي : ٣ أجزاء[7] .
- من الأربعينات والأحاديث المقدرة بعدد : ٣ أجزاء[8] .

---

(١) حديث ٣٣٩ ، وانظر مجموع ١٧ (١٦) ، ٩٧ (١٣) .

(٢) قال ابن رجب : ووقف كتبه وأجزاءه ، ذيل (الظاهرية ، تاريخ ٦١) ٣٦٤/أ ، العليمي ، المنهج ٤١٣/٢

(٣) انظر الحاشية السابقة .

(٤) مجموع ٨٥ (١٨) .

(٥) مجموع ١٠ (٦) ، ١٣ (٧) ، ١٨ (٧) ، ٢١ (٣) ، ٥٩ (١٣) ، ٦٠ (٧) ، حديث ٢٩٧ ، ٢٨٧

(٦) مجموع ٣ (٦) ، ٤ (٢) ، ١٥ (٤) ، ٢٢ (٨) ، ٢٤ (٥) ، ٣٣ (٧) . وأيضاً ٣٣ (٧) ، ٦٠ (٢) ، ٦٢ (١٠) ، ٦٧ (٢) ، ٦٧ (١٣) ، ٦٨ (١١) ، ٨٢ (١) ، ٨٧ (٢) ، ٩٤ (١٥) ، ٩٤ (١٩) ، ١٢٤ (٢٩) ، حديث ٢٨٧ ، ٢٩٧ ، ٣٣٠ ، أيضاً ٣٣٠ ، ٢٨٧

(٧) مجموع ٣٧ (٣) ، ٣٨ (١) ، ٥٥ (١٤) .

(٨) مجموع ٤٦ (٥) ، ٦٤ (٦) ، ٦٧ (٣) .

ـ من الأحاديث المرتبة على الموضوعات : جزآن[1] .

ـ من التوحيد : ٤ أجزاء[2] .

ـ من الفقه : جزء واحد[3] .

ـ من الأدب النثري : ٣ أجزاء[4] .

ـ من الأدب الشعري : جزء واحد[5] .

ـ من التاريخ والتراجم : ٧ أجزاء[6] والجزء الأول من كتاب طبقات المحدثين ، لابن حبان ، حديث ٦٥

ـ من كتب غير معروفة الموضوع : جزء واحد[7] .

والمجموع ستة وخمسون جزءاً وثلاثة مجلدات .

ولا يزال في المكتبة الظاهرية كتب أخرى من دار الحديث الضيائية على بعضها اسم واقفها ، وبعضها الآخر خلوّ منها . وهذه هي أسماء الواقفين المعروفين وأسماء كتبهم الموجودة فيها :

١ ـ علي بن سالم بن سليمان بن العُرباني . وذكر على أحد أجزائه التي وقفها[8] : « سمعه وملكه بالشراء ووقفه العبد الفقير إلى ربه علي بن سالم بن سليمان بن العُرباني الحصني على سائر المسلمين جميعاً ، وجعل نظره عليه حال حياته ، ومستقره بعد وفاته بمدرسة الحافظ ضياء الدين محمد المقدسي بجبل

---

(١) حديث ٢٤٨ ، مجموع ٣ (١٠) .

(٢) مجموع ٧ (٣) ، ١٨ (٤) ، ٨٨ (١١) ، ١١٦ (٩) .

(٣) مجموع ١٦ (٧) .

(٤) مجموع ٧ (١٠) ، ٢٢ (٢) ، ٣٨ (٩) .

(٥) مجموع ٨٠ (٤) .

(٦) مجموع ١٧ (٦) ، ١٧ (٩) ، ٥٥ (٨) ، ٦٣ (٣) ، ٩٥ (٩) ، ١٠١ (١٥) ، ١١٦ (١٢) .

(٧) مجموع ١٢٩ (٢) .

(٨) حديث ٢٤٦

قاسيون ، وكذلك سائر كتبه ، رحم الله من انتفع به ، ودعا له بالمغفرة ولوالديه ولجميع المسلمين » . وفي هذا الجزء اثنان وعشرون سماعاً ، وعدد من المقابلات . ولم يبق من كتبه كلها سوى أحد عشر جزءاً[1] ومجلد واحد .

٢ ـ عبد الحافظ بن عبد المنعم المقدسي أبو محمد : بقي من وقفه خمسة أجزاء ومجلد واحد .

٣ ـ عماد الدين إبراهيم بن الملك : الباقي من وقفه ١٢ جزءاً .

٤ ـ يوسف بن محمد بن منصور الهلالي : بقي من وقفه ١٣ جزءاً ومجلد واحد .

٥ ـ علي بن أحمد الجعفري : لا يزال من وقفه جزآن ، مع سائر أجزائه .

٦ ـ محمد بن علي بن عبد العزيز الحراني : بقي من وقفه في المكتبة الظاهرية كتابان وجزء واحد .

٧ ـ رمضان العدري (؟) ، بقي من وقفه كتاب واحد[2] ، وعليه : « وجعلت النظر لسيدي تقي الدين أبي بكر بن شافع ، ثم من بعده لسيدنا ومولانا القاضي ناظر المكان المذكور [الضيائية] » . وأثبت بعد ذلك توقيعان ، أحدهما باسم أبي بكر بن شافع .

٨ ـ ولا يزال جزآن من كتب ثلاثة من الواقفين التالين : محمد بن علي الأنفي ، ومحاسن الحراني ، وعلي كردي .

٩ ـ بقي جزء واحد من كتب كل من : ثابت الخوارزمي ، وعبد الرحمن ... ، وسليمان الطحان ، وناصر الدين بن محمد بن علي القلانسي ،

---

(١) وسيطول الأمر لو ذكرنا أرقام هذه المخطوطات والتي تليها .

(٢) الأصول ٩٠

وشمس الدين محمد بن عماد ، وعبد الرحيم المقدسي ، وأبي بكر بن أبي عمر المقدسي ، وابن الملقن . [ولا ندري إن كان هو عمر بن علي (ت ٨٤٠ هـ / ١٤٣٦ م) الذي كان شغوفاً بجمع الكتب جداً[1] أم غيره] ؟ ومحمد بن عبيد بن أحمد النابلسي .

أما الكتب الباقية من أوقاف لم يعرف واقفوها فهي التالية :

- من علوم القرآن : ٥ أجزاء .
- من مقدمة الأحاديث : ٤ أجزاء .
- من السنن والصحاح : مجلد واحد .
- من العوالي والمسلسلات : ٤ أجزاء .
- من الفوائد والمسائل : مجلد واحد و ١٧ جزءاً .
- من المسانيد والمعاجم : ٢ مجلدات و أجزاء .
- من الأجزاء في الأحاديث المسندة والمختلفة : كتاب واحد و ٥٠ جزءاً .
- من الأمالي : ٣٠ جزءاً .
- من الأربعينات : ٦ أجزاء .
- من الأحاديث المرتبة على الموضوعات : ٦ أجزاء .
- من الإجازات والفهارس : ٩ أجزاء .
- من الأحاديث والحكايات : جزآن .
- من التوحيد والمذاهب : ١٢ جزءاً .
- من الفقه : كتاب واحد و ٩ أجزاء .
- من التصوف : كتاب واحد و ٤ أجزاء .
- من الأوراد والأدعية : جزء واحد .

---

(١) شذرات ٤٥/٧

ـ من علوم العربية : ٥ كتب وجزآن .

ـ من الأدب النثري : ٥ أجزاء .

ـ من الأدب الشعري : جزء واحد .

ـ من التاريخ والتراجم : ٢ كتب و ١٧ جزءاً .

والمجموع ستة عشر مجلداً ومئة وخمسة وتسعون جزءاً .

ومن الكتب التي أوقفت على الضيائية نسخٌ بعضها قديم ، يرجع إلى قرون ، كمسائل الإمام أحمد بن حنبل ، الذي وقفه ضياء الدين ، وقرئ بالسماع سنة ٢٦٦ هـ / ٨٧٩ م[١] ، وربما نسخ قبل هذا التاريخ . ونسخ أخرى كتبها مشاهير الأعلام والمؤلفين ، كالجزء الذي بخط علي بن عمر الدارقطني (ت ٣٨٥ هـ / ٩٩٥ م) ، وراجعه محمد بن طاهر المقدسي (٥٠٧ هـ / ١١١٣ م)[٢] . ويقال : إنه كان بهذه المدرسة خطوط الأئمة الأربعة ، حتى يقال : إنه كان فيها التوراة والإنجيل[٣] .

تلك هي أوقاف الكتب في الضيائية ، ولا مثيل لها في الحديث ، كتبها كبار علماء هذا العلم ، وعليها سماعات من رواها وأسماؤهم . وقد بلغ مجموع ماحفظ من الأجزاء في الظاهرية ٤٨٦ جزءاً ، ومجموع المجلدات ٥٠ مجلداً ، وعدد صفحات الجزء في الغالب ١٠ أوراق ، قياسها ٢٠ × ١٥ سم .

وننقل هنا كلام بهاء الدين بن عبد الهادي ، وهو يذكر تاريخ أيام هذه الخزانة الأخيرة[٤] : « وكانت خزانة الضيائية مع بني المحب الحافظ ، وبعدهم

---

(١) حديث ٣٣٤

(٢) الذهبي (الأحمدية بحلب ١٢٢٠) ٥٧/ب . ابن قاضي شهبة ، مناقب الإمام الشافعي (الظاهرية ، تاريخ ٥٧) ٩٣/أ .

(٣) ابن طولون ، القلائد (نسخة المجمع العلمي العربي المصورة) ٥٣

(٤) المرجع السابق ، ابن كنان ، المروج (نسخة المجمع العلمي العربي المصورة) ٢٠

صارت للقاضي ناصر الدين بن زريق ، [محمد بن عبد الرحمن الحنبلي الحافظ المتوفى سنة ٨٠٣ هـ / ١٤٠٠ م][1] » . قال الحافظ ابن حجر : إنه ليس في بلاد الشام من يستحق اسم الحافظ غيره ، وكان في أيام قاضي القضاة علاء الدين بن المعلى الحنبلي (ت ٨٢٨ هـ / ١٤٢٤ م) ، فاحتاج القاضي علاء الدين المزبور إلى كتاب (الخلاف في الفقه) للقاضي أبي يعلى الحنبلي البغدادي [الفرّا] ، فقيل : لا يوجد إلا في الضيائية ، فأرسل يطلبه منه ، فجمعه في قفتين ، وأرسله له ، ومن ثم انفرط أمر هذه المدرسة ، وتحكم الناس فيها . ثم لما جاء تيمورلنك زاد انفراط حالها أيضاً ، وجاء الحافظ ابن حجر العسقلاني ، فأخذ منها أحمالاً من الكتب . ثم جاء الحافظ شمس الدين بن ناصر الدين [محمد بن عبد الله المتوفى سنة ٨٤٢ هـ / ١٤٣٨ م][2] فأخذ منها . ثم جاء بعد ذلك الحافظ قطب الدين الخيضري ، [محمد بن محمد المتوفى سنة ٨٦٤ هـ / ١٤٥٩ م][3] ، فأخذ ، ثم إنّ القاضي ناصر الدين بن زريق الثاني ، [أبو البقاء محمد بن عماد الدين المتوفى سنة ٩٠٠ هـ / ١٤١٤ م][4] استوعب أحاسن مافيها » .

وهكذا بدأت تندثر أحسن مكتبات دمشق وربما أغناها في الحديث ، ولكن أعيد إليها قسم من كتبها التي أخرجت منها . وبذل محمد بن طولون (ت ٩٥٥ هـ / ١٥٤٨ م) قصارى جهده ، وساعده الشيخ موسى الكناني الحنبلي ، فأعاد إليها حوالي ألفي جزء[5] .

ولا نعلم متى انتقلت هذه المكتبة إلى المدرسة العمرية ، التي لها مكتبتها

---

(١) شذرات ٣٧/٧

(٢) شذرات ٢٤٣/٧ ـ ٢٤٥

(٣) الزركلي ، الأعلام ٩٧٩

(٤) شذرات ٣٦٦/٧

(٥) ابن طولون ، القلائد ٥٤

الخاصة منذ زمن تيمور[1] ، ونقش على الكتب المنقولة اسم المكان الجديد . ثم آلت هي وكتب العمرية إلى المكتبة الظاهرية سنة ١٢٩٧ هـ / ١٨٧٩ م ، ولا تزال فيها .

٤ ـ **الخزائن الملحقة بالبيمارستانات في دمشق :**

البيمارستان النوري : وقف نور الدين زنكي (ت ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م) جملة كثيرة من كتب الطب على البيمارستان النوري الذي أنشأه بدمشق . وكانت هذه الكتب في خرستانين بصدر الإيوان ، فكان جماعة من الأطباء والمشتغلين يأتون ليقعدوا بين يدي أبي المجد الباهلي ، محمد بن عبيد الله . ثم تجري مباحث طبية ، ويُقرئ الطلاب ، ولا يزال معهم في اشتغال ومباحثة ونظر في الكتب مقدار ثلاث ساعات[2] .

الدخوارية : وقف شيخ الأطباء ، المهذب عبد الرحمن بن علي الداخوار (ت ٦٢٨ هـ / ١٢٣٠ م) داره في الصاغة القديمة قرب قصر الخضراء جنوب الجامع الأموي مدرسة للطب سنة ٦٢١ هـ / ١٢٢٤ م . ونسخ كتباً كثيرة بخطه المليح ، بلغت أكثر من مئة مجلدة في الطب وغيره ، وأوقفها على المدرسة للأطباء[3] .

٥ ـ **الخزانة الملحقة برباط السميساطية :**

كان خانقاه السميساطية أحد الرباطات الكبيرة بدمشق ، وكانت خزانته

---

(١) ابن طولون ، المرجع السابق ١٠٧ ـ ١٠٨ ، وذكر الكتب التي كانت بها ، مما لم يكن قبل تيمورلنك .

(٢) ابن أبي أصيبعة ١٥٥/٢ . الوافي (أحمد الثالث ٢٩٢٠) ١/ب ، ١٢/أ . النعيمي ٢/ ٢٣٣ ـ ٢١٤ . وانظر وصف الخزانتين في القسم الوصفي .

(٣) مرآة ، ط شيكاغو ، سنة ٦٢٨ هـ ، مخطوطة فيض الله ١٥٢٤ ، ٨٨/٩/ب . الصفدي ، تاريخ (الأحمدية بحلب ١٢١٦) ٨٧/أ . النعيمي ٢٢٢/٢

عـامرة بـالأوقـاف المختلفـة التي كانت ترده . وكان ممن وقف فيـه محمـد بن عبد الرحمن بن مسعود البنجديهي النحوي (ت ٥٤٨ هـ / ١١١٨ م) ، وكان لـه باع في اقتناء الكتب ، جمع منها كتباً لم تحصل لغيره[١] . ولما لم يكن له وريث[٢] فقد وقفها على خانقاه السميساطية[٣] ، وجاء معظمها كما رأينا من خزانة كتب حلب ، ومن خزانة جامع حلب[٤] . ومن كتبه الموقوفة : الفوائد لمحمد بن عبد الله بن الحكم ، سمعها علم الدين بن البرزالي (ت ٦٨٠ هـ / ١٢٨١ م) بقراءة تقي الدين بن تيمية المشهور من نسخة السميساطية ، وقف المسعودي بالجامع المظفري[٥] .

ومن الواقفين بالشميساطية المحدث اللغوي الصوفي ، صفي الدين محمود بن محمد الأرموي ، المعروف بالقرافي[٦] ، « وقف جميع كتبه وجعل مقرها خزانة الخانقاه السميساطية » ومن جملتها المجلدة الأولى من كتاب الكافي الشافي في شرح المسند من حديث الشافعي ، وهي في المكتبة الظاهرية[٧] ، وعليها : « وقفه ، وأبده ، وحبسه كاتبه وجامعه . وهو في مجلدين ، هذا أولهما ، الشيخ الإمام العالم الفاضل المحدث الحافظ اللغوي صفي الدين محمود بن محمد الأرموي المعروف بالقرافي الصوفي ، رحمه الله تعالى ، ورضي عنه وعن سلفه أجمعين ، على جميع المسلمين من أهل السنة والجماعة ، ينتفعون به سائر وجوه الانتفاع من النسخ

---

(١) إرشاد ٢٠/٧

(٢) ابن قاضي شهبة ، طبقات النحاة (الظاهرية ، تاريخ ٤٣٨) ٧٠

(٣) مصادر الحاشيتين ٢ ، ٣ في الصفحة السابقة ، الدبيثي ، ذيل (المكتبة الوطنية ، عربي ٥٩٢١) ٦٨/ب والمرجع السابق (مصورة المجمع العلمي العربي) ١٢٨

(٤) انظر ص ١٣٥

(٥) ابن البرزالي ، تعليقات (الظاهرية ، مجموع ١٨) ٢٢٥/ب .

(٦) ترجمته في الشذرات ٦٢/٤

(٧) حديث ٣٠٩

والمقابلة والمطالعة ، وشرط ألا يعار إلا بتذكرة تحرز قيمته ، ولا يعار إلا ممن يوثق به من أهل الخير والصلاح ، وشرط أن يكون مقره خزانة الخانقاه السميساطية بباب الناطفاييين من جامع دمشق المحروسة ، مع جميع كتبه التي وقفها ، وجعل مقرها خزانة الخانقاه السميساطية ، رحم الله تعالى واقفها ، ورضي عن سكانها . فمن انتفع بشيء من كتبه فليقرأ ماتيسر من القرآن الكريم ، ويهدي ثواب ذلك إلى الواقف وإلى والديه ، ويترحم عليهما » .

ونذكر من بين الكتب التي وقفها القرافي مسودة كتاب تهذيب تهذيب اللغة للأزهري في خمسة مجلدات[1] .

ومن الواقفين العلائي صلاح الدين أبو سعيد خليل بن كيكلدي الدمشقي الشافعي النحوي المحدث (ت ٧٦١ هـ / ١٣٥٩ م) ، وقف أجزاءه بالخانقاه السميساطية[2] . وأحد هذه الأجزاء محفوظ في المكتبة الظاهرية[3] .

وهذا ثبت الكتب التي بلغنا أنها وقفت بالسميساطية ، مما استطعنا التعرف عليه :

١ ـ كتاب الاستبصار ، لمحمد بن إسرائيل أبي عبيد الله السلمي المعروف بالقصّاع ، وكتاب المغني له أيضاً . وقف هذين الكتابين بنسخة من خطه أبو المعالي ابن اللبان[4] .

٢ ـ الْمُـذَهَب في الْمَـذْهب ، لنصر بن إبراهيم أبي الفتح المقدسي الشافعي (ت ٤٩٠ هـ / ١٠٩٦ م) ، وهو في عشرة مجلدات[5] .

---

(١) البلغة ١١٥

(٢) الحسيني ، ذيل تذكرة الحفاظ ٤٦

(٣) مجموع ٦٣ (٢١) .

(٤) ابن الجزري ، غاية ٢/١٠٠

(٥) عيون (الأحمدية بحلب ١٢٢٨) ١٣/٤٠/أ .

٣ ـ عقود الجمان في شعراء هذا الزمان ، للمبارك بن أبي بكر أحمد بن الشعار الموصلي (ت ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م)[١] .

٤ ـ التذكرة الكندية لعلاء الدين علي بن المظفر الكندي (ت ٧١٦ هـ / ١٣١٦ م) ، وتقع في عدة مجلدات تقرب من الخمسين ، وهي كثيرة الفوائد[٢] .

٥ ـ شرح الحماسة للتبريزي . بخط أبي المجد البهنسي وزير الملك الأشرف (ت ٦٢٨ هـ / ١٢٣٠ م) ، في عشرة مجلدات . وليس في الشام أصح من هذه النسخة[٣] .

كانت خزانة السميساطية من الخزائن الغنية بالنسخ القيمة ، وكان فيها الخزنة المعرفون ، ومنهم هؤلاء الثلاثة :

١ ـ علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم الشِّيحي المفسر المحدث الصوفي ، (ت ٧٤١ هـ / ١٣٤٠ م)[٤] .

٢ ـ الحسين بن مبارك الموصلي الصوفي (ت ٤٧٢ هـ / ١٣٤١ م) ، وكان رجلاً خيّراً ديّناً[٥] .

٣ ـ علي بن سيف بن علي الإبياري النحوي اللغوي الأديب (ت ٨١٤ هـ / ١٤١١ م) ، حصّل كتباً كثيرة ، فنهبت في فتنة تيمورلنك[٦] .

---

(١) الذهبي (الأحمدية بحلب ١٢٢٠) ٩٥/أ .

(٢) ابن حجر ، الدرر ١٣٠/٣ ، الطبراني (المكتبة الوطنية ، عربي ١٥١٦) ٢١١/ب .

(٣) مرآة ، ط شيكاغو ٤٤٤ ، اليافعي ، جامع (المكتبة الوطنية ١٥٤٣) ٤٥/أ .

(٤) ابن حجر ، الدرر ٩٧/٣

(٥) المرجع السابق ٦٥/٢

(٦) السيوطي ، بغية ٢٢٨

٦ ـ **خزائن الترب بدمشق :**

البهنسية : أنشأ المجد البهنسي وزير الملك الأشرف (ت ٦٢٨ هـ / ١٢٣٠ م) تربة له بقاسيون ، ولما مات دفن فيها ، وأوصى أن توقف كتبه فيها[١] .

البزورية : وقف المؤرخ أبو بكر محفوظ بن معتوق ابن البزوري البغدادي الأصل التاجر ، وقف كتبه على تربته في سفح قاسيون[٢] بأعلى سوق القطن[٣] . وآل إلى الظاهرية منها الكتب التالية :

١ ـ المجلد الثاني من مناقب الأئمة ، لأبي بكر الباقلاني ، تاريخ ٦٦ .
٢ ـ كتاب في التصوف ١١٨ .
٣ ـ كتاب في الأصول .

وتكررت على هذه المخطوطات العبارة التالية : « هذا ماوقفه العبد المفتقر إلى رحمة ربه الغني العلي محفوظ بن معتوق بن عمر بن البزوري البغدادي ، غفر الله لهم ، على طالبي العلم من سائر طوائف المسلمين ، وقفاً مؤبداً صحيحاً شرعياً مؤبداً ، طلباً لمرضاة الله تعالى ، ورغبة في الثواب ، وشرط أن يجعل بخزانة تربته وموضع مدفنه الذي بسفح جبل قاسيون بالصالحية ، وأن يكون النظر فيه لنفسه ، ينتفع به مدة حياته ، ثم من بعده لأولاده الأرشد فالأرشد ، وألا يعار إلا لمن يوثق ، بحفظ قيمته مرتين ، وشرط على الناظر أن يستقرئ المستعير فاتحة الكتاب وسورة الإخلاص ثلاث مرات ، ويهديها إلى الواقف وإلى والديه » .

---

(١) مرآة ، ط شيكاغو ٤٤٤ ، اليافعي ، جامع (المكتبة الوطنية ، عربي ١٥٤٣) ٤٥/أ . النعيمي ٣٤٩/٢ ، الطبراني (المكتبة الوطنية ، عربي ١٥١٦) ٣١/أ .

(٢) النعيمي ٣٤٦/٢

(٣) ابن كنان ، المروج (نسخة مصورة في المجمع العلمي العربي) ٢٥

العينية : أنشأ الخواجة أبو بكر بن العيني تربة له بصالحية دمشق ، ثم وقف عليها ابنه شيخ الإسلام زين الدين عبد الرحمن كتبه[1] .

السيفية : وقف الجناب العالي محمد بن السيفي أرغون شاه الناصري عام ٧٦٠ هـ / ١٣٥٨ م في تربة أبيه بدمشق ربعة شريفة - وهي اليوم في متحف دمشق[2] - . واشترط أن تقرأ فيها ، وألا تخرج منها ، إلا بإذن واقفها أو ناظرها .

السلامية : وقف حمزة بن موسى المعروف بابن شيخ السلامية (ت ٧٦٩ هـ / ١٣٦٧ م) درساً وكتباً بتربته بالصالحية في دمشق ، وعيّن لذلك الشيخ زين الدين بن رجب (ت ٧٩٥ هـ / ١٣٩٢ م) مدرساً وخازن كتب[3] .

٧ - واقفون بدمشق لم يعينوا جهة وقفهم :

هذا ثبت بأسماء من وقفوا كتبهم بدمشق دون أن يحدد مقرّ وقفهم وذلك على ترتيب وفياتهم :

١ - زين الدين محمد بن محمد الكوفني المحدث ، توفي بعد سنوات من عام ٦٤٠ هـ / ١٢٤٢ م[4] .

٢ - إبراهيم بن عيسى بن يوسف أبو إسحاق المرادي الأندلسي المحدث (ت ٦٦٧ هـ / ١٢٦٨ م) حصل كتباً جيدة نفيسة وقفها على من ينتفع بها من المسلمين وجعل نظرها إلى علاء الدين محمد بن عبد القادر بن عبد الخالق المعروف بابن الصائغ[5] .

---

(١) النعيمي ٣٥١/٢

(٢) ع ع ٢٩١

(٣) العليمي ، المنهج (نسخة مصورة في المجمع العلمي) ٤٦٠/٢ . النعيمي ٢٥٤/٢ ، شذرات ٢١٤/٦

(٤) الوافي ، ط استانبول ٢٠١/١

(٥) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان (الأحمدية بحلب ١٢١٣) ٢٠٤/أ .

٣ ـ عماد الدين أبو المعالي محمد بن علي النابلسي الدمشقي المحدث (ت ٧١١ هـ / ١٣١١ م)[١] .

٤ ـ محمد بن داود بن محمد شمس الدين الموصلي التاجر (ت ٧٢٨ هـ / ١٣٢٧ م) وقف كتباً كباراً بدمشق وبغداد[٢] .

٥ ـ علم الدين القاسم بن محمد البرزالي الشافعي المحدث المؤرخ (ت ٧٢٩ هـ / ١٣٢٨ م) كتب بخطه المليح الصحيح كثيراً جداً[٣] من الكتب المطولة والأجزاء العالية المفيدة[٤] التي استوعبت أربع خزائن ، وكان باذلاً لكتبه في حياته ، يضعها تحت تصرف العلماء[٥] ، وقفت[٦] في عدة أماكن وهي مبذولة للطلبة[٧] والباقي منها في الظاهرية[٨] سبعة أجزاء .

٦ ـ اقتنى شيخ الإسلام هبة الله بن عبد الرحيم البارزي الشافعي (ت ٧٣٨ هـ / ١٣٣٧ م) من الكتب شيئاً كثيراً ووقفها وهي تساوي مئة ألف درهم[٩] .

٧ ـ وقف الفقيه المفسر النحوي محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية

---

(١) شذرات ٦/٢٨

(٢) الطبراني ، (المكتبة الوطنية ، عربي ١٥١٦) ٢٥٢/أ ، ابن حجر ، الدرر ٣/٤٣٧

(٣) المرجع السابق ٣/٢٣٨

(٤) المحاسني ، ذيل ٢٠

(٥) ابن حجر ، الكتاب المذكور ٣/٢٢٨

(٦) المحاسني ، المرجع السابق .

(٧) شذرات ٦/١٢٢

(٨) مجموع ٣٧ (١٠) موقوف على النورية ، مجموع ٨٢ (٤) ، ٨٢ (٧) ، ١٠١ (٢٥) ، ٣٧ (١٠) ، ٨٢ (٤) ، ٨٢ (٧) .

(٩) الصفدي ، نكت الهميان ٣٠٢

(ت ٧٥١ هـ / ١٣٥٠ م) كتباً كثيرة حسنة في علوم شتى[١] ، وصنف تصانيف كثيرة جداً في أنواع العلم ، وكان شديد المحبة للعلم وكتابته ومطالعته وتصنيفه واقتناء الكتب ، واقتنى من الكتب ، مالم يحصل لغيره[٢] .

٨ - إبراهيم بن عيسى الحلبي (ت ٧٨٦ هـ / ١٣٨٤ م) أحد فقهاء الشافعية ، ألّف كثيراً ووقف كتبه[٣] .

د - الخزائن الملحقة بحلب[٤] :

النورية : في سنة ٥١٧ هـ / ١١٢٣ م حوّل ابن الخشاب التغلبي كاتدرائية حلب إلى مسجد . وفي سنة ٥٤٣ هـ / ١١٤٦ م ، جعل الملك المعظم الأتابك نور الدين زنكي منه مدرسة[٥] ، سماها باسمه ، وقف فيها قسماً من كتبه . ولا تزال قائمة حتى اليوم ، وتدعى بالمدرسة الحلوية . وتقابل الجامع من جهة الغرب مكتبة هذه المدرسة ، التي وقف عليها كتبه الفقيه أبو بكر بن أحمد الظاهر (ت ٥٥٣ هـ / ١٥٥٨ م)[٦] ، كما وقف فيها على الأرجح المحدث أبو بكر الرعيني محمد بن شريح (ت ٥٦٣ - / ١١٦٧ م) كتبه على أصحاب الحديث[٧] .

---

(١) النعيمي ٢٧١/٢

(٢) ابن رجب (الظاهرية ، تاريخ ٦١) ٢٣٩/أ . العليمي ، المنهج ، (نسخة مصورة) ٤٤٩/٢ . شذرات ١٦٩/٦

(٣) شذرات ٢٩٠/٦

(٤) انظر راغب الطباخ ، دور الكتب في حلب قديماً وحديثاً في مجلة المجمع العلمي العربي مج ٢٩٩/١٥

(٥) الموسوعة الإسلامية ، نور الدين زنكي .

(٦) القرشي ، الجواهر ٢٧١/٢

(٧) ابن الأبار ٢١٨/١ ، المقري ، نفح الطيب ٢٥٥/١ و ٤٠٢/١ ، ويذكر اسمه و : أبو عبد الله وأبو بكر محمد بن علي بن ياسر الجياني ، الأنصاري .

وبعد أن رحل الرعيني طويلاً صحبة ابن عساكر صاحب تاريخ الشام إلى بغداد وغيرها انتهى إلى حلب فاستوطنها ، وسلمت إليه خزانة الكتب[1] النورية[2] ، وأجريت عليه جراية[3] .

ولما أحس المحدث أحمد بن محمود بن إبراهيم الجوهري (ت ٦٤٣ هـ / ١٢٤٥ م) بدنو أجله وهو خطّاط ومصنف عظيم ، عنده كتب كثيرة ، وقف كتبه وأجزاءه على النورية[4] .

ثم اندثرت هذه المكتبة زمن ابن شدّان (ت ٦٨٤ هـ / ١٢٨٥ م)[5] .

وبنى الملك الظاهر بن السلطان صلاح الدين صاحب حلب لأبي الحسن علي بن أبي بكر الهروي (ت ٦١١ هـ / ١٢١٤ م) مدرسة بظاهر حلب ، وبتلك المدرسة غرف ، كُتبَ على باب كل غرفة ما يناسب الكتب التي فيها[6] .

الظاهرية : أنشأ الملك الظاهر غازي الأيوبي (٥٦٨ هـ / ١١٧٢ م - ٦١٣ هـ / ١٢١٥ م) وكان يحب العلم والعلماء كثيراً[7] مدرسة للفقه ، وبنى مدرسة أخرى بعد النورية .

وكان أحد أبناء صلاح الدين الأيوبي - بعدما اقتسموا ملكه - يحب العزلة ، فلم يهتم بالسياسة ، بل جاء ليستقر عند أخيه الملك الظاهر في حلب . ولما كان

---

(١) ابن الأبار ٢١٨/١

(٢) هذه التسمية التي تستبعد اسم المدرسة تشير إلى أهمية المكتبة .

(٣) المقري ٤٠٢/١

(٤) الوافي (أحمد الثالث ٢٩٢٠) ٧٥/٨أ وفيه ترجمته وهي ليست في سواه .

(٥) إعلام النبلاء ٥٠٢/٤

(٦) ابن خلكان ٣٣/٢ - ٣٤

(٧) الموسوعة الإسلامية ١٢٥٧/٤

شغوفاً بالعلم فقد جمع كتباً جديدة من الأصول ، ووقفها على مدرسة أخيه الظاهر[١] .

الشرفية : ومن مكتبات المدارس في حلب مدرسة الشرفية ، أسسها الشيخ شرف الدين ، عبد الرحمن العجمي (ت ٦٥٨ هـ / ١٢٥٩ م) ، ووقف ـ على ماذكر في ترجمته ـ[٢] في هذه المدرسة كتباً نفيسة في أنواع العلوم : من تفسير وحديث وفقه ونحو وغيرها . ويمكننا أن نذكر من بينها كتاب الأم[٣] للإمام الشافعي ، وتفسير الثعلبي ، والحاوي الكبير ، والإبانة ، والتتمة ، والذخائر ، والشامل . وكانت المكتبة بالإضافة إلى ذلك تضم أربعين نسخة من كتاب التنبيه[٤] ، وجميع مؤلفات الإمام الغزالي . وكانت أسماء الكتب مثبتة في دَرْج كبير وهو لفافة تستخدم غالباً لحفظ عناوين من الوثائق النفيسة ، فضاع عندما دخل التتر حلب سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٥٩ م . ويجدر القول إنه منذ وضع الفهرس في الدرج صار من الصعب الوصول إليه ، وما كان يوضع تحت تصرف الأساتذة ولا الطلاب . وربما اطلع عليه زوار المكتبة البارزون فحسب .

ونحن إذا تفحصنا المؤلفات المذكورة آنفاً عن قرب استنتجنا بيسر أن معظمها في الفقه الشافعي ، وأن المدرسة الشرفية خصصت للمذهب الشافعي . لكنّ استنتاجاً كهذا يمكن أن يكون ذا غاية ، لأنه يثبت رأي الواقف أنه يجب على المكتبة المساهمة في مهمة المدرسة وتخصصها ، دون أن تهدف إلى رفد ثقافة الطلاب العامة ، ودون الالتفات إلى ثقافات المدرسين .

---

(١) الوافي (أحمد الثالث ٢٩٢٠) ٨/١٣٠/ب .

(٢) في مقال الطباخ المهم عن مكتبات حلب ، مجلة المجمع العلمي العربي ٩/١٥٠

(٣) المرجع السابق .

(٤) المرجع السابق .

السلطانية : في المكتبة الظاهرية جزء ، عليه علامة الوقف التالية : « وقف الحافظ أبي الحجاج ، يوسف بن خليل على من ينتفع به من المسلمين ، ومقره بحلب بالمدرسة السلطانية »[1] . وربما يكون مؤسسها شمس الدين المزي (ت ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م) . ويجب ألا نخلط بينه وبين أبي الحجاج يوسف بن عبد الرحمن المزي المؤرخ المحدث (ت ٧٤٢ هـ / ١٣٤١ م) .

كتاب البدائع : أوقف في أيام ابن العديم مؤرخ حلب (ت ٦٦٠ هـ / ١٢٦١ م) نسخة في سبعة مجلدات من كتاب (البدائع) ، كتبها بخطه شمس الدين ، نجا بن سعد ، في القرن السادس / الثاني عشر[2] .

وعندما عاد ابن العديم إلى حلب بعدما اجتاحها التتر ، أنشد فيها قصيدة منها هذان البيتان :

فيا لك من يوم شديد لغامه — وقد أصبحت فيه المساجد تُهدَم

وقد درست تلك المدارس وارتمت — مصاحفها فوق الثرى وهي ضُخَّم

وسبب التتر لمكتبات حلب في غزوهم لها أضراراً بالغة ، ورموا كتبها ومصاحفها[3] .

مدرسة الدوادار الناصري : وقف الأمير صلاح الدين يوسف الدوادار الناصري داره سنة ٧٣٧ هـ / ١٣٣٦ م مدرسة للمذاهب الأربعة ، وقف فيها كتبه النفيسة[4] .

خزانة مصحف الجامع : وفي سنة ٧٣٦ هـ / ١٣٣٥ م فُتح الباب المسدود

---

(١) مجموع ١١٥ (٥) .

(٢) قرشي ، الجواهر ١٩١/٢

(٣) أبو الفداء ٢٢٥/٣ ، ابن الوردي ٢١٥/٢

(٤) ابن حبيب ، درّة الأسلاك في دولة الأتراك (المكتبة الوطنية ، عربي ١٧١٩) ٢١٢/أ .

الـذي بـالجـامع بحلب شرقي المحراب الكبير ، وكان سُمع أن بـالمكان المـذكـور رأس زكريا عليـه السـلام ، ووجـد في ذلـك تـابوت ، فسُدَّ ثـانيـة ، ووضعت خزانـة المصحف العزيز على الباب[1] .

جامع منكلي بغا : أنشأ منكلي بغا سنـة ٧٦٧ هـ / ١٣٦٥ م الجـامع المعروف بـاسمه ، ووقف عليـه كتبـاً نفيسـة ، منهـا (التفسير) للقرطبي ، و (التبصرة) لابن الجوزي ، و (مجمع الأحباب) للحسيني ، وغير ذلـك من الكتب النفـائس . ووضع الكتب في خزائن الجـامع المـذكـور . وهـذه الخـزائن متقنـة محكمـة ، فيهـا الصنائع العظيمة على طريق النجـارين [في ذاك العصر] . وأشـار ابن ذر إلى أن النجار الذي صنعها هو الشيخ فريكا ، وهو من الصـالحين . وذكر أيضـاً أن نصف كتاب (مجمع الأحبـاب) وكان كلـه في مجلـدين قـد ضـاع . وقـال : وهو كتـاب جليل ، ترجم فيه الأولياء والعلماء ، وتكلم فيه على طريق الصوفية[2] .

البـــدريـــة : ومن بين دور الحـديث في حلب ، دار أنشـأهـا الصـــاحب مؤيد الدين إبراهيم بن يوسف القفطي ، تقع مقابل محلّة الفردوس ، وسميت منذ البداية (البدرية) . ووهبها منشئها كتباً ، منها كتاب (المجمل) ، الذي شاهـد ابن ذر مجلداً منه[3] .

مسجد السفّاحية : بنى الأشرف أبو العبـاس أحمـد سبـط ابن السفـاح جـامع السفاحية ، وجعل منه مدرسة ومسجداً بدون منبر ، وأوقف عليه كتباً قيّمـة كان اشتراهـا . وعنـدمـا عُيّن ابنـه الزيني عمر نـاظراً عليهـا كشـط عـلامـات الـوقف المكتوبة على النسخ وباعها[4] .

---

(١) أبو الفداء ، سنة ٧٣٦ هـ ، ابن الوردي ٢١٥/٢

(٢) ابن ذر ، في إعلام النبلاء ٣٠٤

(٣) كنوز الذهب (التيمورية) ١٣٤

(٤) المرجع السابق ٧٨

هـ ـ مدن الشام الأخرى :

المعرّة : وقف إبراهيم بن عيسى بن عبد السلام المفسّر (ت ٧٣٩ هـ / ١٣٣٨ م) كتبه على زوايا وأماكن في المعرة[١] .

ووقف منافر بن زيد بن عبد الوليد المعري بعض الكتب التي صنفها أبو العلاء عمه . كتبها بخطه تدل على فضله وحسن نقله[٢] .

حماة : في المكتبة الظاهرية[٣] الجزء الثالث من كتاب (الغريبين) لأبي عبيد أحمد بن محمد الهروي ، وعليه : « وقفه شيخ الشيوخ شرف الدين الأنصاري على ماشرطه في كتاب وقفه ، ومقره بمدرسته بحماة المحروسة » . ويستدل من هذا أنه وقف كتباً في مدرسته هذه ، واشترط للاستفادة منها شروطاً ذكرها في كتاب الوقف ، ولعل شرف الدين الأنصاري هذا هو شرف الإسلام ، عبد الوهاب بن عبد الوليد الأنصاري الفقيه الواعظ (ت ٥٣٦ هـ / ١١٤١ م)[٤] .

وفي عام ٧٢٥ هـ / ١٣٢٤ م عمر السلطان على طريق الجادة الآخذة إلى الشام خانقاه ، وأنزل جماعة من الصوفيين بها ، وأرسل صاحب حماة هدية تليق بالخانقاه المذكور مثل كتب وبسط وغير ذلك[٥] .

وبنى الملك المؤيد عماد الدين أبو الفداء المؤرخ المشهور بظاهر حماة جامعاً حسناً سمي جامع الدهشة ، وقف فيه كتباً قيل إنها ماااجتمعت لغيره من سائر

---

(١) أبو الفداء ١٣٣/٤ . ابن الوردي ٢٢٥/٢

(٢) ابن العديم ، الإنصاف ، وهو مطبوع مع إعلام النبلاء ٨٧/٤

(٣) لغة ٩٣

(٤) ترجمته في شذرات الذهب ١١٣/٤ ـ ١١٤

(٥) أبو الفداء ٩٦/٤

الفنون . فإنه اجتهد في جمعها من سائر البلاد شرقاً وغرباً[1] وكانت سبعة آلاف مجلد[2] . على أنه لم يقف فيه كل كتبه ، فإنه لما مرض فرق كثيراً منها ، ووقف بعضها[3] .

بعلبك : في سنة ٧٠١ هـ / ١٣٠١ م دخل شخص على علي بن محمد شرف الدين اليونيني ، وهو في خزانة الكتب بمسجد الحنابلة ببعلبك وقتله[4] . وفي سنة ٧١٧ هـ / ١٣١٧ م كان السيل الذي خرب بعلبك ودخل الجامع وخرب دوراً كثيرة أتلف كتب الحديث والمصاحف[5] .

القدس : وقف الفقيه أبو الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي (ت ٤٩٠ هـ / ١٠٩٦ م)[6] كتبه على بيت المقدس الشريف .

ورأى ابن القفطي (ت ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م) فيها تصنيفاً لأبيذقلس[7] . والمكان الذي كانت به يعرف بالنصرية ، نسبة إليه ببرج باب الرحمة ، ثم عرفت بالغزالية ، نسبة لأبي حامد الغزالي المشهور ، ثم أنشأها الملك المعظم عيسى (ت ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م) ، وجعلها زاوية لقراءة القرآن والاشتغال بالنحو . ووقف عليها كتباً ، من جملتها (إصلاح المنطق) لابن السكيت ، واطلع مجير الدين الحنبلي (ت ٩٢٧ هـ / ١٥٢٠ م) على كراسة منه بخط ابن الخشاب ،

---

(١) ابن حجة ، ثمرات الأوراق ، القاهرة ، ١٣٣٩ هـ ، ٧٥/١

(٢) خطط الشام ١٩٣/٤

(٣) ابن حجر ، الدرر ٣٧٣/١ . الطبراني (المكتبة الوطنية ١٥١٦) ١٧٨

(٤) ابن حجر ، الدرر ٩٨/٣ ، العليمي ، المنهج ٤١١/٢ ، ابن رجب ، (الظاهرية ، تاريخ ٦١) ٩٠٢/أ .

(٥) أبو الفداء ٦٤/٤ ، الطبراني (المكتبة الوطنية ، عربي ١٥١٦) ٢١٣

(٦) ترجمته في شذرات الذهب ٢٩٥/٣ ـ ٢٩٦

(٧) القفطي ١٥

وعلى ظهر الكراسة الوقف ، وهو مؤرخ في التاسع من ذي الحجة سنة عشر وست مئة هجرية / ثلاث عشرة ومئتين وألف ميلادية[1] .

وكتب السلطان المريني أبو الحسن سلطان المغرب بخطه ثلاثة مصاحف ، أوقف أحدها على حرم القدس الشريف[2] .

و ـ القاهرة :

١ ـ خزائن المدارس بالقاهرة[3] :

الفاضلية : هي إحدى المكتبات العظيمة ، وأجمل مكتبات المدارس العربية ، أنشأها القاضي الفاضل ، أبو علي عبد الرحيم بن علي بن محمد اللخمي البيساني العسقلاني (٥٢٩ هـ / ١١٣٥ م ـ ٥٩٦ هـ / ١٢٠٠ م) في مدرسته بالقاهرة .

والقاضي الفاضل الكاتب العربي الكبير ، رئيس مدرسة الأسلوب كان مغرماً بالكتاب ، سواء بشكله الخارجي ، أم لما فيه من معلومات غنيّة . وتوزيع مكتبة الفاطميين الخاصة بالخلفاء ـ وهي إحدى المكتبات الغنية في الإسلام ـ[4] أعطاه فرصة عظيمة ، تمكن فيها من الحصول على أجود نسخ في الأدب . روى أحد معاصريه العماد الكاتب الذي حضر هذا التبعثر واستفاد منه[5] ، أنّ صلاح الدين عهد بهذه المهمة لوزيره القاضي الفاضل ، فسعد بهذا التكليف ، واختار أفضل

(١) مجير الدين ، الأنس الجليل ٢٨٦

(٢) ابن الوردي ٢٤٨/٢

(٣) انظر هامر بورجشتال ، إضافات على دراسة كاترمير .

(٤) انظر لهذه المكتبة ، بنتو ١٤٥ . كاترمير ، ذوق الشرقيين في الكتب . إبراهيم حسن إبراهيم ، كنوز الفاطميين .

(٥) أبو شامة ٢٠٠/١ و ٢٦٨ ، ذكر أنه أخذ كتباً كثيرة لم يدفع ثمنها لأنّ السلطان قدمها له هدية .

الكتب لنفسه دون أن يستأذن السلطان[1] . وهذه الرواية غير كاملة ، كما أشار العماد الكاتب نفسه في غير هذا الموضع[2] . ويجب أن نضيف إليها ، أنّ قسماً كبيراً من الكتب بيع منها ، واشترك في هذا البيع القاضي الفاضل[3] ؛ وذكر ابن أبي طيء في هذا المجال تفاصيل مهمة ، نقلها عن جماعة من المصريين ، فقال : إن القاضي الفاضل تفحص دار الكتب الفاطمية فأخذ أفضل ما فيها ، وكلما أعجبه شيء قطع جلده ورماه في البركة لتبدو عند البيع بالية لا قيمة لها ، فلما فرغ الناس من شراء الكتب اشترى هو تلك رخيصة جداً ، على أنها مخرومة[4] . ولا يمكن الاعتماد على هذا الخبر ، لأنّ مثل هذا التصرف المعيب لا يصدر عن رجل شغوف بالكتب ، التزم بالمحافظة عليها .

ولقد ارتفع قدره عند السلطان صلاح الدين بسبب اقتنائه لكتب أخرى ؛ كان ذلك عندما سقطت مدينة آمد سنة ٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م ، فوهبه السلطان صلاح الدين خزانة كتبها كلها ، لينتقي منها ما يشاء . وتأتي أهمية هذه الكتب من كثرتها التي تبلغ ألف ألف مجلد وأربعين ألف مجلد ، كما يبالغ بعض المؤرخين . واكتفى هذا الوزير المشغوف بالكتب منها بحمل سبعين أتان[5] .

وكان لدى القاضي الفاضل بالإضافة إلى هذه الكتب الثمينة التي حصل عليها نساخ ومجلدون ، يعملون عنده لحسابه ، وآخرون يرسلهم للبحث عن الكتب في البلدان المختلفة[6] .

---

(١) ابن خلدون ، العبر ٨١/٤ ـ ٨٢ ، ابن كثير (فيض ١٣٨٩) ٩٩/١١/ب . عيني ، (ولي الدين ٢٣٨٩) ٤٨٧/١٨

(٢) أبو شامة ، المرجع السابق .

(٣) القلقشندي ٢٧٨/١

(٤) أبو شامة ٢٠٠/١ ، الوافي (أحمد الثالث ٢٩٢٠) ١٨٥/١٧/ب .

(٥) ابن كثير (فيض ١٣٩٨) ١٣٠/١١/أ ، أبو شامة ٣٩/٢

(٦) المقريزي ٣٨٧/٢ ، ابن العماد ٢٢٥/٤

وقد جعله شغفه بالكتب يرتقي إلى صفوف كبار الجمّاعين . وعددُ الكتب الكبير الذي نعتقد أنه ينسب إليه يفوق عدد كل كتب نسبت للأفراد . وما من أحد كان عنده مكتبة أعظم من مكتبته سوى الملوك . ويتراوح ما يملك باختلاف المؤرخين بين ثلاثين ألف كتاب ، وألف ألف كتاب[1] . ومع أن رقم الثلاثين ألفاً يبدو كبيراً جداً ، فإنه كما أعتقد قليل بالنسبة لذاك العصر ، بسبب الفرص التي أتاحت لوزير صلاح الدين هذا الحصول على الكتب كما رأينا ، وهي فرص كثيرة . وإذا استبعدنا مبالغة المؤرخين الذين قدروا عددها بمئة ألف أو مئتي ألف كان بإمكاننا وبسهولة أن نقدرها بأكثر من خمسين ألفاً . وعلى كل حال ، فالقاضي الفاضل جمع ولا شك مكتبة تعتبر من أكبر مكتبات العصر العباسي ، لم تكن غنية بعددها فحسب ، بل بنوعيتها ؛ لأنّ محبته للكتب دفعته إلى أن يقتني من كل كتاب أفضل النسخ . وتشير الأخبار بوضوح أنه كان يحرص على تملك أكثر من نسخة من الكتاب الواحد ، فكان لديه على سبيل المثال ثماني عشرة نسخة من كتاب الصحاح[2] وكان بالإضافة إلى اهتمامه العلمي بالكتب يريد من خلال هذه النسخ الكثيرة تملّك أجودها وأجملها ؛ والطرفة التالية تدل على هدفه من جمع الكتب : التمس منه ابنه مرة نسخة من (ديوان الحماسة) ، لأبي تمام على الأرجح ، فاستحضر له من الحماسات خمساً وثلاثين نسخة ، وصار ينفض نسخة

---

(١) ذكر الصفدي أنها ألف ألف ، تاريخ (الأحمدية ، بحلب ١٢١٦) ١/ب . وقال آخرون : إنها مئتا ألف ، وهم : مرآة (فيض ١٥٢٤) ١١/٩/أ ، ابن كثير (فيض ١٣٩٨) ١٦٩/١١ ، المرجع السابق (فيض ١٣٩٥) ١٨/٨/ب ، أبو شامة ٢٤٤/٢ ، السبكي ٢٣٥/٤ ، ابن قاضي شهبة ، طبقات النحاة (الظاهرية ، تاريخ ٤٣٨ ، ٣٦٨) ، النعيمي ١٢١/١ . وروى الصفدي في الوافي (أحمد الثالث ٢٩٢٠) ١٢١/١٨/ب أن مكتبة القاضي الفاضل تضم سبعين ألف مجلد ، ويقول ابن الساعي ٢٨ وهو أدنى مكانة من السابقين لأنه بعيد الصلة عن تاريخ مصر : إنها أقل من ثلاثين ألفاً . ويروي المقريزي ٣٦٧/٢ عن صاحب المكتبة نفسه ، أنه جمع قبل عشرين عاماً من وفاته مئة وأربعة وعشرين ألف مجلد .

(٢) ابن العماد ٣٢٥/٤

نسخة ويقول : هذه بخط فلان ، وهذه عليها خط فلان .. حتى أتى على الجميع ، وقال : ليس فيها ما يصلح للصبيان ، وأمر الكتبي أن يشتري له نسخة بدينار[١] . وبهذا نستدل أنّ الذين نسخوا كتبه كانوا إما خطاطين مهرة أو علماء مشهورين .

وفي عام ٥٨٠ هـ / ١١٨٤ م أسهمت هذه الكتب الجميلة في تكوين المكتبة الملحقة بمدرسة القاضي الفاضل الذي وقفها للشافعية والمالكية في درب ملوخيا . وكانت تلك المدرسة إحدى المدارس الأولى في القاهرة ، وقامت فيها مكتبة تضم كتباً عددها كعدد كتب مؤسسها ، والتي هي موضوع بحثنا ، والتي يقال : إنها بلغت مئة ألف مجلد[٢] . وهذا العدد مبالغ فيه كثيراً . على أن مؤرخاً عظيماً وهو سبط ابن الجوزي يروي أنّ مكتبة القاضي الفاضل الخاصة كانت تضم مئة ألف مجلد . ونضيف إلى ذلك هنا فنقول إن قسماً منها فحسب هو الذي نقل إلى مكتبة المدرسة[٣] . والأمر المنطقي أن مغرماً بالكتب مثله لا يمكن له أن يستغني إلا عن جزء يسير من مكتبته الخاصة . ومع هذا فمكتبة المدرسة تستفيد من عطائه مهما كان قليلاً . ووصل إلى المدرسة بهذه الطريقة مؤلفات نادرة ثمينة ، كمعجم الجامع في اللغة لمحمد بن جعفر أبي عبد الله القزاز اللغوي (ت ٤١٢ هـ / ١٠٢١ م) ، وهو كتاب فريد في بابه وفي حجمه[٤] .

كما كان في هذه المكتبة كتاب الاستغناء ، لمحمد بن علي أبي بكر الأُدْفُوي (ت ٣٨٨ هـ / ٩٩٨ م) ، وهو تفسير للقرآن الكريم في ١٢٠ جزءاً[٥] ، وكتاب

---

(١) المقريزي ٣٦٧/٢

(٢) المرجع السابق ٣٩٦/٢ و ٤٠٩/١

(٣) مرآة (فيض الله ١٥٢٤) ١١/٩/أ .

(٤) الوافي (أحمد الثالث ٢٩٢٠) ١٥٦/٢/أ .

(٥) الذهبي (الأحمدية بحلب ١٢٢٠) ٧٣/٤/ب ، عيون (الظاهرية ، تاريخ ٤٨) ٢٤٧/أ ، ابن قاضي شهبة ، طبقات (الظاهرية ، تاريخ ٤٢٨) ٨٥

نـادر لمحمـد بن علي أبي بكر الصقلي (ت ٣٦٥ هـ / ٩٧٥ م) ، اسمـه محـاسن الشريعة ، يقع في ثلاثة مجلدات[(١)] .

كان عبد الرحمن بن علي بن أحمد بن عبد الرحيم (ت ٦٩٥ هـ / ١٢٩٥ م) ابن حفيد القاضي الفاضل أحد خازني المكتبة الفاضلية ، وكان كاتباً مكثراً[(٢)] ، ويمكن أن تكون صلة قرابته للمؤسس ذات أثر في اختياره خازناً . ونستطيع أن نذهب إلى أبعد من ذلك فنفترض أن المؤسس أورد في الوقفية ما يفيد وجوب تسلّم ذريته لخزانة الكتب ، كما هو الحال في عدد من المدارس ، حيث يضع واقفوها مختلف الوظائف بأيدي حفدتهم . لكننا إذا أنعمنا النظر هنا توجب علينا استبعاد مثل هذا التصرف ، لأنّ إسناد وظيفة خازن كتب لابن وزير أمر غير معقول ، ولو فعل القاضي الفاضل مثل ذلك فإنه كان سيعطي كذلك وظيفة التدريس فيها لأحد أولاده ، بينما كان أول مدرس في هذه المدرسة على ما نعرف هو الشاطبي ، ولم يكن من أبناء الوزير القاضي الفاضل .

وما بقي شيء من كتب هذه المدرسة زمن المقريزي ، ماعدا نسخة بديعة من القرآن الكريم بالخط الكوفي التي كتبها عثمان بن عفان رضي الله عنه . ولهذا اشتراها القاضي الفاضل بمبلغ كبير ، بثلاثين ألف دينار ، ووضعها بمفردها في خزانة خاصة ، قرب محراب المدرسة ، ثم ضاعت مع كتبها .. وربما كان على هذه المدرسة سنة ٦٤٩ هـ / ١٢٥١ م بإشراف خازنها المذكور تأمين الطعام للطلاب الذين كانوا بها لما وقع الغلاء بمصر ، ومسّهم الضر ، فصاروا يبيعون كل مجلد برغيف خبز ، حتى ذهب معظم ما كان فيها من الكتب ، ثم تداولت أيدي الفقهاء عليها بالعارية ، فتفرقت[(٣)] .

---

(١) ابن خلكان ، ط استانبول ٢٨٩/٢

(٢) الوافي ، المرجع السابق ، ١٨/٧٢/ب .

(٣) المقريزي ٢٦٦/٢

ويجب الإشارة هنا إلى إهمال الإدارة ، وعدم المبالاة عند الطلاب . وهكذا كانت إحدى مكتبات المدارس الرائعة فريسة لعارٍ سببته الجماعة .

الصاحبية : أسس المدرسة الصاحبية ، الصاحب صفي الدين عبد الله بن علي بن شاكر (ت ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م) وخصصها لتدريس الفقه المالكي والنحو وزودها بالكتب . وفي عام ٧٥٨ هـ / ١٣٥٦ م أعيد بناؤها ، وأنشئ فيها مسجد . وبقيت مكتبتها عامرة حتى زمن المقريزي[١] .

الكاملية : في عام ٦٢١ هـ / ١٢٢٤ م بنى السلطان الكامل محمد بن العادل (ت ٦٣٥ هـ / ١٢٣٧ م) داراً للحديث في القاهرة[٢] ، وتولى خزانة كتبها المحدث النحوي محمد بن إبراهيم بن عنان (ت ٦٨٣ هـ / ١٢٨٤ م) ، الذي أصبح فيما بعد شيخ هذه الدار[٣] .

الصباحية : في عام ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م بنى الوزير الصاحب بهاء الدين علي بن محمد بن سليم بن رضا (ت ٦٧٧ هـ / ١٢٧٨ م) المدرسة الصباحية البهائية . وأنشئت فيها مكتبة جميلة ، أراد ابن واقفها فيما بعد ، وهو شمس الدين محمد ، أن ينقلها إلى شاطئ النيل في القاهرة ، وتوفي - ومن المحتمل أنه كان ناظر أوقافها - قبل أن ينجز مشروعه[٤] . وأدرك المقريزي الأيام الأخيرة للمدرسة ، وكانت قبله من أهم مكتبات القاهرة[٥] .

الظاهرية : تمّ بناء الظاهرية في القاهرة عام ٦٦٢ هـ / ١٢٦٣ م ، وسميت كذلك باسم الظاهر بيبرس (٦٢٠ هـ / ١٢٢٣ م - ٦٧٥ هـ / ١٢٧٦ م) ،

---

(١) المرجع السابق ٣٧١/٢

(٢) الصفدي ، تحفة (المكتبة الوطنية ، عربي ٥٨٢٧) ١٦٤/أ ، بغية ٣٦٠

(٣) الوافي (أحمد الثالث ٢٩٢٠) ٥/٢/ب ، بغية ٥

(٤) المقريزي ٣٧١/٢

(٥) المرجع السابق .

وخصصت للحنفية والشافعية والمحدثين وقراء القراءات السبع . والمكتبة التي ضَمّت كتب العلوم الإسلامية الأساسية كانت قسماً منها .

ويبدو المكان الذي قامت عليه المكتبة مؤلفاً من غرفتين ، سميت إحداهما بيت الكتب الأسفل . ويقول مُغلطاي بن قَلِيج (ت بعد ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م) : إنه قرأ سنن الكشي في هذه المكتبة[١] .

وبقيت هذه المدرسة حتى زمن المقريزي[٢] ، وكان خازن كتبها محمد بن محمد الجمال (ت ٨٧٧ هـ / ١٤٧٢ م) .

المنكوتمرية : خصصت للحنفية والمالكية . بناها عام ٦٩٦ هـ / ١٢٩٦ م الأمير سيف الدين منكوتمر الحسامي نائب السلطنة بمصر ، وجعل فيها خزانة كتب ، كان يشرف عليها زمن مؤلف الخطط قضاة المذهب الحنفي ، وكانت المدرسة قد بدأت بالانحطاط[٣] .

الطيبرسية : أنشأها علاء الدين طيبرس الخازنداري نقيب الجيوش (ت ٧١٩ هـ / ١٣١٩ م) للشافعية . وهذه المدرسة التي تحمل اسمه كانت ذات مظهر رائع مجلل بالرخام . وضمت مكتبة[٤] بقيت حتى القرن الثامن / الرابع عشر .

الحجازية : أنشأت بنت السلطان الناصر بن قلاوون خوندتترا الحجازية زوجة الأمير بكتمر الحجازي المدرسة الحجازية ، وضمت مكتبة للشافعية والمالكية[٥] .

---

(١) ابن فهد ، لحظ الألحاظ ١٣٧ (في ذيل تذكرة الحفاظ) .

(٢) المقريزي ٣٧٨/٢ ـ ٣٧٩ . المقريزي ، السلوك ، ١ ، ٥٠٤/٢ . يونيني ، ذيل (الأحمدية بحلب ١٢١٣) ١١٥/أ .

(٣) المقريزي ، خطط ٣٨٧/٢

(٤) المرجع السابق ٣٨٣/٢

(٥) المرجع السابق ٣٨٢/٢

البشيرية : في عام ٧٦١ هـ / ١٣٥٩ م بنى الطواشي سعد الدين بشير الجمدار الناصري خارج القاهرة وفي مكان مسجد سنقر القديم مدرسة لطيفة ، وجعل بها خزانة كتب[١] .

العوكلانيّة : بنى الأديب الشاعر ، أحد كبار الموظفين ، الحسين بن محمد العوكلاني مدرسة بحارة بهاء الدين ، ووقف عليها وقفاً جيداً ، ووقف فيها كتباً كثيرة جيدة[٢] .

السابقية : وجد الشافعية في المدرسة التي بناها الطواشي الأمير سابق الدين مثقال الأنكوي مقدم المماليك السلطانية الأشرفية (ت ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م) ، وجعل فيها خزانة كتب[٣] .

الجاي : هي إحدى مدارس القاهرة الجليلة . وقفها سنة ٧٦٨ هـ / ١٣٦٦ م[٤] الأمير الكبير سيف الدين الجاي ناظر البيمارستان المنصور ، وجعل بها درساً للفقهاء الشافعية ، ودرساً للفقهاء الحنفية ، وخزانة كتب[٥] .

المحمودية : أجمل مكتبة في مصر والشام زمن المقريزي ، وهي تشكل جزءاً من المدرسة المحمودية التي بناها عام ٧٩٧ هـ / ١٣٩٤ م جمال الدين محمود بن علي الاستادار (ت ٧٩٩ هـ / ١٣٩٦ م) . وكان لهذا الرجل الذكي النشيط المغامر دور بالغ الأهمية ، إذ ترقى من حمّال في الإسكندرية إلى أن أصبح مستشاراً للدولة حوالي عام ٧٩٠ هـ / ١٣٨٨ م ، لكنه نكب عدة مرات ، وهو الذي أدخل إلى مصر وربما إلى البلاد الإسلامية فكرة تزييف النقود ، وبنى قبل وفاته بعامين

---

(١) المقريزي ٣٩٩/٢

(٢) ابن حجر ، الدرر ٦٨/٢

(٣) المقريزي ٣٩٤/٢

(٤) انظر ص ٢٦٠

(٥) المقريزي ٣٩٩/٢

مدرسة بالمال الذي اكتسبه بهذا الأسلوب . وكانت مكتبته تضم عدداً وفيراً من الكتب ، اشترط فيها ألا يخرج لأحد منها كتاب إلا أن يكون في المدرسة . وأظهر المقريزي إعجابه بتلك المكتبة وقال عنها : « لا يعرف اليوم بديار مصر ولا الشام مثلها »[1] . وهذا ما يحملنا على الظن أنّ مؤلف كتاب (الخطط) العظيم استفاد منها كثيراً في تجميع المعلومات لمؤلفاته المهمة .

وكان في المكتبة كتب بخطوط مؤلفيها من مثل :

١ ـ الروضة لمحي الدين النووي . في أربعة مجلدات[2] .
٢ ـ المنهج للنووي أيضاً[3] .
٣ ـ شرح المنهج لنور الدين الأردبيلي فرج بن أحمد . في ستة مجلدات[4] .

كما ضمت أيضاً كتباً نفيسة ، ككتاب المنهاج الذي كتبه العلاء علي بن أيوب المقدسي تلميذ مؤلفه ، وقد نسخه ، وحرره ضبطاً وإتقاناً[5] .

الأشرفية : في المدرسة التي بناها الملك الأشرف شعبان بن حسين بن قلاوون (ت ٧٧٨ هـ / ١٣٧٦ م) كتب عظيمة رائعة ، أفضلها مصحف بخط ياقوت المستعصمي[6] ، ومصحف بخط ابن البواب[7] ، وثمانية مصاحف أخرى غيرهما نسخها خطاطون مشهورون ، حفظت كلها في محافظ الحرير . وبلغ عدد الكتب التي فيها عشرة أحمال ، على كل حمل علامة الإشهاد بالوقف . وبرغم الإشهاد فقد

---

(١) المقريزي ٢/٣٩٥
(٢) السخاوي ، ترجمة النووي (الظاهرية ، تاريخ ٧٣١) ٢٧
(٣) المرجع السابق .
(٤) المرجع السابق ٢٧
(٥) السخاوي ، الكتاب المذكور ٦٦
(٦) انظر ص ١٧٦
(٧) انظر لترجمة هذا الخطاط : الموسوعة الإسلامية ٢/٣٩١

باعها ابن الأشرف الملك الصالح المنصور حاجي إلى الأمير جمال الدين أستادار بثمن بخس ، بست مئة دينار (وقيمتها تعادل عشرة أضعاف هذا المبلغ) ، ووقفها هذا الأخير عام ٨١١ هـ / ١٤٠٨ م في مدرسته التي افتتحها في السنة نفسها ، ثم أنجزت تماماً في العام الذي يليه ٨١٢ هـ / ١٤٠٩ م بأمر من السلطان الناصر ، الذي كان أراد أن يهدمها ، لكنه تخلى عن فكرته عندما نقش اسمه على بنائها . وأما كتبها وبما فيها كتب الملك الأشرف فقد وضع عليها بعد الفحص علامة وقف الملك الناصر ، ونقل بعضها إلى قصر قلعة الجبل ، حيث مقر الدولة[١] .

الملكية : إحدى المدارس المشهورة في القرن التاسع / الخامس عشر ، بناها الأمير الحاج سيف الدين آل ملك الجوكندار للشافعية ، وكان فيها خزانة كتب معتبرة[٢] .

الجمالية : بنى جمال الدين الأستادار محمود بن علي (ت ٧٩٩ هـ / ١٣٩٦ م)[٣] مدرسة خارج باب زويلة في القاهرة ، ووقف عليها كتب ابن جماعة (ت ٧٩٠ هـ / ١٣٨٨ م) التي اشتراها بعد موته ، وهي كثيرة جداً[٤] . واقتنى ابن جماعة من الكتب النفيسة بخطوط مصنفيها وغيرهم مما لم يتهيأ لغيره[٥] .

ويذكر السخاوي بعض هذه الكتب وهي :

---

(١) المقريزي ٢/٤٠١ ـ ٤٠٢

(٢) المرجع السابق ٣٩٢

(٣) هو غير جمال الدين يوسف الأستادار المتوفى عام ٨١٢ هـ / ١٤٠٩ م ، والذي بنى مدرسة وقف فيها كتباً ، المقريزي ٢/٤٠١

(٤) ابن حجر ، الدرر ٤/٣٢٩

(٥) المرجع السابق ١/٢٩

١ ـ ذيل على تاريخ بغداد ، لابن النجار . شاهد منه بعض الأجزاء التي افتقدها فيما بعد[1] .

٢ ـ جزء من كتاب الحكم للنووي (النسخة الأصلية) . شاهده ابن الملقن[2] .

ولدينا اليوم مجلدان من مخطوطات الجمالية ؛ أحدهما وهو الجزء التاسع والعشرون من كتاب (نهاية الأرب) للنويري[3] ، وعليه علامة الوقف التالية : « الحمد لله كما يجب أن يحمد . وقف هذا المجلد بكامله ، وكذا المجلدات التي تسبقه والتي تليه ، وهي في ثلاثين مجلداً ، محمود الأستادار العالية على عامة المسلمين ، وقف مشروع لطلاب العلم الشريف ، يستعملونه بطريقة شرعية ، وجعل مقره المكتبة السعيدة المخصصة لهذا الغرض ، في المدرسة التي في خط الموازين بالطريق الكبير في القاهرة المحروسة . واشترط ألا يخرج من المدرسة ، لا مقابل رهن ، ولا غيره . ويتولى الواقف الإشراف على المدرسة مدة حياته ، ويعهد بها من بعده إلى من يشرف عليها ، وفق الشروط التي حددتها الوقفية . ويحق له دون غيره أن يضيف أو يحذف من الصك ما يراه حسناً . شعبان من عام ٧٦٧ هـ [آب (أغسطس) ١٣٨٥ م] . شهد عليه عبد الله بن علي النسوق (؟) ، وعمر بن عبد الرحمن البرماوي » .

والمخطوط الآخر[4] مجلد من كتاب (تجارب الأمم) لمسكويه ، عليه علامة الوقف نفسها تقريباً ، وهو في تمامه بستة مجلدات ، وقف بتاريخ وقف الكتاب الأول .

---

(١) السخاوي ، إعلام ١١٢

(٢) المرجع السابق ، ترجمة النووي (الظاهرية ، تاريخ ٧٣١) ٢٥

(٣) المكتبة الوطنية ، عربي ١٥٧٩

(٤) طبع هذا الكتاب في سلسلة الجيب ٧ ، ٦ ، ١٩١٧ م .

العثمانية : بنى الملك الأشرف أبو المحاسن يوسف العثماني مدرسة وقف فيها كتباً نفيسة ، كانت مرغوبة جداً ، وكتابات نادرة ، لم تكن في أي مدرسة أخرى . وأهدى القلقشندي (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) هذه المدرسة كتابه (نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب)[١] .

٢ ـ البيمارستان المنصوري الكبير[٢] :

عمل الملك المنصور قلاوون الصالحي (ت ٦٨٩ هـ / ١٢٩٠ م) بيمارستاناً كبيراً بخطّ بين القصرين ، وأضاف إليه مدرسة ، وبنى إلى جانبه قبة كبيرة ، وقف فيها خزانة كتب[٣] ، ورتب لخازن كتبها في كل شهر أربعون درهماً[٤] ، وهذا مبلغ قليل إذا ماقورن براتب الإمام ، وهو ثمانون درهماً ، لكنه يساوي ما رتب لمدرس التفسير ، ويزيد عما يأخذ المؤذن (٣٠ درهماً) .

وفي هذه الخزانة أفضل نسخ القرآن ، وربعات المصاحف ، المكتوبة بالخط المنسوب ، وكتب التفسير والحديث ، والفقه والأصول ، والطب والأدب والدواوين ، وهذا يشكل مجموعة كبيرة من الكتب[٥] .

وقفَ علي بن أبي الحرم علاء الدين بن النفيس (ت ٦٨٧ هـ / ١٣٨٩ م) على البيمارستان المنصوري داره وكتبه التي نذكر منها : كتاب (الشامل في الطب) ، وهو كتاب عظيم ، تدل فهرسته على أنه في ثلاث مئة مجلدة ، بيّض منها ثمانين مجلدة[٦] . وكانت نسخته في هذا البيمارستان زمن الصفدي[٧] . يقول

(١) مخطوطة الظاهرية ، عام ١٧ ، ٢/ب .

(٢) انظر ماكنسون ، أربع مكتبات كبرى في بغداد ، المجلة الأمريكية ٩٨/٥١

(٣) المقريزي ٤٠٧/٢

(٤) النويري ، نهاية (المكتبة الوطنية ، عربي ١٥٧٩) ٣٠/أ .

(٥) النويري ، الكتاب المذكور .

(٦) الوافي (أحمد الثالث ٢٩٢٠) ١٦٢/٢٠/أ . مسالك (أياصوفيا ، ٣٤٢٢) ١٧٥/٨/ب . شذرات ٤٠٢/٥

(٧) الوافي ، المرجع السابق .

المقريزي[1] : « وقد ذهب معظم هذه الكتب وتفرق في أيدي الناس ، وتعرضت خزانة الكتب فيا بعد لحريق ، أتى على كتب العلوم والمصاحف ونسخ الوقفيات والدفاتر » . حدث ذلك قبل سنة ١١٩٠ هـ / ١٧٧٦ م ، وهي سنة وفاة الأمير عبد الرحمن الذي عزم في تلك السنة على ترميم البيارستان فلم يجد كتاب وقفه ، وكان احترق مع الخزانة[2] .

٣ ـ خزائن الرباطات بالقاهرة :

الصلاحية : في سنة ٧٨٣ هـ / ١٣٨١ م توفي جمال الدين عبد الله بن علي بن أحمد الأنصاري بن حديدة ، وكان خازن الكتب بالخانقاه الصلاحية بالقاهرة[3] .

رباط الآثار : بنى الصاحب تاج الدين محمد بن فخر الدين محمد (ت ٧٠٧ هـ / ١٣٠٧ م) رباطاً ، سمي رباط الآثار ، قرر فيه درساً للشافعية . وكان فيه خزانة كتب في عصر المقريزي[4] ، ومن المرجح أنها أقدم من عصره .

البكتاري : بنى الأمير بكتمر الساقي سنة ٧٢٦ هـ / ١٣٢٥ م خانقاه باسمه . ثم في سنة ٨٠٦ هـ / ١٤٠٣ م حدثت مجاعة وكوارث ؛ فتفرق ما كان فيه من الفرش والآلات والنحاس والكتب والربعات[5] .

الشيخوتية : في حدود سنة ٨١٤ هـ / ١٤١١ م قتل اللصوص خازن الكتب بالشيخوتية والخادم الكبير بها ، الشيخ سعد بن خليل بن سليمان الرومي المرزباني . وكان عالماً بارعاً فاضلاً ، علامة في الفقه والعربية وغيرهما[6] .

---

(١) خطط ٣٨٠/٢

(٢) الجبرتي ، عجائب الآثار ٦/٢ ، القاهرة ١٣٢٢ هـ .

(٣) شذرات الذهب ٢٨٠/٦

(٤) المقريزي ٤٢٩/٢

(٥) المقريزي ، ط القاهرة ٤٢٤/٢

(٦) بغية ٢٥٢

٤ ـ وقوف لم تبين جهتها في القاهرة :

مكتبة العزيز : كان للملك العزيز عثمان بن صلاح الدين الأيوبي ملك مصر خزانة كتب ، أوقفت بعد وفاته سنة ٦١٥ هـ / ١٢١٨ م[١] .

مكتبة النابلسي : وقف إمام المحدثين في مصر في عصره يحيى بن علي رشيد الدين الأموي النابلسي (ت ٦٦٢ هـ / ١٢٦٣ م) جملة من كتبه لمن ينتفع بها من المسلمين . وكان ذا خط حسن[٢] .

مكتبة الأنبوردي : وقف المحدث المفيد زين الدين الأنبوردي أبو الفتح محمد بن أحمد الصوفي الشافعي (ت ٦٦٧ هـ / ١٢٦٨ م) أجزاءه وكتبه . وكتب الكثير[٣] .

٥ ـ خزائن الكتب بالمساجد في القاهرة :

الحاكمي : في عام ٤٠٢ هـ / ١٠١١ م سلمت إلى الجامع الذي بناه الحاكم بأمر الله[٤] الفاطمي صناديق مملوءة بالمصاحف ، وقفها عليه القاضي ابن سعيد ، وأرسل معها شهوداً[٥] .

وكان لا يزال في جامع الحاكم[٦] حتى القرن الثامن / الرابع عشر كتب ، فيها مصحف لا نظير له في الحسن[٧] ، في سبعة أجزاء ، بماء الذهب ، بلغت قيمة كل جزء ٤٠٠ دينار . وهذا المصحف الذي كتبه محمد بن شريف بن يوسف بن وحيد

---

(١) الفوطي ، تلخيص (الظاهرية ، تاريخ ٢٦٧) ٥٨

(٢) اليونيني ، ذيل (الأحمدية بحلب ١٢١٢) ١٥٧/أ . الذهبي ، (الأحمدية بحلب ١٢٢٠) ١٧١/أ .

(٣) الذهبي ، تذكرة الحفاظ ٢٥٧/٤

(٤) انظر لترجمة هذا الخليفة فصل دار العلم الفاطمية .

(٥) ابن دقماق ٧٩/١

(٦) انظر ص ١٦٦

(٧) ابن حجر ، الدرر ٤٥٣/٣

الكاتب (ت ٧١١ هـ / ١٣١١ م) عاد عليه بمبلغ ١٦٠٠ دينار . وشاهده الصفدي الذي نقل هذا الخبر عدة مرات في جامع الحاكم وفي ديوان الإنشاء بقلعة الجبل ، حيث قصر الخليفة . ويضيف الصفدي : إن هذه النسخة وقفها الجاشنكير بجامع الحاكم[١] .

قال ابن حجر : والأمير بيبرس ركن الدين هو الذي جدد الجامع الحاكمي (عام ٧٠٣ هـ / ١٣٠٣ م) بعد الزلزلة ، ووقف له وقفاً مختصاً ، وعمر له خزانة كتب ، فيها أشياء نفيسة ، من جملتها المصحف الذي كتبه ابن وحيد[٢] .

وتضم مكتبة جامع الحاكم خمسة مجلدات من كتاب ذيل تاريخ بغداد لابن النجار ، الأربعة الأولى وجزء من الخامس[٣] .

الخطيري : في عام ٧٣٧ هـ / ١٢٨٦ م كملت عمارة مسجد الخطيري الذي بناه الأمير عز الدين إيدمر الخطيري (ت ٧٣٧ هـ / ١٢٨٦ م) ، وهو أحد مساجد القاهرة الجليلة ، وجعل فيه خزانة كتب نفيسة[٤] .

ز ـ خزائن الكتب في المدن الأخرى بمصر :

الإسكندرية : كان في جامع الثغر (الإسكندرية) في القرن الخامس / الحادي عشر كتب ، محبسة كان يتولاها محمد بن الحسن بن زرارة أبو عبد الله الطائي ، وهو من أهل الأدب والتصرف في علوم العرب . وله فيه حلقة لإقراء الأدب وكان مشرف البيمارستان[٥] .

---

(١) الوافي (أحمد الثالث ٢٩٢٦) ٦٩/٣/ب . ابن حجر ، الدرر ٤٥٣/٣

(٢) المقريزي ٢٧٨/٢ ، ابن حجر ، الدرر ٥٠٥/١

(٣) السخاوي ، الإعلان ١١١ ـ ١١٢

(٤) المقريزي ٣١٢/٢

(٥) بنية ٢٣

قوص : في مدينة قوص المصرية الصعيدية خزانة كتب من تصنيف الفقيه سليمان بن عبد القوي الطوفي (ت ٧١٦ هـ / ١٣١٦ م) . وذكر ابن رجب الحنبلي ٣٤ كتاباً منها ويقول : « واختصر كثيراً من كتب الأصول ومن كتب الحديث أيضاً[١] » وكان كثير المطالعة ، حتى ليظن أنه قرأ أكثر كتب خزائن قوص »[٢] .

ح ـ نظرة عامة في الخزائن الملحقة :

بعد أن استعرضنا مختلف الخزائن الملحقة ، نقدم فكرة عامة عن هذه الخزائن وعصرها وأثرها ، وسنقتضب هذه الفكرة كثيراً ؛ لأننا سنتحدث عنها بإسهاب في القسم الوصفي من كتابنا هذا . والمعلومات في ذاك القسم تنطبق بشكل خاص عليها ، فلا حاجة إلى الإطالة هنا .

أول ملاحظة تجدر الإشارة إليها هي كثرة الخزائن الملحقة ، ويقابل هذه الكثرة صغرها في غالب الأحوال . والباحث يجد ولا شك صعوبة في تشتتها وتعدادها وهو يتنقل من واحدة إلى أخرى لاستقصاء بحثه .

ولم يكن أول أهداف المكتبة الملحقة كما يبدو خدمة رغبات الباحثين فقط ، بل إفادة المقيمين بالمؤسسة ، إذ هي مخصصة لهم ومعظمهم من طالبي العلم أو المدرسين ، فهي لهم قبل كل شيء وإن كان غيرهم لا يحرم منها ، ومهمتها إذن مهمة تعليمية بالدرجة الأولى .

ولهذا الاستنتاج شواهده التي تؤيده وعلى الأخص فيما يتعلق بدار الحديث ، فقد استخدم المحدثون النسخ الموقوفة فيها للسماع والإسماع ، يثبتون عليها صورة السماع وأسماء السامعين ، يذكر فيها التاريخ وأحياناً المكان . ولا شك أنها تعتبر

(١) ابن رجب (الظاهرية ، تاريخ ٦١) ٣٠٩/ب ، العليمي ٤١٧/٢

(٢) ابن حجر ، الدرر ١٥٥/٢

وثائق لتلقي العلم وكتبه ، ولا شك أنها أصلح النسخ لتكون وثيقة فهي باقية يمكن الرجوع إليها في أي حين للتثبت من دعاوى العلماء والمتعلمين . وتبقى من جهة أخرى أصلاً صحيحاً تضبط عليه النسخ الأخرى . وتبين النسخ المحفوظة في المكتبة الظاهرية هذه الفائدة . وتشغل التصحيحات والمقابلات والسماعات التي فيها حيزاً أكبر من النص نفسه .

ومهما تكن صلاتها بمجالس التعليم والتحديث فقد كان ينشأ مع الزمن خزائن تتسع صفتها وتصبح أوسع من ملحق لمؤسسة خاصة ، فإنّ بعض الخزائن تطورت لتكتسب صفة دور الكتب الكبيرة ، ويظهر ذلك في عواصم البلدان التي تشكل إطار دراستنا ؛ ففي بغداد كانت أربع خزائن كبيرة لها صفة المكتبة المركزية ، وهي الخزانة النظامية ، وخزانة مشهد أبي حنيفة وخزانة الرباط المأموني ، وخزانة المستنصرية . وكانت كل منها تحمل اسم دار الكتب . ويصبح هذا الاسم ذا مغزى إذا عرفنا أن تلك الخزائن كانت تؤلف قسماً من المؤسسة التي وجدت فيها ولم تكن في بناء خاص بها ، مما يدل بوضوح على أنها تشبه دور الكتب من حيث أهميتها وتطورها ، كما تشبه خزانة الكتب الرئيسة من حيث وظيفتها . ولا يمكن أن يكون هناك نتائج في كون هذه المكتبات تشكل جزءاً من بناء ، بخلاف دور الكتب ذات الأبنية المستقلة ، لأن تسميتها تدل على غرض تلك المؤسسات ، أكثر مما يدل عليه مظهرها الخارجي .

أما الخزائن التي أصبحت مركزاً عاماً للدراسات فهي خزانة المدرسة السميساطية ، ودار الحديث الأشرفية بدمشق ، وكذلك المكتبة الفاضلية والمحمودية في القاهرة .

وهكذا غدت المكتبات الرئيسة ذات صفة موحدة : انتقي خازنوها من طبقة كبار العلماء أو مشهوريهم وأعلامهم على الأقل ، واعتبرها الذين يهوون

الكتب ويجمعونها مكتبات مركزية ، وكانت بالتالي تستطيع استيعاب كتب في مختلف العلوم ، وقد وقف فيها الفقهاء والمحدثون ورجال الأدب كتبهم التي انتقوها استناداً لأذواقهم وكفاياتهم المتباينة دون تمييز .

وينبغي مع ذلك أن نستنتج أنّ هذه الكتب المتداولة في الخزائن الملحقة هي بشكل خاص كتبٌ دينية . ومعظم الكتب التي ذكرناها وكانت في المكتبات التي درسناها تنضم لهذا النوع من الكتب ، وفيها كتب في الفلسفة لا تضيرها .

والخلاصة أنّ الخزائن الملحقة كانت بوجه العموم مشكلاً مصغراً من المكتبة العامة في موضوعها الأساسي ، والتي خصصت لمساعدة المكتبات الملحقة ، من أجل تحقيق أهدافها الجوهرية .

القسم الثاني

الوصف

الفصل الأول

صفات كتب الوقف[1]

الوقف هو العنصر الوحيد الذي يسهم في تكوين المكتبة وفي إغنائها . ولذا نستعرض هذين المظهرين معاً ، لأنها وجدا بطريقة واحدة وحسب مبادئ متماثلة . وتجدر الإشارة هنا إلى تفصيلات مهمة ، وهي أنه لا نتوقع تطور المكتبة بوسائلها الخاصة إلا نادراً ، وذلك في حالتين اثنتين :

١ ـ « للشيخ الناظر في دار الحديث الأشرفية أن يستنسخ للوقف أو يشتري ما تدعو الحاجة إليه من الكتب والأجزاء ثم يقف ذلك أسوة ما في الدار من كتبها »[2] .

٢ ـ تسمح المبالغ الموقوفة لدار العلم زمن الحاكم بامر الله الفاطمي شراء الورق للكاتب[3] ، لتزداد الكتب في المكتبة .

ويجب القول : إنّ غنى المكتبة الرئيسي ينشأ عن الوقف الأصلي للمنشئ ، ووقف غيره من المهتمين بتطوير المكتبة .

ويمكن للواقف عموماً أن يقف ما يشاء من الكتب ، بدءاً من الكراسة الصغيرة حتى المجلدات الكثيرة . ونذكر هنا أشكال وقف الكتب الخاصة ، لتصف كيف تطور مضمون الخزائن :

---

(١) بنتو ، المكتبة ، خصصت في بداية دراستها فصلاً عن شغف العرب بالكتاب ، وعن ثمنه .

(٢) السبكي ، فتاوى (الظاهرية ، الفقه الشافعي ٢٨٥) ١٩٩/ب .

(٣) المقريزي ٤٥٩/١

١ ـ تؤسس الخزانة في دار خالية من الكتب .

٢ ـ تنشأ الخزانة الجديدة بجانب الخزانة القديمة .

٣ ـ يوقف بعض من الكتب زيادة على الخزانة الأولى . ويدخل في هذا الشكل تفريق مجموعة واحدة على أماكن متعددة ، كما جرى لكتب السلطان نور الدين زنكي[١] ، وابن طباطبا الذي وقف على ما قيل آلاف الكتب في مواضع مختلفة[٢] .

ويحسن أن نقسم الأشخاص الذين كانوا يساهمون في إغناء المكتبات العامة إلى فئتين تبعاً لموقفهم منها :

١ ـ جمّاعو كتب لا يدّعون العلم .

٢ ـ علماء وكتّاب .

ومن المهم لتقييم الكتب في المكتبات العامة أن نحدد صفاتها ، وأن نصنّفها في مجموعات بحسب هاتين الفئتين .

وعدم وجود الطباعة في العصر العباسي أعطى جماعي الكتب صفات تختلف عن صفات نظرائهم اليوم ، وجعل للكتابة بحدّ ذاتها أهمية كبرى[٣] في الاستعمال ، لأنها تكوّن العنصر الأساسي في جمع الكتب ، وإذ تبرز ندرة الكتاب وموضوعه عنصرين مهمين آخرين ، إلا أنهما مع ذلك لا يساويان في قيمتهما عنصر الكتابة ، والعناصر الثلاثة معتبرة بعضها مع بعض ، وهي تجعل جمع الكتب عند الهواة صفة أصيلة . فلنحاول تلخيص ذلك :

---

(١) النعيمي (المجمع العلمي العربي) ٢/١٠٠

(٢) إرشاد ٢/١٧٠ ـ ١٧١

(٣) لسنا هنا بصدد الحديث عن تزيين الكتاب ، فهذا موضوع لا يخصّ بحثنا عن المكتبات . .

يعتبر جمّاعو الكتب العرب من الشخصيات المرموقة في الدولة . وما من أحد يمكن أن نطلق عليه صفة جمّاعين حقيقيين للكتب سوى العلماء الذين ـ كما سنرى ـ لا يجمعون الكتب لذاتها وإنما هم جامعو وثائق علمية . وليس هناك ـ باستثناء الأندلسيين ـ أشخاص أغنياء حاولوا بثرواتهم أن يكتسبوا شهرة في جمعهم للكتب[1] . ولا ندهش حين لا نقع إلا على أمثلة تذكر مكتبات الخلفاء (أروع خزائن المكتبات في الإسلام) وبعض المكتبات الهامة للوزراء ، وهذه على وجه الإجمال أقل من تلك .

وأسهم في تكوين هذه المكتبات وإغنائها النساخ بأعمالهم والمؤلفون بتصانيفهم التي يضعونها على اسم المشغوفين بالكتب ، وكذلك ما كان يقدم من هدايا إلى العارفين بقيمتها ، وما يشترى من كتب رتبت بمهارة .

والقاعدة شبه العامة عند كبار جمّاعي الكتب أنه ينبغي على النساخ والخطاطين المشهورين أن يستمروا في تقديم تحفهم وأعمالهم في الخط إلى المكتبات . وسنعرض فيما بعد لمختلف ظروف عمل النساخ ، مشيرين إلى الاهتمام الذي خصصه جمّاعو الكتب لاختيار الناسخين والخطاطين ؛ وكان من أمثلة ذلك أن الخليفة الأندلسي الحكم جمع في قصره المهرة من النساخ[2] وكان من أشهرهم زفر البغدادي ، جيء به من بغداد خصيصاً[3] .

وأمر المستعصم بالله ، آخر الخلفاء العباسيين أن ينتقى لمكتبته كاتبان ، يكتبان ما يختاره ، فانتقي له اثنان من أشهر خطاطي بغداد[4] . وكان يشتغل على مدى العصور المختلفة في مكتبات جمّاعي الكتب أعظم خطاطين في بلاد

---

(١) لم أجد في المراجع التي اعتمدتها أي شاهد يخالف هذا .

(٢) ابن خلدون ، العبر ١٤٦/٤

(٣) ابن الأبار ٨٦/١

(٤) الوافي (أحمد الثالث ٢٩٢٠) ١١٨/١٩/ب . فوات ١٨/٢

الإسلام ، وهما ابن مقلة (٢٧٨ هـ / ٨٩١ م ـ ٣٣٨ هـ / ٩٤٩ م) وابن البواب (ت ٤٢٣ هـ / ١٠٣١ م) ؛ التزم الأول بكتابة درج ، وكان ينزل في دار قوراء حسنة بقصر سيف الدولة الحمداني ، هيئت له خصيصاً[١] . بينما التحق الثاني بخدمة مكتبة البويهيين المشهورة في شيراز ، فنسخ لإغنائها مصاحف وكتباً كثيرة[٢] .

ولم يكن النساخ عادة يلتزمون بخدمة هواة الكتب ، ولكنهم يقدمون عند الطلب مخطوطات نفيسة تزين المكتبات ؛ نسخ الخطاط المعروف في عصره بابن الخازن الحسين بن علي بن الحسين البغدادي أبو الفوارس (ت ٥٠٢ هـ / ١١٠٨ م) كتاب الأغاني المشهور ، في ثلاث نسخ ، وقف إحداها على مكتبة سيف الدولة بن صدقة[٣] . وتزوج أبو الحسن علي بن الحسن الضرير المقرئ (٤٢٤ هـ / ١٠٣٢ م) جارية محتشمة من جواري قصر الخليفة العباسي ، وهبته مالاً كثيراً أنفقه كله في العلم وشراء الكتب النفيسة وتحصيل الأصول الحسنة ، واستكتب كثيراً من الكتب والأجزاء بخط أبي الحسن الغزال ، وكان يكتب خطاً حسناً[٤] .

ولكي تكون النسخة مطابقة للأصل فإن عمل الناسخ الدقيق يتطلب بالضرورة مقابلة نصّها . والهواة مولعون ليس بالكتابة فحسب ، بل بالدقة فيها أيضاً ، وهم يستعينون بالعلماء لمقابلة النصوص مع النساخ . وسنقدّم أمثلة على اهتمامهم في فصل لاحق ، بينما نكتفي هنا بالإشارة إلى الفائدة التي يحصل عليها الهواة من صحة النسخ في مكتباتهم ، ذلك أنهم اهتموا باستقدام علماء مشهورين

---

(١) إرشاد ١٥١/٢ ، الوافي ، المرجع السابق ٥٨/١٢/أ .

(٢) أحسن التقاسيم .

(٣) ابن الفرات (ڤيينا ، AF ، ١١٧) ٢١/١/ب .

(٤) ابن النجار (الظاهرية ، تاريخ ٤٢) ترجمة علي بن الحسن .

لتصحيح النسخ ؛ فقد خصص مثلاً عالم العربية المشهور الحسن بن أحمد أبو علي الفارسي (ت ٣٧٣ هـ / ٩٨٣ م) يومين كل أسبوع لتصحيح كتاب (التذكرة) ، لخزانة كافي الكفاة (وهذا لقب الصاحب بن عباد المعروف) .

والنسخ التي ينجزها العلماء تستأهل في الحقيقة حماسة جماعي الكتب ، كما تحوز الثقة النسخة الموسومة بالدقة ، وذلك عندما يختبرها العالم أو العلماء بتأن وروية . قدّم الجاحظ إلى عبد الملك بن الزيات نسخة من كتاب (سيبويه) كتبها الفراء وقابلها الكسائي وصححها الجاحظ نفسه الذي افتخر بتقديمها هدية نفيسة ، فقبل ابن الزيات الهدية الثمينة وفتن بها ، إذ أضافها إلى مكتبته الكبيرة[1] .

كذلك كان جمّاعو الكتب يهتمون بالدقة ، فيعهدون بالنسخ لمن تفترض فيه معرفة الكتاب بشكل أفضل ، أو لمن يملك أحسن نسخة منه . ويخبرنا كتاب (الدلائل) للسرقسطي (الظاهرية ، لغة ٤١) أنّ الحكم كان قد أمر ثابتاً ابن المؤلف أن ينسخ عن أصل أبيه المخطوط[2] .

وقبل الحصول على نسخة مطابقة للمسوّدة الأصلية يجب العودة بالضرورة إلى الوراق المرتبط بالمؤلف ؛ نسخ محمد بن الحسين الفخري الوراق عند أبي علي القالي صاحب كتاب (الأمالي) متبارياً مع محمد بن معمر الجيّاني قسماً من كتاب (البارع) الذي لم يكمله مؤلفه . وعندما تمّ العمل حمل إلى الحكم الأندلسي[3] .

---

(١) إرشاد ١٤/٣

(٢) كتبت نسخة الظاهرية عن نسخة الحكم .

(٣) ابن الأبار ١٠٦/١

وعاد الحكم نفسه بشأن خطأ من مؤلف كتاب إلى صاحب كتبه . وقدم عبد العزيز بن الحسين الزجاج الأندلس ، وكانت عنده كتب في الزهد نسخها الحكم[1] .

وينبغي قبل ذلك أن ندرك أن مخطوطة المؤلف الأصلية تفيد هواة الكتب بشكل خاص ، ولذلك اقتنى إبراهيم بن جماعة الكتب النفيسة بخطوط مصنفيها[2] . وكان الهواة يدفعون أموالاً كثيرة للمؤلفين ، ليحصلوا على نسخ من مصنفاتهم التي كتبوها بأنفسهم ، أو التي أنجزت تحت إشرافهم . ولهذا دفع الحكم لأبي الفرج الأصفهاني ألف دينار ، ليحصل[3] على نسخة من كتاب (الأغاني) ، وتحمل هذه المبادرة صفة خاصة ، وهي رعاية المؤلفين التي اتخذت أشكالاً متعددة .

ويرعى الهاوي عموماً عدداً من المؤلفين ، كما كان الحال عند يمين الدولة ابن سبكتكين الذي أحضر علماء من سائر البلدان ، وطلب إليهم تأليف كتب باسمه[4] . ويدعو الهاوي أحياناً مؤلفاً عظيماً ، ليضع له كتاباً ذا أهمية ؛ جمع محمد بن حبيب بن أمية كتاب (القبائل الكبير والأيام) في نحو من أربعين جزءاً في كل جزء مئتا ورقة وأكثر[5] ، وألف أبو سهل المسيحي كتاباً لطيفاً في (تفسير الأحلام) لخزانة خوارزمشاه[6] ، كما وألف البيروني مستجيباً لرغبة السلطان الغزنوي كتابه عن الأحجار الكريمة (الجماهر في معرفة الجواهر)[7] . ويصرح

(١) ابن بشكوال ٣٦٧/١

(٢) ابن حجر ، الدرر ٣٩/١ ، شذرات ٣١٢/٤

(٣) ابن خلدون ، العبر ٢٤٦/٤ . المقريزي ١٨٢/١

(٤) ابن الأثير ٢٨٣/٩

(٥) الفهرست ١٠٧

(٦) البيهقي ، تاريخ حكماء الإسلام (مصورة المجمع العلمي العربي) ٥٣/أ .

(٧) نشره كرنكو .

ابن الطقطقي مؤلف كتاب (الفخري) أنه صنف كتابه هذا لصاحب الموصل الأتابك عيسى بن إبراهيم[1] تذكرة له إن فكر يوماً بقطيعته . ويمكننا أن نذكر على هذا أمثلة كثيرة .

وكان الهاوي أحياناً يُدخل المؤلف في خدمته ، فيكون إنتاجه كله لمكتبته الخاصة ؛ مثلما عمل الفارابي عند الساسانيين ، وابن سينا عند علاء الدولة[2] .

ورعاية الهواة للمؤلفين تغني المكتبة بالنسخ الأصلية ، فقد كتب ابن سعيد نسخة من كتابه (المغرب) وأهداها إلى مكتبة ابن العديم[3] . ويقول ابن النديم إنه رأى نسخة من كتاب (القبائل الكبير والأيام) ، كان أهداها محمد بن حبيب بن أمية إلى مكتبة الفتح بن خاقان[4] . وتحفظ المسوّدة نفسها أحياناً في مكتبة هاوي الكتب ، كما حفظت مسودة كتاب المعلّم الثاني الفارابي في مكتبة الساسانيين[5] .

وظل بعض الكتب زمناً طويلاً لم يخرج إلى أحد ، مثل (تفسير الزجاج) إبراهيم بن محمد بن السري على (جامع المنطق) للبتاني ، لم يصنفه على رأي ابن العديم[6] إلا لمكتبة الخليفة العباسي المعتضد ، أو لمكتبة وزيره على رأي ياقوت[7] .

وقد يموت بعض المؤلفين قبل أن ينشروا كتبهم . وادعى جماعة أن ابن سينا

---

(١) الفخري ١٤ . وانظر ابن الفوطي ، تلخيص (الظاهرية ، تاريخ ٢٦٧) ١٩

(٢) ابن الأثير ٢٩٧/٩

(٣) المغرب ١/٥

(٤) الفهرست ١٠٧

(٥) خليفة ٩٩/٣

(٦) الفهرست ٦١

(٧) إرشاد ٥٨/١

أحرق مكتبة الساسانيين ، لأنه أراد أن ينسب لنفسه كتب الفارابي المحفوظة فيها بحرص[١] . وأتى الحريق على كتابي ابن سينا (الحكمة المشرقية) و (الحكمة العشرية) اللذين نقلا من مكتبة علاء الدولة إلى بيوت كتب السلطان مسعود بن محمود الغزنوي عند اجتياح المغول سنة ٥٤٦ هـ / ١١٥١ م[٢] . وقيل : إن الصاحب بن عباد دفع عشرة آلاف دينار لخازن مكتبة الخلفاء العباسيين في بغداد ليحرقها ، من أجل إتلاف النسخة الوحيدة المحفوظة فيها من كتاب (المختصر) لأبي الحسن الأشعري ، وهو تفسير ضخم في خمس مئة مجلد ، لأنه ضدّ المعتزلة[٣] .

وتغتني مكتبات الهواة أحياناً بطريقة غير مباشرة من الهدايا النفيسة التي كانوا يتقبلونها بقبول حسن ؛ فقد قدّم الناصر الأموي الأندلسي (٢٧٧ هـ / ٨٩٠ م ـ ٣٩٠ هـ / ٩٦١ م) هدية للخليفة العباسي في بغداد كتباً بلغت ثلاث مئة مجلد ، مكتوبة بخطّ نفيس[٤] . وأرسل صاحب الموصل إلى مؤيد الدين بن العلقمي يتوسل إليه بهدايا ، وكانت كتباً وثياباً ولطائف قيمتها عشرة آلاف دينار[٥] .

وكانت المكتبات تغتني أيضاً بشراء الكتب ، وقد كان جماعة يهتمون ببيع الكتب للهواة الذين يغتنمون كل فرصة مناسبة للشراء ، ويمكن هنا الاعتماد على الوسيط المسمى بالدّلال الذي يأتي إلى هؤلاء الهواة فيقدم لهم أحدث الكتب . وقد

---

(١) البيهقي ، المرجع السابق ٢٦/ب .

(٢) المرجع السابق ، ٢٥/ب .

(٣) فهرس المكتبة العبدلية ١/ب ، على رأي ابن عربي في (العواصم من القواصم) .

(٤) وجدي ، دائرة المعارف ٦٧/٨

(٥) الفخري ٣٦٩

أُحضر إلى القاضي الفاضل بملء خزانة صغيرة ، كانت بعض ميراث لأحد الهواة ، فنظر فيها ، ثم ردها[1] .

وكان الوراق يسافر ومعه كتب يقدمها للهواة المشهورين ، وتلك كانت مهنة مؤرّخ الرّجال ياقوت الحموي زمناً طويلاً ، فكان يشتري الكتب في أثناء سفره ، ويقدمها للملوك ، أو يعرضها على الشخصيات البارزة[2] . وقدم فخر الدين الكازروني إلى مراغة ، فقدّم نفسه للطوسي وكان معه كتب في الطب والحكمة[3] . وكانوا قد علموا رغبة الهاوي أرغون الدوادار في الكتب فهرعوا إليه بها ، يعرضونها عليه[4] ، وكان الهواة لا تفوتهم الفرص يكلفون وسطاءهم المأجورين بإحضار الكتب إليهم ، كما هو حال الحكم الخليفة الأندلسي[5] . وأرسل أرغون الدوادار (ت ٧٣١ هـ/١٣٣٠ م) ألفي دينار إلى مصر لشراء كتب من تركة قجليس الناصري[6] .

وكان الخطّ المعتمد في النسخ الفني هو الخط المنسوب .

وحاول نبيه أبوت[7] أن يشرح معنى هذا الخط في مقال مهم ، فتوصل إلى توضيحه بأن « الخط المنسوب طريقة جديدة للنسخ تكون الحروف الهجائية بحسبها منسجمة بعضها مع بعض ، ومنسوبة للألف التي توضع لها قاعدة قياس » . وهذه الكتابة على أي حال مشتقة من الشكل الكوفي[8] . وما ه .

---

(١) ابن أبي أصيبعة ١٧٩/٢

(٢) وفيات ، ترجمة ياقوت .

(٣) ابن الفوطي ، الحوادث ١٩٨

(٤) ابن حجر ، الدرر ٣٥٢/١

(٥) ابن خلدون ، العبر ١٤٦/٤ ، المقري ١٨٢/١

(٦) الوافي (أحمد الثالث ٢٩٢٠) ١٦٥/٨/ب .

(٧) مساهمة ابن مقلة في الخط العربي . المجلة الآسيوية مج ٥٦ ، ج٧٠/١ ـ ٨٣

(٨) المرجع السابق ٨٣

مكتبة عظيمة وجميلة إلا وكان فيها كتب نسخت به[1] . ولكي نعرف القيمة الكبيرة لهذا الخط ينبغي أن نعرض للصعوبات التي تواجهه عند الكتابة ، ويحوز من يتقنه شهرة يحسد عليها[2] . وممن كتب بالخط المنسوب الناسخ جمال الدين المعروف بابن الجمّالة[3] ، ولفخر الدين الساعاتي خطوط منسوبة نفيسة[4] .

وكان العمل التقني والدؤوب الذي يتطلبه أسلوب النسخ النفيس يقوم بناء على رغبة جماعي الكتب فقط . الذين كانوا يقيمون أيضاً الخط الجميل غير الخاضع لقواعد النسب .

وبعد ، فهذا العرض المطوّل الضروري الذي يصف تطور مكتبات الهواة يسمح لنا أولاً بتكوين فكرة عن كتبهم ، التي غالباً ما كانت تذوب في المكتبة العامة . وهو يزودنا من جهة أخرى بإيضاحات عن مفهوم الكتاب النفيس ، هذا المفهوم يلخصه ابن النديم بملاحظة تعليلية ، يبدي فيها إعجابه بالمكتبة التي قال عنها إنها أفضل مارآه على الإطلاق ووصفها بقوله : « إنها كانت تحتوي على كل كتاب عين وديوان فرد بخطوط العلماء المنسوبة »[5] .

ونتساءل هنا : هل تؤثر عقلية الهاوي في اختيار صنوف الكتب التي تشكل المكتبة ؟ ولا نملك لسوء الحظ معلومات وثيقة للإجابة عن هذا السؤال بوضوح ، ولكننا نعرض باختصار ـ ودون ذكر للمراجع لأنه لا يفيد ـ إلى النتائج الطارئة التي تساعدنا على المضي في بحثنا .

---

(١) انظر على سبيل المثال : وفيات الأعيان ٤٨٥/٣ ، أبو شامة ، الروضتين ، ٢٠٠/١ ، ابن الأثير ٣١٣/١٠ ، ابن خلدون ، العبر ٢٨٥/٤ ، الأربلي ، خلاصة الذهب ٢١١ ، الفهرست ١٣٤

(٢) انظر القلقشندي ٤٧٥/٣ ، الفهرست ١٣٤

(٣) ابن أبي أصيبعة ١٧٨/٢

(٤) المرجع السابق ١٦٤/٢

(٥) الفهرست ١٣٤ . والمقصود مكتبة ابن حاجب النعمان (ت ٣٥١ هـ/٩٦٢ م) .

إنّ اختيار الكتب يتعلق بأمور يفرضها الذوق ومقتضيات العصر وطبيعة الهاوي ، كما يتعلق بمبادئ عامة مستقلة عن الأمور السابقة . هذا وتطور الذوق عند العرب شيء يستحق الدراسة بحد ذاته ، ويمكن أن يرتسم في منحنى واضح إيحائي .

ويخضع هذا الذوق[1] أحياناً لاختيار هاوي الكتب ، فيضطر أن يأخذه بعين الاعتبار . وقد ظهر هذا الذوق بشكل خاص في صراع عنيف بين علوم الأوائل والعلوم الدينية ؛ فعلوم الأوائل فرضت نفسها على المكتبات لبعض الوقت بدعم من سلطان الحكومة ، وجعلت جماعي الكتب يظهرون استعلاءهم خلال النصف الثاني من القرن الخامس الهجري . ويمكننا أن نؤكد أن تلك العلوم هيمنت آنذاك على العلوم الأخرى كلها ، وتجاوزت حتى العلوم التي تدعي لنفسها الشرعية ، وهي الآداب بالمفهوم العام للكلمة .

وكانت العلوم الدينية المقتصرة على المختصين منذ زمن بعيد قد نشطت في مجال المكتبات بدءاً من القرن الخامس ، وكثيراً ما انتهى بها الأمر أن تبعد الفلسفة التي أدت إلى حياة خفيّة هادئة . وكان لردة الفعل هذه أثر كبير ، فنور الدين زنكي مثلاً وهو واحد من أهل السنة المعتبرين اقتصر على جمع كتب العلوم الدينية[2] . وعندما انتصرت هذه العلوم الدينية كلياً في القرن السابع كوّنت بشكل طبيعي مادة عمل النساخ والفنانين والمزخرفين .

كان لذوق وقدرات الهاوي الشخصية ـ فيما عدا هذه الأمور العامة المقبولة ـ دور مهم في إنشاء المكتبات . وكان لدى بعض الهواة ميل علمي واضح ، وإن لم يكن معظمهم علماء حقيقيين . نذكر المعروفين منهم أمثال الحكم الأندلسي ،

---

(١) وساهمت الرقابة في فرض هذا الذوق أيضاً .

(٢) الصفدي ، تحفة ذوي الألباب (المكتبة الوطنية ، عربي ٥٨٢٧) ١٤١/أ .

والصاحب بن عباد ، والقاضي الفاضل ، والطوسي . وتمثل مكتباتهم نوازع ميولهم التي كانت تمثل أيضاً اتجاهاتهم السياسية والفلسفية والدينية . وهناك عناصر كثيرة ، تكسب المكتبة بالضرورة صفة أو عدة صفات تكوينية . وتفرض من خلال تلك العناصر المتباينة أحياناً مبادئ عامة لاختيار الكتب . فجامع الكتب ليس اختصاصياً ، بل يجمع أفضل الكتب القيمة التي تجدر أن تكون في المكتبة . والأدب بمفهومه العام كان ـ كما في أيامنا ـ يثير الفضول . وهو يمثل موضوعاً هاماً لالقيمة الكتاب فحسب ، بل لضخامة المكتبة . والكتب التي كانت غالية الثمن في أسواق هواة الكتب كانت تتناول الآداب بشكل عام[1] : الأدب ، واللغة ، والتاريخ .

وكانت كتب العلوم التي يتذوقها الهاوي وتشجع عليها طبيعة العصر تجد مكانها بالضرورة عند الهواة العاديين لا المختصين ، الذين كانوا يتباهون بالحصول على الكتب في جميع العلوم . ولم يكن الخليفة العباسي المستنصر الذي « جمع في مكتبته من أنواع العلوم على اختلافها »[2] حالة فريدة ؛ لأن العرب المسلمين كانوا يتمتعون بعقل اصطفائي .

وإذا رجعنا إلى مكتبات العلماء وجدنا أن كل عالم أو مؤلف على وجه التقريب يقتني بأسلوبه الخاص مجموعة من الكتب غنية من الناحية العلمية ، ثم كانت هذه الكتب تذوب غالباً في المكتبة العامة ، وتشكل إحدى ثرواتها التي تغنيها ، وهي عموماً كتب قيمة ، اشتراها العلماء ، أو نسخوها من أجل بحوثهم المستمرة .

---

(١) انظر مقالة أحمد يان عن الوراقة في الثقافة الإسلامية .

(٢) الأربلي ، خلاصة الذهب ٢١١

كان العلماء المسلمون في العصر العباسي وخاصة في القرن الثاني / الثامن وحتى القرن السادس / الثاني عشر يهتمون بالنسخ اهتماماً بالغاً ، راغبين بالمحافظة على جدارة ألقابهم العلمية ، يصونونها عن النقد ، كما شاع عندهم عبارة (كتب عن المشايخ) .

وهذا الاهتمام الطبيعي كان أحياناً هو الاهتمام الوحيد لطالب العلم وكان كلما ازداد ما كتبه زاد فخره بعلمه ، وعلم من يهمل الخط مردود يستهان به[1] .

ونفاجأ في موضوعنا هذا بعدد الكتب التي كان ينسخها طالب العلم عن شيوخه ؛ فقد كتب يحيى بن معين بيده وهو أحد كبار المحدثين ، ست مئة ألف حديث[2] أي ما يعادل ست مئة مجلد إذا افترضنا أنّ المجلد الواحد في مئتي صفحة ، وأنّ في الصفحة خمسة أحاديث مع أسانيدها الطويلة المسلسلة . وكان عند إسحاق الموصلي الموسيقي العظيم اللغوي ألف جزء من اللغة ، وكان سمعها كلها عن شيوخه[3] . وجمع محمد بن العباس بن الفرات (ت ٣٨٤ هـ/٩٩٤ م) ألف جزء عن علي بن محمد المصري وحده[4] . وحصّل أبو حازم العبدوي النيسابوري (ت ٤١٧ هـ/١٠٢٦ م) عشرة آلاف جزء عن عشرة شيوخ ، ألف جزء عن كل شيخ . كما حصّل ابن منده (ت ٣٩٥ هـ/١٠٠٤ م) أربعة آلاف جزء عن أربعة مشايخ فقط ، وكان شيوخه ألفاً وسبع مئة ، وكان يُرى وهو ينقل حمل أربعين جملاً .

وسمع أبو بكر الخوارزمي (ت ٤٢٥ هـ/١٠٣٣ م) من شيوخه كتباً تعدل

---

(١) انظر للتفصيل : الخطيب البغدادي ، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ، (مخطوطة مكتبة البلدية في الإسكندرية) .

(٢) ابن كثير ٤٤٧/١ ، الخطيب ١٨٣/٤ ، عيون (الظاهرية ، تاريخ ٤٧) ١١٢ ، وفيات ١٧٠/٢

(٣) عيون التواريخ ، المرجع السابق ، سنة ٢٣٥ هـ .

(٤) الخطيب ١٢٢/٣ ـ ١٢٣ ، ومصادر أخرى كثيرة .

ثلاثة وستين حملاً وصندوقين[1] . وكان ما يسمعه الطلاب عن شيوخهم يضم الفلسفة أحياناً ، إلا أن السماعات تقتصر بشكل خاص على رواية الحديث ، ومعه سلسلة الإسناد الطويلة والعلوم الدينية . ووقف فخر الدين المارديني كتبه التي قرأها على شيوخه ومعظمها في الحكمة ، على مشهد حسام الدين بن أرتق[2] .

ويلفت الانتباه الكتب الكثيرة التي نسخها العلماء بأشكال مختلفة ؛ فابن الجوزي يقول : إنه نسخ ألفي مجلدة[3] . وقال أحمد بن عبد الدائم (٥٧٥ هـ/١١٧٩ م ـ ٦٦٨ هـ/١٢٦٩ م) : إنه كتب ما يزيد على ألفي مجلدة[4] . وكتب أبو محمد المصاحفي (ت ٤١٩ هـ/١٠٢٨ م) من المصاحف وحدها ثماني وثمانين نسخة[5] . وقال يحيى بن عدي : إنه هو نفسه كان ينسخ مئة صفحة كل يوم . وكتب عمر بن أحمد بن أبي جرادة المعروف بابن العديم (ت ٦٦٠ هـ/١٢٦٢ م) كتباً تعدل ثلاث خزائن[6] . ونسخ إسحاق بن إبراهيم الحربي (١٩٦ هـ/٨١١ م ـ ٢٨٥ هـ/٨٩٨ م) بيده اثني عشر ألف كراسة في فقه اللغة[7] .

وتدل هذه الأرقام التي ربما بالغوا فيها على سرعة العلماء في نسخ المخطوطات ، كما تبين لنا أهمية الوقف عندهم .

ولئن كان بعض العلماء لا يكتبون مصنفاتهم بخطوطهم فإنهم كانوا هم الذين يصححونها ، ويقابلونها ، ويشرحونها . وقد برع فخر الدين المارديني في كتب

---

(١) ابن عساكر ٤٤٧/١

(٢) ابن أبي أصيبعة ٣٠٠/١

(٣) ابن رجب ، ذيل (الظاهرية ، تاريخ ٦١) ١٦٦/أ ، العلموي ، منهج (نسخة مصورة) ٣١٤/٢ ، المقري ٨٨/٣

(٤) يونيني (الأحمدية بحلب ١٢١) ٢١٦/أ ، الصفدي ، نكت ٩٩ ، ابن شاكر ، فوات ٤٩/١

(٥) الذهبي (الأحمدية بحلب ١٢٢٠) ٤/ب .

(٦) إرشاد ٢٢/٦

(٧) الخطيب ٣٣/٦

الحكمة التي وقفها[1] . وكان في مكتبة بلمظفر ألوف كثيرة من الكتب في كل فن ، وليس منها كتاب إلا وقد كتب على ظهره ملحاً ونوادر مما يتعلق بالعلم الذي قد صنف ذلك الكتاب فيه[2] . وكانت كتب أحمد بن محمد بن ميمون (٣٥٣ هـ/٩٦٤ م ـ ٤٠٠ هـ/١٠٠٩ م) « منتخبة مضبوطة صحاحاً ، أمهات لا يدع فيها شبهة مهملة ، وقلّ ما يجوز عليه فيها خطأ ولا وهم ، وكان لا يزال يتتبع ما يجده في كتبه من السقط والخلل بزيادة في اللفظ أو نقصان منه ، فيصلحه حيثما وجده ، ويعيده إلى الصواب »[3] . والكتب التي تملكها العلماء ـ سواء كتبوها بأنفسهم أم صححوها وقابلوها وشرحوها ـ أثارت اهتمام المكتبات العامة بعددها الضخم ومضمونها القيم .

أما بالنسبة للعقل الاصطفائي عند العلماء الذين يجمعون الكتب فإنه من الطبيعي أن يمارس تأثيره على اختصاصاتهم ؛ فإذا كان العالم مختصاً بالتاريخ مثلاً كانت كتب التاريخ عنده تفوق كتب العلوم الأخرى .

هل هناك مبادئ عامة يمكن تطبيقها لانتقاء كتب خاصة تكوّن مكتبة العالم ؟ ولئن كان الجواب بالإيجاب فمن المهم أن نستنتج هذه المبادئ في بعض الحالات ، لأنها مفيدة جداً لتقدير تطور كتب المكتبات العامة عن طريق وقف العلماء لكتبهم . وتطرح المسألة بالصيغة التالية : بما أنّ المقصود أي عالم كان ، فهل يمكننا ونحن نحلل ميوله أن نتوصل إلى تمييز العناصر التي تكوّن مكتبته وصفاتها في هذا المجال ؟ وبعبارة أخرى ، يجب علينا أن نكتشف العوامل المهيمنة التي تؤثر على عقل العالم بوعي أو بغير وعي ، من خلال إنشائه لمكتبته .

---

(١) ابن أبي أصيبعة ٣٠٠/١

(٢) ابن أبي أصيبعة ١٠٨/٢

(٣) ابن بشكوال ٢٣/١

لم نستطع الحصول إلا على الوثائق الأربع التالية التي تفيدنا في دراستنا بهذا المجال :

١ ـ التقسيم العددي لمختلف أنواع الكتب التي وقفها أبو اليمن تاج الدين الكندي على ياقوت مملوكه الذي أعتقه[١] .

٢ ـ فهرس الكتب التي وقفها جمال الدين يوسف بن عبد الهادي (٨٤٠ هـ/١٤٣٦ م ـ ٩٠٩ هـ/١٥٠٢ م) ، والنسخة الأصلية للمخطوطة في المكتبة الظاهرية بدمشق .

٣ ـ قائمة الكتب التي حملها الخطيب البغدادي إلى دمشق ، وهي كتب سمعها عن شيوخه . ونشرنا هذه اللائحة[٢] .

٤ ـ فهرس الكتب التي قرأها أبو بكر محمد بن خير بن خليفة الإشبيلي ، ونشره ج . ربارة طرغوه عام ١٨٩٤ م في سرقسطه .

تتعلق الوثيقتان الأوليان بالمكتبات تماماً . بينما تشكل الوثيقة الثالثة جزءاً من كتب الخطيب البغدادي التي تلقاها عن العلماء . وأما الوثيقة الرابعة فتتألف من كتب سمح لابن خليفة بجلبها . وتشكّل القائمتان الأخيرتان مضمون مكتبتي هذين العالمين الخاصتين ، دون أن تكونا حصراً مجموعات كاملة بما في هذه الكلمة من معنى ، لأنه لا يمكن للكتب في رأيها أن تحمل أو تقرأ ، مالم تقرأ على الشيخ أولاً[٣] .

وتبقى مشكلة أساسية : وهي أنّ موجودات المكتبات ماعدا مكتبة الكندي لم تكن تخضع لأي ترتيب منهجي في موادها ، التي كانت تضم على شكل تصنيف

(١) أبو شامة ، الذيل على الروضتين (المكتبة الوطنية ، عربي ٥٦٥٢) ١٠٦/أ .

(٢) في كتابنا عن الخطيب البغدادي ٩٢ ـ ١١٩

(٣) انظر لهذا الموضوع كتب مصطلح الحديث ، كمقدمة ابن الصلاح .

معين مختلف أنواع الكتب ولكي نستخدمها يجب أن نصنفها حسب المواد أولاً ، وهذا عمل شاق لأسباب عديدة ، والصعوبة الرئيسية فيه هي أنّ معظم الكتب غير معروفة ، أو أن أسماءها تذكر باختصار . وأعتقد أيضاً أنه يجب أن نكفّ عن البحث عندما نحاول أن نبحث عن الشرح بعد وضع الكتب غير المعروفة قيد التوزيع . وهذه هي نتيجة عملنا دون أي ادعاء .

والنتيجة التي استطعنا استخلاصها من هذه الأرقام لاتكفينا لما نطمح إليه ، وهي التالية : إنّ عدد الكتب المتعلقة باختصاص العالم مباشرة تزيد على نصف مكتبته .

فإذا أضفنا إلى هذا العدد الكتب التي تتعلق باختصاصه بصورة غير مباشرة وجدناها تتجاوز ثلثي مكتبته . وفيما يلي التفصيل :

نقع عند الخطيب البغدادي المؤرخ المحدث الواعظ المشهور[1] على ما يلي :

كتب التاريخ	١٥٨
كتب الحديث	٦٥
كتب الوعظ والزهد	٥٨
	٢٨١

فيكون ٢٨١ وهي كتب اختصاصية من أصل ٤٧٤ مجموع كتبه = أكثر من النصف .

وإذا نحن أحصينا كتبه بعناية استنتجنا أن كتب علوم القرآن والفقه ضمن كتب الحديث ، لأن كتب الحديث موزعة لتخدم بشكل خاص التفسير والفقه .

(١) انظر دراستنا الوافية عن الخطيب .

وإذا أضفناها إليها تحصل لدينا ٢٨١ + ٥٧ في علوم القرآن + ٤٨ في الفقه = ٣٨٦ . ويكون الحاصل ٣٨٦ من أصل ٤٧٤ ، أي ما يعدل ثلثي المجموع العام .

ونجد مكتبة الكندي عالم القراءات اللغوي النحوي الأديب[١] موزعة على الشكل التالي :

علوم القرآن	١٤٠
اللغة	١٤٣
النحو	١٧٥
الأدب	١٢٢
	٥٨٠

فيكون العدد ٥٨٠ من ٧٦١ = أكثر من ثلثي مكتبته .

وكان ابن عبد الهادي (ت ٩٠٩ هـ/١٥٠٣ م) مشهوراً[٢] بسعة اطّلاعه في :

الحديث	٤٣
الفقه	٧٥
	١١٨

فيكون العدد ١١٨ من ٢٤٢ = النصف تقريباً .

(١) وفيات ١٩٦/١ ، إرشاد ٢٢٣/٤

(٢) الغزي ، الكواكب (الظاهرية ، تاريخ ٤١) في الصفحات الأخيرة من الربع الأول من المخطوط .

وكانت له مشاركات أيضاً ببعض المعارف مثل :

النحو	٨
التصوف	٣١
التفسير	٣
	٤٢

ويكون ١١٨ + ٤٢ = ١٦٠ من أصل ٢٤٢ = أكثر من الثلثين .

وتؤكد كتب ابن خير الإشبيلي ماذهبنا إليه ، وهو عالم[1] في :

القراءات	١٠٨
الحديث	١١٢
النحو	٥٠
اللغة	١٣٣
الأدب (نثر)	٨٧
الأدب (شعر)	١٦٢
	٦٥٢

فيكون ٦٥٢ من أصل ١١٢٤ = أكثر من النصف .

ويجب أن نضيف إلى كتب الحديث ما يلي :

شرح موطأ مالك ، كتاب المحدّث	١٧
فقه الصحابة	٨
تاريخ المحدثين	٨٧
فهرس كتب الحديث التي قرأها	٧١
	١٨٣

(١) بغية ٤١

فيكون الحاصل ٦٥٢ + ١٨٣ = ٨٣٥ من أصل ١١٢٤ = أكثر من الثلثين .

نلاحظ أنّ أكثر من ثلثي مكتبات العلماء يتعلق بالكتب التي تفيدهم في دراساتهم الخاصة ، وأن أقل من ثلثها يتناول المعارف الضرورية التي تناسب عصرهم ، ويسهم في إبراز علومهم . وأنّ كتب العلوم الدينية إن لم تكن هي السائدة فإنها تشغل حيزاً كبيراً . هذا ولم نستطع التوصل إلى نتائج أخرى ، وها هي ذي بعض الأرقام الضرورية للمقارنة :

الخطيب البغدادي : ٢٣٩ من ٤٧٤ ، ابن خليفة : ٥٠٥ من ١١٢٤ ، الكندي : ٩٨ من ٧٨١ ، ابن عبد الهادي : ١٦٩ من ٢٤٥ .

وتبدو معرفة الآداب ضرورية لدراسة العلوم كلها . ونجدها بنسب مختلفة في هذه المكتبات على الشكل التالي : الخطيب : ٦٢ من ٤٧٤ ، الكندي : ٤٤ من ٧٦١ ، ابن عبد الهادي : ٢٢ من ٢٤٢ ، ابن خليفة : ٤٣٢ من ١١٢٤

وعلوم الأوائل عندهم مهملة تقريباً ، ونجد كتبها كما يلي : الكندي : ١٢٣ من أصل ٧٦١ ، ابن عبد الهادي : ١٤ من أصل ١٤٢٤

ماتأثير المذهب الفقهي على صاحب المكتبة في انتقاء الكتب ؟ إنه تأثير كبير ، وهو لا يجمع أحياناً إلا الكتب الموافقة لعقيدته ومذهبه .

ومع ذلك فتأثير المذهب يظهر في لوائح مختلفة عندنا ، لأن جميع العلماء لا يهتمون بغير مذهبهم . ويؤكد هذا الرأي ابن خليفة المالكي ، وابن عبد الهادي وضياء الدين الحنبليان ، وابن طولون الحنفي ، وتاج الدين الحسيني الشافعي . ويشذ عن هذه القاعدة الخطيب البغدادي وحده ، فهو لا يهتم بمذهب معيّن دون غيره ، وسبب ذلك أنه محدّث قبل كل شيء ، ولذلك لا يتقيد بالمذاهب . ولكنه لم يحجم عن جمع كتب الحديث مرتبة حسب فصول الفقه . وبهذا لم يختلف عن

بقية المحدثين . واهتم ابن خليفة على سبيل المثال بمعرفة مذهب الصحابة ، وحاول ابن عبد الهادي جاهداً أن يحصل على نسخة من موطأ مالك . وتبدو مثل هذه الكتب ضرورية للمحدثين ، وتعتبر كتباً للحديث . فالقاعدة العامة إذن لم تتغير . ومن يجمع كتب الفقه لا يهتم بسوى مذهبه وكتب مذهبه .

وهكذا ، استطعنا التوصل إلى هذه النتائج ونحن ندرس موجودات بعض المكتبات عند العلماء . ونعترف على كل حال أنها لا تكاد تستجيب للترتيب المنهجي للكتب المذكورة في القوائم التي أوردناها . ولكن ، أليس من الصعب أن نستنتج المبادئ العامة في مجال تؤثر الظروف الطارئة فيه تأثيراً رئيسياً ؟ فبالرغم من أنّ العالم يحاول إرضاء ذوقه وميوله ، فهو أحياناً يحصل على كتب أخرى بالإرث أو الشراء أو من المزاد العلني أو عن طريق الهدايا ، مما لاصلة له باهتماماته ؛ حتى ليمكننا القول : إنّ الذوق والإيحاء يبقيان عند العالم شيئاً واحداً ، فشهرته في التاريخ مثلاً لا تأخذ بعين الاعتبار تغيُّر ميوله وذوقه .

ومهما كانت هذه النتائج غير مرضية فليس لها تأثيرات مهمة ، وبواسطتها يمكننا أن نفهم تطور الكتب في المكتبة العامة .

الفصل الثاني

صفات الكتب في المكتبات العامة

لم تنقطع المكتبة العربية العامة الخاضعة للوقف منذ ولادتها عن الاتصال المباشر بالتعليم في مختلف وجوهه . ويحق لنا التساؤل : إلى أي مدى سيمارس التعليم تأثيره في إنشاء كتب المكتبة ؟ وبعبارة أخرى : هل هناك صلة بين الصفة الأولى للمؤسسة التي ترتبط بها المكتبة أو بين تنظيمها الرئيسي وبين العناصر المكونة لها ؟ حاولنا للوهلة الأولى أن نجيب بالنفي ، لأنّ هذه الصلة المفترضة لو كانت واقعية زمن تكوين المؤسسة فكيف يمكن لها أن توجد في حالة الوقف الإداري دون قانون خاص بأهل الخير .

هذه الإجابة المنفية المبررة أحياناً بعيدة عن الحقيقة في معظم الحالات . كان الواقف مجبراً على اختيار المكان المناسب ، ليجتلب أكبر عدد من القراء ، من أجل أن يكون وقفه نافعاً . دعي مبشّر بن أحمد بن علي الرازي إلى مكتبة الخلفاء ، ليختار الكتب التي تناسب الرباط الخاتوني السلجوقي والمدرسة النظامية ودار المسنّاة[1] . وبالرغم من أنّ الشافعيين ابن النجار[2] (ت ٦٤٣ هـ/١٢٤٥ م) وابن الساعي[3] (ت ٦٧٤ هـ/١٢٧٥ م) كانا مرتبطين بخدمة المستنصرية فقد وقفا خزانتي كتبهما الأخيرتين على المدرسة النظامية المجددة للمذهب الشافعي .

---

(١) القفطي ٢٦٩

(٢) ابن شاكر الكتبي ، ذيل الوفيات ٢٦٤/٢ ، الطبراني (المكتبة الوطنية ، عربي ١٥١٦) ٥٥/ب ، اليافعي (المكتبة الوطنية ، عربي ١٥٤٣) ٩٩/ب .

(٣) الأسنوي ، طبقات الشافعية (الظاهرية ، تاريخ ٥٦) ١٢٢/ب .

ومع أن قاضي القضاة تاج الدين الحسني كانت له يد في النظر على المكتبة الضيائية المخصصة للحديث[1] ، إلا أنه وقف مجموعة من كتبه في الفقه الشافعي على المدرسة العمرية[2] . وهناك أمثلة كثيرة تشير إلى رغبة الواقف بإيداع كتبه في المؤسسة الكفء التي تجتذب رغبته بدلاً من المؤسسة التي هو فيها .

ومن المؤكد أنّ لكل مؤسسة صفتها الخاصة التي تفرض وجودها أيضاً على المكتبة وقت تأسيسها وخلال تطورها ، إذ يمكننا أن نؤكد عموماً أنّ كل فئة من العلماء تتجه لنوع معيّن من المؤسسات لتقف كتبها العلمية . فالفقهاء يودعون وقفهم في المدارس المخصصة لنشر مذهبهم . ومجموعات المدرسة النظامية دليل على ذلك . والمحدثون يقفون كتبهم على دور الحديث ، أمثال الضيائية ، ومسجد الشريف الزيدي ، ودار الحديث الأشرفية . وامتازت هذه الأخيرة خاصة في أن الشافعيين من المحدثين كانوا يهتمون بها . والأطباء يجدون في البيمارستانات أو دور الطب المكان الملائم لميراثهم من الكتب (انظر المؤسستين المدروستين سابقاً) . والصوفيون يخصون بكتبهم الرباطات والخانقاهات والزوايا . وأخيراً كانت المصاحف وكتب العبادات والدين توقف على المساجد والمشاهد التي لم تقم فيها مؤسسة كإحدى المنشآت المذكورة . فالتخصص إذن هو القاعدة . والمكتبة العامة مثل مكتبة العالم تعكس صفات مؤسسها وميوله ومهنته . ولدينا لحسن الحظ شهادة تتعلق بذلك تعتمد على أرقام مقنعة جداً . ودراسة مختلف كتب الوقف في دار الحديث الضيائية التي لا تزال المكتبة الظاهرية بدمشق تحتفظ بها أعطتنا ٢٨٥ كتاباً ورسالة في الحديث ، من مجموع كتبها البالغ ٥٣٨ كتاباً ، وهو كما نرى بمقدار ثلثيها تقريباً .

---

(١) ابن كنان ، المروج (مصورة المجمع العلمي العربي) ٢٠

(٢) ابن طولون ، القلائد الجوهرية (مصورة المجمع العلمي العربي) ١٠٧

ولكن ، كيف نفسر استثناءات هذه القاعدة التي أوضحناها من خلال دراستنا التاريخية للمكتبات ؟ ذكرنا أنّ جمّاعي الكتب من العرب عقلاً اصطفائياً . إذ إن الاختصاص لم يكن هدفهم ، لأنهم أحياناً يخالفون هذه القاعدة . ومن جهة أخرى ، وبتوسع موفق ، فإن بعض المكتبات تصبو للتخلص من صفتها المحلية لتصبح عامة ، وتقوم بدورها فتحل محلّ مكتبة شبه عامة ، حسب المفهوم العام للكلمة . وهذه المكتبات تقوم في العواصم خاصة ، وتصبح مراكز دائمة لحفظ الكتب كما هو الحال ـ وقد لحنا إلى ذلك في مواطن عدة ـ في مكتبة المستنصرية ببغداد ، والسميساطية ومشهد عروة والعمرية في دمشق ، والفاضلية والمنصوري فيما بعد بالقاهرة ، وميافارقين ، والجامعين الكبيرين . ويفسح الاختصاص المجال أحياناً لصفات أخرى أكثر فائدة ، تكتسبها هذه المؤسسة . ويبادر المؤلفون بإيداع مؤلفاتهم الكبيرة ، فيها لحفظها ، كما كان الشأن في دور العلم . فهذا جبرائيل بن بختيشوع (ت ٣٩٦ هـ/١٠٠٥ م) يقف نسخة من كتابه الكبير المسمى بالكافي في الطب[١] ، كما وقف ابن خيران (ت ٤٣١ هـ/١٠٣٩ م) نسخة من ديوان رسائله وشعره في دور العلم ببغداد[٢] . وأودع عبد السلام بن محمد بن بندر القزويني (ت ٤٨٨ هـ/١٠٩٥ م) تفسيره العظيم للقرآن الذي يقع بين ٣٠٠ ـ ٧٠٠ مجلد في خزانة كتب مشهد أبي حنيفة ببغداد[٣] . وعبد الله بن المبارك المعروف بابن نيال أو ابن نبال (ت ٥٢٨ هـ/١١٣٣ م) في سبيل ذكرى أستاذه علي أبي الوفاء بن عقيل (ت ٥١٣ هـ/١١١٩ م) وليحفظ مؤلفاته ، باع ملكاً له ، واشترى بثمنه كتابين

---

(١) ابن أبي أصيبعة ١٤٦/١

(٢) إرشاد ٢٤٢/١ ، الوافي (أحمد الثالث ٢٩٢٠) ١١٣/٧/ب .

(٣) مرآة (المكتبة الوطنية ، عربي ١٥٠٦) ٢٢٣/أ ، وانظر لهذا التفسير أيضاً عيون (الأحمدية بحلب ١٢٢٨) ٣/ب ، ابن كثير (الأحمدية بحلب ١٢١٧) ٧ ، سنة ٤٨٨ هـ .

من مؤلفات أستاذه[1] وهما : كتاب (الفنون الضخم) بمئتي مجلد[2] ، وكتاب (الفصول) بعشرة مجلدات ، وأوقفهما للمسلمين ، ربما في رباط المأمونية ببغداد[3] . والمكان الطبيعي لإيداع الكتب الضخمة هو المكتبات الكبيرة حيث تبقى محفوظة فيها . وكان في المكتبة الفاضلية بالقاهرة[4] تفسير للقرآن بمئة وعشرين مجلداً لمحمد بن علي الأدفوي (ت ٣٨٨ هـ/٩٩٨ م) ، وفي المكتبة نفسها كتاب (الجامع في اللغة) لمحمد بن جعفر القزاز (ت ٤١٢ هـ/١٠٢١ م) ، وهو كتاب ضخم لا مثيل له[5] . والرغبة في المحافظة على الكتب لأطول مدة ممكنة هي التي دفعتهم للاهتمام بها كثيراً ؛ أودع عيسى بن القسيس الحظيري نسخة بخطه من كتاب (القانون) لابن سينا ، ثم طلبه في أثناء شيخوخته من مكتبة المستنصرية مكان وجوده ، وأعاده موضحاً رغبته في ألا ينتقده أحد بعد وفاته[6] ، وكان على صواب تام ؛ لأنّ المكتبة هي مكان خزن أمين ودائم وعام . ومن أجل هذا أيضاً أودعت فيها الأشياء الثمينة غير الكتب ، كأدوات التنجيم والفلك ، لأن المكتبة مكانها الملائم . وقد حفظت في مكتبة قصر الفاطميين بالقاهرة[7] كرة نحاسية لخالد بن يزيد ، وكرة أخرى صنعها لعضد الدولة أبو الحسين الصوفي . وفي الفهرس الأساسي للمكتبة الأحمدية بحلب ذكرت أدوات الفلك ، وهي لا تزال محفوظة إلى اليوم في صندوق خاص . كما حفظت في المكتبة

---

(١) ابن رجب (الظاهرية ، تاريخ ٦١) ٧٢/أ ، العليمي (مصورة المجمع العلمي العربي) ٢٤١/١ ، الذهبي (الأحمدية بحلب ١٢٢٠) ٢٧١/٧/ب .

(٢) ابن رجب ، المرجع السابق ، العليمي ، المرجع السابق .

(٣) كما يمكننا استنتاجه من إشارة سبط ابن الجوزي في التراتيب ١٨٦/٢

(٤) عيون (الظاهرية ، تاريخ ٤٨) ٢٤٧/أ ، الذهبي (الأحمدية بحلب ١٢٢٠) ٧٣/ب ، ابن قاضي شهبة ، طبقات النحاة (الظاهرية ، تاريخ ٤٣٨) ٨٥

(٥) الوافي (أحمد الثالث ٢٩٢٠) ١٥٦/٢/أ .

(٦) ابن العبري ٤٧٩

(٧) القفطي ٤٤٠

كذلك الوقفيات والوثائق الهامة . وروي أنه قبل سنة ١١٩٠ هـ/١٧٧٥ م أراد الأمير عبد الرحمن كتخدا أن يطلع على الوقفيات والوثائق التي تتعلق بالبيمارستان المنصوري في القاهرة ، فلم يجد كتاب وقف ولا دفتراً ، وكانت كتب أوقافه ودفاتره في داخل خزانة الكتب ، فاحترقت بما فيها[١] .

والمكتبة العامة بوصفها خزانة مؤبدة للكتب كانت تغتني بهبات العلماء ومحبي الكتب ، وتتأثر بأذواقهم . والمنحنى البياني المرسوم في هذا المجال لمجموعات جماعي الكتب ذواعتبار هنا . وأصبحت القيود التي فرضتها الظروف التاريخية والاجتماعية والدينية أكثر مراعاة في مجال الخزائن العامة ، والتي هي كنز عام موضوع للجميع . وهنا يتدخل الدين بشكل خاص ؛ فيقول الفقهاء : يحرم وقف الكتب التي تناقض القرآن كالتوراة والإنجيل ، أو الكتب ذات الصفة العلمانية كمؤلفات الأوائل[٢] ؛ لأنّ ذلك عندهم يخالف مبدأ الوقف الذي يجب أن يكون نافعاً من الناحية الدينية لمن ينشئه ، ولمن يستفيد منه . ووقف كتب الديانات الأخرى بالتالي لا ينسجم مع هذا المبدأ[٣] ، ويدفع إلى الكفر[٤] . ولا سيما أنّ التوراة محرّفة ومنسوخة[٥] . ويعتبر الماوردي الفلك والفلسفة[٦] علوماً محظورة ، لأنها تعارض القرآن الكريم . وقد تحبب محمد بن عبد الله بن أبي عامر المنصوري

---

(١) الجبرتي ٦/٢

(٢) شرح الروض (الظاهرية ، الفقه الشافعي ٢٩٥) في نهاية الجزء الثاني ، الروضة (الظاهرية ، الفقه الشافعي ٢٢٨) في نهاية الجزء الثاني .

(٣) إمام الحرمين ، النهاية (الظاهرية ، الفقه الشافعي ٢٨٨) في بداية فصل الوصية .

(٤) شرح الوجيز (الظاهرية ، الفقه الشافعي ١٣٧) في نهاية النصف الأول من الجلد ، المغني ٢٤٠ ، ابن قدامة ، الشرح الكبير على متن المقنع ٢٤١/٦ ، وفيما يخص الوصية انظر الخطيب ، تقييد العلم ٤٩ ـ ٥٣

(٥) شرح الوجيز ـ المرجع السابق ، المغني ـ المرجع السابق ، الشرح الكبير ـ المرجع السابق .

(٦) إمام الحرمين ـ المرجع السابق .

وزير المؤيد بالله الأموي الأندلسي إلى العـامـة في منهجهم الأثير لـديهم ، عنـدمـا أحرق الكتب التي تضم علـوم الأوائـل ، مـاعـدا كتب الحسـاب والطب[1] ، لأنّ هذين العلمين المفيدين في الحياة العلمية لا يتدخلان أساساً في أمور الدين .

ولكن هـذه الأحكام التشريعيـة التي أطلقهـا بعض الفقهـاء والمقبـولـة في الاجتهاد على الأرجح يبدو أنها تقوم فعلاً ضد احتجاجات الأتقياء الساخطـة غير المتشددة . وقيل إنّ في المكتبة الضيائيـة بـدمشق نسخـة من التوراة والإنجيل[2] . ومن بين الكتب التي وقفها أبو اليمن تاج الدين الكندي والمودعة في جـامع دمشق فهرس يضم ١٢٣ كتـابـاً في علـوم الأوائـل[3] أي (كتب الطب وغيره) والحكمـة والفلـك والفيزيـاء كما يـذكر أبو شـامـة . وأُطلق مثـل هـذه الأحكام في العصـور المتأخرة لتـاريخ الإسلام بشكل صريح ؛ فقـد نسخ قـاضي بغـداد أحمـد طـه زاده الجلبي كتبـاً في مختلف علوم الحكمـة والفيزيـاء والريـاضيـات ، وأوقفهـا في محكمـة حلب على المدرسة الأحمديـة[4] . ومـا دامت الاجتهـادات الـدينيـة ليست التعبير الصحيح للاتجاهات الاجتماعية ، ولا تحميها وثيقة دائمة ، فهي غير عملية .

والخلاصة أنّ المكتبة العربية العـامـة في العصر العبـاسي كانت تطمح لإيجـاد مؤسسة أمّ ذات اختصاص علمي كامل ، تعكسه بأمانة . ولما كانت المكتبـة خزانـة دائمة فهي تحاول تأبيد أفضل الكتب العلمية ، والاحتفاظ بالوثائق الهامـة ، وحتى الأدوات العلمية .

---

(١) الوافي (أحمد الثالث ٢٩٢٠) ١٦٠/٤/أ .

(٢) ابن طولون ، القلائد الجوهرية (مصورة المجمع العلمي العربي) ٥٣

(٣) أبو شامة ، الذيل على الروضتين (المكتبة الوطنية ، عربي ٥٦٥٢) ١٠٦/أ .

(٤) المحكمة الشرعية ، سجل ربيع الأول ١٣٠٢ هـ ، ٢٧٣

الفصل الثالث

طرق وقف الكتب

سنعرض للمبادئ العامة والخاصة التي يبدو عرضها ممكناً باستنتاجنا لموضوع التنظيم في المكتبات العربية العامة ، وسنستعين بكتب الفقه والآداب الدينية[١] . ونعتقد أننا نستطيع عرض هذه المبادئ في عمومها ، وأحياناً في تفاصيل ذات دلالة ، والتي ستبقى استنتاجية تماماً . لعدم وجود نصّ بوقف الكتب في ذاك العصر[٢] .

وإذا استثنينا مكتبات بيت الحكمة ومنافسيها ، نجد الوقف هو المبدأ القانوني المألوف الوحيد الذي يقر إنشاء المكتبات العربية العامة ، ويخلد فيها خدمة الكتب .

ولن نروي أي تفاصيل تتعلق بنظام الوقف ولا حتى الأساسية منها ، إلا المذكورة بشكل خاص في استعمال الكتب . ولذا فسنحذف بالضرورة كثيراً من المعلومات القابلة حتماً للتطبيقات المتنوعة ، والمدروسة في موضوعنا ، لأنها طويلة في العرض ، وصعبة في التفصيل بشكل خاص ، بالإضافة إلى أنّ هذه التطبيقات مدروسة في كتب عديدة للوقف قديمة وحديثة[٣] .

---

(١) كتب الآداب الدينية : هي كتب السلوك للحياة الاجتماعية والخاصة .

(٢) بحثنا دون جدوى عن دراسة قديمة في المكتبات وتنظيمها ، كمثل الدراسات المنشورة من قبل عن التجليد .

(٣) انظر على سبيل المثال كوتا ، شكري بدير ، إنشاء الأموال المسماة (حبوس) أو (أوقاف) في :

وباعتبار وقف الكتب عملاً خيرياً لتكفير الذنوب في الآخرة ، ويدخل في باب الأعمال الدينية المأجورة[١] . فإنه يحقق ثواباً في الآخرة .

مثاله الخليفة العباسي الناصر الذي بنى داراً باسم مولاه نجم الدين أبي اليمن نجاح بن عبد الله الحبشي ، أوقف فيه خمس مئة مجلد ، خصصها عام ٦١٥ هـ / ١٢١٨ م مع أعمال خيرية أخرى لذكراه وعلى روحه[٢] . وكان من الطبيعي أن يطلب ثمن رمزي ممن يستفيد من الكتب ، يوهب لروح الواقف ؛ ولهذا شرط ابن البزوري على من يستعير أي كتاب من وقفه أن يقرأ سورة الفاتحة مرة واحدة وسورة الإخلاص ثلاث مرات ، يهبها لروح الواقف ووالديه[٣] . بينما اكتفى محمد بن قوام الحنفي (ت ٨٣٨ هـ / ١٤٣٤ م) ممن ينتفع بكتبه التي وقفها أن يدعو الله بالمغفرة للواقف ووالديه وجميع المسلمين[٤] .

وبالإضافة إلى أن هذه الأعمال البارّة يقوم بها الأتقياء الورعون ، ففيها فائدة للواقف : إذ تهدف إلى تخليد ذكره ، وتجلب له شهرة عظيمة ، وهي كفيلة أن تكفّر عنه سيئاته أحياناً . وهذا ما يفسر لنا المبادرة إلى الوقف بشكل عام ، ويساعدنا على تمييز أسباب المخالفتين التاليتين لمبدأ الوقف : صادر أحد الأشخاص البارزين في القاهرة كتاب (كنز الدرر وجامع العبر) لأبي بكر بن عبد الله بن أيبك الدوادار بتسعة مجلدات من المدرسة التي أودع فيها ، ووقفه على مدرسته[٥] . وفي المخطوطة العربية ذات الرقم ٥٨٦٦ بالمكتبة الوطنية بباريس تقع

= التشريع الإسلامي ، باريس ١٩٢٤ م ، ماسودا (عباس يافت) مساهمة في دراسة الوقف في القانون المصري ، باريس ١٩٢٥ م .

(١) إضافة لكتب الآداب الدينية انظر كتب الترغيب والترهيب .

(٢) ابن كثير (الأحمدية بحلب ١٢١٧) ٧ ، سنة ٦١٣ هـ .

(٣) انظر المخطوطات التالية في الظاهرية : تاريخ ٦٦ ، تصوف ١١٧ ، أصول الفقه ٤٢

(٤) انظر مخطوطة الظاهرية ، حديث ١١٢

(٥) رفيق العظم ، المقتبس ٣٩١/٥ . وفي أياصوفيا المجلد السادس من هذا الكتاب . وفي طوبقبوسراي . والحكمة أن نعلّق هذا التناقض الواضح .

على حدث مشابه ، يرويه المقريزي بالتفصيل[1] : وقفيتان مختلفتان مكتوبتان في وقتين متقاربين على صفحتين متجاورتين في هذه المخطوطة ، تدل إحداهما على أنها غير قانونية .

بعد أن درسنا الصفات المختلفة والجوهرية لعدة مجموعات من الكتب المخصصة لتكوين المضمون المتجانس للمكتبات العامة ، نمضي لعرض الطريقة الشرعية والمألوفة التي تثبت اقتناء المكتبة لهذه المجموعات . وتتطلب هذه الطريقة مع بعض الإجراءات عرضاً كاملاً للطرق الرئيسة من أجل التطبيق لتقدم لنا عمليات تهمّ موضوعنا بمعونة بعض الجهات المماثلة للحالة العامة للتنفيذ الضروري لشرعية الوقف . وسنضرب صفحاً عن التفاصيل المتعلقة بمختلف المذاهب حول تسليم الأشياء التي تؤلف الوقف ، وحول شرعية وقف الموصي . فهذه التفاصيل لا جدوى منها لدراستنا . وسنتحدث بشكل خاص عن عرض ما يدعى التسجيل ، أي تسجيل الوقف ، والذي يؤدي إلى سلسلة من الاستعمالات الخاصة بالكتب ، سنراها فيما بعد .

ولتسجيل وقف الكتب تُطلب ثلاث صيغ مختلفة ، توافق ثلاث فئات من وقف الكتب :

١ ـ كتابة لائحة بالكتب في المحكمة : وهذا بحالة وقف مجموعة كاملة .

٢ ـ كتابة إشهادات الوقف على الكتب نفسها : وتكون هذه الكتب بالتالي مهمة من وجهة نظر ما .

٣ ـ كتابة صيغ تخصص لإدخال الكتب في الوقف . وينبغي أن تطبق هذه الكتابة معاً على الكتب غير المهمة ، وحتى على الكتب التي خصتها الصيغة الأولى .

---

(١) ٤٠١/٢

وهناك طريقتان مختلفتان للتسجيل في المحكمة لإقرار وقف الكتب ؛ الأولى وهي خاصة بمذهب الأحناف ، وتتطلب مناقشة شكلية أمام القاضي . والثانية تشترك فيها المذاهب الأخرى ، وتقوم على كتابة عقد بسيط ، يحكم القاضي على شرعية محتواه .

وتبقى آراء الأحناف المختلفة في موضوع الوقف وخاصة وقف الأشياء المنقولة ، ذات تطبيق متناقض ، وهي مع ذلك مقبولة كلها . واعتقد علماء الحنفية أنّ عليهم أن يقطعوا فيها برأي ، مقيمين حجة صورية ، تقرر الاعتراف النهائي بالوقف . وها هي ذي برأي كوتا[1] صيغة الإقرار : « يكتب الواقف الوقفية ويدرج فيها الشروط التي يريد أن تلتزم ، ثم يصرح إن شاء أنه يريد العدول عنها . وعندئذ يتدخل شخص يدعوه القاضي ليعارض العدول . وعند هذه الدعوى الصورية يقرر القاضي أن الوقفية إجبارية ، ويكتب الحكم في سجلات المحكمة ، ومكان وضع الأموال » .

وليس لدينا لسوء الحظ نص صحيح يلخص أي مناقشة من هذا النوع في تاريخ العصر العباسي ، بل يمكننا أن نؤكد أنه لا تغيير أساسياً في هذا المجال[2] . ويمكننا أن نورد هنا مثلاً مقتبساً من كتابة وقف كتبت متأخرة ، وقد قدّم لنا البحث في سجلات الوقف السورية أربع وقفيات من هذا النوع . وأفضل ما كتب من الناحية الشرعية المضبوطة تسجيلٌ وقف المكتبة الأحمدية بحلب ، وهي من أجمل وأقدم مكتبات المخطوطات العربية . ويمكننا أن نرى في الحواشي ثلاث وقفيات أخرى متنوعة غير التي أوردتها وقفيات الأحمدية . وها هو ذا النصّ المكتوب[3] :

(١) كوتا ٥٢ ، مؤلف موقف العقول (الظاهرية ، الفقه الحنفي ١٢٠) ١٢/ب . ينسب هذا الرأي لزفر ، وعنده أنه الشرط الوحيد المقبول شرعاً ، وعند أبي حنيفة أنه أكثر شرعية .

(٢) نستنتج ذلك من خلال هذه الدراسة ، وفي الفصول التالية .

(٣) المحكمة الشرعية بحلب ، سجل ربيع الأول ، ١٣٠٢ هـ ، ٢٨٤

« ثم إنّ الواقف ـ أجرى لله الخيرات الدائمة على يديه ـ أراد الرجوع عن وقفه هذا ، محتجاً بعدم لزومه على مذهب محمد بن سلمة[1] ... فنازعه متولي التسجيل ، محتجاً بصحة الوقف ولزومه ... أخذاً بقول العلماء الأعلام ، منهم نصير بن يحيى وأبي جعفر[2] ... وترافعا في ذلك كله لدى مولانا الحاكم[3] ، فرأى برأيه الحسن ونظره المستحسن ، أنّ جانب الوقف أولى من جانب الملك ، لبقائه على الدوام صدقة جارية ، واستمراره على كرّ الدهور والأعوام ، ينتفع به الخاص والعام ، فحكم المولى المشار إليه ـ أيد الله أحكامه ـ بصحة هذا الوقف المذكور ولزومه في خصوصه وعمومه ، على مذهب الإمامين نصير بن يحيى وأبي جعفر[4] ... حكماً صحيحاً شرعياً مستوفياً شرائطه الشرعية مسؤولاً فيه ، فصارت الكتب المرقومة وقفاً صحيحاً لازماً . لا تباع ، ولا توهب ، ولا ترهن ، ولا تغيّر ، ولا تبدل ، بل يبقى ذلك كذلك أبد الآبدين ودهر الداهرين ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين . فمن بدّل هذا الوقف أو غيره فعليه إثمه إلى يوم القيامة . ثم عزل الواقف المشار إليه متولي التسجيل المومى إليه عن التولية المذكورة كما شرط أولاً ، ورفع يد ملكه ... » .

كتبت هذه القضية في سجلات المحكمة[5] . والكتابة وحدها لا تثبت الوقفية ، ومحضر المحكمة ضروري[6] . وقد أدى هذا العرف إلى سلسلة من

(١) تذكر وقفية الشيخ أحمد أفندي صديق حجة من لا يقبل وقف الأشياء المنقولة من الأئمة المشهورين . (دائرة أوقاف حلب ، سجل ١٩٢/٣) .

(٢) تذكر وقفية الشيخ أحمد صديق حجة محمد بن الحسن (المرجع السابق) كما تذكر حجة الكواكبي (المحكمة الشرعية ، سجل ربيع الأول ، ١٢٠٩) .

(٣) وتضيف وقفية الشيخ أحمد صديق أنه تفاقم اختلافهما في الدفاع عن قضيتهما الخاصة ، فكان كل منهما يتوسل إلى القاضي المذكور ليحكم لصالحه .

(٤) لا تذكر الوقفيات الثلاث الأخرى حجة مقبولة بهذه المناسبة .

(٥) السجلات التي في دمشق في القرن السابع والثامن تحمل اسم سجلات حكمية .

(٦) انظر الفتاوى الأسعدية ٢٠٧/١

الإجراءات المهمة ؛ فعند الأحناف يمكن بيع الكتب التي تحمل علامة الوقف غير المصدق عليها بقرار المحكمة[1] . ولا يمكننا أن نصادر كتاباً موقوفاً عند الأحناف خرج من المكتبة ونعيده إليها ، إذا لم يذكر في سجلات المحكمة على إثر دعوى أقيمت .

وبدلاً من المحضر الصوري ، تلجأ المذاهب الأخرى غير المذهب الحنفي إلى حكم بسيط ، يتخذه القاضي إزاء شهادة الوقف ، ويكتب في سجلات المحكمة . وها هي ذي صيغة الحكم ، مأخوذة من وقفية في القرن الثامن / الرابع عشر ، كتبها حسن بن عمر بن حبيب الشافعي (ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ هـ)[2] :

« إسجال بثبوت الوقف المشاع أنه ثبت عند إشهاد الواقف المسمى عليه بما نسب إليه على الوجه المشروح ، وأنه مالك حائز للحصة المشاعة التي وقفها إلى حين الوقف ثبوتاً ماضياً شرعياً ، وأنه حكم لذلك حكماً شرعياً ، مع علمه بالخلاف في صحة وقف المشاع » .

ومن البديهي أن يقيد هذا الحكم في سجلات المحكمة . وهكذا يمكننا القول بصورة عامة : إن وقفيات المكتبات كلها تظهر في سجلات الحاكم[3] .

وما قلناه ينطبق على وقف المكتبات ومجموعات الكتب . وليس الأمر ذاته بالنسبة لوقف الكتب القليلة العدد ، ذلك الوقف الذي ـ بسبب شيوعه وضآلة أهميته ـ لا يمكن أن يكون موضوع حكم القاضي . ومن جهة أخرى ، ورغم أن حكم المحكمة يقرر وقف مجموعة كبيرة من الكتب ، إلا أنه ليس من الضروري أن يحمل كل مجلد كتابة تدل على وقفه . وينتج من هاتين الضرورتين صيغتان للكتابة .

---

(١) المرجع السابق ١٩١/١

(٢) كشف المروط (الظاهرية ، الأدب ٧٤) ١٥٣/ب .

(٣) نسمع بهذه الكتابات منذ أمد طويل ، انظر القرشي ، الجواهر المضية ٥١/١

تقوم الأولى على شكلية مألوفة في صحة العقود : الإشهاد أي العقد المكتوب الذي تصادق عليه شخصية أخرى غير صاحب العلاقة في نهاية العقد . وهذا هو الأسلوب البسيط الذي طبق على وقف الكتب في زمن مبكر . ويكشف عن شكلين رئيسيين للإشهاد : ١ ـ الإشهاد البسيط . ٢ ـ الإشهاد المرافق برسالة تثبت صحة الوقف عند الحاجة .

يقوم الإشهاد البسيط على إقرار تصريح يكتب على صفحة العنوان ؛ والنموذج الأكمل عليه ، والمكتوب بأفضل شكل هو الذي أعلن بموجبه المؤرخ ابن خلدون وقف كتابه (العبر) على مكتبة القرويين . ونشر هذا الإقرار مع ترجمته الأستاذ ليڤي ـ بروڤنسال[١] مع إقرارين يشهدان بصحته . وفي الجزء التاسع والعشرين من كتاب (نهاية الأرب) للنويري تصريح آخر لإقرارين[٢] . ولكن هذا التصريح لا يضيف جديداً إلى إشهاد ابن خلدون . ولنكتف بوصف شكل الإقرارين بإيجاز :

١ ـ صيغة الوقف ومترادفاتها .
٢ ـ اسم الواقف معظماً .
٣ ـ هوية الكتابة .
٤ ـ شروط الواقف المتعلقة باستعمال الكتاب وحفظه .
٥ ـ صيغة الدعاء
٦ ـ التاريخ .

وفي الأسفل إقرار الشهود متبوع ببيان الواقف عن مضمون التصريح حول إقرار ابن خلدون .

---

(١) المجلة الآسيوية ٢٠٣ ، ١٩٢٣ / ١٦٥

(٢) في المكتبة الوطنية ، القسم العربي ١٥٧٩

والشكل الثاني للإشهاد الذي نجده في المخطوطات المحفوظة في المكتبة الظاهرية[(1)] أنشئ بعد الشكل الأول . ويذكر فيه لا بتصديق الوقف بالإشهاد فحسب ، بل بتكليف الشاهد إبطال الوقف إذا تطلبت الحاجة عند المخالفات الممكنة الحدوث ، وتخصيص هذا الإبطال بشهادات ملحقة . ولا يمكننا تفسير هذه الحيطة إلا بالرغبة في منح الإقرار قدرة أكبر على تدارك المصادرات الممكنة . وتظهر الصيغة الأكمل لهذا الشكل الثاني على مخطوطة في المكتبة الظاهرية[(2)] ، هذه صورتها :

« أشهد عليه سيده العبد الفقير إلى الله الشيخ العالم العلامة أقضى القضاة علاء الدين مفيد الطالبين صدر المدرسين ولي أمير المؤمنين أبو الحسن علي بن المرحوم سيدنا العبد الفقير إلى الله تعالى الشيخ العالم بهاء الدين ... أبي محمد البهاء البغدادي الحنبلي ... وقف ، وحبس ، وسبّل جميع هذا الجزء وما بعده من الأجزاء ، وعدّتها خمسة أجزاء من كتاب (فتح الملك العزيز بشرح الوجيز) بكيف سيده الواقف المشار إليه تقبل الله تعالى منه [حسب شروط الوقف] فمن خالف ذلك فالله تعالى حسيبه . فمن بدله بعدما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه ، إن الله سميع عليم . وكلفني الواقف بصورة شرعية أن أبلغ ذلك بالتأكيد بعد وضع الإشهادات على هذا العمل . وأشهد عليَّ في ثالث عشر شعبان المبارك من سنة ست وثمانين وثمان مئة / [أيلول ١٤٨١ م] ختمه علي بن عبيد المرداوي » .

وفي الأسفل خمس شهادات ؛ وهذا نصّ منها يمثلها أصدق تمثيل : « شهد على الواقف المشار إليه ـ متعه الله بحياته ـ بجميع ما نسب إليه أعلاه في تاريخه . وكتبه سليمان بن عثمان المرداوي » .

---

(1) الفقه الشافعي ١٧٢ ـ ١٧٤ ، ٢٤٨ ـ ٢٥٠ ، ٢٨٥ ـ ٢٨٧ ، حديث ٢١ ، ٢١٨

(2) الفقه الشافعي ١٧٢

وفي الجزء الرابع من الكتاب نفسه عدد من الشهود المضافين ، اقتُصر منهم على اثنين بدلاً من خمسة . وفي كتب أخرى[1] إشهاد واحد ، وربما لا نجد أي إشهاد أحياناً[2] .

ويُختار الشهود من بين أعيان المدينة ، وندهش أحياناً عندما نجد شهادةً لذي سلطان . ومثل هذه الوثيقة منسوخة على صفحة العنوان من مخطوطة الصفدي[3] . فقد وضع السلطان سليمان القانوني توقيعه على مثل هذه الوثائق . وهكذا تنقل إلينا هذه الكتابات ذات القيمة التشريعية الخالصة أحياناً مخطوطات لا يشك فيها .

وإذا منعت أحد الواقفين المشهورين أعمالُه عن إملاء صيغة الوقف المطلوبة فوّض من ينوب عنه في إملائها . والمفوَّض في غالب الأحيان هو القاضي ؛ فعندما بُني مسجدا راشدة والحاكمي في القاهرة حضر القاضي مع الشهود لوقف نسخ من القرآن فيهما . وأناب الملك الناصر عام ٨١٤ هـ/١٤١١ م الشّريف المعزّ الفتحي لبناء مكتبة في خانقاه الناصري المستجدّ ، وحضر الشهود هذا الوقف الذي أنشئ في غياب الواقف ، فأقروا إشهاداتهم . والكتب التي تنتظمها هذه الصيغة الأخيرة بصورة عامة هي الكتب التي يوقفها رجال السلطة أو الأعيان .

ولا بد للكتب التي تحمل هذه الإقرارات ـ طويلة كانت أم قصيرة ـ أن تكون كتباً هامة ونفيسة تطلبت عناية ووقتاً كبيرين . ومع ذلك فيجب أن نستثني الناس الموسوسين أو المغرورين ، الذين يرغبون تفخيم أعمالهم ، فلا يبالون أن توضع هذه الإشهادات على الكتب القيمة أو التافهة .

---

(١) الظاهرية ، حديث ٢١٨

(٢) الظاهرية ، حديث ٢١

(٣) الوافي ، ط استانبول ، ج٣

ومهما يكن ، فلا يمكن أن تطبق هذه الصيغة على الكتب الموقوفة كلها ، لصعوبة تنفيذها من الناحية العملية ، فتبدل عموماً بما نسميه هنا الوقفية ، ليعرف أن الكتابة التي يحملها الكتاب تدل على وقفه .

وتظهر هذه الكتابة بأشكال عديدة ، فهي تبدأ من الصيغة الأكمل ، وتنتهي بالصيغة الأكثر إيجازاً . ولا تتناسب الصيغة الأكمل مع أهمية الكتاب دوماً ، لأنّ الرغبة والذوق الشخصي يؤخذان بعين الاعتبار . وها هي ذي صيغة الكتابة الأكمل التي عرفناها في مكتبة منجانا[1] :

« بحمد الله أوقف وأودع وسبّل وتصدق مولانا الأسطة الحاج حسام الدين الذي وضع خاتمه الشريف هنا هذا الجزء والأجزاء التي قبله وبعده ، وعدتها ثلاثون جزءاً من المصحف الشريف ، حسب شروط الوقف ، فمن بدله بعدما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم . وهو وقف شرعي ، لا يباع ، ولا يوهب ، ولا يرهن ، ولا يرجع فيه ، ولا يعار ، ولا يستخدم إلا لغرض شرعي ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وهو خير الوارثين . كتبه أحمد القراقيري سنة ١١٩١ هـ » / ١٧٧٧ م .

وفي المكتبة الظاهرية صيغة مشابهة في الكراسة التي تحمل رقم : مجموع ١١٦[2]

وبنود الوقفية فيها هي : عبارة الوقف ، واسم الواقف ، واسم المكتبة التي أودع فيها المخطوط وشروط الوقف ، وجملة المحظورات ، والتاريخ .

وكل ماتتألف منه هذه البنود ممكن . وقد وردت أمثلة في تاريخ المكتبة الضيائية . ونراها على مختلف الكتب التي أودعها واقف واحد . واستخدم عمر بن الحاجب وأبو عبد الله محمد بن سلام وأبو الحسن علي بن عروة وغيرهم أيضاً

---

(١) فهرس المخطوطات العربية في مكتبة جون رايلاند رقم ٢٢ (٧٥٥) .

وبشكل مختلف إحدى تلك الصيغ . وليس هناك والحق يقال صيغة محددة . وإنما الواقفون وحدهم بأذواقهم ومعارفهم المتنوعة ، لا الخزنة ، هم الذين يسهبون في الكتابة ، أو يوجزون فيها ، حسب أوقات فراغهم وأوضاعهم الآنية . وهذا لا يمنع كما يخبرنا الدسوقي[1] لكي تكون الكتابة مقبولة شرعاً أن تضم على الأقل صيغة الوقف ، وتحديد من يستفيد منه ، والمكان الذي يوضع فيه . وتضم معظم الكتابات في الواقع هذه البنود المختلفة . وأما الكتابات التي لا تحتوي على هذه البنود فتكتب في أغلب الأحيان على كتب المجموعات المسجلة في المحكمة . ولا تنطبق هذه الكتابات على الكتب الموقوفة على انفراد ، بل وعلى مجموعات الكتب الكاملة ، التي كتبت صيغ وقفها في سجلات المحكمة . ومثل هذه الكتب لا تحتاج إلى صيغ مفصَّلة تماماً ، بينما تكون كتابة المحكمة شاملة وكافية لتنظيم النزاعات كلها .

وهدف الكتابة حسب الصيغة الأولى والثانية وصورة من الثالثة تخصيص دخول الكتب في الوقف ووضع شروط الاستعمال وتحديد المكان الأمين للخزن ، ويجدر الاعتقاد أنّ الكتب التي تحمل على صفحة العنوان كتابة ناقصة تكون مقدمة للصيغة الأولى .

وقد يكون من المفيد مقارنة هذه الإجراءات التي تتم اليوم في المكتبات العامة . فالكتب التي تدخل المكتبات العامة الحديثة تخضع لعمليتي التسجيل : الكتابة على سجلات خاصة ، وختم الكتب على صفحة العنوان وعلى صفحة أخرى محددة .

والكتابة على السجلات اليوم مثل الكتابة التي كانت تقوم في المحكمة من قبل ، وتحفظ نسخ منها (الفهرس الحقيقي) في المكتبة .

---

(١) حاشية على شرح الدردير ٧١/٤

وكتابة علامة الوقف على صفحة العنوان وعلى صفحات أخرى أحياناً وفي الوقت نفسه تشابه الختم الذي يعتبر طريقة مفيدة وضرورية للحفظ . فالأسلوبان يختلفان في طبيعتها ، ويتشابهان في موضوعها . فهما يدلاّن على نسبة الكتاب ، ويساعدان على المحافظة عليه عند اللزوم . ومع ذلك فإنّ نقْصَ تعيين مكان الوقف في الكتابة ، يؤدي للجوء إلى تحقيقات مكملة ، إن كانت الإثباتات ممكنة[1] . إنّ هناك عيباً خطيراً والحق يقال ، لكنه يبدو عيباً مقبولاً رغم احتجاجات الفقهاء وميلهم لاعتبار أي عمليةمن هذه العمليات غير كافية[2] . فالكتابة صارت عادة ، واكتسبت أهمية أساسية رغم كل شيء . وقد أنكر ابن طولون في صفحة عنوان مكشوطة من أحد كتبه أن يكون فعل ذلك بغية مسح علامة الوقف . وأضاف أنّ الكشط كان من عمل أولاد غير مبالين[3] . واغتاظ ابن كثير ممن استولى على الكتب الموقوفة في مكتبات البزورية والضيائية والناصرية بشكل خاص ، لأنّ كتبها لا تزال تحمل علامة الوقف[4] .

وتجدر الإشارة إلى اختلاف الموضوع بين الختم والوقفية ، فهذه تشير أحياناً إلى شروط استعمال الكتاب وهو أمر ضروري ، لأنّ شروط الاستعمال تابعة لرغبة الواقف وحده ، ويمكن أن تتغير من كتاب لآخر . واشترط ابن الحاجب في أحد كتبه الموقوفة على الضيائية[5] ألا يعار إلا مقابل تذكرة حسنة[6] . وفي كتاب آخر ترك للخازن إمكانية إعارته ، إذا رأى في ذلك فائدة . هذا ويجب أن يحمل الكتاب وقفيته على صفحة العنوان ، مع نسبته في الوقت نفسه .

---

(١) حاشية على شرح الدردير ٧٩/٤

(٢) ابن قيم الجوزية ، الطرق الحكمية ١٩١

(٣) الظاهرية ، حديث ٢٤٢

(٤) ابن كثير ، البداية سنة ٦٩٩ هـ .

(٥) الظاهرية ، مجموع ٩٧ (١) .

(٦) الظاهرية ، مجموع ٩٧ (٢) .

والخلاصة : دخلت الكتب إلى المكتبة العربية العامة ، بعد أن خضعت لإجراءات شكلية وشرعية ، وهذه عمليات هدفت إلى المحافظة على استمرار الكتاب ، ودوام استعماله .

الفصل الرابع

الفهرس[1]

منذ أن توضع كتب أي خزانة بين أيدي نـاس معينين تقريبـاً ، أو منـذ أن تعجز الذاكرة عن حصر هذه الكتب يصبح إحصاؤها شغلاً رئيسيـاً . ولا نفـاجـأ بـوجـوده منـذ زمــان طـويـل . وإذ نحن لم نسمع بثبت المكتبـات إلا في القرن الرابع / العاشر عند الكلام على خزائن كتب الحكم الأندلسي وعضـد الـدولـة ودار العلم لسابور ، إلا أننـا نعلم بوجود ثبت خزانـة ثيـاب صنعـه بـإفراط يعقوب بن الخليفة العباسي المهدي . مما يشير إلى أهميته[2] . ومع استخـدام الكلمـة الفـارسيـة (فهرست) التي لفظهـا اللغويون بشكل أدق (فهرس)[3] اتسـع استعمال الثبت ، حتى أطلق على ملحق الفصول للكتـاب الكبير . وكان لنسخـة كتـاب (القبـائـل والأيام) لمحمد بن حبيب بن أميـة المُهـدى إلى مكتبـة الفتح بن خـاقـان فهرس للقبـائل والأيـام في ١٥ ورقـة . وبهـذا المعنى نجـد تعبيراً استعملـه ابن الصيرفي[4] الـذي نصح للموظفين بصنع فهرسٍ على الحروف ، وفهرس على السنوات والشهـور والأيام ، أي بتسلسل تاريخي . وخصص هو فهرساً للرسائل مرتبـاً على التسلسل المذكور . وتدل كلمة (فهرس) على سجل ورود الكتب ، وهذا يشابه معنى كلمة

---

(١) هيفننغ ، كتابخانة ، الموسوعة الإسلامية ، بنتو ، المكتبة ١٥٦

(٢) الأغاني ٩٢/٩

(٣) الفهرست ١٠٧

(٤) قانون ديوان الرسائل ١٤٠

(إحصاء) . وهذا المعنى الأخير هو الذي اعتمده اللغويون في المعجمات القديمة[1] : « الفهرس هو الكتاب الذي تجمع فيه الكتب » . وبعبارة أخرى : فهرس إحصاء الكتب .

واستنتجنا مسبقاً أنه لكي يأخذ وقف الكتب شكلاً قانونياً ومقبولاً ونهائياً يجب كتابة مضمونه في سجل المحكمة ، ويجب أن يكون فهرس المكتبة جاهزاً لتدوّن فيه هذه السجلات . والكتب تُذكر أسماؤها أحياناً في صلب الوقفية نفسها ، كما في وقفية مفتي حلب حسن أفندي ابن أحمد أفندي كواكبي زاده ، التي ذكرت الكتب وعدّدتها ، بعد أن وصفت بناء المسجد الموقوف[2] . وربما تلمّح الوقفية إلى الكتب ، وتحيل على ثبتها المسجل في الملحق . وورد في وقفية الأحمدية بحلب كذلك أنّ « الكتب الموقوفة محررة بأسمائها وأوصافها وأعيانها في دفتر ممضى بإمضاء الواقف ، ومحرر أسماؤها تفصيلاً أيضاً بذيل هذا الكتاب ... »[3] ، وهذا الذيل في الواقع يتلو الوقفية . وهو كما يلي : « بعد أن تمّ الوقف ، ولزم ، وحكم به ، وذكرت الأماكن الموقوفة في هذا الكتاب تفصيلاً ، وذكر فيه الكتب الموقوفة إجمالاً ، وأحيل تفصيلها في ذيل كتاب الوقف هذا ، اقتضى الحال بيانها ، وبيان عددها مفصلة ، كل كتاب باسمه ، مع بيان فنه ورسمه . وهذا تفصيلها المجمل ، جعلها الله خالصة لوجهه الكريم وتقبل »[4] . وتتبع القائمة ترتيب الفهرس المحفوظ في المكتبة نفسه . وهي لا تختم بإشهاد ولا توقيع منفرد . وقد يكون للكتب أحياناً وقفية خاصة تذكر فيها دون أن يشار إليها في الوقفية الشاملة للمؤسسة التي تضمها . وهذه صورتها في أول وقفية

(١) على رأي الليث في تاج العروس ٢١١/٤ ، وانظر الفيروزآبادي ٢٤٧/٢ ، ولسان العرب ٤٨/٨ . ولفهم مختلف التعابير المستعملة في هذا المجال انظر الكتاني ، فهرس الفهارس ، المقدمة .

(٢) المحكمة الشرعية ، ربيع الأول ١٢٠٦ هـ (١٢٦ ، سجل المكتبة الكبرى) .

(٣) المرجع السابق ، ربيع الأول ١٣٠٢ هـ ، ٢٨٣

(٤) المحكمة الشرعية ١٣٠٢ هـ/٢٨٥

المكتبة العثمانية بحلب : « وعدد كتب المكتبة وأسماؤها وأوصافها معلوم في كتاب وقفها المعمول به »[1] .

ومن البديهي أن يكون في المكتبة نسخة أو عدد من نسخ هذه الأثبات (الفهارس) . وتذكر هذه النسخة في الوقفية الأصلية للأحمدية بالكلمات التالية : « حررت هذه الكتب بأسمائها وأوصافها وأعيانها في دفتر ممضى بإمضاء الواقف ، ومعنون هذا الدفتر أيضاً بإمضاء الحاكم الشرعي وختمه »[2] ، ثم وضع في المكتبة . ولما كان هذا الفهرس أقدم الفهارس التي عندنا وأفضلها صنعاً ، فيبدو بمقارنته مع التفاصيل التي وصلت إلينا من الفهارس القديمة أنه يمثل بحق فهرس مكتبة العصر العباسي ، دون أن يحمل أي تنقيح مستوحى من الخارج . ونعتقد أنه يجب اتخاذه أساساً لوصف الفهارس ، لأنه بفضل هذه النموذجية الصحيحة فيه يوضح تماماً التفاصيل الغامضة التي استخرجناها من الفهارس القديمة .

والفهرس ـ في تجليده البسيط وورقه السميك ذي النوعية الجيدة والمسجل برقم ١٤٧١ ـ صنع بهذا الشكل ليصمد على الاستعمال اليومي ، ومع ذلك فاستعماله غير عملي بسبب قياسه البالغ ٤٠ × ١٨ سم . وهو يضم ١٤ ورقة . ولنمض إلى الفهرس على الورقة ١/ب تصريح الوقف المطابق للوقفية الأصلية ، وها هو ذا نصها : « الحمد لله على نعمائه ، والصلاة والسلام على نبيه وآله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان ، وبعد ، فقد أوقفت الكتب وقفاً مؤبداً وهي التي دوّن اسمها في هذا السجل طبقاً لما كتبَ في الوقفية شيخ[3] المدرسة وقفاً مقبولاً شرعياً مناسباً لموضوعه . وهدفه النفع للطلاب الراجين الحصول على ثواب الملك الكريم . ولفظ

---

(١) المرجع السابق ١٣٠٠ هـ/٧٤

(٢) المرجع السابق ١٣٠٢ هـ ، ٢٨٣

(٣) على شيخ المدرسة أن يقتني فهرساً مماثلاً للفهرس المحفوظ في المكتبة .

ذلك بفمه ، وكتبه بخطه من هو بحاجة إلى مغفرة الله أحمد طه زاده قاضي مدينة بغداد القديم ، غفر الله له » . (خاتم) .

ومقابل هذا الإقرار إقرار القاضي وصورته : « أسماء الكتب النفيسة الموقوفة الواردة في هذا الدفتر مطابقة لما أشير إليه في نصّ الوقفية التي أقرها الشهود الحاضرون ، وعليها خاتم العبد المفتقر إلى الملك القادر درويش مصطفى قاضي مدينة حلب الشهباء ، غفر الله له ولجميع المسلمين » .

كما جاءت مقدمة الفهرس (١/ب) على النحو التالي : « بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله ربّ العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . أما بعد ، فهذه أسماء الكتب الجليلة الشريفة المتنوعة الفنون الآتي ذكرها في هذا الدفتر على التفصيل ، التي أوقفها ... طه زاده القاضي بمدينة بغداد سابقاً ، ووضعها في حجرة مخصوصة لها في مدرسته التي أنشأها بمدينة حلب ، وسماها بالمدرسة الأحمدية ... المشار إلى هذه الكتب في كتاب وقفه ، والمحررة فيه بأسمائها جميعاً ... وقفاً صحيحاً شرعياً لا يبدل ولا يغيّر ، بل يبقى على حاله مدى الدهور والأزمان . وكان ذلك وحرر في اليوم الخامس والعشرين من رمضان ، لسنة ست وستين ومئة وألف » / ١٧٥٥ م .

وهكذا فسجل الثبت مثل كتابة علامة الوقف على الكتاب نفسه : ليست مهمته فنية من أجل الحفظ فحسب ، بل وقانونية أيضاً . ومثله كذلك المقدمة التي كتبها سابور بن أردشير[1] لفهرس دار العلم ببغداد ، والذي وردت ترجمته في الفصل الخاص بمكتبته . وصيغة هذا الإقرار مخالفة نوعاً ما لصيغة إقرار الأحمدية ، ولكن المضمون نفسه : عرض شروط الوقف ، والتحذير من المخالفة الممكنة بصيغ النهي والتهديد .

---

(١) مرآة (كوبرلي ١١٥٧) ١١/١٨٥/أ ، و (المكتبة الوطنية ، عربي ٥٨٦٦) ١٤١/أ .

ولتعزيز الصفة القانونية لفهرس الأحمدية وضع عليه الختم في أكثر من مكان . وحيثما تلاقت فيه صفحتان وضع عليها الختم ، بحيث يكون نصفه على إحداهما ، والنصف الآخر على الأخرى ، لئلا يمكن نزع أي ورقة خلسة . وقد جُعل في كل ورقة سطران عموديان محفوران بإزميل غير محبّر ، يصلان بين طرفيها ، يربطها من جهة أخرى خطان أفقيان ، لصنع إطار للكتابة . والكتب في الفهرس مرتبة على المواد . وفهرست كل مادة على حدة . ودُوّن عنوانها في سطر مستقل بخط غليظ ليسترعي الانتباه ، وتتالى كتب كل مادة دون ترتيب ، ويكتب اسم كل كتاب على انفراد ، آخذاً شكل مثلث رأسه نحو الأسفل ، ويتراوح عدد الأسطر التي تؤلف المثلث تدريجياً بين ثلاثة أسطر إلى خمسة . ويأتي العنوان المختصر للكتاب في السطر الأول ، يتبعه اسم المؤلف ، وقياس الكتاب ، ونوع خطه ، وزخرفته إذا اقتضت الحاجة ، وأخيراً عدد المجلدات الذي يذكر كتابة بالحروف أحياناً ، ولكنه على الغالب يشار إليه بالأرقام في الأسفل ، بإشارة مشابهة للجزر الجبري . وتستطيع العين أن تتصفح الفهرس بسرعة ، وتصل بيسر إلى الكتاب المطلوب . ووصف الكتاب في الفهرس مختصر جداً ، لكنه يضم كل التفاصيل المفيدة ، لتطابق الكتاب ، ماعدا تفصيل تاريخ النسخة .

وتوضح وقفية هذه المدرسة التواعد الملحوظة في وصف الكتب[١] كالتالي : « حررت هذه الكتب بأسمائها (العنوان والمؤلف) وأوصافها وأعيانها في دفتر » . وذكر في موضع آخر[٢] : « اقتضى الحال بيانها وبيان عددها مفصلة ، كل كتاب باسمه ، مع بيان فنّه ورسمه » . وجاء في وقفية العثمانية[٣] : « وعدد الكتب وأسماؤها وأوصافها معلوم في كتاب وقفها المعمول به » وهذه الأحكام المذكورة في

(١) المحكمة الشرعية ، ١٣٠٢ هـ ، ٢٨٣

(٢) المرجع السابق ، ١٣٠٢ هـ ، ٢٨٥

(٣) المرجع السابق ، ١٣٠٠ هـ ، ٧٤

الوقفيات والملحوظة في الفهارس تساعدنا على فهم المعنى الحقيقي لتعبير (اسم) (أسماء الكتب) بالإضافة إلى المعنى اللغوي الذي يشير إلى كل ما يساعدنا على معرفة هوية الكتاب ، على أنه كتاب علم يضم العنوان ، ويبين الموضوع ، ويذكر اسم المؤلف . ومن المؤسف أن تذكر الوقفيات هذه التفاصيل - وهي كافية من حيث المبدأ - بشكل مختصر قدر الإمكان .

ونذكر هنا بعض الملاحظات المتعلقة بممارسة التصنيف في الفهارس ، مع أننا خصصنا فصلاً لتصنيف العلوم في المكتبات .

ما من نظام يفرض ترتيب الكتب على المواد . ولما كان الفهرس العربي سجلاً ذا صفة قانونية ، فلا يمكن له أن يذكر مرتين في موضعين مختلفين كتاباً واحداً يضم أكثر من موضوع ، الأمر الذي يدعو للحذر . كما لا يستطيع أن يذكر في مواد مختلفة الكتيبات ذات الموضوعات المتنوعة المجموعة بعضها إلى بعض والتي تسمى مجاميع . فيصنف كل مجموع في مادة الرسالة الأولى . وكثيراً ما نجد هذه الرسائل المذكورة في مواد مختلفة أيضاً .

تلك هي الملاحظات التي تبدو لنا في فهرس الأحمدية . ولا ندعي طبعاً أنها ملاحظات عامة . بيد أنها تساهم في إظهار المبادئ العامة المتبعة في مكتبات المسلمين . تلك المبادئ التي يمكن أن نلخصها على الصورة التالية : الفهرس سجل قانوني يقوم بمهمة الفهرس المنهجي ، حيث تكون الكتب الموصوفة فيه بشكل كاف ومختصر مرتبةً على المواد .

وبشكل عام ، لا يمكن للخازن الذي لم يعين بعد تجهيز الفهرس قبل افتتاح المكتبة ، ويبدو أنّ الواقف ذاته هو الذي ينجز هذه المهمة . وبذلك يعتقد سبط ابن الجوزي[1] أنّ سابور صنع بنفسه فهرس دار العلم ببغداد .

---

(١) مرآة (المكتبة الوطنية ، عربي ٥٨٦٦) ١٤١/أ .

وقـد فهرس الكنـدي كتبـه التي وقفها على المواد[1] . وكتب أحـد رجـال الحكـومـة أسماء كتب مرتضى الـدولـة ـ صـاحب حلب ـ في فهرس على شكل لفـافـة[2] . ووضـع ابن عبـد الهـادي فهرساً لمكتبتـه التي وقفهـا[3] . وميزة هـذه الفهارس أنها تدل على أنّ هذا الفن لم يقدر له التطور بعد ، وأنـه لم يكن من عمل الفنيين بشكل عام . ومع ذلك فهنـاك استثنـاء فيما يتعلق ببعض المكتبـات ، التي تحتاج فهـارسهـا إلى تجـديـد . وهـذا عمل يعود إلى الخزنـة طبعـاً : « فخر الـدين إبراهيم بن حسن البواب خازن الكتب بـالمـدرسـة البشيريـة ببغـداد تولى كتـابـة فهرس هذه المدرسة على طريقة حسنة ، وذلك في سنة ٧١٤ هـ / ١٣١٤ م . وهذه الجملـة التي كتبهـا ابن الفوطي وهو أحـد الخزنـة الكبـار في الإسلام[4] ، تشير إلى وجود فن معين للفهرسة ، فن يستحسن أو يستقبح ، ولكنـه يصعب توضيحـه ، بسبب النقص في الوثائق الضرورية . ونحاول لتدارك هـذا النقص في المصـادر أن نعرض بشكل مختصر التقـدم التقني العـام للمكتبـة ، والـذي كانت لـه أصـداء في فهارس المكتبات ، أو ساهم على الأقل في خدمة هـذه الفهـارس بشكل واسع . وفي وقت مبكر اتبعت الفهارس طريقة الترتيب الهجائي في تعـدادهـا للكتب ، وقـد رتبت على الطريقـة الهجـائيـة قـائمـة الكتب التي قرأهـا أبـو محمـد عبـد الله بن إسماعيل بن محمد بن خزرج الدخمي[5] ، وقائمة عبـد الغني جمـال الـدين بن موسى المقدسي التي حفظت نسخة منها في المكتبة الظاهرية[6] ، وقائمة الكتب التي ألفهـا أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا[7] المحفوظة في الظاهرية كذلك . وهنـاك

(١) أبو شامة ، الذيل على الروضتين (المكتبة الوطنية ، عربي ٥٨٥٢) ١٠٦/أ .

(٢) ابن العديم ، زبدة الطلب (المكتبة الوطنية ، عربي ١٦٦٦) ٥٦/أ .

(٣) وهذا الفهرس في الظاهرية برقم أدب ١٩

(٤) عند ابن الفوطي ، تلخيص (الظاهرية ٢٦٧) ١٤٧

(٥) ابن خليفة ، فهرست ٤٣٢

(٦) مجموع ٩٢ (١٠) وهي لا تشكل إلا النصف .

(٧) مجموع ٤٢ (٤) .

فهرس عام للكتب في أكثر من ٥٦ مجلداً من القطع الكبير ، وفيه أسماء الكتب . ولا يضم هذا الفهرس إلا عنوان كل كتاب ، واسم مؤلفه ، والإشارة إلى بلده ، وتاريخ وفاته[1] . ولم يصنف هذا الفهرس إلا على حروف المعجم مثل كتاب (كشف الظنون) .

وامتد الترتيب الألف بائي المستعمل منذ القرن الثالث / التاسع في كتب السير ليشمل فهارس المؤرخين . ونعرف كتابين عند الشيعة من هذا النوع ؛ فهرس الطوسي ، ومعالم العلماء ، اللذين يذكران بترتيب المعجم أسماء المؤلفين الشيعة ، ولمحة موجزة عن سيرهم الذاتية ، مذيلة بقوائم كتبهم . ونلاحظ في الفهرس الثاني زاوية خاصة بفهرس مكتبة المتحف البريطاني ، وفي الباب الذي يتحدث عن المؤلفين ذكرٌ للكتب التي ألفت عنهم : ففي الحديث عن الندي بن محمد ذكر كتابٌ في طَرف هذه الشخصية ألفه الصولي[2] .

ولا حاجة للقول بأن الفهارس المنهجية المرتبة على المواد ، كفهرس ابن النديم قد اختفت . وتوسع فن الفهرسة كثيراً عند المسلمين ، وربما كان من ابتكارهم الشخصي .

كذلك فإن استعمال البطاقات ـ وهو من ابتكارهم أيضاً ـ أصبح في أيامنا إحدى الوسائل العلمية الأكثر ضماناً ؛ نصح ابن الصيرفي للموظفين في زمنه باستعمال ما أسماه التذاكير ، وهي قوائم للتذكرة ، يسجل فيها كاتب الديوان مهمات الأمور التي يحتوي عليها كل كتاب ، ويكون وجودها تحت يده لتعينه على كتابة الإجابة عن الأسئلة المطروحة عليه فوراً[3] وهذا ما يجعل الفهرسة فناً

---

(١) التراتيب ٤٥٥/٢

(٢) ص ٥١

(٣) ابن الصيرفي ١٢٧

سهلاً ، يغني بعض المكتبات العربية إغناء عظيماً . والمكتبة لا تحتاج لفهرسة دقيقة إن كانت كتبها قليلة . وكثرة الكتب أصل للغموض ، والالتباس الذي ينشأ عنها يدعو إلى الاهتمام بفهرس الكتب . فإن علمنا أنّ في خزانة كتب الحكم الأندلسي ٤٤ فهرساً في كل فهرس ٢٠ صحيفة ، لم يذكر فيها الأسماء المتشابهة للكتب العظيمة[١] ، وأنّ في مكتبة الصاحب بن عباد في الري عشرة مجلدات للفهارس[٢] ، وأن مكتبة القاضي الفاضل احتاجت إلى سبعة مجلدات لفهرستها[٣] ، اندفعنا للاعتقاد أن لا بدّ من قيام فن للفهرسة تطور ، ليسهّل استعمال مثل تلك المؤلفات ومراجعتها .

ولكن ولسوء الحظ ، فإن المبدأ الصوري للوقف ، وهو ينسب فهرسة الكتب إلى مزاج الواقفين ، يعارض تطور هذا الفن ، الذي توصل بكل تأكيد إلى درجة جديرة بالاعتبار .

وعندما يتعلق الأمر بالمكتبات التي بناها العلماء وغذاها وقف من تبعهم بكتب تتكدس في المكتبة ، فإن فن الفهرسة عندئذ يغدو هزيلاً ، وتغلب عليه بالتالي اللوائح الصغيرة التي صنعت كيفما اتفق ، فتذكّر على شكل منفرد بمحتوى هذه الخزائن الصغيرة العديدة ، التي أنشئت مستقلة بمساعدات خاصة . وقد كان في المكتبة الضيائية التي تشكلت من أوقاف مختلفة ـ ولا داعي لذكر عددها ـ قوائم من هذا القبيل وهي القوائم المفهرسة الصغيرة التي تكون أحياناً على هيئة لفافات ، وهو ما اعتمدته الوقفيات . وقد فهرست مكتبة المدرسة الشرفية بحلب على لفافة طويلة[٤] .

---

(١) ابن خلدون ، العبر ١٤٦/٤

(٢) إرشاد الأريب ٢١٥/٢

(٣) ابن الفوطي ، تلخيص (الظاهرية ، تاريخ ٢٦٧) ١٤٣

(٤) الطباخ ، مجلة المجمع العلمي العربي ، ١٩٢٧ م ، ص ٣٠٣

وهنـاك شكل آخر من القـوائم تكتب على أوراق ، تلصـق على بـاب كل خزانة ، تذكر فيها الكتب التي تحتويها تلك الخزانـة . واستعمل مثلهـا في مكتبـة الفاطميين بالقاهرة [1]، لتحل محل الفهرس ، أو لتساعده على الأقل .

---

(۱) المقريزي ٤٠٩/١

الفصل الخامس

تصنيف العلوم

كانت فهارس المكتبات العربية العامة مصنفة بطريقة منهجية . فما مبدأ هذا التصنيف ، وما طريقته ؟ ولمعرفة المقصود من مفهوم تصنيف العلوم في المكتبات ، علينا أن نتبع التعريف الذي أورده المؤرخون المسلمون ، فقالوا : « هو علم باحث عن التدرج من أعم الموضوعات إلى أخصها ليحصل بذلك موضوع العلوم المندرجة تحت ذلك الأعم »[1] . وتقسيم العلوم العامة التي بحوزتنا هو تقسيم الكندي لمكتبته[2] ، وهو كما يلي :

علوم القرآن والحديث والفقه واللغة والشعر والنحو والتصريف وعلوم الأوائل . وقد اقتصرت بعبارة أخرى على العلوم العامة : العلوم الدينية والآداب وعلوم الفلسفة .

وهذا التقسيم الثلاثي يتصدر العلوم التي تعددها مقدمة فهرس دار العلم ببغداد[3] .

ـ العلوم الدينية : القرآن والتأويل والتفسير والقراءات والعبادات والفرائض والتشريع على مختلف المذاهب والعقيدة والجدل وعلم الخلاف وكتب آل البيت .

---

(١) طاشكوبري ، مفتاح السعادة ٢٦٥

(٢) أبو شامة ، ذيل (المكتبة الوطنية ، عربي ٥٦٥٢) ١٠٦/أ .

(٣) مرآة (كوبريلي) ١٨٥/١١/أ و (المكتبة الوطنية ، عربي) ١٤١/أ .

ـ الآداب : الأنساب واللغة والأمثـال والوصف والنحو والتصريف والعروض ودواوين الشعر الجاهلي والمخضرم والمحدث والحكايات والتاريخ والرسائل .

ـ علوم الفلسفة : الطب والفلك والفلسفة والهندسة .

ويغلب هذا التقسيم نفسه على تصنيف المكتبة الأحمدية بحلب[1] :

ـ العلوم الدينية : القرآن والتفسير والقراءات والمدائح النبوية وأصول الفقـه والفقه على مذهب الأحناف (مذهب الواقف) والشافعية والمـالكيـة والحنـابلـة ، والعقيدة والتصوف .

ـ الآداب : اللغـة والنحـو والصرف والبـلاغـة (المعـاني والبيـان) والمنطـق والجدل والأدب النثري وتعبير الرؤيا والأدب والشعر والحكايات .

ـ العلوم الفلسفية : الريـاضيـات وقيـاس المسـاحـة والجبر والحسـاب النسبي والطب والفلك والفيزياء واللوائح الفلكيـة ، وفن استعمال الأدوات الفلكيـة وعلم التنجيم والزيوج والأخبار وعلم الأسماء والحروف والهندسة وعلم الفراسة .

ومبـدأ التصنيف في الفهرسين المـذكـورين هـو نفسـه بـاستثنـاء بعض الاختلافات التي سنشير إليها فيما بعد . وتقول وقفيـة الأحـمديـة[2] بـالتـالي : إنّ هذا التصنيف ليس اعتباطياً ، وإنما هو على العكس يتبع المبدأ التالي : (تفصيل كل كتاب باسمه مع بيان فنه ورسمه مرتباً فيه المقدم على غيره منها) .

والكتب التي تتناول الآداب الدينية تبرز هـذا النظـام بوضوح في سطورهـا الكبيرة فيما يتعلق بترتيب الكتب على رفوف المكتبة . وتجـدر ملاحظـة القـاعـدة التالية : يجب اتباع بعض قواعد التنـاسب في تصنيف الكتب ؛ فينبغي أن ترتب

---

(١) الفهرس ١٧٤

(٢) محكمة حلب الشرعية ١٣٠٢ هـ / ٢٨٥

حسب نفاستها[١] وأن يسبق الكتاب ذو الموضوع الأهم غيره من الكتب الأخرى[٢] .
وبهذا نتوصل إلى التصنيف التالي الذي أشرنا في الحواشي إلى اختلافاته : المصاحف فكتب التفسير فالحديث فشرح الحديث فأصول الدين فأصول الفقه فالفقه[٣] فالنحو فالصرف وعلوم المعاني والبيان والبديع وأشعار العرب والنثر ... إلخ .

وعندما نهدف إلى تحديد تسلسل العلوم حسب أهميتها الدينية ندرك أن هذا التصنيف يتوقف هنا ، وأن العلوم العلمانية الخالصة لا تدخل في الاعتبار . ومهما يكن فإن مبادئ نظامها لا تختلف عن تصانيف الفهارس الموجودة . والاقتباس منها واضح ، لكنه غير كاف مع ذلك لشرح هذا النظام وتفسيره . وبالتالي ، فإذا قارناه مع التصنيف الفلسفي أو النظري على الأقل الخماسي التقسيم[٤] لوجدنا أنه مستوحى من التصنيف المذكور ، والقائم على التمييز بين العلوم التي وضعها علماء الدين ، وبين العلوم الفلسفية . ويبدو أن أقدم من يمثل هذا التصنيف هو العالم البارز ابن خلدون[٥] ، الذي قسم العلوم إلى فئتين : نقلية وعقلية . فالأولى تتطلب الوجود الأولي لعلوم اللغة والآداب . ولفائدة المقارنة نورد التسلسل الذي وصفه هذا النظام[٦] ونسخه كاملاً حاجي خليفة[٧] :

---

(١) الفتاوى الحديثية ١٦٣ ، الابتهاج ٢٢٧/١

(٢) المفيد ١٣١

(٣) هذا هو الترتيب الذي اعتمده في الابتهاج ٢٢٧/١ . ويعددها العلوي في المفيد ١٣١ كما يلي : الفقه فأصول الدين فأصول الفقه . ويورد ابن حجر الهيتمي أخيراً في الفتاوى الحديثية ١٣٦ التعداد التالي : أصول الدين والفقه فقط .

(٤) ابن خلدون ، المقدمة ٤١٨ ، خليفة ، استانبول ٣١/١ و ٤٢/١ ، الخوارزمي ، مفتاح العلوم ، الغزالي ، فاتحة العلوم ٣٥ ، التهاوندي ، كشاف ١٢ وانظر حسين صديق خان ، أبجد العلوم ٣٣ ـ ٤٤ ، ابن سعيد ، إرشاد القاصد ، الفوائد الخاقانية ، طاشكوبري زاده ، مفتاح السعادة .

(٥) ابن خلدون ، المقدمة ٣٧٩

(٦) ابن خلدون ، المرجع السابق ٣٨٠ و ٤١٧ . وهناك بعض الاختلاف بين التصنيف المنهجي والتعداد الذي اعتمده بشكل نهائي . وهذا ماأخذنا به لأنه يتصف بالتدرج .

(٧) خليفة ٣٠/١ ـ ٣١

ـ العلـوم النقليـة (أي العلـوم الـدينيـة) : القرآن والتفسير والقراءات والحديث ، وأصول الفقه والفقه والعقيدة .

ـ العلوم التي تقتضيها العلوم السابقة : اللغة والنحو والبلاغة والأدب .

ـ العلوم العقلية : المنطق والرياضيات والهندسة والفلك والموسيقى ، والفيزياء وما وراء الطبيعة .

ونلاحظ جيداً أن المبدأ الإجمالي لهذا التصنيف هو عين المبدأ المتبع في تصنيف الفهارس . لكن الترتيب التدريجي بين العلوم التي يضمها كل فرعٍ مختلفٌ . ولا يمكن أن يكون على خلاف ذلك لسببين : الأول هو عدم اتفاق واضعي هذا الترتيب[1] . ويمكننا أن نذهب إلى أبعد من ذلك ، فندعي أنّ ابن خلدون نفسه يدخل هذا الترتيب لتفسير توزيع المواد حسب مختلف العلوم . والسبب الثاني هو أن ترتيبات الفهارس ـ والحق يقال ـ لم تراع التوزيع الفلسفي بأمانة . وتبنوا عملياً التوزيع الفلسفي ؛ وذلك لا يعني أننا لانبحث عن تطبيق هذه التقسيمات ، بل على العكس ، فإن تأثيرها ممكن أكثر . بينما نحاول أحياناً إثبات انسجام منطقي فيما بينها . وقد أشرنا إلى المنطق والجدل المذكورين بقسم الآداب في تصنيف الأحمدية . ويجب أن نقول هنا : ليس هذا خطأ المصنف ولكنه خطأ فكرته الطارئة . إذ أراد أن يهتم بأحد التقسيمات الفلسفية الخمسة ، وهو التصنيف الذي يقسم العلوم إلى علوم مقصودة لذاتها وعلوم مطلوبة لغيرها . وقد صُنِّف بالتالي علم المنطق والجدل في هذا التقسيم مع علم الأدب ، وهذه العلوم وسائل [آلات] لدراسة العلوم الدينية[2] . ولا نعرف إلى أي مدى تستخدم

---

(١) انظر الحاشية رقم ٤ ، ص ٢٢٧

(٢) حسن صديق خان ، أبجد العلوم ٣٨ ـ ٣٩ ، خليفة ٩/١ ، وتقسيمه مستعمل بشكل كامل من حيث المبدأ ، ويختلف عملياً عما اعتمده ابن سعيد ، إرشاد القاصد ، القاهرة ، ١٩٠٠ م ، ص ١٩

التقسيمات الفلسفية في تصنيف الفهارس ، وربما يتبع ذلك حصراً الثقافة الأولية التي تلقاها هؤلاء المصنفون ، لكنّ المؤكد أنهم اقتبسوا تصنيفهم ولم يبتدعوه .

وتقسيم ابن خلدون الذي يراعي الترتيب التدرجي الديني يناسب وبشكل أفضل المكتبات العامة ، وهو من الناحية الدينية أكثر نفعاً من التقسيمات الأخرى .

وتنظيم الفهارس وسيلة للمراجعة والتصنيف . فيجب أن يكون هذا التنظيم مفصلاً جداً لكي يساعد على أداء المكتبة الجيد . ويبدو أن التفاصيل تزداد فيه مع الزمن : فمكتبة دار العلم لسابور التي تحتوي على عشرة آلاف مجلد كانت مصنفة على ٣٢ تقسيماً تقريباً ، ولكل تقسيم ٣٠٠ مجلد في المتوسط . وفي مكتبة الكندي أقل من مئة مجلد في كل قسم . وأخيراً فللمكتبة الأحمدية ٣٣ قسماً في ألف مجلد ، لكل قسم ٣٠ مجلداً . والخزنة المسلمون يشعرون بالحاجة إلى زيادة عدد الأقسام ، للتقليل من الصعوبات . كذلك حاول الذين كلفوا تنظيم مكتبة المستنصرية ترتيبها أحسن ترتيب مفصل لفنونها ليسهل تناولها ولا يتعب فيها المناولون [1] .

ومجمل القول أن التصنيفات المعتمدة في المكتبات العربية لخدمة المطالعة والبحث مستوحاة من نظام فلسفي ، تعتبر فيه العلوم الدينية هي الأولى ، وتحاول إرضاء الهدف العملي المطلوب .

---

(١) ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة ٥٤

الفصل السادس

المكان واللوازم[1]

وعندما تدخل الكتب المنسوخة والموقوفة والمصنفة إلى المكتبة ينبغي أن توضع في أماكنها ، وترتب في خزائنها . وبعد أن وصفنا الإجراءات العملية التي تمت للكتب قبل دخولها المكان الذي ستؤبد فيه ، يجب أن نصف هذا المكان وأثاثه .

خصصت للمكتبات عدة أشكال في أماكن مختلفة ، بدءاً من البناء الكبير ، وحتى الخزانة الصغيرة الموضوعة في حجرة . ولكن يمكن أن يوجد تصنيف واضح لأمكنة المكتبات العامة والصفات المشتركة ، التي تخص هذه الأمكنة المختلفة ذات العلاقة بالصبغة الأولى للمكتبة العربية العامة .

وقبل القرن الخامس / الحادي عشر عند ظهور المدارس كان للمكتبات الأخرى غير الملحقة بالمساجد ، وبعد القرن الخامس كان لبعض المكتبات الهامة مثل مكتبة المدرسة النظامية أبنية مخصصة بشكل أولي للكتب والمطالعة . ولا ندري إن كان لهذه الأبنية طراز فريد في بنائها . كذلك ليس مشروعاً أن نفترض أنّ مجمل الوصف الآتي ينطبق كله على جميع الأبنية ولا حتى على بناء واحد . ولا يدعي بحثنا هذا الذي يهدف إلى إعطاء فكرة تقريبية وعامة عن موضوع الأبنية والأثاث أنه يتجاوز الحالات الخاصة التي تذكرها النصوص .

---

(١) انظر هيمننغ ، مادة كتابخانة في الموسوعة الإسلامية ، بنتو ، المكتبة ١٥٣ ، ١٥٥

ولكن رغم أننا مجبرون على التمسك دوماً بالحالات الخاصة ، فليس قليلاً أن نعتقد أنه من الممكن ذكر بعض الأفكار العامة أحياناً والمفيدة للمعرفة .

ونصل إلى مكتبة عضد الدولة بشيراز[١] لنجد فيها رواقاً شيّد أمام الباب[٢] . والرواق منفذ على شكل بناء طويل مستطيل (أزج) ، على جانبيه غُرفتان جانبيتان ، باباهما يشرفان على البناء من الداخل . وفي مكتبة دار العلم بالقاهرة زخارف تزينها[٣] وكان الرخام المرصّع ذو الألوان المختلفة يغطي أرض دار العلم ببغداد ، وربما قسماً من جدرانها[٤] . وهذا طبيعي للتزيين . وكانت الحصر تغطي أرض دار العلم بالقاهرة في الصيف ، وسجاد اللبّاد يغطيها في الشتاء ، مع وسائد من صوف[٥] . وكانت أرض مكتبة عضد الدولة مفروشة بالحصر العبادانية[٦] . وقد علقت في دار العلم بالقاهرة ستائر على كل المنافذ والأبواب[٧] ، وجلب الماء إلى بنائها للوضوء والشرب ، وخصص له اثنا عشر ديناراً كل سنة من موازنة الدار[٨] . وربما خصص نبع ماء للوضوء ، كما هو الحال في مشهد عروة ، الذي استخدم بناؤه لعدة خزائن من الكتب[٩] .

وعندما ألحقت المكتبة بالمنشآت العامة للتعليم أو بالأوقاف الخيرية شغلت

---

(١) المقدسي ، أحسن التقاسيم ٤٤٩ ـ ٤٥٠

(٢) الرواق في المعجمات : سقف في مقدّم البيت أو الغرفة .

(٣) المقريزي ٤٠٩/١

(٤) عيون (الظاهرية ، تاريخ ٤٨) ٢٢٣ ، سنة ٣٨٢ هـ ، العيني (ولي الدين ، ٢٣٨٧) ٤٤٢/١٥

(٥) المقريزي ٤٠٩/١

(٦) المقدسي ٤٥٠ ، والكلمة التي اقترحها المحقق هي الفصّ العبّاداني لاتعني شيئاً ، وهي بالتأكيد الحصر العبّادانية .

(٧) المقريزي ٤٥٨/١

(٨) المرجع السابق ٤٥٩/١

(٩) أبو شامة ، الذيل (المكتبة الوطنية ، عربي ٥٨٥٢) ١٤٨/ب .

مكاناً أكثر تواضعاً ، لكنها بقيت تستأثر بسبب أهميتها بأكبر قاعة في البناء نسبياً ؛ ففي رصد مراغة[1] وفي بيارستان قلاوون بالقاهرة[2] خصصت للمكتبة أوسع غرفة ، كانت أحسن ما في البناء هندسة ، وهي الغرفة التي تعلوها القبة . ومن البديهي أنها الغرفة الرئيسية حيث تعقد الاجتماعات الرسمية . وكذلك كان المكان الذي شغلته مكتبة الفاطميين في قصرهم ، ومكتبة المدرسة العادلية بدمشق . أما الأولى فكانت تحتل مجلساً كبيراً[3] ، وأما الثانية فغرفة فسيحة كانت تعقد فيها أحياناً اجتماعات عامة للمشاورات في الأمور القضائية القانونية التي ترسل إلى المفتي[4] . وهكذا كانت على اتصال مباشر بالحياة العامة للمؤسسة .

وإن لم يكن في المؤسسة حياة عامة ، اختير للمكتبة فيها قاعة من البناء ، يناسب اتساعها أهمية تلك المكتبة . فمكتبة المدرسة الرواحية كانت تقوم في قاعة مقابل الدهليز الكبير من جهة الغرب[5] . والغرفة المجاورة للمحراب بجامع القرويين[6] . والقاعة المقابلة للمسجد في المدرسة الضيائية[7] مخصصتان للكتب الموقوفة . أما اليوم فقد وضعت خزائن الكتب في مسجد بيازيد باستانبول ، وفي المدرسة الأحمدية بحلب في غرفة مستقلة ، يدخل إليها من المدخل العام للبناء .

وعندما لا تحتاج الكتب إلى غرفة خاصة لظروف ما ، تهيأ لها خزانة أو عدة خزائن في مكان مألوف أو جميل ؛ ففي البيمارستان النوري بدمشق كانت تقوم خزانتا كتب وضعتا على الجدار في مكان بارز بالإيوان الكبير ، وكان الطلاب

---

(١) ابن كثير ، (فيض الله ١٣٩٥) ١٥٦/٨/ب .

(٢) المقريزي ٣٨٠/٢

(٣) المرجع السابق ٤٠٩/١

(٤) أبو شامة ، المرجع السابق ٤٠/ب .

(٥) المرجع السابق ١٦٤/ب .

(٦) حسن عبد الوهاب ، بساط العقيق ٣٩

(٧) ابن طولون ، القلائد الجوهرية ، (مصورة المجمع العلمي) ٥٤

يأتون إلى هاتين الخزانتين ، فيجلسون مع أستاذهم للاستماع إلى الدروس والمراجعة في الكتب[1] .

واستطعتُ بفضل صديقي الأمير جعفر الحسني محافظ المتحف الوطني بدمشق منذ أن رممت هذا الإيوان مديرية الآثار أن أتعرف على مكان الخزانتين ، وكانتا مقابل مدخل الإيوان ، وكان الجدار الذي يحفظهما سميكاً جداً (١٤٠ سم) ، احتفرت فيه كوة حيث وضعت المكتبة .

وترتفع هذه الكوة عن البلاط بمقدار ٣٩ سم ، إن كان البلاط قد حافظ على ارتفاعه الأصلي . ويبلغ ارتفاعها ٢٢٠ سم ، وعرضها ١٦٢ سم ، وعمقها ١١١ سم ، على الأرجح . وهذا القياس الأخير ليس قياس الخزانتين المذكورتين ، ولكنه قياس خزانتين جانبيتين لاتزالان محفوظتين في الإيوان ، تختلفان قليلاً عن حجم الكوة . أما الإيوان فمربع الشكل طول كل ضلع منه ٤٧٠ سم .

وتجدر الإشارة إلى أن الكتب تعتبر موضوع زينة ، ولذا كان يخصص لها المكان البارز ، وربما لهذا السبب كانت أغلب المشاهد المقصودة بالزيارات تحتوي على خزائن كتب موضوعة في أركان ظاهرة[2] .

وإذا استثنينا الحالات الخاصة ، وجدنا خزائن الكتب موضوعة في كل مكان ؛ ففي المساجد تحيط الخزائن بالمحاريب ، وتصل إلى أصغر الغرف المخصصة لها في المدارس الشرعية الصغيرة وأماكن التعليم ؛ فمكتبة تاج الدين[3] كانت موضوعة في مقصورة . ومقابل محراب الصحابة في الجامع الأموي بدمشق وضعت

(١) ابن أبي أصيبعة ١٥٥/٢

(٢) انظر مكتبات المشاهد في دمشق والقاهرة .

(٣) الوافي (المكتبة الوطنية ، عربي ٥٨٥٢) ١١٤/أ .

خـزانـة كتب محمـد بن عمر بن عبـد الكريم المـالكي (٥٨٠ هـ / ١١٨٤ م - ٦٤٣ هـ / ١٢٤٥ م)[١] . وعندما لا تحيط المكتبة بالمحراب ، فإنها تحل محله أحياناً . وقد صلى العماد الحنبلي إبراهيم بن عبد الواحد (ت ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م) إماماً للحنابلة مقابل خزانتي كتب في الجامع الأموي . وحينما جمعت خزائن الجامع بُني مكانها محراب ، ولما أعيدتا إلى مكانها الأول ، وضعتا على جانبي المحراب[٢] . ووضعت خزانتان للكتب والمصاحف بالقرب من قبر النبي ﷺ في المدينة المنورة بالجهة الشرقية منه[٣] .

ويدخل في الحساب بعض المكتبات التي بقيت في حوزة الأفراد ، والتي فتحت مع ذلك للجميع ، فإنها إن لم تتفرق أو يتفرق قسم منها ، يصل بعضها إلى إحدى المكتبات العامة .

وكانت الخزائن توضع ملاصقة للجدران ، كما يظهر من كل النصوص التي تناولت تنظيم الخزائن[٤] . لأن المسلمين على ما يبدو لم يعرفوا ترتيب الخزائن في صفوف .

وكانت الخزائن ذات قياسات مختلفة . وقياس الخزانة التي نعرف وصفها ، يبلغ ارتفاعها قامة رجل متوسط الطول ، وعرضها ثلاث أذرع[٥] . وهذه قياسات عملية لاستعمال الكتب ولنقل الخزائن .

---

(١) الوافي (أحمد الثالث ٢٩٢٠) ١٢٧/٤/أ .

(٢) أبو شامة ، الذيل (المكتبة الوطنية ، عربي ٥٨٥٢) ١١٤/أ .

(٣) ابن جبير ١٩٣

(٤) والشواهد الواضحة عن هذا الموضوع في المقدسي ٤٤٩ - ٤٥١ ، وابن أبي أصيبعة ١٥٥/٢ ، والوافي (أحمد الثالث ٢٩٢٠) ١٢٢/٤ ، وأبي شامة ، المرجع السابق ١٤٨/ب ، ١١٤/أ ، ٤٠/ب .

(٥) المقدسي ٤٤٩

وكان لكل خزانة من خزائن عضد الدولة غطاء ينزلق من الأعلى إلى الأسفل[1] ، ولكل خانة من الخزائن في مكتبة الفاطميين باب مقفل بمفصلات[2] . ويبدو أن هذه الأغطية صنعت من الخشب ، وغرضها حفظ الكتب ، وقد ألصق عليها لوائح تتضمن أسماء ما في الخزائن من كتب ، لتعين في البحث عن الكتب المطلوبة[3] . وإقفال الخزائن بالأقفال كان قاعدة عامة ، حتى في مكتبات البيوت الخاصة . قرأ أحد الأشخاص بعض كتب عن أبي ذرّ عالم الأندلس ، وأراد أن يبحث في كتاب منها ، فطلبه من الخازن ، فأعطاه مفاتيح الخزائن كلها[4] . وطُلب من بعض الرؤساء أن يبعث بغلامه إلى خزانة كتبه ، فأمره أن يفتح بابها ، ويحضر أي كتاب للمذاكرة[5] . وسأل ثعلب أحد علماء اللغة محدثاً له إحضار دواوين جماعة من قدماء الشعراء ، ففتح خزائنه وأخرجها[6] . اتبعت هذه الطريقة للحفاظ على الكتب من الغبار والتلف . لكنها سببت انتشار الحشرات . وهي طريقة في التحرز على الكتب كانت شائعة عند الشرقيين ، وهم يأخذون بها إلى اليوم ، ويدافعون عنها بشدة في مقابل طريقة الغربيين التي رأوها غير صالحة .

وكان يخصص للنسخة النفيسة من المصاحف محمل يغلق بمفتاح . وقد رأى ابن جبير في مسجد النبي ﷺ في المدينة المنورة مصحفاً كبيراً وضع في محمل وأقفل عليه[7] .

---

(١) المقدسي ٤٤٩

(٢) المقريزي ٤٠٩/١

(٣) المرجع السابق .

(٤) ابن بشكوال ٥٥٢/٢ ، ابن حاتم ، الأربعين (الظاهرية ، حديث ١٦٨) ٨٢/أ .

(٥) الخطيب ٢٣٠/١٣ ، عيون (الظاهرية ، تاريخ ٤٨) ٢٦٠/أ ، ابن قاضي شهبة ، طبقات النحاة (الظاهرية ، تاريخ ٤٣٨) ٧٦ ـ ٧٧ ، ابن كثير (الأحمدية بحلب ١٢١٧) ٨ ، سنة ٣٩٠ هـ .

(٦) الخطيب ٣٥٨/٢

(٧) ابن جبير ١٩٣

وبيوت الكتب أيضاً تضم خزائن للكتب . وهي كوّات محتفرة ضمن الجدران السميكة في غرفة أو غرف مخصصة للمكتبة . ووجدت هذه البيوت في مكتبة عضد الدولة بشيراز ، توضعت على جانبي البناء الداخلي المستطيل للمكتبة (الأزَج)[1] . وكذلك توضعت مثلها مكتبة المدرسة الظاهرية خارج السور بحلب . وقد زين كل باب من أبواب هذه البيوت بكتابة مناسبة[2] . وفي مكتبة المدرسة العثمانية في حلب اليوم كوى مربعة (١٥٠ سم تقريباً) عميقة جداً ، بحيث يمكن للمرء أن يتحرك فيها بسهولة ، وكان ينبغي أن تثبت على جدران هذه الكوى رفوف ، أهملت اليوم ، ويصعب الكشف عنها .

ويبدو أن الخشب هو المادة الوحيدة التي كانت الخزائن تصنع منه . وقيل إن خزائن مكتبة عضد الدولة في شيراز[3] وخزائن مسجد منكوبغا كانت من الخشب[4] وكانت الأولى من الخشب المحفور . ويفترض أن يكون الفن في الثانية متقناً ، الأمر الذي يدفعنا للاعتقاد بوجود أسلوب في الصناعة غرضه الجمال والمتانة . وفي نسخة مقامات الحريري المحفوظة في المكتبة الوطنية بباريس (القسم العربي ٣٨٤٧) يظهر وصف لإحدى خزائن الكتب المنمنمة من القرن السابع / الثالث عشر مزينة بزخرفة متنوعة وظريفة .

واستُعمل الخط العربي في الحفر على الخزائن . فعلى خزائن المستعصم بالله أبيات تمجد بالخليفة[5] .

---

(١) المقدسي ٤٤٩

(٢) وفيات ٣٣ ـ ٣٤

(٣) المقدسي ، المرجع السابق .

(٤) الطباخ ، مجلة المجمع العلمي العربي ، ١٩٢٧ م ، ٣١٤

(٥) ابن الفوطي ، الحوادث ، وهذه هي الأبيات :

أنشا الخليفة للعلوم خزانة ... سارت بسيرة فضله أخبارها

تجلو عروساً من غرائب حسنها ... در الفضائل والعلوم نثارها

أهدى مناقبه لها مستعصم ... بالله من لألائه أنوارها

والرفوف في خزائن الكتب بمكتبة الفاطميين بحواجز على شكل خانات على طول كل خزانة وعرضها[(١)] . وتتألف خزائن مكتبة الساسانيين من صناديق منضّدة بعضها على بعض[(٢)] . وكانت مكتبة صلاح الدين الأيوبي في دمشق مرتبة في خزائن ذات رفوف[(٣)] ويبدو أن هذه الصفة قاعدة عامة يؤكدها المظهر المتمثل في المنمنمات المشهورة المذكورة في مخطوطة مقامات الحريري المحفوظة في المكتبة الوطنية بباريس .

وكانت هذه الحواجز والرفوف ضرورية عملياً لتدعيم الخزانة غير المفهرسة . والكتب العربية - وذلك ماعرفناه آنفاً - مرتبة على الرفوف حسب الترتيب المذكور في فهرسها الذي يعتبر سجلاً طبوغرافياً منهجياً ، وثبتاً حقيقياً في الوقت نفسه . وهذه قاعدة عامة لااستثناء فيها . وعندما أفرغت الكتب من مكتبة الخلفاء الفاطميين ، اختلط بعضها ببعض ، فتداخلت كتب الأدب بكتب الفلك ، وكتب الفقه بكتب المنطق والطب[(٤)] ، الأمر الذي لايحدث لو بقيت الكتب في خزائنها . ولاحظ ابن سينا الذي دخل إلى مكتبة الساسانيين أنَ فيها غرفاً كثيرة ، ففي غرفة كتب العربية والشعر ، وفي أخرى كتب الفقه ... وهكذا[(٥)] . وضمت كل خزانة في مكتبة عضد الدولة التي وصفناها من قبل علماً واحداً[(٦)] . ويبدو أن التصنيف العلمي كان مستخدماً في استعمال الكتب والاطلاع عليها ، ثم إعادتها إلى الرفوف . ولم يكن على كتب المكتبات العامة والتي لاتزال حتى أيامنا أرقام تشير إلى مواضعها في الخزائن . والإشارة الوحيدة

---

(١) المقريزي ٤٠٩/١

(٢) القفطي ٤١٦ ، ابن أبي أصيبعة ٤/٢

(٣) معلوف ١٤٣/٣

(٤) أبو شامة ، الروضتين ٢٢٩/١

(٥) القفطي ٤١٦ ، ابن أبي أصيبعة ٤/٢

(٦) المقدسي ٤٤٩ - ٤٥٠

التي استطعت كشفها كانت ذات صلة باستعمال إشارة طبوغرافية على نسخة من تاريخ الدبيثي محفوظة بالقسم العربي في المكتبة الوطنية برقم ٥٩٢٢ . وتشتمل على الملاحظة البسيطة التالية : (في التاريخ) . والذي يمكن أن يعني أن الكتاب مصنف بقسم التاريخ ، ويساعد المناول في إعادة الكتاب على الرف . ولكن يجب القول إن هذه الملاحظة ربما أشير إليها في زمن ليس ببعيد عن زمننا ، بيد أنها محاولة لتسهيل استعمال الكتب . وقالوا : إن مكتبة المستنصرية رتبت أحسن ترتيب مفصّل لفنونها ، ليسهل تناولها ولا يتعب المناولون فيها[١] . وفيما يتعلق بترتيب المواد على الرفوف فإننا لا نعرف شيئاً يتعلق بذلك من خلال تاريخ المكتبات ، إلا ما يخصّ المصاحف في مكتبة الفاطميين[٢] ، التي وضعت في صناديق عالية . وهذا الترتيب اقتضته مكانتها الدينية . وإذا طبق الترتيب التدرجي المفروض في تجميع الكتب في مختلف العلوم على رفّ واحد ، يمكن أن يرتب أيضاً على الفتحات نفسها ، وهذا أمر منطقي ، فيجب أن يكون للعلوم فتحات عالية كانت أم منخفضة حسب ترتيبها التدرجي . والمقصود هنا طبعاً حالة خزانة تضم عدة أنواع من الكتب .

والوصية الأولى في ترتيب الكتب على الرفوف هي ألا يوضع أي كتاب على الأرض[٣] لتحاشي الرطوبة عدو الكتاب المخرب[٤] ، وألا يتخذ منه وسادة[٥] . وتوضع الكتب على الرفوف عموماً بشكل مسطح بعضها فوق بعض . ولا يعرف نظام آخر لترتيبها . ونقع دوماً على عبارة (كتب منضدة) : وهي حال خزائن

---

(١) ابن الفوطي ، الحوادث ٥٤

(٢) المقريزي ٤٠٩/١

(٣) الابتهاج ٢٢٧/١ ، ابن حجر ، الفتاوى الحديثية ١٦٣

(٤) العلموي ١٣١

(٥) أبو يعلى ، طبقات الحنابلة ٢٥٧

كتب عضد الدولة[1] والمستنصرية[2] وأبي العباس السرّاج[3] . ومن الضروري أن يكون هناك ترتيب معين لوضع الكتب على الرفوف . لأنّ السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو : كيف نحافظ على التوازن في صف عالٍ من الكتب ؟ وحول هذا الموضوع يوصي العلموي بما يلي : « لا ينبغي وضع الكتب ذات الحجم الكبير فوق الكتب الصغيرة الحجم لاحتال سقوطها عندئذٍ . ويلاحظ في ترتيب الكتب الوضعية الحسنة ، فيجب أن يوضع عقب كل كتاب بالاتجاه المعاكس لعقب الكتاب الذي يليه لأن الطرف الآخر الذي يضم شارة الكتاب أعلى من الطرف الثاني الذي يكون مضغوطاً ومسحوباً بخيط »[4] . ثم يذكر الترتيب التدرجي الذي أوردناه من قبل[5] . وإذا لم يستخدم هذا الترتيب في المكتبة الكبيرة ، حيث يوضع كل علم على حدة ، فيمكن أن نجد له أثراً - كما عرفنا ذلك من قبل - في ترتيب العلوم في خزانة واحدة . ونستطيع أن نخمن من جهة أخرى كيفية تصنيف المواد على الرفوف ، فنذكر المبدأ التالي : عند استواء كتابين في فن واحد ، يُعلى الأكثر قرآناً فالأكثر حديثاً ، فجلالة المصنف ، فتقدُّمه ، فأكثرهما وقوعاً في أيدي العلماء ، فأصحها .

وهذه التوصيات صدرت عن رجل يبدو أنه كان على صلة بالكتب بينما لم يفكر الكتّاب الآخرون بمثل هذه النصائح المتعقلة . ومؤلّفو الكتب ذات المنهج الديني يريدون أن يوضع الكتاب ، بحيث تكون الصفحة الأولى التي تبدأ ببسم الله الرحمن الرحيم إلى الأعلى[6] .

---

(١) المقدسي ٤٩ - ٥٠

(٢) ابن الفوطي ، تلخيص (الظاهرية ، تاريخ ٢٦٧) ٢٢١

(٣) الخطيب ٢٥١/١

(٤) العلموي ١٣١ - ١٣٢

(٥) انظر ص ٣١٢ - ٣١٣

(٦) الابتهاج ٢٢٧/١ ، ابن حجر ، الفتاوى الحديثية ١٦٣

وهم يتدخلون من جهة أخرى لفرض الترتيب التدرجي في تجميع الكتب . وكانوا عندما يتحدثون عن ترتيب الكتب ذات العلوم المختلفة ، يرون وجوب أن يراعى في وضعها اعتبارات تتعلق بقيمة هذه الكتب ومكانة مؤلفيها ، فينبغي وضع الكتاب الأشرف في الأعلى : وعلى ذلك يكون المصحف أول الكتب من الأعلى ، ثم تأتي بعده كتب الحديث ... إلخ[1] .

وهناك طرائق عديدة ونادرة يمكن وضع الكتب على أساسها ؛ كان الجاحظ حينما يعمل يضع كتبه حوله على حرفها[2] ، ويعني هذا كما نظن أنه يرتب كتبه واقفة على الرفوف ، ذلك لأنه لا يستطيع المراجعة فيها وهي على وضعها المسطح[3] .

وهناك طريقة لوضع الكتب ، كانت مستعملة في مكتبات استانبول ، استوحي مثالها من نظام عربي قديم ؛ فقد وضعت الكتب في مكتبة كوبريلي على ظهرها بعضها بجانب بعض .

---

(١) المرجع السابق .
(٢) أبو الفداء ٥٠/٢
(٣) المرجع السابق .

الفصل السابع

ملاك المكتبة(١)

عندما تدخل الكتب المكتبة فإنها تمر بين أيدي أشخاص تتطلب هذه الكتب عنايتهم وخدمتهم . فهل يمكننا وصف هؤلاء الأشخاص وصفاً دقيقاً ؟ مادورهم في المكتبة ؟ ذلك ماسنعالجه فيما يتعلق بالموظفين المكلفين بخدمة المكتبات العربية . ولنعترف قبل أن نعرض لما سنعرض له أنه لا يمكن ، ولا يسهل علينا هنا استعمال الطرائق العلمية للتحليل المنهجي والبرهان الاستنتاجي . لأننا نستعمل معارفنا العامة غير الدقيقة ، ونحاول أن نستخرج منها الصفات التي يمكن كما يبدو لنا أن تنسب ودون كبير خطأ إلى الخزنة العرب ومرؤوسيهم .

كان في المكتبات العربية ماعدا خزائن الحكمة ثلاث فئات تمثل ما كان عليه الخازنون . هذه الفئات الثلاث تتناسب مع ثلاثة أنواع من المكتبات : الكبيرة والمتوسطة وشبه العامة .

ويظهر أن كبار الخزنة المخصصين لخدمة المكتبات العامة الكبيرة استمروا في بغداد حتى زمن الناصر ، وفي القاهرة حتى سقوط الفاطميين ، ولم يكن لهم نظراء في الشام على ما يبدو . ذلك هو التصنيف التاريخي للمكتبات الكبيرة . كما استطعنا أن نستنتجه ، إن كنا نقصد بالمكتبات الكبيرة تلك التي حظيت باسم عظيم وشهرة مجيدة في تاريخ المسلمين . وخازنو دار العلم عموماً والمكتبات المقتبسة

(١) انظر هيفننغ ، مادة (كتابخانة) في الموسوعة الإسلامية ، بنتو ، المكتبة ١٥٨

من دور العلم كالنظامية ببغداد يمثلون هذه الفئة الأولى . إنهم رجال الأدب ، أصحاب المكانة المرموقة ، الذين تمتعوا بشهرة عظيمة في التاريخ . وهم ربما جمعوا إلى معارفهم الأدبية بعض معارف من العلوم الدينية ، ذلك الاختصاص الذي لم يكن محصوراً عند المسلمين على طائفة ضيقة . ولم تكن ميزتهم الأولى أنهم رجال أدب ، بل كان بعضهم كالخطيب التبريزي(١) يشغل منصّة الأدب في نفس المؤسسة التي كان يعمل فيها خازناً . وكان الخزنة المعينون في مكتبات الخلفاء أو مكتبات جمّاعي الكتب يتصفون بالميزات نفسها ؛ فقد كان في مكتبة سيف الدولة الحمداني(٢) ، ومكتبة الفاطميين(٣) ، ومكتبة بهاء الدولة ، والصاحب بن عباد(٤) ، وعميد الدولة(٥) ، خزنة وصلت أسماؤهم إلينا ، واشتهروا بمعارفهم الأدبية . وليس رجل الأدب من يعرف ـ كما تدل عليه كلمة الأدب(٦) ـ اللغة والنحو والبيان والعروض فحسب ، بل يجب لكي يستحق اسم أديب أن يحصّل ثقافة شاملة ، فلا يغيب عنه الشعر ولا التاريخ ولا حتى الحكمة والعلوم الخالصة . أليست هذه الثقافة ضرورية لخازن مكلف بمكتبة ، فيها كل صفوف العلوم الإنسانية ؟

ومنذ عصر الناصر انتقلت معرفة الآداب إلى المرتبة الثانية فيما يتعلق باختيار الخزنة . ويبدو أن العلوم الدينية أصبحت تحتل المركز الذي تتبع له كافة العلوم ، وأصبحت هامة في المدارس أكثر فأكثر ، فلم تدرس فيها العلوم

---

(١) إرشاد ٢٨٦/٧ ، عيون (الأحمدية بحلب ١٢٣٦) ١١٩/أ ، ابن الفرات (ڤيينا ، A.F ، ١٧) ٩٤/أ .

(٢) الخالديان والصنوبري ، فوات ٢٧١/٢ ، الغزولي ، مطالع البدور ، القاهرة ، ١٣٠٠ هـ ، ١٧٢/٢ ، عيون (الظاهرية ، تاريخ ٤٨) سنة ٣٨٠ هـ ، ٢١٠/ب ـ ٢١١/أ .

(٣) غالب بن عبد القوي ، المقريزي ٤٠٩/١ ، والشابشتي ، إرشاد ٤٠٧/٦

(٤) أبو محمد الخازن ، إرشاد ٧٠/١ ، العباسي ، معاهد ٦١٩

(٥) ابن البواب ، عيون (الظاهرية ، تاريخ ٤٩) ٥٣/ب ، مسكويه ، القفطي ٢٣١

(٦) عن كلمة (الأدب) انظر مصطفى صادق الرافعي ، تاريخ آداب اللغة العربية ، الجزء الأول .

الأخرى إلا باعتبارها علوماً مساعدة . وبالتأكيد ، فهذا الوضع المتميز يتطلب اهتمام الموظفين الأكفياء ، فكان لابد أن تخضع المكتبة لهذا المطلب . وحينذاك انضم الخزنة ذوو المعارف المتنوعة التي لا يجمع بينها رابط إلى صفوف علماء الدين وغيرهم من العلماء بشكل استثنائي . لم يجمع نور الدين زنكي إلا الكتب الدينية[1] التي أوقفها في عدد من المدن ، وعيّن عليها خزنة علماء من نقلتها[2] . بيد أن اختصاص المؤسسة التي ينتمي إليها هؤلاء الخزنة كان له أثره في اختيارهم ؛ فقد عيّن لدور الحديث علماء في العلوم النقلية ، وفُضّل الصوفيون دون غيرهم للعمل في الرباطات والخانقاهات ، وألزم فقهاء كل مذهب أن يدرّسوا في مدارس مذهبهم .

ولما كان الخازن فقيهاً بالعلوم الدينية التي مكنته من العمل في المكتبات ، فقد استطاع أن ينتقل من وظيفته إلى التدريس والعكس بالعكس . فكان معيداً للدرس أغلب الأحيان ، ولكنه نادراً ما كان مدرساً ، ويمكن له أن يتولى خزانة الكتب والتدريس معاً .

لكن طريقة جديدة بدأت تسود في تعيين الخزنة ، فصارت هذه الوظيفة وراثية أحياناً ، وبتنا نرى خزنة يخلفون آباءهم . وساهمت وقفيات المكتبات والمؤسسات بقسط وافر في إنشاء مثل هذا العرف ؛ كان خازن مكتبة المسجد المؤيدي بالقاهرة المشيّد عام ٨٢٣ هـ / ١٤٢٠ م ينتقى من بين أرشد ذرية الخازن الأول الباريزي . ويستطيع الواقف وهو سيّد وقفه أن يعيّن عليه من يشاء[3] ، وأن يجعل انتقال الوظيفة فيه بموجب الإرث .

---

(١) ابن عساكر (الظاهرية ، تاريخ ١٥) ١٤٧ ـ ١٤٩ ، الصفدي ، تحفة (المكتبة الوطنية ، عربي ٥٨٢٧) ١٤١/أ ، النعيمي (مصورة المجمع العلمي العربي) ٢/١٠٠

(٢) المرجع السابق .

(٣) عدة أرباب الفتوى ١٢٧

ويمكن له وهو صاحب الامتياز أن يخصص وظيفة شبة عـامـة للإشراف على كتبه تبقى مع الزمن . وأشكال الوقف تتعدد ، إلا أننا نكتفي هنا بـذكر الأشكال المتعلقة بالخزنة ؛ فأبسط شكل منها هو الذي يحفظ فيه الواقف مجموعة كتبه طيلـة حياتـه ، ثم يتركها من بعده للخـازن العـادي . وقـد أوقف محمـد بن علي بن عبـد العزيز الحراني كتبـاً ـ وهي محفوظـة اليـوم في الظـاهريـة ـ[1] على المكتبـة الضيائية ، واحتفظ لنفسه بالنظر عليها مدّة حياته ، ثم من بعـده لنـاظر الخزانـة بـالمدرسـة المـذكورة . واشترط الموصلي عين الشرط فيما يخص الرسـالـة المحفـوظـة بالمكتبة الظـاهريـة[2] ، ومنح حق النظر عليـه إلى شخص مـا مـدة حيـاتـه ، ثم للخازن بعـد وفـاتـه . وقـد أوقف رمضـان العـدري كتـابـاً ـ محفوظـاً في المكتبـة الظاهرية ـ[3] على مكتبة المدرسة الصالحية بـدمشق [الضيـائيـة] ، واشترط قبل أن ينتقل إلى إشراف خازن المكتبة أن يوضع تحت تصرف من يدعى تقي الـدين أبا بكر بن شافع .

وربما لا ينتقل الوقف إلى المكتبـة العـامـة ، بل يبقى عنـد شخص معيّن . وأوقف إبراهيم بن عيسى بن يـوسف المرادي كتبـه الجميلـة لجميع المسلمين ، وعيّن عليها ناظراً وخازناً علاء الدين محمد بن عبد القادر المعروف بـابن الصـائغ[4] . كما عيّن إبراهيم بن محمـد سعيـد الجوخي[5] محمـد بن عبـد الرحمن الكزبري نـاظراً على وقفه العـام . وأوقف الخطيب البغـدادي كتبـه لجميع المسلمين عنـد صـديقـه ابن خيرون[6] . ولما كان مصير هذه الكتب غير محدد بعد وفاة الأمين عليها ، فقد

(١) مجموع ٢٣ (١) ، أصول ٩٢ ، لغة ٣٥

(٢) مجموع ٩٧ (١٣) .

(٣) الأصول ٩٠

(٤) اليونيني (الأحمدية بحلب ١٢١٣) ٢٠٤/أ .

(٥) الفقه الشافعي ٥٢

(٦) انظر ص ١٩٥

اعتقد الورثة أن من حقهم أخذها دون إلحاق الضرر بأحد . ونادراً ما كان الوقف يصل إلى المكتبة العامة عن طيب خاطر . وكتب المكتبة الظاهرية التي ذكرناها بأرقامها من قبل ، كانت من بين الكتب النادرة التي تنسب لمثل هذا النوع من الوقف .

وهناك نوع من الوقف قريب من هذا ، وهو الذي يكون فيه الخازن شخصاً يمثل مذهباً محدداً أو صنفاً معيناً من العلوم . وعند بعض فقهاء الحنفية أن للخازن الحنفي المذهب الحق في النظر على كتب الحنفية أياً ما كانت جهة وقفها[1] . وعيّن الموصلي ناظراً على كتابه المحفوظ في المكتبة الظاهرية[2] المحدث المشار إليه في علم الحديث عيسى بن تعريف ، ورغم أنه أوقف على العمرية الكتاب المحفوظ في الظاهرية اليوم[3] فقد عيّن ناظراً عليه أعلم وأتقى نزلاء المدرسة . وهكذا يمكن أن يعيّن على التوالي في مؤسسة واحدة ناظران مختلفان على الكتب ، يعينان بالتتالي للنظر على وقفين من الكتب . ويطلق على هذين الناظرين لقبان : فيسمى الأول بالناظر العام ، والثانى بالناظر الخاص[4] .

وعرّف تاج الدين السبكي (٧٢٧ هـ / ١٣٢٥ م - ٧٧٢ هـ / ١٣٧٠ م) عمل الخازن المتنوع تبعاً للأزمنة والبلاد تعريفاً معيارياً[5] ، نقله ابن طولون الصالحي[6] ، وهذا نصه :

---

(١) الفتاوى الأسعدية ٢٠٨/١

(٢) حديث ٣٣٩

(٣) تاريخ ٥٩

(٤) ابن حجر الهيتمي ، الفتاوى الكبرى ٢٧٨/٣

(٥) معيد النعم ومبيد النقم (مخطوطة الشيخ زين العابدين) ٦٢/أ . ولم أستطع لسوء الحظ أن أقف على طبعة ليدن .

(٦) نقد الطالب (مصورة المجمع العلمي العربي) ٤٥/ب . وصححنا أحد النصين بالآخر .

« وحق على الخازن الاحتفاظ بها وترميم شعثها وحبكها عند احتياجها إلى الحبك ، والضن بها على من ليس من أهلها ، وبذلها للمحتاج إليها ، وأن يقدم في العارية الفقراء الذين يصعب عليهم تحصيل الكتب على الأغنياء » .

« وكثيراً ما يشترط الواقف ألا يخرج الكتاب إلا برهن يحرز قيمته ، وهو شرط صحيح معتبر ، فليس للخازن أن يعير إلا برهن » .

وهذا التعريف المؤرخ في القرن الثامن / الرابع عشر الذي أورده أحد الدمشقيين بصدد الحديث عن خَزَنَةِ المدارس[1] بعيد كل البعد عن وصف عمل الخازن ، بيد أنه يرسم جزءاً مهماً منه . وسنحاول بالاعتماد عليه وبالرجوع إلى المصادر التاريخية المختلفة أن نلقي نظرة شاملة على طبيعة عمل الموظفين في المكتبة ، الذي يتمثل بشخصية رئيسهم : الخازن .

والمحافظة على الكتب وصيانتها من أعماله الأساسية . وقد تولى عبد السلام البصري النظر في دار الكتب ببغداد ، وكان إليه حفظها والإشراف عليها[2] . وكان أحمد بن عبد الملك المؤذن (ت ٤٧٠ هـ / ١٠٧٧ م) يصون الكتب الموقوفة على أصحاب الحديث في نيسابور ، ويتعهد حفظها[3] . وعيّن لمكتبة أبي عنان في فاس قيم كلف بضبطها[4] . وكانت هذه المهمة هي الوظيفة الأساسية للخازن وهي الهدف الأول من تعيينه . وكان يجب على كل الخزنة مهما علت منزلتهم أن يقوموا بها ودون تمييز . وينبغي من أجل إنجازها في ظروف ملائمة أن تبقى الكتب مرتبة ، وهذه كذلك إحدى واجبات الخازن . ولذا كان على ناظر

---

(١) وأورد السبكي هذا التعريف في الأعمال التابعة للمدارس .

(٢) الخطيب ٥٨/١١

(٣) إرشاد ٢١٩/١ ، الوافي (أحمد الثالث ٢٩٢٠) ٧٦/٧/أ ، ابن قاضي شهبة ، مناقب الإمام الشافعي (الظاهرية ، تاريخ ٥٧) ١٤٦/ب .

(٤) زهرة الآس ٦٩

مشهد أبي حنيفة أن يأمر الخازن بالابتعاد عن الفوضى في الكتب[١] . وأمر المستنصر بحبس موظفي المكتبة المستنصرية يومين لعدم الترتيب في خزانة الكتب[٢] . أما الأعمال الأخرى التي سنذكرها فليست ضرورية في بعض المكتبات ، أو لا يُلزم الخازن دوماً بها . بيد أن لها مكاناً في المكتبات الرئيسية ، ويجب أن تكون قد وردت بهذا الصدد على أنها مبادئ أولية .

ويوفر كما سنرى قسم من الاعتمادات المخصصة للمكتبات لشراء الورق والحبر للقراء حسب حاجتهم . يوزعها عليهم الخازن مراعياً الظروف المختلفة في توزيعه . وقد تولى أحمد بن عبد الملك المؤذن توزيع ماوقف من الورق والحبر للمحدثين[٣] .

وإن خصص للتجليد أموال من العائدات وجب على الخازن الإشراف عليه ؛ فقد كلف خازن الأشرفية في دمشق الاهتمام بترميم الكتب وتجليدها وإعلام الناظر ، ليصرف من فعل الوقف ما يفي بذلك[٤] .

وفي وقفية جامع العثمانية أنه « كلما لزم لشيء من الكتب مرمةً وإصلاح يعلم حافظها من يكون حينئذ متولياً على الوقف ، ليأتي بمجلد يقوم بمرمة مااسترم »[٥] . وعند الحاجة إلى مقابلة أي كتاب أو تصحيحه يقوم الحافظ بما هو ضروري ويعلم بذلك المتولي[٦] ويمكن للحافظ أن يساعده ويرشده إلى شراء الكتب[٧] وعليه أن يعير الكتب للقراء بنفسه إن لم يعهد بهذا العمل إلى مناول .

---

(١) ابن الساعي ٢٣٦

(٢) ابن الفوطي ، حوادث ١٧٠

(٣) مراجع الحاشية رقم (٥) ص ٣٦٧

(٤) السبكي ، فتاوى (الظاهرية ، الفقه الشافعي ٣٨٥) ١٩٩/أ .

(٥) محكمة حلب الشرعية ، سجل شوال ٧٤/١٣٠٠

(٦) المرجع السابق .

(٧) كما يجب أن نفهمه ، رغم أنّ ذلك غير مشروط .

وكان الخازن في تونس زمن الحفصيين يتولى إيصال الكتب لمن يطلبها منه[1] كما كان الخازن في مدينة فاس يقوم بمناولة مافيها وتوصيلها لمن له رغبة بمطالعتها[2] . ويعني هذا أن يحملها من رفوفها إلى القراء . وذلك أحد الأعمال الضرورية في المكتبة . وما دام الخازن مكلفاً بإيصال الكتب إلى المطالعين كان عليه أن يقدر احتياجاتهم ، وأن يحاول إيجاد ترتيب أولوي معيّن بينها . ولا بد إن اقتضت الحاجة أن يرفض إيصال بعضها . وتكون شروط الوقف أحياناً مختلفة ومتناقضة ، فعليه حينئذ أن يأخذها بعين الاعتبار في عمله ، ويلزمه إذن معرفة تلك الشروط وتطبيقها[3] . وتتوجب عليه مهمة أخيرة ، وهي وقاية الكتب من الغبار ؛ ففي مكتبة الحفصيين كانت الكتب تنفض لإزالة الغبار عنها[4] . وكان من مهمات الخازن في مكتبة مشهد أبي حنيفة أن ينفض الكتب في كل وقت[5] ، وأن يعير كل انتباهه لهذه المهمة .

وكان من مزايا الخازن العربي أنه جميل الخطّ ، وظهرت هذه الميزة بوضوح في مراجعنا التي حفلت بالثناء على الخزنة لكتاباتهم الجميلة . مما يوحي لنا أن هناك علاقة ما بين وظيفة الخازن وخطه الجميل . فهل كان لديه ما ينسخه في المكتبة ؟ إنه ينسخ الفهرس أحياناً ، مع أنه عمل الواقف الأساسي . وهذا كله يحملنا على الاعتقاد بأن الخازن كان ربما كتب النسخ للمكتبة ، وأنه كان يشارك مشاركة فعلية في مقابلة النصوص ، وهذا عمل مهم وعظيم للخازن الجدير بحمل هذا الاسم . وإذن فتلك هي أعماله : المحافظة على الكتب وصونها من التمزق

---

(١) برنامج المكتبة العبدلية ، ١/خ .

(٢) زهرة الآس .

(٣) ابن الساعي ٢٣٦ ، أوقاف حلب ، سجل ١٩١/٣ ، الظاهرية ، مجموع ٩٧ (١١) : شروط ابن المخلص .

(٤) برنامج المكتبة العبدلية ١/ج .

(٥) ابن الساعي ٢٣٦

والتلف والغبار ، ويقوم بتجليدها بإشراف الناظر ، ويوزع الورق والحبر ويراقب القراء ، ويهتم بتطبيق شروط الوقف عند استعمالها .

فإن أهمل الخازن هذه الواجبات - وهي غير منهكة بالتأكيد - اعتبر مسؤولاً من حيث المبدأ ، وعليه أن يصلح ما سببه من أضرار ، وأن يعيد الكتب المفقودة . لكنّ هذه القاعدة التي ذكرها الفقهاء[1] وصاغها بعض الواقفين[2] بقيت ضمن المجال النظري على ما يبدو .

وسهولة هذه المهمة تفسر قلة عدد الموظفين في المكتبات الكبيرة ؛ فقد كان في مكتبة الفاطميين المشهورة بين المكتبات الإسلامية الهامة ٦ موظفين فحسب[3] .

ومكتبة عضد الدولة التي لم ينقصها أي كتاب بالعربية كان يديرها وكيل واحد وخازن ومشرف[4] ، يساعدهم المناولون طبعاً . وتولى مكتبة المستنصرية خازن ومشرف ومناول[5] . وكان المناول في دار العلم ببغداد امرأة زنجية[6] . وعينت وقفية دار العلم بالقاهرة وظيفة الخازن والفرّاش وحدهما بشكل صريح ، ولم تعين وظيفة الناسخ إلا ضمنياً[7] . وبالغ المؤرخون بعدد النساخ في دار العلم

---

(١) قانون العدل ١١٢

(٢) كما فعل محمد بك أبو الذهب في مكتبته بالقاهرة ، الخطط التوفيقية ١٠٨/٥

(٣) المقريزي ٤٠٩/١

(٤) المقدسي ٤٤٩

(٥) الصفدي ، تاريخ (الأحمدية بحلب ١٢١٦) ٩١/ب ، عيون ، (مكتبة الفاتح ، ٤٤٠) ٦ ، سنة ٦٣١ هـ .

(٦) أبو العلاء ، رسالة الغفران ٧٣

(٧) المقريزي ٤٥٩/١

بطرابلس : فذكر ابن أبي طي أنهم كانوا ١٨٠ ناسخاً ، منهم ثلاثون يقيمون في المكتبة لا يغادرونها أبداً[١] .

ومهما يكن فالأشخاص المكلفون بخدمة المكتبة قليلون جداً ، ومهمتهم بسيطة . فلماذا ؟ ذلك لأن مهمة الخازن الأساسية ـ التي يخصص لها اليوم أكبر عدد من الموظفين ـ وهي التسجيل والفهرسة ، لم تكن من عمل موظفي المكتبة العربية . ويتم هذا العمل قبل تسليم الكتب إلى الخزنة .

وبالإجمال ، فالخازن العربي يقابل اليوم مراقب قاعة المطالعة في المكتبة ، وهذا كان معه مفاتيح مستودعات الكتب . وكان يساعد المراقب في عمله الخازن والمناول .

وكانت هذه المهمة مأجورة براتب غير ثابت : ففي دار العلم بالقاهرة كان الخازن يتقاضى سنوياً ٤٨ ديناراً[٢] ، وهو مبلغ ضئيل إذا قورن براتب خطيب الجامع الأزهر ، ووظيفته هامة جداً (٨٤) ديناراً ، ولكنه أعلى من راتب أي إمام (٢٨) ديناراً في هذا الجامع[٣] . وكان خازن المستنصرية يتقاضى في كل شهر عشرة دنانير وعشرة أرطال من الخبز وأربعة أرطال من اللحم نقداً[٤] . وكان للمدرسين وحدهم أرزاق حسنة : ١٢ ديناراً ، ٢٠ رطل خبز و ٥ أرطال لحم ، إلى جانب الخضار والمؤن الضرورية . وكان المعيدون يعطون ٣ دنانير و ٧ أرطال خبز وغرفتين من الطبيخ[٥] .

---

(١) ابن الفرات (ڤيينا A.F ، ١١٧) ٣٨/١

(٢) المقريزي ٤٥٩/١

(٣) المرجع السابق ٢٧٤/١

(٤) الصفدي ، تاريخ (الأحمدية بحلب ، ١٢١٦) ٩٤/ب ، عيون (الفاتح ، ٤٤٠) ١/ب ، سنة ٦٣١ هـ .

(٥) عيون ، المرجع السابق .

وتقتضي مكانة هاتين الخزانتين أهمية الخازن . فمع تناثر الخزائن وتعددها وضآلة أهميتها لم يعد الخازن يظهر في المرتبة الأولى بين موظفي هذه المؤسسات . فما كان خازن دار الحديث الأشرفية بدمشق يتقاضى سوى ١٨ درهماً ، وراتبه أقل من راتب المؤذن بقليل ، والذي يحصّل ٢٠ درهماً ، وأقل من راتب الشيخ وينال ٣٠ درهماً[١] . وتضاءلت مكانة الخازن شيئاً فشيئاً في المكتبات التي تلت العصر العباسي . وشكلت المكتبة هنالك جزءاً هاماً من البناء ، كما هو الحال في المكتبة الأحمدية بحلب . وكان الخازن فيها يتقاضى مثل راتب البواب والكناس اللذين عُيّن لكل منهما عشرون ليرة عثمانية ، في حين عيّن للمدرس أربعون ليرة عثمانية[٢] .

وكان المدرس والخازن يأخذان في المدرسة العثمانية بحلب مثل هذا المبلغ مع اختلاف ، بينما كان البواب يتقاضى فيها عشر ليرات بدلاً من عشرين ، وهو المبلغ الذي يعطى لكاتب الدين[٣] . وهذه بعض الأرقام الخاصة ، وهي تشير إلى مقدار ما كان عليه الخازن من مكانة :

ـ كان إمام مسجد الناصرية في حلب المبني عام ٨١٣ هـ / ١٤١٠ م يتقاضى مئة ليرة عثمانية ، والخازن عشر ليرات[٤] .

ـ وكان مدرس الفقه الحنفي في المسجد المؤيدي بالقاهرة يتقاضى ٥٥٠ نصفاً كل شهر ، بينما يعطى الخازن أربعين نصفاً وأربعة أرطال من الخبز في اليوم . وهذا يساوي ما خصص لكل طالب .

---

(١) السبكي ، فتاوى (الظاهرية ، الفقه الشافعي ٣٨٥) ١٩٩/أ .

(٢) المحكمة الشرعية ، سجل ربيع الأول ، ٢٨٣/١٣٠٢

(٣) المحكمة الشرعية ، سجل شوال ، ٧٧/١٣٠٠ ، ٧٤ ، ٧٥

(٤) دائرة الأوقاف ، سجل ٢٥/١

ـ وكان إمام مسجد كتخدا قيصرلي في القاهرة المشيّد حوالي عام ١١٣٨ هـ / ١٧٢٥ م يحصّل ستين نصفاً كل شهر ، والخازن مئتي نصف كل سنة أو ١٦,٦ نصفاً كل شهر ، بينما يعطى الفرّاش عشرين نصفاً[١] .

وليس هذا الراتب الضئيل المستحق هو وحده الذي يتقاضاه الخازن على عمله القليل فيما يبدو ، بل إنه كان في الواقع يشتغل في أعمال أخرى ، وربما عملَ داخل المؤسسة ذاتها . وهي أعمال مأجورة بالطبع . فخازن المسجد المؤيدي الذي كان يتولى الخطابة أيضاً ، كان يعطى على عمله ذاك مئة نصف . وهذا الراتب المضاف إلى راتبه على وظيفة خازن يرفعه إلى مرتبة المدرس الثاني في المسجد[٢] .

ولا يجب الاعتقاد من جهة أخرى أنّ راتب الخازن في أي مكان أقلُ من رواتب الآخرين ؛ فقد كان خازن مسجد قايتباي في الصحراء المصرية يتقاضى مثل راتب القارئ وهو مئتا درهم نحاس ، ومثل نصف راتب الإمام والخطيب تقريباً[٣] . وكان الخازن في مسجد محمد بك أبو الذهب المبني عام ١١٨٧ هـ / ١٧٧٣ م يتقاضى نحواً من نصف راتب المدرس ، أي ستين نصفاً ، بدلاً من مئة وخمسين ، لكنّ مايحصّله يُعَدُّ أعلى مما يحصل المدرس الثاني الذي لم يكن يحصّل سوى ثلاثين نصفاً ، ومن راتب الإمام الذي لم يكن يعطى إلا خمسين[٤] .

ولا أهمية للخازن على كل حال .

---

(١) المرجع السابق ٩١

(٢) المرجع السابق ١٢٧

(٣) دائرة الأوقاف ، سجل ٧٠/١

(٤) المرجع السابق ١٠٧ ، وإن لم يكن الناسخ أخطأ فقد كان الخازن في مسجد النوري بالقاهرة يتقاضى ١٥٠٠ درهم ، بينما لم يكن الإمام يحصّل سوى ١٢٠٠ درهم (الخطط ، المرجع السابق ٦٣) .

الفصل الثامن

الناظر

ليس للخازن ومساعديه امتيازات إلا فيا يتعلق بالعمل الداخلي في المكتبة ، وقد أعطيت الامتيازات من جهة أخرى إلى ناظر المؤسسة . والناظر من حيث المبدأ النظري والواقع العملي هو الذي يتولى السلطة كلها ، وليس الخازن إلا بديلاً عنه في المكتبة . وفي حال عدم الحاجة للخازن يقوم الناظر بإنجاز عمله . ونقع على علامة وقف في كتاب محفوظ في المكتبة الظاهرية[1] كان موقوفاً على مدرسة الحنابلة في القدس ، تقول : والناظر فيه إمام الحنابلة بالقدس الشريف . والذي هو من حيث المبدأ الناظر . ووضعت رسالة في المجموع رقم ٧١ (٧) المحفوظ في المكتبة الظاهرية تحت نظارة شيخ دار الحديث النورية أو بعبارة أخرى ناظرها . وبهذا ورغم أنّ لهذه خازناً فنعتقد أن وضع الكتب تحت رقابة الناظر وإشرافه يكون أكثر أمناً . والحق أنّ الخازن مستخدم يخضع للناظر خضوعاً تاماً ، وينفذ أوامره ، وهو الذي يعينه ويعزله . وتشترط وقفية المدرسة العثمانية بحلب « أنْ يكون للناظر ولاية العزل والنصب ، لا يداخله في ذلك أحد غيره » .

وتضيف الوقفية : « وإذا أخلّ رجل من أرباب شعائر هذا الوقف ومرتزقته بشرط من شروط الواقف تعمداً وبغير عذر شرعي فالمتولي على الوقف

(١) حديث ٢٧٩

يخرجه من وظيفته ، ويولي غيره من المتأهلين لتلك الوظيفة »[1] . وكان على أبي القاسم الشريف المرتضى ناظر دار العلم ببغداد مهمّة تعيين الموظفين في المكتبة ، وشاهدنا على ذلك تعيين أبي عبد الله بن حمد[2] في وظيفة مشرف . ولما كان الناظر هو الرئيس الأول فإنه يراقبُ العمل في المكتبة كما يراقب العاملين فيها . وتذكر وقفية مشهد أبي حنيفة[3] : وليثبت ما بخزانة الكتب من المجلدات وغيرها ، معارضاً ذلك بفهرسته متطلباً من الخازن ما عساه قد شذّ منها ، ويعاقبه عند الاقتضاء ، وينذره من أجل القيام بواجبه[4] .

وإذا نقص شيء من المكتبة قدم الناظر من عائدات الوقف ، فيأمر الخازن أن يصلح النقص . وتذكر وقفية دار الحديث الأشرفية[5] : « وعلى الخازن الاهتمام بترميم الكتب وإعلام الناظر أو نائبه ليصرف فيه من مغلّ الوقف ما يفي بذلك ، وكذا إذا مست الحاجة إلى تصحيح كتاب ومقابلته » . وتضيف الوقفية : « وللشيخ الناظر أن يستنسخ للوقف ، أو يشتري ماتدعو الحاجة إليه من الكتب والأجزاء ، ثم يقف ذلك أسوة ما في الدار من كتبها » .

ولما كان الناظر ذا صلاحيات واسعة في المكتبة فقد توجب علينا القيام بدراسة مختصرة عن نظارة الوقف[6] ، ولا سيّما عما يخصّ ناظري المكتبات على وجه الدقة . وللواقف نفسه مطلق الحرية في أن يعيّن على وقفه ناظراً واحداً أو عدداً من الناظرين[7] ، ولذا عهد سابور بن أردشير مؤسس دار العلم في بغداد

(١) المحكمة الشرعية ، سجل شوال ، ١٣٠٠ ، ٧٥

(٢) إرشاد الأريب ٢٥٩/٦ ـ ٢٦٠

(٣) ابن الساعي ٢٣٦

(٤) انظر أيضاً ص ١٦٧ ـ ١٦٨ و ١٧٤

(٥) السبكي ، فتاوى (الظاهرية ، الفقه الشافعي ٣٨٥) ١٩٩/ب .

(٦) انظر فيما يتعلق بنظارة الأوقاف ، كوتّا ١٦١ ـ ٢٦٠

(٧) كوتّا ١٦١

بنظارة هذه المكتبة إلى العلويين[١] والقاضي[٢] . وكلف الحاكم بأمر الله الفاطمي عبد العزيز بن محمد بن النعمان بالنظر على دار العلم في القاهرة[٣] . وبعد اختفاء دور العلم الفاطمية ، عهد صلاح الدين الأيوبي بنظارة المدرسة التي أنشأها في الموضع القديم لدار العلم بالقدس إلى القاضي بهاء الدين بن شداد ، وجمع له معها التدريس[٤] .

ومن حق الواقف أن ينظم انتقال وظيفة الناظر بشكل وراثي ودائم[٥] ؛ ولذا ذكر صلاح الدين الأيوبي في وقف مدرسته المذكورة أنّه يحق لأول ناظر فيها أن يعيّن خلفاً له في وظيفته[٦] . وإذا لم يذكر الواقف شروط الانتقال نظمها نائب السلطان أو خليفته الذي يكون القاضي في معظم الأحيان[٧] . وقد سارت المؤسسات الصغيرة على منهج يرى أن تعطى وظيفة النظارة ووظيفة التدريس لشخص واحد[٨] ، وهذا ما يوضح لنا بعض الأمثلة التي مرت معنا ، حيث اعتبر المدرس ناظراً أيضاً . أما بالنسبة للمؤسسات الكبيرة الهامة شبه العامة التي أنشأها رجال الدولة فيُعين فيها عدد من الناظرين . سماهم نائب السلطنة في مصر في القرن الثامن / الرابع عشر شهود الأوقاف ، وكانت لهم صلاحيات الناظر دون أن يتسموا باسمه[٩] ، وسَمّوا في الشام بذلك الوقت أيضاً أسماء تختلف عن اسم الناظر

---

(١) الوافي (المكتبة الوطنية ، عربي ٢٠٦٤) ١٠٧/أ .

(٢) المنتظم (أياصوفيا ٣٠٩٦) ٦ ، سنة ٣٨٣ هـ .

(٣) الكندي ٦٠٢

(٤) السبكي ، فتاوى (الظاهرية ، الفقه الشافعي ٣٨٥) ٢٠٦/ب .

(٥) كوتّا ١٦٢

(٦) المرجع السابق .

(٧) القلقشندي ، صبح الأعشى ٣٩/٤ ، ١٩٣ ، كوتّا ١٦٨

(٨) المرجع السابق .

(٩) السبكي ، فتاوى (الظاهرية ، الفقه الشافعي ٣٨٥) ٢١٧/أ .

الفعلي . وتسمية السبكي التي أوردها في هذا المجال خاطئة ، وأصبحت تعني مع الزمن صاحب الحق المكتسب والوارث[1] . وانتهى الأمر في الواقع بكل النظارات في سورية ومصر إلى أن تأخذ هذا الشكل[2] .

---

(١) المرجع السابق .

(٢) انظر الموسوعة الإسلامية ١١٥٩ ـ ١١٦٢

الفصل التاسع

الموازنة[1]

ولضمان استمرار العمل في المكتبة خصصت لها اعتمادات معلنة أو مكتوبة . وبما أن الاعتمادات تؤلف جزءاً مكملاً من الموازنة العامة للمؤسسة الأم ، فمن الصعب أن نتناولها بشكل مستقل عنها ، لكننا سنحاول ذلك قدر الإمكان . وعموماً وقفت عقارات يضمن ريعها السنوي سير المؤسسة . فخصص سابور بن أردشير عائدات دار الغزل وأصحاب اللعب لإمداد دار العلم في بغداد[2] .

كما خصصت عائدات دار الضرب وقيسارية الصوف[3] ودار الخرق الجديدة[4] مشتركة لنفقات دار العلم والجامع الأزهر وجامع راشدة بالقاهرة .

وفصّل الواقف في وقفية المؤسسة كيفية توزيع ريع هذه الأموال ، وحدد بالترتيب النفقات الضرورية للمساعدة على حساب الآخرين عندما لاتكفي الأموال . وهذه كيفية ترتيب صرف النفقات بالأولوية :

١ ـ البناء والترميم اللازمان .

٢ ـ صيانة الأثاث .

٣ ـ رواتب الموظفين .

---

(١) انظر بنتو ، المكتبة ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨

(٢) العيني (ولي الدين ٢٣٨٧) ٧٣٧/١٥

(٣) انظر هذه الكلمة في الموسوعة الإسلامية .

(٤) المقريزي ٢٧٤/٢

وللمحافظة على المؤسسة يجب أن يصان البناء ضمن ظروف حسنة ، وتلك أولى واجبات الناظر[1] . وريع الوقف معروف ؛ ويخصص الواقف قسماً كافياً منه لعمارة المؤسسة وتجميلها وترميمها وتطويرها[2] ، ويخصص أموالاً منقولة لمصلحتها[3] . ويلاحظ الواقف مبدأ تأبيد المنقولات ، دون إلحاق الضرر بالموضوع الأساسي للمؤسسة . ويبدو لي أن صيانة الخزائن والرفوف وخانات الخزائن تشكّل جزءاً من هذه الفئة[4] .

ويجب توفير نفقات الأثاث عن طريق الاعتمادات المخصصة للبناء من الأموال المنقولة الموقوفة أحياناً[5] ، ويمكن أن توزع هذه النفقات على المكتبة والفرش والإضاءة والماء ومواد الكتابة واقتناء الكتب (نسخاً وشراءً) وصونها .

وتتألف المفروشات من السجاد والحصر والستائر وأغطية الصوف للشتاء وأدوات الكنس والتنظيف . وفيما يلي تحديد صيانة هذه الأشياء في الموازنة المخصصة لدار العلم بالقاهرة[6] .

لشراء أو إصلاح الحصر العبدانية وأنواع الحصر الأخرى	١٠ دينار
لشراء أو إصلاح الستائر	١
لشراء أو إصلاح أغطية الصوف للشتاء	٥
لشراء أو إصلاح السجاد	٤

فالمجموع ٢٠ ديناراً من أصل ٢٥٧ ، أو العشر على وجه التقريب . ولم نتحدث عن

(١) قانون العدل ١٦٩
(٢) كشف المروط (الظاهرية ، أدب ٧٤) ٧٤/ب ، دائرة الأوقاف ، سجل ٥٦/١
(٣) السبكي ، فتاوى (الظاهرية ، الفقه الشافعي ٣٨٥) F ، ١٩٨/ب .
(٤) المقريزي ٢٧٤/٢
(٥) كشف المروط (الظاهرية ، أدب ٧٤) ٧٤/أ .
(٦) المقريزي ٤٥٩/١

أدوات التنظيف والكنس التي أشارت إليها وقفية دار الحديث الأشرفية المذكورة فيها بشكل موجز ، بالإضافة إلى الأشياء السابقة[1] . ويجدر الاعتقاد أن شراء مثل هذه الأدوات متضمن في النفقات المخصصة لصيانة المؤسسة . ولا لزوم لإضاءة المكتبة على ما يبدو ، باعتبار أنها لا تفتح إلا في النهار ، والنهار في البلاد العربية مشرق ، لا يظلم ولا حتى في شدة الشتاء وبوجود الغيوم الكثيفة[2] .

وخصص للماء في وقفية دار العلم بالقاهرة مبلغ كبير (١٠ دنانير) . وتفسر ضخامة هذا المبلغ بكمية الماء الوافرة المستهلكة ، لا للشرب فحسب[3] ، بل للوضوء أيضاً وللسبيل الجاري ، وأنّ الماء كان في القاهرة بالثمن ، لأنه ينقل من النيل على ظهر الجمال أو بطرق أخرى . وكل بناء في دمشق بالمقابل مزود بالماء ، بالاتفاق على أن الدفع مرة واحدة عن كل الماء . فلا يحتاج الماء إلى اعتماد خاص في الموازنة السنوية .

وكانت أدوات الكتابة تحت تصرف المشتغلين في المكتبات[4] ، وقد خصصت أموال للقرطاسية ؛ ففي موازنة دار العلم بالقاهرة ١٢ ديناراً لنفقات الحبر والورق والأقلام .. إلخ ، تصرف للفقهاء الذين يحضرون إلى المكتبة ليشتغلوا فيها[5] . وتذكر وقفية دار الحديث الأشرفية : « ويصرف في شراء ورق وآلات نسخ من مركب (محابر)[6] وأقلام ودوي وكراسي ونحو ذلك ما يقع به الكفاية ... »[7] .

---

(١) السبكي ، فتاوى (الظاهرية ، الفقه الشافعي ٣٨٥) ١٩٨/ب .

(٢) توفر الإضاءة في بعض المؤسسات الأخرى باعتمادات تذكر صراحة ، السبكي - المرجع السابق ، كشف المروط - المرجع السابق .

(٣) انظر هيفننغ ، الموسوعة الإسلامية ١١٠٧/٢

(٤) عن أدوات الكتابة انظر صبح الأعشى ٤٣٠/٢ - ٤٧٧

(٥) المقريزي ٤٥٩/١

(٦) لم يورد القلقشندي هذه الكلمة مع ماذكر من أدوات الكتابة ، صبح الأعشى ٤٣٠/٢ - ٤٧٧

(٧) السبكي (الظاهرية ، الفقه الشافعي ٣٨٥) ١٩٩/أ .

وقد اضطرت المكتبة على التوافق مع تطور العلوم والحصول على الكتب التي هي العنصر الأساسي للمؤسسة . وهناك طريقتان لاقتناء الكتب : الشراء والنسخ . ولم يكن الشراء مقرراً في موازنة دار العلم بالقاهرة ، ولكن خصص فيها مبلغ كبير للورق : ٩٠ ديناراً من أصل ٢٥٧ ديناراً إذا أخذنا بنص الموازنة المنشور ، وأكثر من ٥٠ ديناراً إذا وزعنا هذا المبلغ بين شراء الورق وأجرة الناسخ[١] ، وهو مبلغ معتبر في الحالين . وكان على ناظر دار الحديث الأشرفية - إن رأى ذلك ضرورياً - أن يستنسخ للوقف أو يشتري ما تدعو إليه الحاجة من الكتب والأجزاء[٢] . وكان يمكنه أيضاً أن يخصص مبلغاً لمقابلة الكتب وتصحيحها . واهتمت موازنة المكتبات بالمحافظة على الكتب ؛ فخصص الحاكم بأمر الله مبلغ اثني عشر ديناراً لترميم الكتب التي اهترأ تجليدها وتقطعت أوراقها . كذلك كان يجب على خازن دار الحديث الأشرفية تنبيه الناظر إلى وجوب صرف المبالغ اللازمة لترميم الكتب . وخصص مبلغ مئة نصف ، لتصرف على الكتب الموقوفة في مسجد كتخدا بالقاهرة[٣] وهو ما يعادل نصف راتب الخازن .

وبعد أن عرفنا كيف تنفق المبالغ اللازمة ، وكيف تخصص المبالغ الضرورية ، علينا أن نعرف كيفية توزيع بقيّة العائدات بين الموظفين . وبعد أن درسنا هذا التوزيع ، يبقى علينا أن نتفحص نتائج التوزيع التدرجي بين النفقات . إنّ المبالغ المقدرة للعناوين المختلفة المذكورة ليست إلا مبالغ نظرية ، وإن كانت حقيقية عندما صيغت الوقفية . فهل يمكن للواقف توفير دخل متساوٍ وثابت في كل السنوات ؟ . ومن هنا تأتي ضرورة تعيين نظام التدرج المذكور

---

(١) المقريزي ٤٥٩/١

(٢) السبكي ، المرجع السابق .

(٣) الخطط التوفيقية ٩١/٥

عند الضرورات وإقراره ، وتخصيص مبلغ عند كتابة الوقفية . لكن هذا المبلغ يظل في حيز النظرية ، ويمكن أن يستعمل فيا بعد نموذجاً حين التوزيع النسبي . وتقول وقفية دار الحديث الأشرفية[1] : « وإذا فضل من مغلّ الوقف فاضل فللناظر أن يشتري به ملكاً يقفه على الجهات المتقدمة ، وله أن يستفضل شيئاً من المغلّ لذلك . وإذا رأى فض الفاصل على أهل الدار (الموظفين والطلاب) » .

وهناك أيضاً تدرج بحسب الأهمية ، عندما لا تكفي العائدات ؛ ففي هذه الحال يضحي عموماً بالأشياء الزائدة من أجل الضرورية[2] ، فيجب أن تراعى الأبنية والترميات أولاً[3] ، فإن استغرق ذلك جميع العائدات المقبوضة علقت سائر النفقات الأخرى[4] ، وإن بقي قسم من العائدات ، صرف في النفقات العامة[5] ، حين الضرورة القصوى[6] . والمبلغ الذي يفضل عنها يخصص للموظفين الأساسيين[7] . وهناك خلاف في الآراء بصدد مكان الخازن في التدرج القائم بين مختلف الموظفين ؛ فيعدّ الخازن في وقفية دار الحديث الأشرفية من بين المستخدمين الذين ينبغي أن يدفع لهم راتب كامل ، حتى في الظروف الصعبة . ولا يعد في كتب الفقه من بين أصحاب الشعائر الذين يضر قطعهم بالهدف الديني للمؤسسة[8] . ورغم أن الفقهاء ذكروا هذه القاعدة بصراحة ، فقد أوضحوا

---

(١) السبكي ، المرجع السابق ٢٠٠/أ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) قانون العدل ١٧٠ ، السبكي ، المرجع السابق ١٧٢/ب فيا يخصّ وقف الشامية البرانية .

(٤) قانون العدل ١٧٢

(٥) السبكي ، المرجع السابق .

(٦) كشف المروط (الظاهرية ، أدب ٧٤) ٧٤/ب .

(٧) السبكي ، المرجع السابق ١٧٢/ب .

(٨) السبكي ، المرجع السابق ٢٠٠/أ .

أنّ الأمر الأهم حملهم على ترك أمر دونه أهمية ، وهو أنّه يجب أن يُدفع لمن يسبب إيقاف راتبه نتائج ضارة ، قبل أن يدفع لمن لا ضرر من قطع أجره[1] . والمقصود إذن هو إثبات منزلة الخازن الهامة . وهذا لا يتبع رأي الفقهاء ، بل يتبع بالأحرى أهمية المكتبة . ولو شرط الواقف الاستواء بين كافة الموظفين في الأجر عند ضيق الريع يعطى كل من باشر منهم العمل المشروط له قدر كفايته[2] . ولا تعتبر الأجور التي قطعت من الموظفين ديناً على الوقف ، بل تسقط تماماً[3] .

(١) قانون العدل ١٧٠ ـ ١٧١

(٢) المرجع السابق ١٧٠

(٣) المرجع السابق ١٧٢

الفصل العاشر

العمل

أ ـ ساعات العمل :

ليس هناك وقت محدد أو متفق عليه لفتح أبواب المكتبة ، ولكن يمكننا أن نفترض أن مدة دوام العمل في كل مكتبة تابع لأهميتها .

ويجب أن نشير أولاً إلى أن دور العلم كانت تفتح أبوابها كل يوم ، كما عرفنا عن دار العلم في الموصل[1] . وهي من جهة أخرى لا تختلف في ذلك عن المؤسسات التي جاءت بعدها كالمدارس والتي تعتبر مؤسسات عامة ينبغي عليها أن تعمل باستمرار .

أما المكتبات الملحقة في العصر العباسي فليس لدينا عنها معلومات جديدة واضحة . ونعلم مع ذلك أن مكتبة الأحمدية فيما بعد كانت تفتح أبوابها أربعة أيام كل أسبوع ؛ هي الأحد والاثنين والثلاثاء والخميس[2] ، وأن مكتبة العثمانية في حلب نفسها تفتح يومي الاثنين والخميس كل أسبوع ، من طلوع الشمس إلى غروبها[3] . وفي زمن متأخر كانت مكتبة تكية عبد الغني بحلب تباشر أعمالها كل ثلاثاء (وهو يوم عطلة عند طلاب العلوم الشرعية) من الصباح حتى العصر ، وصباح كل خميس[4] .

---

(١) إرشاد الأريب ٤٢٠/٢

(٢) المحكمة الشرعية ، ربيع الأول ٢٨٢/١٣٠٢

(٣) المرجع السابق ، شوال ٧٤/١٣٠٠

(٤) دائرة الأوقاف ، سجل ١١٨/٣

وهذا ما يحملنا على الاعتقاد أن المكتبات الملحقة في العصر العباسي تتبع هذه الطريقة وبالتنوع نفسه . ويؤثر طابع المكتبة على توقيت العمل فيها بلا شك ، إما بتحديده إن كانت المكتبة شبه عامة ، وإما بزيادته إن كانت عامة تماماً .

كذلك يجب أن نأخذ بعين الاعتبار نوع المكتبة : فإن كانت تسمح بالإعارة الخارجية فسيكون توقيت مدة فتحها أقل مما لو كانت المراجعة تقوم بداخلها .

ب ـ القرّاء ، وأنواع الوقف[1] :

لا توضع الكتب الموقوفة تحت تصرف الجميع . ويمكن أن نذكر عدة أنواع لوقف الكتب . فالوقف يقسم حسب المستفيدين منه إلى فئتين ، الوقف الخيري (للصالح العام) ، والوقف الأهلي (للصالح الخاص)[2] . ويمكننا أن نسميه بالتحديد وقف الأسرة[3] . ولما كانت الوظيفة الأولى لكل وقف تهدف إلى العمل الخيري أي للمصلحة العامة ، فلا بد أن ينتهي الأمر بالوقف الخاص إلى الوقف العام . ونجد في مجال المكتبات هذين النوعين قائمين . ويعرّف الوقف الخاص ـ وهو أول نوع من الوقف ـ أنه يهم عدداً محدداً من الأشخاص الذين ينتفعون بالكتب الموقوفة بلا منازعة . أما وقف الكتب العام فهو وقف للجميع . ويندرج تحت شكلين : ١ ـ الوقف شبه العام ، ويكون على مؤسسة معينة . ٢ ـ الوقف العام بكل معنى الكلمة ، وهو للمسلمين دون تمييز . ولا بد من حيث المبدأ أن يصل الشكلان الأولان : الوقف الخاص وشبه العام إلى هذا الشكل الأخير من الوقف .

---

(١) انظر بنتو ، المكتبة ١٥٨

(٢) هيفننغ ، الموسوعة الإسلامية ١١٥٥/٤

(٣) المرجع السابق .

وقد رأينا في الفصل المتعلق بـالملاك بعض أشكال الوقف الخـاص . فلنحـاول توضيح هذه الأنواع ، فرغم اعتراض الفقهـاء[1] ، فـإن وقف الكتب للموقف نفسـه مقدر له ـ كما يجب أن نشير لذلك ـ أن يصبح عامـاً ؛ ففي عـام ٥٨٣ هـ/١١٨٧ م أوقف الحسين بن عبد الله بن أبي البركات بن شافع القرشي كتاباً في الحـديث على من أراد الانتفاع به من المسلمين ، وجعل الانتفاع به « لنفسه مـدة حيـاتـه »[2] . وقد يوقف الكتاب أحيـانـاً على شخص معين ؛ ففي عـام ٧٧٨ هـ/١٣٧٦ م أوقف أحد الأشخاص ويسمى عبد الله (؟) كتـابـاً في الفقـه الحنبلي ـ دون تفسير آخر ـ على الحاج محمد ابن الحـاج جبرائيل[3] . وهـذا الشكل من الوقف ـ ودون أن يحقق الشرط الضروري لصحـــة الـوقف[4] ـ (وقف دائم) لم يكن ملغى ، ووصـل الكتاب إلى المدرسة العمرية . وتشير وقفية أخرى[5] في عـام ٨١٣ هـ/١٤١٠ م إلى شخص معيّن (ابن ناصر الدين محمد بن أبي بكر) وقفت له كتاباً . لكنها لم تنس أن تـذكر تخصيص وقفـه النهـائي بعـد وفـاتـه على مـؤسســة (دار الحـديث الضيائية) ، وعلى فئة لها به حق النفع (المحدثون) .

وتنتفع بالوقف أحياناً سلسلـة متتـابعـة من ذريـة الواقف ، تسبق تخصيصـه للنفع العـام بعـد وفـاة شخص معين . ويمكن أن يكون هـذا الشخص هو الواقف نفسه ؛ فقد أوقف محمد بن قوام الحنفي عام ٨٣٨ هـ/١٤٣٤ م كتاباً[6] لنفسـه ، ثم لـذريتـه من الـذكـور المتصفين بـالعلم الشريف ، ثم من بعـده على طلبـة العلم

---

(١) هيفننغ ، المرجع السابق .

(٢) الظاهرية ، الحديث ٢٧٦ ، وانظر أيضاً الظاهرية ، مجموع ٥٠ (١) ، والفقه الحنبلي ٦٤

(٣) الظاهرية ، الفقه الحنبلي ٧٣

(٤) حول صحة الوقف انظر الموسوعة الإسلامية ١١٥٤/١

(٥) الظاهرية ، السيرة ٢٨

(٦) الظاهرية ، حديث ١١٢ . وهذا الشخص نفسـه أوقف كتـابـاً آخر (في الفقـه الحنبلي ٦٤) على نفسه ومن بعده على الطلاب .

بدمشق . وأوقف الحجازي بن الحاج علي عام ١٠٧٠ هـ/١٦٥٩ م كتباً ، خصصها لاستعماله الخاص مدة حياته ، ولذرية متعددة من أهله الأرشد منهم فالأرشد ، ثم للطلاب أخيراً[١] .

وأوقف تاج الدين الكندي (ت ٦١٣ هـ/١٢١٦ م) كتباً نفيسة على مُعْتَقة ياقوت ، ثم على ولده من بعده ، ثم على العلماء[٢] .

وهناك شكل أخير للوقف يقوم على وضع الكتب تحت تصرف شخص ينتفع بها قبل شخص آخر ، أو وضعها عند من يحتفظ بها عنده ويسمح باستعمالها . وقد أوردنا من قبل أمثلة عن هذا الشكل ، ولا لزوم لذكره هنا . ومن الجدير بالذكر أنّ على المرء لكي ينتفع بالوقف الخاص للكتب أن يكون كفءاً[٣] ، أي ذا ميل علمي ومقدرة . وفي وقفية الحجازي أنه إن لم يتحقق هذا الشرط ، يمنح حق النفع لمن هو أجدر منه من ذريته[٤] ، فإن لم تتوافر الجدارة هنا يُحقق الوقف العام بشكل بديهي .

وكل أوقاف الكتب هذه كما نرى مخصصة لتأخذ في يوم ما شكل وقف عام . ويبدو أنها وإن اعتبرت وقفاً خاصاً ، يتسامح بإعارتها للجميع . ورغم أنّ كتب الكندي المودعة في خزانة كبيرة بالجامع الأموي بدمشق أوقفت لياقوت وذريته ، فقد وضعت بأيدي الجميع[٥] . ويظهر أن تحديد المنتفعين لم يكن مشروطاً بشروط ، إلا لإثبات الترتيب في أولوية مطالعة الكتب . ويشير المجموع ٩٥ المحفوظ في الظاهرية إلى هذا الترتيب الأولوي بوضوح ، وهو « موقوف على

(١) دائرة الأوقاف ، سجل ١٢٧/٤

(٢) النعيمي (مخطوطة المجمع العلمي) ٧٠٦/١

(٣) عليش ١٥٨

(٤) دائرة الأوقاف ، سجل ١٢٧/٤

(٥) النعيمي ، المرجع السابق .

ذكور ابنتي الواقف زاهدة وفاطمة ، من ينتفع به منهم قدم على غيره في النفع به ، ويكون عنده مادام ينتفع به » . وهذا ما يدعو للاعتقاد بأن الترتيب المفروض ليس إلا وقتياً ، بل هو بالأحرى ترتيب أولوي : وهو الترتيب المتميز بحرف العطف (ثم) التي تفيد الأولوية . ومن جهة أخرى فليس ثمة ما يمنع من تداول الناس لهذه الكتب إن قبل المنتفعون بها[1] .

ويمكن للوقف شبه العام الذي يتعلق بمنتفعي مؤسسة ما أن يقسم إلى نوعين : وقف لأصحاب المؤسسة ، ووقف للمؤسسة نفسها .

ووقف الكتب على أصحاب مؤسسة ما ممكن رغم ندرته . جاء في إحدى الوقفيات : « أوقف هذا الكتاب لأهل العلم وطلاب الحديث في الخانقاه الناصرية بالقاهرة »[2] . وفي وقفية أخرى : « هذا ماأوقف ... رمضان العدري على طلبة العلم الشريف المقيمين في المدرسة الصالحية [الضيائية] »[3] . وفي وقفية ثالثة : « وقف على من ينتفع به من الحنابلة المشتغلين بالعلم بمدرسة أبي عمر »[4] . ويرى الفقهاء أنّ هذا الوقف صحيح عندما يكون المنتفعون محدودين[5] ، أي لا يتجاوزون عدداً معيناً . وهو عدد لم يتفق عليه من جهة أخرى : فبعضهم يقول عشرة وآخرون يقولون أربعون . وغيرهم يقولون ثمانون وقيل مئة . والفتوى عند الأحناف أن هذا مفوض إلى رأي الحاكم[6] . وقال ابن عابدين : وإذا تحقق هذا الشرط لم يجز لغير أهل الوقف المعينين الاستفادة منه[7] . ومع ذلك فليس هناك رأي مطلق ـ كما نرى ـ يتعلق بهذا الوقف .

---

(١) حاشية شرح المنهاج (الظاهرية ، الفقه الشافعي ٥٢) في نهاية المجلد في كلامه عن المساجد .

(٢) مخطوطة المكتبة الوطنية ، القسم العربي ٥٨٦٦

(٣) الظاهرية ، الأصول ٩٠

(٤) الظاهرية ، الفقه الحنبلي ٧١

(٥) ابن عابدين ، الحاشية ٣/٣٨٧

(٦) ابن عابدين ، الحاشية ٣/٣٨٧

(٧) المرجع السابق .

ويلزم أن ينفع وقف المؤسسة ساكنيها المباشرين ، وغير المباشرين ممن يمكن أن يحسبوا معهم في يوم ما . والمنتفعون بالمؤسسة ، أي الأشخاص الذين أنشئت لهم ، يمكن أن يشكلوا فئة يحددها الواقف من تلقاء نفسه بمطلق حريته . ويجمع الفقهاء على شرعية هذه الحرية فيما يتعلق بمؤسسات أخرى غير المسجد[1] . ويجدر أن نذكر اختلاف الآراء حول المسجد الذي يجب أن يكون مكاناً للجميع ، لأنه موضع لعبادة الله[2] . وأول بحث في الوقف الإسلامي يرفض تعبير الحصر في هذا الموضوع[3] . ولئن منح الواقف حق التصرف بشروط الوقف على أن يكون هدفه النهائي القربة من الله[4] فقد انتهى الأمر بالفقهاء اللاحقين إلى قبول حصر المسجد بفئة محددة من الناس[5] . ويقرر بعضهم فضلاً عن ذلك : أن ليس من حق هذه الفئة السماح لآخرين كي يأتوا للصلاة معهم[6] . وتخصيص فئة من الأشخاص للانتفاع بالمؤسسة أمر يتبع الواقف . ولكن تقتصر عموماً على أرباب مذهب معيّن ، بينما يختص بالمسجد أحياناً أهل حيّه ، أو جماعة من العلماء .

قال ابن عابدين : ولو وقف المصحف على المسجد [لا الجامع] قيل يقرأ منه ، أي يختص بأهله المترددين إليه[7] ، وليس له أن يدفعه إلى آخر من غير أهل تلك المحلة للقراءة[8] . وقال أحمد قدري : وإن جعل الواقف كتبه وقفاً على

---

(١) روضة (الظاهرية ، الفقه الشافعي ٢٢٨) في الربع الأخير من الجزء الثاني .

(٢) وذكر ذلك القرآن الكريم في مواضع عديدة .

(٣) الخصاف ، أحكام الأوقاف ١٢٩

(٤) انظر هيفننغ ، الموسوعة الإسلامية ١١٥٥/٤

(٥) روضة (الظاهرية ، الفقه الشافعي ٢٢٨) في الربع الأخير من الجزء الثاني ، عمدة المحتاج (الظاهرية ، الفقه الشافعي ٩٣) ٤ ، في الوسط .

(٦) حاشية شرح المنهاج (الظاهرية ، الفقه الشافعي ٥٢) في نهاية المجلد .

(٧) ابن عابدين ، الحاشية ٣٨٧/٣

(٨) المرجع السابق .

مدرسة بعينها كان الانتفاع بها قاصراً على أهل تلك المدرسة[1] . ومع أن القاعدة الشرعية واضحة ليس فيها غموض ، لكنها لم تطبق بشكل عملي دوماً : فقد وقفت المدرسة الضيائية مثلاً على المحدثين والفقهاء الحنابلة[2] ، وضياء الدين الذي أوقف كتبه كلها ، يوضح بالتالي في بعضها أنها وقف على هذه المدرسة[3] ، أي للأشخاص المذكورين ، لكننا نجده في مواضع أخرى يذكر بوضوح أنّ الوقف لجميع المسلمين[4] . ولما لم نقبل بوجود شروط متباينة تتعلق بالكتب ذاتها ، فقد أدى بنا ذلك للتأكيد على أن تحديد المنتفعين بالكتب الموقوفة في المؤسسة مقبول بشكل نظري ، دون أن يمكن تطبيقه في حيّز الواقع .

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ المنتفعين المعينين والمنتمين إلى فئة محدودة - وهذه قاعدة لا زالت حتى أيامنا - هم الذين يحق لهم الاستفادة المادية من الوقف (كالسكن والنفقات والرواتب الشهرية) ، وأنه يمكن عموماً لكل مسلم أن يستفيد من المؤسسات العلمية التي لا صلة لها بالمكاسب المادية . ولما كانت الكتب ذات موضوع نفع علمي وغير مادي بالتالي ، فإنها توضع تحت تصرف جميع المسلمين عندما توقف على أي مؤسسة . ولا بد أن نوضّح دون أن نقف شكلاً شائعاً جداً للوقفية ؛ كثير من الكتب يحمل العلامة التالية : « وقف مؤبد في هذه المؤسسة » . ولا تعني هذه العلامة المنتفعين ، بل المكان الذي ينبغي أن يوضع فيه الكتاب فحسب . واستعمل علي بن مسعود هذا التعبير عدة مرات[5] ، إلا أنه

---

(١) قانون العدل ٢٨

(٢) اليافعي (المكتبة الوطنية ، عربي ١٥٣٤) ٩٩/ب ، النعيمي ٢٧٤/٢ ، ابن كثير (المكتبة الوطنية ، عربي ١٥١٦) ٩٥/ب و ٥٥/ب ، ويؤكد ابن رجب (الظاهرية ، التاريخ ٦١) ٢٦٤/ب أن المدرسة خصصت للأغراب .

(٣) الظاهرية ، مجموع ٧٨ (٣) .

(٤) الظاهرية ، حديث ٢٠

(٥) الظاهرية ، مجموع ١٧ (٩) ونسخ أخرى .

أوضح في مرات كثيرة أنّ كتبه وقفت على جميع المسلمين[1] . ويذكر علي الحصني في إحدى وقفياته أنه وقف كتبه كلها وعيّن مقرها المدرسة الضيائية[2] . ويخبرنا في موضع آخر أنّ هذا الوقف لجميع المسلمين[3] .

وتطرح هنا مسألة أولية تتعلق بوقف الكتب العام ، وهي أنه لما كان الوقف عملاً خيرياً ، وقربة إلى الله ، فيجب ألا يستفيد منه إلا المحتاجون ، ولا ينبغي أن يكون للجميع دون تقييد ، ولذا حدد بعض الفقهاء أنّ كتب الوقف العام يلزمها أن تكون محصورة الاستعمال ، فاشترطوا « أنّ وقف المصحف في المسجد ، والكتب في المدارس لايحل لغير فقير »[4] . وهناك وقفية تأخذ بهذا الحصر فتذكر : « كتاب موقوف لمنفعة الفقراء »[5] . ورغم أنّ هذا الشرط مقبول فهو غير ضروري ، لأنه يمكننا أن نصنف وقف الكتب العام في فئة أوقاف الرباطات والخانقاهات والمقابر ... إلخ ، وهو وقف يعتبر عاماً بالإجماع[6] وبالواقع ، فالأسباب التي نتساهل من أجلها بالوقف العام لهذه المؤسسات أسباب مقبولة في وقف الكتب : المساواة بين الفقراء والأغنياء في حاجتهم المشتركة إزاء الوقف . وقالوا من جهة أخرى : ليس كل غني يجد كل كتاب يريده ، خصوصاً وقت الحاجة إليه[7] . وهذا الرأي هو المأخوذ به . وقال ابن عابدين : يستوي في الانتفاع بوقف المصاحف الغني والفقير[8] . وكذلك الانتفاع بالكتب .

---

(١) الظاهرية ، مجموع ١٧ (٦) ، ٢٤ (٥) ، ٩٧ (١٣) .

(٢) الظاهرية ، مجموع ١٠٤ (٦) .

(٣) الظاهرية ، حديث ٣٤٤

(٤) ابن عابدين ، الحاشية ٣٨٧/٣

(٥) الظاهرية ، الفقه الحنبلي ٣٥

(٦) ابن عابدين ، المرجع السابق .

(٧) المرجع السابق .

(٨) المرجع السابق ، قانون العدل ٢٨ ، كوتا ١١٤ ـ ١١٥

ولم يبق إلا أن نتقيد برأي الفقهاء المعارضين للوقف العام للكتب وهو أن للفقراء الحق بالانتفاع بالكتب الموقوفة قبل الأغنياء . وتذكر عدة وقفيات للمدرسة الضيائية أنه يجب ألا تعار الكتب إلا مقابل رهن ، ماعدا الفقير والشريف ، اللذين ينبغي أن يقدما على الأغنياء دائماً[1] .

وتستبعد هذه المسألة . ويظهر شكلان للوقف العام : وقف لطلبة العلم ، ووقف لجميع المسلمين . فالأول شائع جداً . ونصادف كثيراً من الوقفيات التي تذكر دوماً « وقف لطلبة العلم »[2] . والمقصود تحديد المعنى الصحيح لهذا التعبير . ورغم أننا لم نعثر على وثائق توضحه ، فيبدو أنه يعني كل شخص يرغب بالتعلم ، مهما كان مستوى معرفته[3] . فيثبت إذن أن طلاب العلم يشكلون طبقة محددة ، وأنهم يعرفون ببعض سمات خاصة . ويمكن أن نقارنهم بالفقهاء والمتفقهة الذين يؤلفون طبقة خاصة في امتيازاتها وعاداتها . وتضم هذه الطبقة طلاب المدارس الذين يلزمهم الحصول على معارف أولية ، تمكنهم ثمراتها من متابعة الدروس في المدارس العليا[4] . وبخلاف ذلك ، فربما لا يحظى طلاب العلم بمعارف دقيقة ، لكنهم يودون الدراسة . وهؤلاء هم كل راغب بالتعلم .

ومن جهة أخرى أوضح بعض الواقفين لدفع كل التباس أن المقصود هو كل طالب علم[5] .

---

(١) انظر الفصل المتعلق بدار الحديث الضيائية ٢١٧ ـ ٢٣٥

(٢) مخطوطة المكتبة الوطنية ، القسم العربي ١٧٧٩ ، صفحة العنوان ، المحكمة الشرعية ، سجل ربيع الأول ٢٨٣/١٣٠٢ ، المجلة الآسيوية ٢٠٣ ، ١٦٥/١٩٢٨ ، الظاهرية ، الفقه الشافعي ١٧٢ ـ ١٧٣ ، حسن حسني ، بساط العقيق ٣٩ ، وهذا المصدر الأخير يسميهم جماعة العلم .

(٣) وتعبير طلبة العلم مألوف جداً ، ولا بد أن يكون مأخوذاً من الحديث الشريف المشهور : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » .

(٤) عن الفقهاء انظر السبكي ، معيد النعم ، المرجع السابق ، الفتاوى ، (الظاهرية ، الفقه الشافعي ٣٨٥) ١٧٢/ب .

(٥) إرشاد الأريب ٤٢٠/٢

ورغم أننا نقصد حتماً بالمنتفعين من الوقف المشتغلين بـالعلم الشريفا[1] ، (أي العلوم الدينية) ، نفترض شرعاً من النـاحيـة العمليـة أنّ كل من يطلب مراجعة كتـاب في مكتبـة عـامـة ، يعتبر من طلاب العلم الشريف . ولا شـك أن الكتب التي توضع تحت تصرفهم هي وقف عام من الناحية الفعلية .

ونـدرك لمـاذا لم يجعل الواقفون وقفهم عـامـاً يشمل الجميع ، بل وحصروه على طلاب العلم الشريف ؛ ذلـك لأنهم يريـدون إبعـاد الفضـوليين والجـاهلين الـذين يظهرون بمظهر العلماء . ولـذا يشترط أن يكون المستفيـد من الكتب محسوبـاً في هؤلاء الطلبة ، أي حـائزاً على معـارف أوليـة ، ومتبعـاً في سلوكـه سلوك رجـال العلم .

وهنـاك وقف عـام آخر أكثر شيوعـاً ، وهـو الـوقف على جميـع المسلمين دون تمييز[2] . ونشير إلى فئة معينة لبعض المسلمين الذين يعلنون بعقلية التدين الضيق أحياناً عن وقف مقصور على أهل السنّة[3] والجماعة[4] .

وتـؤول أشكال الـوقف عمليـاً إلى وقف عــام دون حصر . وينتهي الأمر إلى الاستغنـاء عن التعـابير التقييـديـة التي لا قيمـة عمليـة لهـا . ويرى بعضهم أن كل شخص يرغب بمراجعة كتب موقوفة يمكنه القيام بذلك[5] .

ورغم أننا وضعنا مقياساً شرعياً في الفصل المتعلق بالصفات العامة للمكتبـة ،

---

(١) عليش ١٥٨

(٢) الظـاهريـة ، مجموع ١١٦ (٣) ، ٩٣ (١٥) ، لغـة ٤٢ ، ٥١ ، حـديث ٢١ ، وانظر أيضـاً خلاصـة الذهب ٢٠٨ ، ابن عساكر ، تبيين كذب المفتري ٢٦٩

(٣) الظاهرية ، حديث ٢٣١

(٤) الظاهرية ، حديث ١١٧

(٥) كا هو الحال في الأحمدية بحلب ، مقدمة الفهرس ، رقم ١٤٧١ ، وفي مكتبـة تكيـة عبـد الغني ، دائرة الأوقاف ، سجل ١١٨/٣

إلا أننا لم نتمكن من تحديد نوع الأشخاص الذين كانوا يعملون فيها . ولا تشير المعلومات التي بين أيدينا إلا إلى حالات خاصة ، وهي هامة مع ذلك .

وأورد ابن الفوطي خازن المستنصرية أسماء أربعة أشخاص ، كانوا يحضرون للعمل بانتظام فيها ، كان من بينهم ثلاثة مرتبطون بالمدرسة ، وهم قوام الدين أبو القاسم هبة الله بن أحمد الشهرباني مدرس النحو[١] ، وقوام الدين أبو بكر بن أبي النجم الدرزي المعيد[٢] ، ومجد الدين علي بن يعقوب الكنكدي الفقيه[٣] والرابع غريب عن موظفي المدرسة ، وهو قوام الدين محمد أبو عبد الله العكيكي ، الأديب المشهور في عصره[٤] .

ولم يكن العلماء المشهورون ليأنفوا من المجيء إلى المكتبة ليعملوا فيها . وقد لازم جلال الدين محمد بن سعد الدين القزويني الذي قدم دمشق زمن تنكز (ت ٧٤١ هـ / ١٣٤٠ م) لازم في المكتبة العامة المشهورة بدمشق (؟) ، لأن الإعارة الخارجية فيها كانت ممنوعة[٥] . وقيل : إن سليمان بن عبد القوي الطُّوفي المعروف بابن أبي عباس الحنبلي (٦٦٧ هـ / ١٢٥٨ م - ٧١٦ هـ / ١٣١٦ م) طالع أكثر كتب خزائن بلدة قوص[٦] في مصر[٧] .

جـ - العمل في المكتبة :

كانت المكتبات العامة في العصر العباسي - حين لم تكن الطباعة موجودة

---

(١) ابن الفوطي ، تلخيص ، (الظاهرية ، التاريخ ٢٦٧) ٢٥٣

(٢) المرجع السابق ٢٣٩

(٣) المرجع السابق ١٢١

(٤) المرجع السابق ٢٤٨ ، العمري ، مسالك (أياصوفيا ٣٤٢٢) ٥٦/ب .

(٥) العمري ، مسالك (أياصوفيا ٣٤٢٢) ٥٦/ب .

(٦) ابن حجر ، الدرر الكامنة ١٥٥/٢

(٧) عن قوص انظر معجم البلدان ٢٠١/٤

بعد ـ مخصصة لهدفين مختلفين : المطالعة والنسخ[١] . ونلاحظ في الحالين أن أسلوب إيصال الكتب وعمل الرواد في المكتبة هو الأسلوب نفسه .

ولدينا من أجل أن نتصور هذا الأسلوب مقامة الحريري ، والأعمال التي نلاحظها إلى اليوم في بعض المكتبات القديمة كذلك . يترقب القارئ وقت فتح المكتبة ، ليتوجه إلى الخازن ، فيطلب منه فهرس المكتبة الذي يضعه بقربه ، وقد يستغني أحياناً عن الفهرس ، ليطلب الكتاب المرغوب من الخازن مباشرة[٢] . ويبدو أن الخازن يجلب الكتاب المطلوب عادة دون الرجوع إلى الفهرس ، ثم يقدمه للقارئ الذي يمكن له عند الاقتضاء أن يطلب ورقاً وحبراً لكتابة بعض المقاطع ، أو للإشارة إلى بعض الملاحظات ، من غير أن يكتب نسخة عن الكتاب[٣] . ومن ثم يبحث القارئ عن مكان ، ويجلس على الأرض[٤] وأحياناً على وسادة[٥] ويستند غالباً إلى الجدار . وقد يضع الكتاب فوق رجليه المتشابكتين بشكل أفقي[٦] وربما يضعه على طاولة خشبية صغيرة أمامه . وعند انتهائه من الكتاب يعيده إلى الخازن ، ويطلب منه غيره ، أو يغادر المكتبة ، دون أن يترك ورقة مكتوبة .

ويبدو أن العمل في المراجعة يفوق من حيث الأهمية نسخ الكتب . ورغم أنه يُنصح بعدم الانقطاع لنسخ الكتب لأنه يؤثر على تعلم العلوم[٧] ، إلا أن نسخها

---

(١) كما يظهر ذلك من دراسة دار العلم بالقاهرة والموصل . وانظر المقدسي ٤١٣

(٢) هكذا يقوم العمل في مكتبة تكية عبد الغني بحلب حسب بنود الوقفية ، (دائرة الأوقاف ، سجل ١١٨/٣) .

(٣) انظر الصفحتين ٣٧٩ ـ ٣٨٠

(٤) تلك هي العادة في الشرق . انظر ابن أبي أصيبعة ١٥٥/٢ ، والوافي (أحمد الثالث ، ٢٩٢٠) ١٢٢

(٥) هكذا كان داعي الدعاة يجلس للقراءة ، المقريزي ٤٠٣/١

(٦) كما في مقامات الحريري ، مخطوطة المكتبة الوطنية ، القسم العربي ٥٨٤٧

(٧) ابتهاج ٢٣٠/١

يفيد المكتبة فائدة كبرى . وكانت ملكية الكتاب شخصية ومحفوظة في العصر الذي لم تكن فيه مطبعة . ولم يكن يجوز نسخ كتاب دون إذن صاحبه[1] الذي يستطيع أن يرفض إن شاء ، لأنّ ذلك يضرّ أحياناً بندرة الكتاب . أما الكتب الموقوفة فلها وضع آخر . وتقول كتب الآداب الشرعية : ولا بأس بالنسخ من الكتاب الموقوف[2] ، ووقفيات المكتبات من جهة أخرى تجيز بصراحة هذا السماح ؛ فتذكر وقفية الأحمدية بحلب والعثمانية كذلك ما يلي :

« ويكتب طالب الاستفادة منها ما يريد »[3] . ويضيف فهرس الأولى : « دون أي إساءة ، ودون أن يناقض شيئاً »[4] . ولو لم يكن لدينا وقفية تتعلق بالعصر العباسي فإن بعض المؤلفات التاريخية تخبرنا أنّ القاعدة نفسها كانت متبعة في مكتبة البصرة ورامهرمز[5] وفي مكتبة دار العلم بالقاهرة[6] ومكتبة الأشرفية[7] . وعلى الصفحة الأخيرة من كتاب في الفقه لا أهمية له : انتهى الجزء الثاني بيد يحيى بن عبد الغني إمام تربة الشهيد الملك الأشرف بتاريخ الأربعاء ٢٨ ذي الحجة الحرام لعام ٨٥٣ هـ / ١٤٥٠ م . وهذه الوقفية تفسر لنا ـ كما يخبرنا المعري ـ[8] لماذا كان عدد النساخ يزداد ازدياداً كبيراً في دار العلم ببغداد حتى عينت لهم توفيق السوداء خصيصاً لتقدم لهم الكتب المطلوبة . فإن لم ننس أهمية الكتب الموقوفة ـ كما عرفنا من قبل ـ التي تشكل أنفس المصنفات العربية ،

---

(١) ابن حجر ، الفتاوى الحديثية ١٦٣/١ ، ابتهاج ٢٣٠/١

(٢) السبكي ، معيد النعم ١٣١ ، ابن حجر ١٦٣/١ ، ابتهاج ٢٣٠/١

(٣) المحكمة الشرعية ، سجل ربيع الأول ، ٢٨٣/١٣٠٢ ، المحكمة الشرعية ، سجل شوال ، ٧٤/١٣٠٠

(٤) فهرس رقم ١٤٧١ ، ١/ب .

(٥) المقدسي ٤١٣

(٦) المقريزي ٤٥٨/١

(٧) السبكي ، الفتاوى (الظاهرية ، الفقه الشافعي ٣٨٥) ١٩٩

(٨) رسالة الغفران ٧٣

أدركنا لماذا كان الأغراب والمقيمون يبادرون إلى أجمل المكتبات لينسخوا فيها الكتب النادرة ، فيبيعوا مانسخوه ، أو يحتفظوا به لأنفسهم .

وينبغي أن ندرك أيضاً أنه كان لابد من إجراءات احتياطية ـ بسبب التسامح ـ كما تخبرنا كتب أدب الدين . منها ألا يوضع الكتاب في الأرض مفروشاً منشوراً ، بل يجعله القارئ بين شيئين ، و [الأفضل] أن يضعه على كرسي[1] ، ولا يُنسخ منه والقرطاس بباطنه وعلى كتابته ، ولا يضع الناسخ المحبرة عليه ، ولا يمر بالقلم الممدود من الحبر فوق كتابته[2] .

---

(١) ابن حجر ، الفتاوى الحديثية ١٦٣/١

(٢) المرجع السابق .

الفصل الحادي عشر

الإعارة الخارجية[1]

اختلف الواقفون الذين كانوا ينشئون مؤسسات الكتب في موضوع الإعارة الخارجية . فاعتبره بعضهم هدفاً ضرورياً من أهداف الوقف ، بينما رأى آخرون ـ وهم يقرون بفائدته ـ وجوب منعه ، لتجنب الضياع المحتمل في الكتب .

والظاهر أنّ أغلب المكتبات العامة أخذت به . والإعارة من حيث المبدأ عمل حميد مناسب لابد منه ، لا في المكتبات العامة فحسب ، بل وفي المكتبات الخاصة أيضاً[2] . والواقع أن بعض علماء المسلمين يرون أنه لابد من تيسير دراسة الطلاب وضرورة وضع الكتب بين أيديهم على سبيل الإعارة . ومن هؤلاء : الحسين بن محمد بن عبد الله الطيبي (ت ٧٤٣ هـ / ١٣٣٣ م) ، وكان يعير كتبه النفيسة لأهل بلده وغيرهم من البلدان من يعرف ومن لا يعرف[3] .

وكان سليمان بن يوسف بن مفلح الياسوفي (٧٣٩ هـ / ١٣٣٨ م - ٧٨٩ هـ / ١٣٨٧ م) معيناً للطلبة على مقاصدهم بجاهه وكتبه[4] . كذلك كان محمد بن داود بن ياقوت الصارمي (ت ٦٦٠ هـ / ١٢٦١ هـ) يعير كتبه[5] .

---

(١) انظر بنتو ، المكتبة ١٥٨

(٢) وهذه هي المراجع التي تمدح إعارة الكتب : العلموي ١٣٠ ، ويل ، الشعر العربي ٥٥٨ ، ابتهاج ٢١٩/١ ، ابن حجر ، المرجع السابق ١٦٣/١

(٣) بغية الوعاة ٢٢٨ ، ابن حجر ، الدرر الكامنة ٦٩/٢

(٤) ابن حجر ، المرجع السابق ١٦٦/٢

(٥) الطبراني (المكتبة الوطنية ، عربي ، ٥٥١٦) ٩٥/أ .

ويبدو أنّ الإعارة تقدم لمستعملي المكتبة نفعاً عظيماً ، وربما نفعاً أساسياً . وقد كانت الحاجة إليها في العصر العباسي أكثر ضرورة منها في أيامنا ، لأن سعر الكتب الباهظ دفع الناس إلى نسخها لاستعمالهم الخاص ، وليس ذلك بالعمل اليسير ولا المأمول في المكتبة . هذا وقد أنشئت بعض المكتبات بهدف الإعارة ، وهي المكتبات شبه العامة بشكل خاص . حتى لنجد في بعض الوقفيات أنها تقتصر خدمتها على الإعارة ، أو تجعل لها المكان الأول على الأقل . ونجد في الظاهرية على أحد كتب اللغة ذي الرقم ٤٢ علامة الوقف التالية المؤرخة سنة ٧٤٠ هـ : « وقف على سائر المسلمين ، مقره بالمدرسة الجوزية بدمشق المحروسة ، ينتفع به من له به حاجة ، ثم يرده إليها » . وهذا الكلام يوضح أنه مخصص للإعارة الخارجية .

وتوضع للإعارة عادة شروط غير الشروط التي تحدد المستفيدين من الوقف . ويُستطيع المستعير إتلاف الكتاب عندما يكون بعيداً عن رقابة الخازن ، إلا أنه لا يُسمح بالإعارة إلا لمن يُعرفون بالمحافظة على الكتب المعارة[1] ، ولا يتلفونها[2] . ونفهم على هذا أن المقصود من ذلك التمزيق وبقع الحبر والتلويث المحتمل[3] وبعثرة الأوراق[4] . ولا يتساهل بخروج الكتاب إن خيف أن يباع أو يرهن[5] أو يسرق[6] . ولو كان قد خصص لغاية حرمها الله[7] وعندما تقوم بعض المخاوف يسمح للخزنة الأحناف باللجوء إلى الحيل ليمنعوا الإعارة .

---

(١) العلموي ، ١٣ ، ابتهاج ، ٢١٩/١

(٢) ميرسيبه ، ١٤٩ ، عن كتاب الإفصاح . وانظر أيضاً الابتهاج ، ٢١٩/١ ، ابن حجر ، الفتاوى الحديثية ، ١٦٣/١

(٣) ميرسيبه ، ١٧٠ ، عن محمد بن يوسف الإطفيش .

(٤) الابتهاج ، ٢١٩/١ ، ابن حجر ، المرجع السابق ، ١٦٣/١

(٥) ميرسيبه ، المرجع السابق .

(٦) المرجع السابق ، قانون العدل ١٨ ، كوتّا ١١٥ ، ابتهاج ٢١٩/١

(٧) الابتهاج ٢١٩/١

وكانوا يلجؤون إلى كتابة صيغة منع الإعارة على صفحة العنوان ، إلا أنها غير مقبولة مع هذا ، باعتبارها غير مسجلة في المحكمة[1] . وحينما لا ينفَذ المستعير الشروط الضرورية للمحافظة على الكتاب المعار ، يقال له : إن الواقف الذي تجب مراعاة شروطه منع خروج كتبه من المكتبة ، وأشار لهذا المنع في الوقفية .

والواقع أن القاعدة العامة هي اتباع شروط الواقف التي تجيز الإعارة أو لا تجيزها . وإن لم يشترط الواقف ذلك جاز إعارتها[2] .

ولما كان للمكتبة صلاتها الوثيقة مع المقصد الأول للمؤسسة لزمها وبشكل طبيعي أن تفيد المدرس أولاً من الإعارة . وتذكر وقفية المدرسة العثمانية بجلب أن على خازن الكتب أن يقدم للمدرس كل ما يحتاج إليه من الكتب[3] . وكذلك فإن لنزلاء المؤسسة الحق بالاستعارة . ومع هذا فعندما تكون الإعارة ممنوعة بشكل صريح يسمح لهم بجلب الكتب إلى الغرف التي يسكنونها في المؤسسة . ووضعت المدرسة الأحمدية بحلب كتب مكتبتها في خدمة الطلاب القاطنين فيها بشرط ألا تخرج منها[4] . ومنع في المدرسة المحمودية بالقاهرة أن يخرج كتاب لأحد إلا أن يكون في المدرسة[5] .

والإعارة في المكتبات شبه العامة نادرة على ما يظهر ، وبرغم كل شيء ، ويمكننا أن نؤكد أن الإعارة في المكتبات العامة كانت أكثر شيوعاً . وقد كان ياقوت الحموي يحتفظ في بيته بمئتي مجلد أو أكثر[6] ، استعارها دون رهن من

---

(١) ابن عابدين ، الحاشية ٢٨٧/٢

(٢) قانون العدل ٢٨ ، كوتا ١١٥

(٣) المحكمة الشرعية ، سجل ٧٤/١٣٠٠

(٤) المرجع السابق ، سجل ربيع الأول ، ٢٨٣/١٣٠٢ ، والفهرس رقم ١٤٧١ ، ١/ب .

(٥) المقريزي ٣٩٥/٢

(٦) معجم البلدان ٥٠٩/٤

مكتبة الضيائية . وقبل أن يغادر النووي (ت ٦٧٦ هـ / ١٢٧٧ م) دمشق أعاد جميع الكتب التي استعارها من مكتبات الوقف العديدة[١] . ولم ينقطع طيبغا الدوادار الآنوكي (ت ٧٥٢ هـ / ١٣٥١ م) في بغداد عن استعارة الكتب التي تعجبه وكان لا يردها حتى يطالعها[٢] . وأخرجت مصنفات من مكتبة الأشرفية بدمشق ، ككتاب تاريخ الدبيثي لتنسخ خارجها[٣] .

وكان طبيعياً للمحافظة على الكتب المعارة أن يفرض من أجلها الرهن . وقد طولب بالرهن حتى في المكتبات الخاصة[٤] . والبيت التالي يشهد بذلك :

أعر الدفتر للصاحب بالرهن الوثيق   ليس قبحاً أخذ رهن من صديق[٥]

ولكن مبدأ خزن الرهن في المكتبات العامة القائمة على نظام الوقف لاقى عقبات قانونية . ويؤلف الرهن المحتفظ به في الواقع قيمة تساوي قيمة المرهون ، بحيث لو أتلف هذا المرهون سدّ الرهن قيمته أو ما يعادلها . ونحن نعلم أن استيفاء القيمة لا يكون إلا بأشياء نملكها . والوقف بالتالي ليس ملكاً ، ولا يجوز أن يكون مقابل رهن[٦] . والأشياء الموقوفة والمعارة من جهة أخرى تعتبر أشياء وضعت للحفظ ، أو وكّل بها أشخاص ، ولا تعتبر إعارة فعلية[٧] ، فلا يمكن أن تكون إذن مقابل رهن . وإن بليت لا يعوضها أي إصلاح[٨] . فإن اشترط واقف الكتب

---

(١) السخاوي ، ترجمة النووي (الظاهرية ، التاريخ ٧٣١) ١٥٨

(٢) ابن حجر ، الدرر الكامنة ٢٣١/٢

(٣) كما في نسخة المكتبة الوطنية ، القسم العربي ، ٥٩٢٢ المنقولة عن نسخة الأشرفية سنة ٦٣٦ هـ .

(٤) ابن النجار ، ذيل (الظاهرية ، التاريخ ٤٢) ترجمة عفان بن غالب بن أيوب .

(٥) الخطيب ، الجامع لأخلاق الراوي والسامع (الظاهرية ، مجموع ٥٥ (١٢)) ٥/ب .

(٦) ابن عابدين ، الحاشية ٣٧٨/٢

(٧) قانون العدل ٢٣ ، كوتا ١١٥ ، الابتهاج ٢٢٣/١ ، ابن عابدين ، المرجع السابق .

(٨) المرجع السابق .

ألا تعار إلا برهن فشرطه غير معتبر[1] ، كما نصّ الفقهاء . ولا يُقبل الرهن مقابل الإعارة من الناحية الشرعية[2] ، والمنع أمر شكلي كما نرى ، لكن ضرورة أخذ الرهن من أشد الضرورات إلحاحاً ، فوجد لها الفقهاء فتوى ، فقالوا : إذا أطلقنا على كلمة الرهن معناها اللغوي لا الشرعي فقصدنا بالرهن التذكرة[3] جاز[4] . ويضيف الفقهاء من أجل إلغاء أثر الخطر التشريعي لرهن الكتب الموقوفة : وإذا لم نتمكن من تمييز المعنى الدقيق الذي أراده الواقف من كلمة رهن واستعمله ، حملناه على المعنى اللغوي[5] ، فيصير مقبولاً .

ومن أجل أن يتخلص فقهاء آخرون من الغموض والتناقض تساهلوا وبدون حصر بأخذ الرهن في إعارة الكتب[6] لكنهم وصفوا لهذا الرهن غاية محددة ، وهي : دعوة المستعير لإعادة الكتب التي استعارها[7] .

ولتجنب الجدل النظري ، وإعطاء شروط الوقف صيغاً شرعية تكون مقبولة ، بالإجماع دون تغيير عند تطبيقها العملي ، استعمل بعض الواقفين كلمة تذكرة بدلاً من عبارة رهن ، أي شيءٍ مودع ليُذكّر بشيء آخر . وقبل الفقهاء بهذا التعبير . وذكروا : أنه في بعض الأحوال تطلب تذكرة ، وهو شرط مقبول ، يصح أن تؤخذ من المستعير[8] . وأضافوا : من حق الواقف تماماً أن يوجب هذه التذكرة للانتفاع بوقفه . ولا يمكننا مع هذا أن نؤكد أن التذكرة تعتبر رهناً ،

---

(١) قانون العدل ٢٨ ، كوتا ١١٥

(٢) ابن عابدين ، المرجع السابق .

(٣) انظر التعريف اللغوي لكلمة رهن عند الفيروزآبادي ٢٣١/٤

(٤) ابن عابدين ، المرجع السابق ٣٧٨/٣ ، الابتهاج ٢٢٢/١

(٥) ابن عابدين ، المرجع السابق .

(٦) السبكي ، معيد النعم .

(٧) إعانة الطالبين ١٧٢/٣

(٨) قانون العدل ٢٨ ، كوتا ١١٥

لأن المستعير يستطيع استردادها إن شاء ، وعندئذ يطلب الخازن منه إرجاع الكتاب . وليس لها على كل حال طبيعة الرهن [1] . وقد أثبت بعض الواقفين المتمكنين من الفقه استعمال التذكرة في أوقافهم ، فاشترط ابن الحاجب في أحد كتبه ألا يخرج من المكتبة إلا مقابل تذكرة حسنة [2] . وعلى المستعير أن يضع بدل الكتاب الذي يأخذه رهناً أو تذكرة تضمن قيمتها قيمة الكتاب . وكان يجب في مكتبة المأمونية ببغداد [3] أن يساوي الرهن قيمة الكتاب المستعار . وفي مكتبة ابن البزوري بدمشق وجب أن تساوي قيمته ضعفي قيمة الكتاب [4] . بينما اشتُرط في رباط نجم الدين بالمأمونية في بغداد أن تفوق قيمته قيمة الكتاب [5] .

واستعمل شكل آخر للضمان في الإعارة : وهو كفالة شخص معروف . وهذا ما نراه في المكتبات التي تلت العصر العباسي ؛ فنزلاء المدرسة الأحمدية بحلب لم يكونوا يستطيعون استعارة الكتب واصطحابها إلى غرفهم إلا بكفالة المدرس . ولم تذكر ذلك مكتبات العصر العباسي صراحة ، إلا أننا نجد صيغاً لا تشير إلى وجودها برغم من أنها كانت تحظيرية . واستعمل تاج الدين الحسيني في وقفياته الصيغة التالية : « لا يخرج هذا المجلد لا برهن ولا بكفيل » [6] . وتدل هذه الصيغة على أن الكتاب في ذاك الزمن لم يكن يُسلّم إلا عند حضور الكفيل .

وعندما يعار الكتاب يجب على المستعير أن يتصفحه ليعلم إن كان في حال حسنة [7] ، ويتعين عليه أن يعتني به ، فلا يعرضه للتلف ، وأن يقدره حق

---

(١) ابن عابدين ، المرجع السابق .

(٢) الظاهرية ، مجموع ٩٧ (١) .

(٣) تفسير الماوردي عند السيد عنتابي بحلب F ، ١/أ .

(٤) الظاهرية ، التاريخ ٦٦ ، التصوف ١١٨

(٥) الظاهرية ، الحديث ٢٥٦

(٦) الظاهرية ، الحديث ١٤٨ ، الفقه الشافعي ٢

(٧) العلموي ١٣٢

قدره ، وألا يمسكه بغلظة[١] ، ويمكنه أن ينسخ بعضاً منه[٢] ، ويصححه إن وجد فيه مقاطع مغلوطة ، وكان ذا خط حسن ، ويوصي مع ذلك أن يطلب إذن الناظر[٣] . ولا ينبغي إعارة الكتاب المعار من مكتبة عامة لشخص ثالث ، لأن للمستعير وحده الحق بالاستفادة به دون غيره[٤] ، ولا يتصرف به تصرفاً كاملاً .

ويتعين إعادة الكتاب حين الانتهاء منه[٥] ، ويمكن لمن أعاد كتاباً استعاره أن يأخذ غيره[٦] . وتذكّر الوقفيات أحياناً بضرورة إعادة الكتاب عند الانتهاء منه[٧] وإذا رفض المستعير إعادة الكتاب مدعياً أنه لم ينته منه ينتظر نهاية المدة المحددة ، فإن لم يتفق على مدة معينة تتبع عندئذ العادة المعروفة . وينبغي أن تكون المدة متناسبة مع عدد صفحات الكتاب كما يؤكد القاضي عياض . إذ تتطلب كل صحيفة يوماً واحداً ، وهذه مهلة كافية تماماً للقراءة والنسخ[٨] . ولكنها مهلة طويلة جداً كما نرى . ويكفي في الواقع شهر واحد للمطالعة في الكتاب المعار ، كما قرر ابن خلدون في وقفه بجامع القرويين ، وابنة جمال الدين بن حسن الحمصية لوقفها في الضّيائية[٩] .

والإعارة آفة المكتبات الخطيرة ، سواء أكانت طويلة أم قصيرة[١٠] ، وليست

---

(١) الابتهاج ٢٣٢/١

(٢) العلموي ١٣١ ، ابن حجر ، الفتاوى الحديثية ١٦٣/١

(٣) المراجع السابقة .

(٤) الابتهاج ٢٣٢/١

(٥) ابن حجر ١٦٣/١ ، الابتهاج ٢٣٢/١

(٦) الخطيب البغدادي ، الجامع لأخلاق الراوي والسامع . الظاهرية ، مجموع ٥٥ (١٢) ٣/ب ، و ٣/أ ، ونقل العلموي ١٣١ كل ما يتعلق من الآداب في الحث على إعارة الكتب .

(٧) الظاهرية ، مجموع ٩١ (٣) ، ٧٠ (٧) .

(٨) الابتهاج ٢٣٣/١

(٩) الظاهرية ، السيرة ٢٨

(١٠) كما قال أبو علي اليوسي ، الابتهاج ٢١٩/١

هنـاك عقوبـة شرعيـة في الواقع بحق من لا يـولـون الكتب اهتمامهم . وقـد رأينـا كيف اعتبر الفقهـاء الوقف شيئـاً مبـاحـاً[1] ، فـما أجـازوا أخـذ تعويض في حـال ضيـاعـه[2] ، مما سبب تنـاثر الكتب . وكانت الإعـارة سببـاً في اختفـاء مكتبـة ابن حيـان في بُست[3] . ولا نخلو من دهشـة عنـدمـا نجد على كتـاب موقوف في المدرسة العمرية ما يلي : « هذا الكتاب عند الفقير عبده تعالى رمضـان بن موسى الحنفي عارية من الكتب الموقوفة بمدرسـة أبي عمر »[4] كما لو أن الرجل سيحتفـظ بالكتاب حفظاً مؤبداً .

وبذلك ندرك لماذا منع بعض الواقفين إعارة الكتب بأي ثمن . ومن الطبيعي أن يكون الأفراد أكثر تشدداً في هذا الموضوع ، بـاستثنـاء بعض الـذين لا يعيرون كتبهم إلا بصعـوبـة ، ويستطيعـون أن يردوا عنهم المستعير المستهتر[5] . وفي كثير من الشعر والنثر نصائح بعدم إعارة الكتب التي صُرف العمر في نسخها[6] .

وقد كره الإعارة فطيس عبد الرحمن بن محمد . وعندما كان أحد المستعيرين يلح عليه في الطلب كان يدفع الكتاب المطلوب إلى النـاسخ فينسخـه ، ثم يسلمـه لطالبه[7] .

وقد نفّر بعض مؤلفي كتب أدب الـدين من إعـارة الكتب الموقوفـة ، لأنهـا تؤدي إلى الإضرار بهذه الكتب[8] . ومنعت مكتبات كثيرة إعارة الكتب . ويبدو

---

(١) ص ٣٨٤ ـ ٣٨٥

(٢) ماعدا كتب الأفراد : الابتهاج ٢٢٧/١

(٣) معجم البلدان ، بُست ، وستنفيلد .

(٤) الظاهرية ، التاريخ ٦٢ ، النحو ١٥٤

(٥) أورد الخطيب البغدادي في تقييد العلم ١٤٦ ـ ١٥٠ كل ما يتعلق من الآداب في موضوع الإعارة .

(٦) ويل ، Arabische Verse über ausleichen 559 .

(٧) ابن بشكوال ٣٠٥/١

(٨) الابتهاج ٢١٩/١ ، ابن حجر ، الفتاوى الحديثية ١٦٢/١

أنّ النظامية منعتها[١] . وبقيت مكتبة المحمودية بالقاهرة - زمن المقريزي - عامرة ، لأنها لم تسمح بإخراج كتاب منها[٢] .

ويُبَرر هذا التشدد بسبب ضياع الكتب التي لا تعوض ، ولا تمنع الضياع أي حيطة . ونجد صدى ذلك عند تاج الدين الحسيني الذي منع إعارة الكتب مع وجود الرهن والكفيل[٣] وفعلت مثل ذلك إحدى وقفيات متأخرة أيضاً ؛ فمنعت وقفية العثمانية[٤] والأحمدية[٥] الإعارة بوجود الرهن أو بغيره . ومُنع فضلاً عن ذلك خروج الكتب حتى للتجليد[٦] .

وندرك في وقفيات هذه المكتبات المتأخرة وجود الإساءة في موضوع الإعارة ، فقام المنع بسببها ، ونظنّ أنّ الشخصيات الهامة كانت تسبب أفدح الأضرار للكتاب المعار ، ولذا منعت وقفية تكية عبد الغني[٧] والأحمدية[٨] بشكل خاص إعارة الكتاب لرجال الدولة والسلطة .

---

(١) ابن حجر ، ذيل (الظاهرية ، التاريخ ٦١) ١٠٦/ب ، العليمي ، المنهج ٢٦٣/١

(٢) المقريزي ٣٩٥/٢

(٣) في وقفية الظاهرية ، حديث ١٤٨ ، والفقه الشافعي ٢

(٤) المحكمة الشرعية ، سجل شوال ٧٤/١٣٠٠

(٥) المرجع السابق ، سجل ربيع الأول ٢٨٢/١٣٠٢

(٦) المرجع السابق ، سجل شوال ، ٧٤/١٣٠٠ وقد يتساهل فيه (الظاهرية ، الأصول ٩٠) .

(٧) دائرة الأوقاف ، سجل ١١٨/٣

(٨) المحكمة الشرعية ، سجل ربيع الأول ، ٢٨٣/١٣٠٢

خاتمة عامة

لا نعتقد أن الأشياء الأصيلة إبداع مفاجئ لا يسبقه أي تحضير من قبل . ولذا بذلنا ما بوسعنا في الفصل المتعلق ببيوت الحكمة ، لنبرهن على وجود مثال أخذت به الخزائن العربية الأولى ، فاستطعنا على ما يبدو أن نثبت أنّ المسلمين استعاروا من الحضارات السابقة لهم شكل بيوت الحكمة وغايتها . فجعلوها مقراً للعلماء يقومون بالمناظرة والتأليف والترجمة وأعمال التنجيم . فبرز العمل فيها بقليل من الزمن . وعرفت علوم الحكمة التي انتشرت آنذاك حتى في مجال العلوم الدينية . وعلماء أهل السنة الذين ظلوا بمنأى عن بيوت الحكمة أظهروا مقاومتهم لها ، واتهموا المحتمين في تلك البيوت بالزندقة . وقد حاول هؤلاء الأخيرون العقلانيون المتمسكون بأفكارهم ، حاولوا فرض آرائهم بالإقناع أولاً ، ثم بالإرهاب . ولكن تغلبت كفة أهل الحديث على كفة المعتزلة فأصاب بيوت الحكمة من ذلك ضربة قاضية ، فوقفت عن أداء مهمتها الأولى ، وخرجت من حضانة الخلفاء إلى حماية بعض كبار الشخصيات ثم نبذها هؤلاء أيضاً . فقضي عليهم قبل نهاية القرن الثالث / التاسع .

ولم يدرك الفقهاء قبل ذلك قوة الكتاب في نشر الفكر عند عامة الناس ، فكانوا يتناقشون في هل يجوز وقف الكتب للناس فيقرؤونها ، وتصبح ملكاً مؤبداً لهم ، حتى إذا استقر رأيهم على جواز ذلك فأدخلوها فيما يصح وقفه رأى علماء بيوت الحكمة أن يستفيدوا من هذا الجواز فينشروا رأيهم بكتب يقفونها في مكان لا ينتزعه منهم منتزع ، لأنه وقف مؤبد . ولما ترجمت علوم الأوائل واتسعت العلوم العربية الإسلامية حملوا هذه إلى تلك وأسسوا للاثنتين داراً سموها

دار العلم . وجمعت كلمة العلم بين هذين الصنفين من العلوم (القديم والحديث) . وأقام الفقهاء إلى جانب الكتب مدرسين ليعلّموا مذهبهم من خلال دروس الفقه والنحو والعلوم الأخرى . فامتزجت العلوم المختلفة في علم واحد ، وجمعتها كلمة (العلم) . وفي هذا الوقت المحدد من التاريخ دخلت خزائن الكتب العربية الإسلامية طور مهمتها الإبداعية . وانتقلت من مرحلة كانت فيها مركزاً لعدد محدود من العلماء إلى طور أصبحت فيه مدرسة عامة . وغدت بالتأكيد مؤسسة أصيلة بكل معنى الكلمة . ومع أنها وصلت إلى ذروة تطورها ، لكنها لم تنكر جذورها ولا تأثرها السابق ببيت الحكمة .

وشعر رجال السلطة بتأثير هذه المؤسسة الذي مارسته على المثقفين ، ولا سيا العلماء منهم ، فبادروا بخدمتها لنشر مذهبهم الخاص ، مذهب الشيعة .

ونشروا دور العلم في كل مكان ، في المدن الكبرى من العراق ومصر والشام وأغدقوا عليها الأموال ، أوقفوها عليها ، ودعوا إليها العلماء ليسكنوا فيها ، وأجروا عليهم الأرزاق . وظل الكتاب هو المسيطر ، ففرض مكانته في دور العلم التي سميت أحياناً دور الكتب .

ولم تكن مسحة التشيع على دور العلم لتخفى على الحكام السنيين الجدد الذين حكموا منذ منتصف القرن الخامس / الحادي عشر في العراق ، وفي القرن السادس / الثاني عشر في الشام ومصر . وما أن دخل السلاجقة العراق والأتابكيون الشام والأيوبيون مصر ، حتى تشتتت دور العلم . ولم يجهل الحكام الجدد أثر هذه الدور في نشر مذهب الدولة ، والدعم الذي لقيته السياسة فيها . فأنشؤوا هم بالتالي مؤسسات مشابهة ، مع تغييرات تطلبتها الظروف . وعرفوا أن الخطأ الأساسي في خطة الشيعة بمجال دور العلم هو أنّها كانت دوراً عامة غير محصورة بالرغم من أنّ هدفها الخفي ـ الثقافة الشيعية ـ عانى من هذه الدعوة .

واستطاع العلماء في دور العلم أن يسيئوا التصرف تجاه المذهب الشيعي ، وأن يقوموا فيها ليزرعوا الخلاف ، أو ليحاولوا توجيهها نحو أهداف مناقضة لأهدافها . وأنشأ الحكام الجدد لمؤسساتهم الجديدة وقد أدركوا ذاك الخطأ برنامجاً جديداً واضحاً ومحدداً من أجل حمايتها من كل خطر يمكن أن يلحق بها . فرتبوا أفكارهم عندما أبعدوا عن مؤسساتهم دور المكتبة ، وأنزلوها في المركز الثاني من الأهمية ، وأقاموها في خدمة المؤسسة التي ألحقت بها .

وهكذا ولدت المدارس ، ومن دور العلم خرجت ، وعلى مثالها حذت ونشأت مؤسسات أخرى على غرار المدارس ، ضمت الخزائن . فكنا نجد في كل مدينة من الشرق العربي الأدنى عدداً كبيراً من المؤسسات ، تضم معظمها خزانة ، تغذيها باستمرار أوقاف كتب جديدة .

واستمر الوضع على تلك الحال حتى جاء تيمورلنك بجيوشه ففرض عليها الرقاد . وكان يبددها أحياناً .

وهكذا مرت المكتبات العربية بثلاث فترات ، تقابل ثلاث مراحل من تطور الثقافة العربية .

الأولى مرحلة بيت الحكمة التي تتزامن مع تبني الثقافات الأجنبية وانصهارها ، وقد قامت فيها المكتبات بمهمة سهلة . والثانية مرحلة دور العلم التي شهدت الصراع بين الملل والمدارس والاتجاهات الفكرية وساهمت فيه . والثالثة مرحلة المكتبات الملحقة التي ناسبت المؤسسة الثابتة للثقافة الإسلامية السنية . وقد شاركت المكتبات العربية مشاركة فعّالة في هذه الأطوار الثلاثة ومشت معها . فاعتبرت كأنها عامل نشيط في الحضارة العربية الإسلامية .

أما من جهة مشاركتها في نشر الثقافة فكانت تابعة للعصور . قدّمت المكتبة زمن بيت الحكمة نخبة من العلماء الذين سُمح لهم بالعمل فيها . وكانت دور العلم

مفتوحة لجميع المثقفين . وخصصت المكتبات الملحقة لمرتفقي المؤسسة الأم ، دون أن تغلق أبوابها في وجه الآخرين . ويلزم الاعتقاد عموماً أنّ المكتبات العربية العامة لم تكن للعامة تماماً ؛ لأنّ مهمتها كانت تنحصر بشكل خاص في تزويد المؤلفين بمواد بحوثهم ، والطلاب والمدرسين بكتب دراستهم وتدريسهم . وكانت بلا منازع كنزاً لا يقدر بالنسبة لهاتين الفئتين من الرواد .

ويدل نظامها وتكوينها على ترتيب العمل فيها وتنظيمه . إنها مؤسسة تقوم على نظام ابتداعي لم تنقله عن غيرها وإنما أخذته من أنظمة الوقف . ويبدو مع ذلك أن الجانب الفني في تنظيم الخزائن لم يكن موضع عناية خاصة ، ولا تعليم مطرد بدروس منظمة . ويبدو كذلك أن المكتبة استمرت على جملة من التقاليد التي يتصل بعضها ببعض في ممارسة المهنة . وما برزت الناحية الفنية التعليمية في دور الكتب بأوربا إلا في القرن التاسع عشر .

وأخيراً فيمكننا أن نؤكد بحق أنّ الخزائن العربية العامة تفوقت على المكتبات السابقة والمعاصرة لها تفوقاً عظيماً بغناها وعددها وتنظيمها ومهمتها . ولم تتفوق عليها المكتبات الحديثة إلا بعد قرن من اختراع الطباعة وانتشار الكتب الواسع .

ويجب أن تكون المكتبات العربية العامة بالنسبة إليها مثالاً لمؤسسة جديرة بالتأمل .

انتهى الكتاب بعون الله

مراجع الكتاب ومصادره

الآلوسي . تاريخ مساجد بغداد وآثارها ، (تهذيب محمد بهجة الأثري) بغداد ١٣٤٦ هـ
ابن الأبّار . التكملة ، مدريد ١٨٨٦م
إتحاف الأخلاف ، انظر عمر حلمي
ابن الأثير . أسد الغابة ، القاهرة ١٢٨٥ هـ
ابن الأثير . الكامل ، ليدن ١٨٥١ـ١٨٧١م
أحكام الأوقاف ، انظر الخصّاف
أحمد أمين . ضحى الإسلام ، القاهرة ١٣٥١ هـ
أحمد أمين . فجر الإسلام ، القاهرة ١٣٥٣هـ
أحمدبن يوسف . كتاب المكافأة (تح محمد شاكر) القاهرة ١٩٤٠م
الإربلي . خلاصة الذهب المسبوك ، بيروت ١٨٨٥م
إرشاد الأريب . انظر ياقوت
الأزهري . تهذيب اللغة (تح زيترستن)
أسرار الحكماء (مخطوطة مكتبة كوبريلي ١٢٠٥هـ)
الإسعاف في أحكام الأوقاف ، انظر الطرابلسي
أسماء مصنفات ابن أبي الدنيا (مخطوطة الظاهرية ، مجاميع ٤/٤٢)
الأسنوي طبقات الشافعية (مخطوطة الظاهرية التاريخ ٥٦)
الأصفهاني (أبو الفرج) ، الأغاني ، القاهرة ١٣١٣هـ
الأصفهاني (حمزة) ، سني ملوك الأرض ، برلين ١٣٤٠هـ
الأصمعي . تاريخ ملوك بني هود وغيرهم (مخطوطة المكتبة الوطنية ٦٧٢٦)
أصيبعة (ابن أبي أصيبعة) ، طبقات الأطباء (تح موللر) القاهرة ١٨٨٤م
إعانة الطالبين ، انظر البكري

الأعظمي (علي ظريف) ، مختصر تاريخ بغداد . بغداد ١٩٢٦م
الأغاني، انظر الأصفهاني
أكمل الدين (محمود بن محمود) العناية شرح الهداية (مخطوطة الظاهرية، الفقه الحنفي ١٩)
إمام الحرمين . النهاية (مخطوطة الظاهرية ٢٨٨)
الأنباري . نزهة الألبا إلى طبقات الأدبا ، القاهرة ١٢٩٤ هـ .
ابن إياس . بدائع الزهور في وقائع الدهور ، القاهرة ١٣١١ هـ .
باقر (محمد) ، روضة الجنات ، طبعة حجرية .
البحر الرائق ، انظر ابن نجيم .
البخاري (محمد سليم) ، رسالة حل الرموز في عقائد الدروز ، (مخطوطة الظاهرية ، عام ٧٢٥) .
بدائع الصنائع ، انظر الكاساني .
ابن بدرون ، شرح قصيدة ابن عبدون ، ليدن ١٨٤٦ م .
البرزالي (علم الدين) ، تعليقات (مخطوطة الظاهرية ، مجموع ١٨) .
البرزالي (محمد بن يوسف) ، المشيخة البغدادية للشيخ أبي العباس ، أحمد بن أبي الفتح المفرّج الأموي (مخطوطة الظاهرية) .
برنامج المكتبة العبدلية (الجزء الأول) ، تونس ١٣٢٦ هـ .
بغية الوعاة ، انظر السيوطي .
البكري (أبو بكر عثمان بن محمد شطا الدمياطي) ، إعانة الطالبين في حلّ ألفاظ فتح المعين ، القاهرة ١٣٠٠ هـ .
البكري ، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، (تح دي سلان) ، ١٩١١ م .
البلاذري ، أنساب الأشراف جـ ٤/ب ،.ط الجامعة العبرية .
البلغة ، انظر حسن صديق خان .
البلوي ، سيرة آل طولون (تح محمد كرد علي) .
البندري ، تاريخ دولة آل سلجوق ، القاهرة ١٩٠٠ م .
البيروني ، الجماهر في معرفة الجواهر (تح كرنكو) .
تبيين الحقائق ، انظر الزيلعي .

التراتيب الإدارية ، انظر الكتاني .

التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية (دراسات لكبار المستشرقين) ، القاهرة ١٩٤٠ م .

ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة (تح بوبير) ، ط دار الكتب المصرية .

التمرتاشي (محمد) ، منح الغفّار ، شرح تنوير الأبصار (مخطوطة الظاهرية ، الفقه الحنفي ١٢٦) .

التهانوي ، كشاف اصطلاحات الفنون ، كلكتا ١٨٦٢ م .

الجاحظ ، البيان والتبيين ، ط السندوبي .

الجاحظ ، الحيوان ، ط عبد السلام هارون .

الجامع الكبير ، انظر الشيباني .

الجبرتي ، عجائب الآثار ، القاهرة ١٣٢٢ هـ .

ابن الجزري ، غاية النهاية ، القاهرة ١٩٣٣ ـ ١٩٣٥ م .

الجلدكي ، نهاية الطلب (مخطوطة الظاهرية ، الكيمياء ١) .

جمال الدين المقدسي ، ثبت مسموعات (مخطوطة الظاهرية ، مجموع ٩/٩٢) .

جواد (مصطفى) ، قبر علي بن أحمد الزيدي (مجلة الناشئة الإسلامية / السنة الأولى) .

جواهر كلام الشيخ (مخطوطة الظاهرية) .

الجواهر المضيّة ، انظر القرشي .

ابن الجوزي ، أسماء الضعفاء والوضّاعين (مخطوطة الظاهرية ، الحديث ٣٦٣) .

ابن الجوزي ، مناقب بغداد (تح العطاري) ، بغداد ١٣٤٢ هـ .

ابن الجوزي ، المنتظم ، ط دائرة المعارف العثمانية ، مخطوطة أياصوفيا ٣٠٩٦ ، ٣٠٩٧ .

الحاشية ، انظر ابن عابدين .

حاشية الدرر ، انظر عبد الحليم .

حاشية شرح المنهاج ، انظر ابن حجر .

حاشية على شرح أحمد الدردير ، انظر الدسوقي .

ابن حبيب (حسن بن عمر ت ٧٧٩ هـ) ، درة الأسلاك في دولة الأتراك (مخطوطة المكتبة الوطنية ١٧١٩ م) .

ابن حبيب (حسن بن عمر ت ٧٧٩ هـ) ، كشف المروط (مخطوطة الظاهرية ، الأدب ٧٤) .
حتّي ، تاريخ العرب ، لندن ماكميلان ١٩٣٧ م .
ابن حجّة ، ثمرات الأوراق ، القاهرة ١٣٢٩ هـ .
ابن حجر ، تهذيب التهذيب ، حيدرآباد ١٣٢٥ هـ .
ابن حجر ، حاشية شرح المنهاج (مخطوطة الظاهرية ، الفقه الشافعي ٥٢) .
ابن حجر ، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة ، حيدرآباد ١٣٤٨ هـ .
ابن حجر ، لسان الميزان ، حيدرآباد ١٣٢٩ هـ .
ابن حجر الهيتمي ، الفتاوى الحديثية ، القاهرة ١٣٢٥ هـ .
ابن حجر الهيتمي ، الفتاوى الكبرى ، القاهرة ١٣٠٨ هـ .
ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة ، طبعة البابي .
الحريري ، المقامات ، ط ساسي ، باريس ١٩٤٧ م .
حسن إبراهيم حسن ، الفاطميون في مصر ، القاهرة ١٩٣٢ م .
حسن صديق خان ، أبجد العلوم ، طبعة حجرية .
حسن صديق خان ، البلغة في اللغة ، القسطنطينية ١٢٩٦ هـ .
الحسيني (أبو المحاسن) ، ذيل تذكرة الحفاظ (مع تعليق لزاهد الكوثري) ، دمشق مكتبة القدسي .
الحنبلي (منصور بن إدريس) ، كشف القناع عن متن الإقناع ، القاهرة ١٣١٩ هـ .
حنين بن إسحاق ، برجشتراسر ، ليبزغ ١٩٢٥ م .
ابن الخزرجي ، العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية ، (سلسلة كتاب الجيب) ، القاهرة ١٣٢٩ هـ .
الخصّاف ، أحكام الأوقاف ، القاهرة ١٣٢٢ هـ .
الخطط التوفيقية ، انظر علي باشا .
الخطط ، انظر المقريزي .
الخطيب (الخطيب البغدادي) ، تاريخ بغداد ، ط الخانجي .

الخطيب (الخطيب البغدادي) ، الجامع لأخلاق الراوي (مخطوطة الظاهرية ، مجموع ١٢/٥٥) .
الخطيب (محب الدين) ، الحديقة ، القاهرة ١٣٤٨ هـ .
ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ والخبر ، بولاق ١٢٨٤ هـ .
ابن خلدون ، المقدمة ، ط بولاق .
خلكان (ابن خلكان) ، وفيات الأعيان ، القاهرة ١٢٩٩ هـ .
ابن خليفة (أبو بكر بن خير) ، الفهرست Caesaraugustae ، ١٨٩٤ م .
خليفة (حاجي خليفة) ، كشف الظنون (تح فلوجل) .
الخوارزمي ، مفاتيح العلوم ، القاهرة ١٣٤٢ هـ .
ابن الخياط ، ديوان ، النجف ١٣٤٣ هـ .
الدارقطني ، جزء فيه الضعفاء والمتروكون ، (مخطوطة الظاهرية ، مجموع ١٢٤) .
الدارمي ، ردّ الدارمي على المريسي ، القاهرة ١١٥٥ هـ .
الدبيثي ، ذيل تاريخ مدينة السلام ، (مخطوطة المكتبة الوطنية ٥٩٢١) .
الدسوقي ، حاشية على شرح أحمد الدردير ، المطبعة القهستية ١٢٨٦ هـ .
ابن دقماق ، الانتصار لواسطة عقد الأمصار (تح موللر) ، القاهرة ١٣٠٩ هـ .
ابن أبي الدنيا ، كتاب الأولياء ، (مخطوطة الظاهرية ، عام ٤٥٧٠) .
ابن الدواليبي ، ثبت (مخطوطة الظاهرية ، حديث ٢٨٥) .
الذهبي ، تاريخ الإسلام (مخطوطة أيا صوفيا ٣٠١٦ ، ٤٠٠٩) ، جزء في تراجم المتوفين (مخطوطة المكتبة الأحمدية بحلب ١٢٢٠) .
الذهبي ، تذكرة الحفاظ ، حيدرآباد .
الذهبي ، دول الإسلام ، حيدرآباد ١٣٣٧ هـ .
الذهبي ، سيرة أحمد بن حنبل (تح محمد شاكر . نشره في أول مسند الإمام أحمد) .
الذهبي ، العبر في خبر من غبر (مخطوطة المكتبة الوطنية ١٥٨٤ م) .
الذهبي ، ميزان الاعتدال ، لكهنو ١٣٠١ هـ .
ابن رافع السلامي ، منتخب المختار (تح العزاوي) .
ابن رجب ، ذيل طبقات الحنابلة لأبي يعلى (مخطوطة الظاهرية ، التاريخ ٦١) .

ردّ الدارمي ، انظر الدارمي .
ردّ المحتار ، انظر ابن عابدين .
رسائل الحكمة الدرزية (مخطوطة الظاهرية ، عام ٢٠٣) .
رفيق العظم ، الكتابة والكتب ودورها (المقتبس ٣٩١/٥) .
الروضة (مخطوطة الظاهرية ، الفقه الشافعي ٢٨٨) .
روضة الجنات ، انظر باقر .
الزركلي ، الأعلام ، القاهرة ١٩٢٣ م .
زكي باشا (أحمد) ، الكتابة والكتب ودورها (المقتبس ٤٣٨٥/٥) VI t .
زيدان (جورجي) ، تاريخ التمدن الإسلامي ، القاهرة ١٩١١ م .
الزيلعي ، تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق ، القاهرة ١٣١٣ هـ .
ابن الساعي ، الجامع المختصر (تح مصطفى جواد) ، بغداد ١٩٣٤ م .
سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان (مخطوطة المكتبة الوطنية) ، ١٥٠٥ ، ١٥٠٦ ، ٥٨٦٦ .
مخطوطة كوبريلي ١١٥٧
فيض الله ١٥٢٤
و (الجزء الثامن ، تح جيمس ريشار) ، شيكاغو ١٩٠٧ م
السبكي ، طبقات الشافعية ، القاهرة ١٣٢٣ هـ .
السبكي ، الفتاوى الشافعية (مخطوطة الظاهرية ، الفقه الشافعي ٣٨٥) .
سجل المحكمة الشرعية بحلب (٢) ، نصوص مختلفة روجعت وذكرت بمكانها في الحواشي .
السخاوي ، الإعلام بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، دمشق ١٣٤٩ هـ .
السخاوي ، ترجمة النووي (مخطوطة المكتبة الظاهرية ، التاريخ ٧٣١) .
السراج الوهّاج ، (مخطوطة الظاهرية ، الفقه الحنفي ٨٩) .
السرخسي ، المبسوط ، القاهرة مطبعة السعادة .
ابن سعد ، الطبقات الكبير ، تح شان هورانتز .
أبو السعود ، فتح المعين على منلا مسكين ، مطبعة جمعية المعارف .
ابن سعيد ، إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد ، القاهرة ١٩٠٠ م .
سركيس ، معجم المطبوعات ، القاهرة ١٩٢٨ م .

سفرنامة ، تح شيفر .
السلاوي ، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، القاهرة ١٣١٢ هـ .
السمعاني ، كتاب الأنساب (مخطوطة المكتبة الوطنية ، ٥٨٥٢) .
ابن سنان الخفاجي ، ديوان (مخطوطة المكتبة الخديوية ، الأدب ٥١٠) ، بيروت ١٣٠٩ هـ .
السندوبي ، رسائل الجاحظ ، القاهرة ١٣٥٢ هـ .
السيوطي ، بغية الوعاة ، القاهرة ١٣٢٦ هـ .
السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، القاهرة ١٣٠٥ هـ .
السيوطي ، تزيين الممالك بمناقب مالك ، القاهرة ١٣٢٥ هـ .
ابن شاكر الكتبي ، عيون التواريخ (مخطوطة أحمد الثالث في استانبول ٢٩٢٢ بأجزاء عديدة . مخطوطة الفتح ٤٤٤٠ . مخطوطة الظاهرية ، تاريخ ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ . مخطوطة الأحمدية بحلب ١٢٢٨ هـ) .
ابن شاكر الكتبي ، فوات الوفيات ، القاهرة ١٢٩٩ هـ .
أبو شامة ، الذيل على الروضتين (مخطوطة المكتبة الوطنية ٥٨٥٢) .
أبو شامة ، الروضتين في أخبار الدولتين ، القاهرة ١٢٨٧ هـ .
الشاناق في السموم والترياق ، (مخطوطة الظاهرية ، الطب ٣٩) .
شرح التنوير على سقط الزند ، القاهرة ١٣٠٢ هـ .
شرح الروض ، (مخطوطة الظاهرية ، الفقه الشافعي ٢٩٥) .
شرح فتح القدير ، انظر ابن الهمام .
الشرح الكبير على متن المقنع ، انظر ابن قدامة .
شرح الوجيز ، (مخطوطة الظاهرية ، الفقه الشافعي ١٧٢) .
الشريف الرضي ، ديوان ، بيروت ١٣٠٧ هـ .
الشريف المرتضى ، الأمالي ، القاهرة ١٣٢٥ هـ .
الشيباني ، الجامع الكبير (مخطوطة الظاهرية ، الفقه الحنفي ١١٢) .
شيخ الربوة ، نخبة الدهر (تح مهران) .
ابن صاعد الأندلسي ، طبقات الأمم (تح بلاشير) .

الصفدي ، (مخطوطة الأحمدية بحلب ١٢١٦ هـ) .
الصفدي ، تحفة ذوي الألباب (مخطوطة المكتبة الوطنية ٥٨٢٧) .
الصفدي ، نكت الهميان .
الصفدي ، الوافي بالوفيات (مخطوطة المكتبة الأحمدية ٣ ، استانبول رقم ٩٢٠ في ٣٠ جزءاً ، المكتبة الوطنية ٢٠٦٩ ، ٢٠٦٥ ، الأحمدية بحلب ١٢١٦ هـ) .
ابن الصيرفي ، قانون ديوان الرسائل ، القاهرة ١٩٠٥ م .
طاشكوبري زاده ، مفتاح السعادة ، حيدرآباد ١٣٢٩ هـ .
الطباخ ، دور الكتب في حلب قديماً وحديثاً ، مجلة المجمع العلمي العربي ٢٩٩/١٥ .
الطبراني ، البداية والنهاية لابن كثير (عدة طبعات ، مخطوطة المكتبة الوطنية ١٥١٦ م) .
الطرابلسي ، الإسعاف في أحكام الأوقاف ، القاهرة ١٢٩٢ هـ .
الطرق الحكمية ، انظر ابن القيّم .
ابن الطقطقي ، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية (تح اهلوردت) ، ١٨٦٠ م .
ابن طلبغا (محمد) ، ثبت سماعات (مخطوطة الظاهرية ، مجموع ، ٩١) .
طه حسين ، تجديد ذكرى أبي العلاء ، القاهرة ١٩٣٧ م .
الطوسي ، الفهرست ، النجف ١٩٣٧ م .
ابن طولون ، القلائد الجوهرية (مصورة مجمع اللغة العربية بدمشق) .
ابن طولون ، نقد الطالب لزغل المناصب (مصورة مجمع اللغة العربية بدمشق) .
ابن ظافر الأسدي (علي) ، بدائع البدائه ، القاهرة ١٢٧٨ هـ .
ابن عابدين ، الحاشية ، أو ، ردّ المحتار على الدر المختار ، ط ٣ القاهرة ١٣٢٤ هـ .
عابدين (محمد أمين) ، العقود الدرية في تنقيح الفتاوى الحامدية ، القاهرة ١٣٠٠ هـ .
عابدين (محمد أمين) ، منحة الخالق على البحر الرائق ، ط ١ المطبعة العلمية .
العباسي ، معاهد التنصيص ، القاهرة ١٣١٦ هـ .
ابن عبد البر ، الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، حيدرآباد ١٣١٨ هـ .
ابن عبد البر ، جامع بيان العلم ، المطبعة المنيرية .
ابن عبد البر ، القصد والأمم ، ط حسام الدين القدسي .

عبد الحليم ، حاشية الدرر .
ابن عبد ربه ، العقد الفريد (تح أحمد أمين ، الزين ، الأبياري) .
عبد الله أسعد ، عدة أرباب الفتوى (فتاوى شيخ الإسلام أبو السعود محمد بن علي الشرواني مفتي المدينة المنورة ، جمعها عبد الله أسعد) ، القاهرة دار الطباعة العامرة .
ابن عبد الهادي (يوسف) ، فهرست الكتب (مخطوطة الظاهرية ، الأدب ١٩) .
ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، بيروت ١٨٩٠ م .
العتّابي (أبو محمود بن أحمد) ، البناية في شرح الهداية ، لكهنو ١٢٩٣ هـ .
عدة أرباب الفتوى ، انظر عبد الله أسعد .
ابن العديم ، الإنصاف والتحري من أعلام النبلاء (للطباخ جـ ٤) .
ابن العديم ، تاريخ حلب (مخطوطة مكتبة أحمد الثالث ، رقم ٩٢٥) أجزاء متعددة .
ابن العديم ، زبدة الحلب (مخطوطة المكتبة الوطنية ١٦٦٦) .
العزاوي (عباس) ، تاريخ العراق بين الاحتلالين ، ١٩٣٩ م .
ابن عساكر ، تبيين كذب المفتري ، دمشق ١٣٤٧ هـ .
ابن عساكر (عبد القادر بدران ـ أحمد عبيد) ، تهذيب تاريخ مدينة دمشق (٧ أجزاء ، ومخطوطة الظاهرية ، التاريخ ١/١٨) .
العسكري ، الأوائل (مخطوطة مكتبة حكيم الله ٦٨٩) .
عقد الجمان ، انظر العيني .
العقود الدرية ، انظر ابن عابدين .
ابن عقيل ، كتاب الفنون (مخطوطة المكتبة الوطنية ٧٨٧) .
العلموي ، المعيد في آداب المفيد والمستفيد ، ط أحمد عبيد دمشق .
علي باشا مبارك ، الخطط التوفيقية ، القاهرة .
أبو علي ، الرجال ، طبعة حجرية .
عليش (محمد) ، فتاوى .
العليمي ، المنهج الأحمد (مصورة مجمع اللغة العربية بدمشق) .
ابن العماد ، شذرات الذهب ، القاهرة ١٣٥٠ هـ .
عماد الدين الأصفهاني ، الفتح القسي في الفتح القدسي (تح كارلو) ، لايبزغ ١٨٨٨ م .

عمدة المحتاج ، انظر ابن الملقن .
عمر حلمي ، إتحاف الأخلاف في أحكام الأوقاف ، حلب ١٣٢٧ هـ .
العمري ، مسالك الأبصار (تح أحمد زكي ، الجزء الأول) .
العمري ، مسالك الأبصار (مخطوطة أياصوفيا ٣٤٢٢) .
عنان (عبد الله) ، تاريخ الجامع الأزهر ، مطبعة لجنة التأليف .
عنان (عبد الله) ، الحاكم ، القاهرة دار النشر الحديث .
العناية شرح الهداية ، انظر أكمل الدين .
ابن عنبسة ، عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب (مخطوطة المكتبة الوطنية ٢٠٢١) .
العيني ، دولة بني العباس (مخطوطة المكتبة الوطنية ٥٧٦١) .
العيني ، عقد الجمان (مخطوطة مكتبة ولي الدين ١٥٤٤ ، ٢٣٨٧ ، ٢٣٨٨) .
عيون ، انظر ابن شاكر الكتبي .
الغزالي ، فاتحة العلوم ، القاهرة ١٣٢٢ هـ .
الفارابي ، إحصاء العلوم ، ط أمين عثمان .
الفتاوى الأسعدية ، انظر أسعد المدني .
الفتاوى البديعية المسمى بالظاهرية ، (مخطوطة الظاهرية ، الفقه الحنفي ٣١٣) .
الفتاوى الحديثية ، انظر ابن حجر الهيتمي .
فتاوى عليش ، انظر عليش .
فتح المعين ، انظر أبو السعود .
أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، ط ريسك وادلر .
ابن الفرات ، تاريخ الدول والملوك (مخطوطة المكتبة الوطنية في ڤيينا ١٠F١١٧) .
ابن الفراتي ، الحوادث الجامعة ، بغداد ١٣٥١ هـ .
ابن فرحون ، الديباج المذهب في أعيان المذهب (أعيان المالكية) ، القاهرة ١٣٢٩ ـ ١٣٣٠ هـ .
ابن فهد الهاشمي ، لحظ الألحاظ (ذيل تذكرة الحافظ الذهبي) ، دمشق ١٣٤٧ هـ .
الفهرست ، انظر ابن النديم .
فهرس المكتبة الأحمدية ، (مخطوطة المكتبة الأحمدية بحلب ١٤٧١) .

ابن الفُوَطي ، تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب (مخطوطة الظاهرية ٢٠٧) .
الفيروزآبادي ، القاموس المحيط (طبعات مختلفة) .
الفيروزآبادي (إبراهيم بن علي) ، المهذب (مخطوطة الظاهرية ، الفقه الشافعي ٢٤٦) .
ابن قاضي شهبة ، طبقات النحاة (مخطوطة الظاهرية ، التاريخ ٤٢٨) .
ابن قاضي شهبة ، مناقب الشافعي وطبقات أصحابه (من تاريخ الذهبي) ، (مخطوطة الظاهرية ، تاريخ ٥٧) .
قانون العدل ، انظر قدري باشا .
ابن قدامة ، الشرح الكبير على متن المقنع ، القاهرة ١٣٤٧ هـ .
ابن قدامة ، المغني ، القاهرة ١٣٤٧ هـ .
قدري باشا ، قانون العدل والإنصاف ، القاهرة ١٣٢٧ هـ ، ط ٤ .
القرشي (ابن أبي الوفاء) ، الجواهر المضيّة في طبقات الحنفية ، حيدرآباد ١٣٣٢ هـ .
قطب الدين المكي ، الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ، ليبزغ ١٨٥٧ م .
ابن القفطي ، تاريخ الحكماء (تح موللر) ، ليبزغ ١٨٧٥ م .
ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ١٩٠٨ م .
القلقشندي ، صبح الأعشى ، القاهرة دار الكتب المصرية .
القلقشندي ، نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب (مخطوطة الظاهرية ، عام ١٧) .
ابن قيم الجوزية ، الطرق الحكمية في السياسة الشرعية ، القاهرة ١٣١٧ هـ .
الكاساني ، بدائع الصنائع ، القاهرة ١٣٢٨ هـ .
كتاب الوقف ، (مخطوطة مكتبة ولي الدين ، مجموعة ١٥٥١) .
الكتاني ، التراتيب الإدارية ، الرباط ١٣٤٦ هـ .
الكتاني ، فهرس الفهارس ، فاس ، ١٣٤٦ هـ .
ابن كثير ، البداية والنهاية (مخطوطة مكتبة فيض الله ١٣٩٨ ، ١٣٩٥ هـ . مخطوطة المكتبة الأحمدية بحلب ١٢١٧ . مخطوطة مكتبة ولي الدين ٢٣٥٠) ، ط مطبعة السعادة وانظر أيضاً الطبراني .
الكراجكي ، كنز الفوائد ، طبعة حجرية .
كرد علي (محمد) ، خطط الشام ، دمشق .

كرد علي (محمد) ، غلاوة الكتب (في مجلة المقتبس جـ ٥٦٩/٢) .
كشف القناع ، انظر الحنبلي .
كشف المروط ، انظر ابن حبيب .
ابن كنان ، المروج السندسية (مصورة المجمع العلمي العربي) .
الكندي ، الولاة والقضاة ، ليدن ١٩١٢ م .
لامنس (هنري) ، دور العلم وبيوت الحكمة (في مجلة المشرق ٢ ، ١٢٩/٣ سنة ١٩٣٨ م) .
لامنس (هنري) ، الصليبيون ومكتبة طرابلس الشام ، المشرق ١٩٢٢ م .
ابن ماسويه ، كتاب الأزمنة (تح الأب بول سباث) ، القاهرة ١٩٣٣ م .
المامقاني (عبد الله) ، تنقيح المقال في أحوال الرجال ، طبعة حجرية .
المبسوط ، انظر السرخسي .
مجلة الأحكام الشرعية ، بيروت ١٩٠٤ م .
مجموع رسائل الجاحظ (تح كراوس) ، القاهرة ١٩٤٣ م .
المجموع اللطيف ، (مخطوطة المكتبة الوطنية ٣٣٨٨) .
مجير الدين ، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، القاهرة ١٢٨٣ هـ .
المدني (أسعد) ، الفتاوى الأسعدية .
مرآة الزمان ، انظر سبط ابن الجوزي .
مرجوليوث ، رسائل أبي العلاء ، أكسفورد ١٨٩٨ م .
مروج الذهب ، انظر المسعودي .
المسعودي ، مروج الذهب .
مسكويه ، كتاب التاريخ ، سلسلة كتاب الجيب .
معالم العلماء .
معجم المصنفين ، حيدرآباد .
المعري ، رسائل أبي العلاء (تح مرجوليوث) ، اكسفورد ١٨٩٨ م .
المعري ، رسالة الغفران ، القاهرة ١٣٢١ هـ .
المعلوف (عيسى إسكندر) ، مكاتب دمشق ، (مجلة المجمع العلمي العربي ١٤٣/٣) .
المغني ، انظر ابن قدامة .

المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ٣ أجزاء ، المكتبة الجغرافية العربية .
المقري ، نفح الطيب ، القاهرة ١٣٠٢ هـ .
المقريزي ، الخطط ، بولاق ١٢٧٠ هـ .
المقريزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك (تح مصطفى زيادة) .
المقريزي ، كتاب الخبر عن البشر (مخطوطة أياصوفيا ٣٣٦٥) .
ابن الملقن ، عمدة المحتاج إلى شرح المنهاج (مخطوطة الظاهرية ، الفقه الشافعي ٩٣) .
المنتخب من كتاب ذيل المذيّل من تاريخ الصحابة والتابعين للطبري ، (ملحق بتاريخ الطبري) .
منحة الخالق ، انظر عابدين .
منح الغفار ، انظر التمرتاشي .
ابن منظور ، لسان العرب ، بولاق ١٣٠٠ ـ ١٣٠٧ هـ .
المهذب ، انظر الفيروزآبادي .
مهيار الديلمي ، ديوان ، ط دار الكتب المصرية ـ القاهرة .
موقف العقول في وقف المنقول ، (مخطوطة الظاهرية ، الفقه الحنفي ، ١٢٠) .
ميرزا (محمد) ، الرجال .
ابن ميسّر ، أخبار مصر (تح : هـ ، ماسّه) ، القاهرة ١٩١٩ م .
الميني الراجكوتي ، أبو العلاء وما إليه .
ابن نباتة ، سرح العيون ، القاهرة ١٣٢١ هـ .
ابن النجّار ، ذيل تاريخ بغداد (مخطوطة الظاهرية ، التاريخ ٤٢ . مخطوطة المكتبة الوطنية ٢١٣١) .
ابن النديم ، انظر الفهرست .
ابن نجيم ، البحر الرائق شرح كنز الدقائق ، القاهرة المطبعة العلمية .
النعيمي ، الدارس في أخبار المدارس (مخطوطة مجمع اللغة العربية بدمشق ومخطوطة ميونخ) .
ابن الهمام ، شرح فتح القدير ، القاهرة المطبعة الميمنية ، النهاية ، انظر الإمام .
الوافي ، انظر الصفدي .

ابن الوردي ، تاريخ ابن الوردي (تتمة المختصر في أخبار البشر) ، القاهرة ١٢٨٥ هـ .
اليافعي ، تاريخ اليافعي (مرآة الجنان وعبرة اليقظان) ، (مخطوطة المكتبة الوطنية ، القسم العربي ، ١٥٤٣) .
ياقوت ، إرشاد الأريب (تح مرجوليوث) .
ياقوت ، معجم البلدان .
يحيى بن سعيد ، تاريخ ، بيروت ١٩٠٩ م .
اليونيني ، ذيل مرآة الزمان (مخطوطة المكتبة الأحمدية بحلب ١٢١٣) .

المراجع الأجنبية

Les axiomes médicaux, publié par Paul Sbath. le Caire, 1934

Van Berchem, Matériaux pour un corpus inscriptionne Mémoires de l'In stitut Français d'Archéologie orientale t 25 et SS

Blochet, E, les enluminurat dae manuscrits orientaux Buhl, art. Jéru salem, in Enc. IsL. II, 1158-1169

Cabrol, Dictionnaire d'Art et d'Archéologie, Paris 1910

Carra de Vaux, Dã, Ĩ, in Enc. IsL. I, 918

Cotta, le régime du wayf en Egypte.

Goldziher, art-Figh, in Enc. IsL, II, 106

Graeffe, art, Al-Hãkim. in Enc. IsL. II, 238-239

Hammer-Purgstall, Additions au mémoire de M. Quatremère tor le goût des livres chez les orientaux. in Journal Asiatique 4 serie XI 1848 P. . 178-198

Heffening, art. Kitãbkhãna, in Enc. IsL.

Kraus (Paul), Gãbir b. Hayyãn, Vol. I, textes choisis édités par Paul Kraus, Paris 1935

Krenkow, art. Kitabkhãna, in Enc, IsL.

Leclerc, Histoire de la Médecine Arabe.

Le Strange, Bagdad during the Abbasid califate Oxford 1900

Macdonald, art, 'ILm, in Enc. IsL., II 498

Mackenson (Ruth), Arabic books and libraries in the Omayyad period. in the American Journal of semitic languages and Literature Chicago, Vol. LII, 245-253, Vol LIII, 239-249, Vol LIV, 41-60

Mackenson (Rnth), Backgronnd of the History of Moslem Libraries, in the American Journal of Semitic Languages and Literatures, vol LI, 83, SS et, 114, SS, LII, 22, SS, et 104, SS.

Mackenson (Ruth), Four Great Librairies of Medieval Bagdad, in The Li brairy Quarterly, Chicago, vol II 1932, P.279, SS.

Mercier (Marcel), Etude sur le wagf abadite et ses applications au Mzab, Alger 1927.

Mez, Die Renaissance des Islams, Heidelberg 1922.
Michaud (M), Bibliothéques des Croisades, Paris 1829.
Michaud (M), Histoire des Croisades, Paris 1825.
Michel le grand, Chronique traduite, traduite par victor Langlois, Venise 1808.
Mingana, Catalogue of Arabic, Manuscripte, in The John Rylands Library, Manchester 1934.
Nallino, 'Ilm al,falak. Rome 1911.
Pedersen (John), art, Masdjid, in Enc, Isl, III, 403, SS.
Pinto (Olga), Le Biblioteche Degli Arabi Di, L.Olschki, vol XXX.
Quatermère, Mémoires géographiques et historiques sur l'Eygpte, Paris 1811.
Quatermère, Mémoires sur le goût des livres chez orientaux, in Journal Asiatique. t VI 1830, juillet-décembre P.35-78.
Recueil des historiens des Croisades.
Reinaud, Introduction à la géographie d'Aboul-Feda, Paris 1848.
Ruska (J), Arab Alchemisten, Hälid b. Yazid, Heidelberger Akten des von portheim Arbeiten aux dem Institut für gesch d. Naturwissens chaft, 1.1924.
De Sacy, Relation de l'Egypte.
Saeweref, Recueil des voyages et mémoires, publiés par la société de géographie, IV 1939.
Sauvaire, Description de Damas, Paris 1894-1895

فهرس الموضوعات

القسم الثاني : الوصف

(٢٩٥ ـ ٤١٢)

